

يوم مشهود

أيمن العتوم

مكتبة ٥٣٣

رواية

أسامة



يَوْمٌ مَشْهُود



الطبعة الأولى
1440هـ - 2019م

رقم الإيداع: 2019/14043
الترقيم الدولي: I.S.B.N
978-977-764-149-9

دار المعرفة للنشر والتوزيع

خلف جامع الأزهر - بجوار مسجد عليش

ت: 01008584820 -01111322668 01141212805
Email.elmarefa@hotmail.com

أيمن العتوم

يَوْمٌ مَشْهُود

مكتبة | 533

دار المعرفة

(٥)

مِن رَحِمِ السلاحِ وُلِدت

قبّلَ الحجر الأسود، بكى، لم يدرِ لماذا يبكي في هذه اللّحظة النّورانيّة بالذّات. دفن وجهه مرّة أخرى في الحجر، تناهَى إلى سمْعه لَغَطُ الّذين تزاحموا من خلفه، ضَرَبه أحدُهم على رأسه، فنزّ خيطٌ رفيعٌ من الدّم على جبهته. مسح الدّم، ولعقه، قال بهمسٍ مجروح: «كم يُشبه الدّم الدّم». تراجَعَ إلى الخلف، بكى من جديد ومضى.

جلسَ في الصّحراء وحيدًا. كل ما حوله رِمال. الرّمال بحر. لم يُسمَع في المدى أيّ هسيس. أمواج الرّمل لم يطأها بشريٌّ قبله. لا أثرَ لأحد. رائحة السّمك النّتنة على الدّكّة تزكم أنفه. نادَى: «سَمَك... سَمَك...». لم يشترِ منه أحدٌ. ضاع صوتُه. قلَبَ الدّكّة. ودفنَ ما عليها في الرّمل. وعاد. عادَ إلى لا شيء.

في الماضي، الماضي المجيد؛ كان يسير حوله خلقٌ كثيرون، لكنّه اليوم لا يرى منهم أحدًا، أين رحلوا؟ هل ابتعلتْهم القبور؟ هل مضوا في طُرُقٍ مجهولة؟ هل لاذُوا بالصّمت؟ هل ألقوا عن كواهلهم السّلاح؟ هل ماتوا؟ التّخلّي عن السّلاح موت؛ موتٌ من نوعٍ آخَر؛ ربّما أشدّ من الموت نفسه! تفحّص الوجوه الشّمعيّة الّتي تُحيطُ به، إنّه مختلف؛ المختلف غريب، الغريب وحيد، الوحدة تقتله من جديد، حينَ لا يكونَ لك عدوّ فإنّ وحدتك هي عدوّك.

البيوت أرواح ساكنيها الرّاحلين. حِجارتها آهاتُهم. حُجُراتُها ذِكرياتهم، وأبوابُها حنينُهم. لم يعدْ من بابٍ يقول الحنين كما كان يقوله في السّابق. دفعَ باب بيته العتيق. انثال ضوء الشّمس في الزّوايا. صرّ الباب في السّكون كأنّه صوتُ بشريٍّ ينوح. أغلقه خلفه، فأعتمَ كلّ شيءٍ، ألقى بنفسه في بئر الظّلام، وغاب عن الوجود.

جَدُّه قال له: «الحياة مهزلة». لم يدرِ ما كُنه هذه المهزلة إلاّ بعد نصفِ قرن. وجدّه قال له أيضًا: «لكي تتقدّم خُطوتَين عليك أنْ تتراجع خُطوة». لم يدر أي الخطوات في حياته هي الّتي تقدّمها، وأيّها هي الّتي تراجعَها. قال لجدّه: «أريدُ أنْ أكون؛ فكيف؟». ردّ عليه وهو يُشير إلى رُقعةٍ مليئةٍ بالخُطوط والرّسومات: «وطنك». هتف: «أنا وطني». لفّ خارطة الوطن الصّغيرة، وضعها تحت إبطه، ومضى إلى الوادي. جلس على صخرة في قاعه. لم يسمع هناك غير أصوات العقبان والرّخم. مزّق الخريطة إلى أربع مِزَق، ثُمّ أشعل فيها النّار ومضى.

يوم وُلِدَ زغردتْ نِساء الحيّ، وضحكت السّماء، ولمعت النّجوم، ولكنّه بكى. إنّه يبكي كثيرًا. لِمَ تكون الحياة متصالحةً مع الموت إلى هذا الحَدّ؟! نعقَ غراب على شجرةٍ في الحيّ ذاته، وغنّى بلبلٌ على شجرةٍ أخرى. كان خيطُ الدّم رفيعًا. لفّوه بقماطٍ أبيض، كم يُشبه كفنَه الأبيض الّذي ارتداه يومَ غادر إلى دارٍ أخرى، بين الأبيضَين غرقَ في السّواد حتّى ظنّ أنّه لم يُخلَق من الأصل!!

ركبَ على ظهر نَسْر، حلّق به إلى الأعالي. بدتْ أسرابُ نملٍ كثيرةٍ تمشي على رجلَيها وهي تفرّ مذعورة في كلّ اتّجاه. قال له النّسر: «خُلِقتُ للتّحليق». ردّ عليه: «وأنا كذلك». «أنا لا أموت إلاّ في القمم». «وأنا

كذلك». «أنا لا أُهزَم». «وأنا لا أُهزَم». وردّدت الجبال صدى العبارة الأخيرة حتّى أينعتْ قممُها الجرداء!

أين يعيشُ الموتى؟ في القبور. كلاّ، العِظامُ تعيشُ في القبور. في السّماء. كلاّ، الأرواح تعيشُ في السماء. يتدلَّون من تحت أغصان الأشجار. كلاّ، قطرات النّدى هي الّتي تتدلّى. يذوبون في الهواء. كلاّ، السّحاب يذوب هناك. فأين؟ في الكتب. الخالِدون يستوطنون الكتب؛ الكتب الّتي لا تموت، أرأيتَ إلى هذا الكون الفسيح؛ كلّه في كتاب!!

القِسمة لا تقبل الجدل؛ هكذا قسم الخالق الحُظوظ؛ الجحيم خُلِق للجبناء. اللّذّة للمجانين. الدُّنيا للملوك. الموتُ للبشر. الحِكمة للفلاسفة. النّصر للمتمرّدين. والهزيمة للمتردّدين، والنّهايات لمن يملك البدايات.

فكّرَ: «ماذا لو لم يكنْ هناك موت»، كم سيعيش الإنسان؟ ألفَ سنة؟ رقمٌ يبدو ضيئلاً أمام الأبديّة. لماذا هذا التّوّاق إلى الخلود يسأم الحياة بعدَ الثّمانين؟ ماذا لو لم يكنْ رجلَ سِلاح؟ ماذا لو اختفت الأسلحة بأشكالها كافّةً من الوجود، وعاش النّاس في سلامٍ تامّ؟ هل سيكون هناك مُنتصرٌ ومُنهزم؟ ماذا لو لم تُركّب شهوة القتل في الإنسان؟ مَنْ سيقتُلُ مَنْ؟ ومَنْ سيُخلِي مكانه فوق الأرض لصالح الأحياء الجُدد؟ وإذا اكتظّت القبور بالجُثث؛ هل يقوم الموتى المُغرِقون في القِدَم من قبورهم من أجل أنْ يُخلوها لصالح الموتى الجُدد؟ هل كان القتل ضرورةً للعيش؟ هل كان الموت ضرورةً حتميّةً لاستمرار الحياة؟!

ثَقُلَ رأسُه، رأسه مليء بكتلة من الهموم والأفكار كافية لكي تجعل

مياه المحيطات كلّها سوداء، مالَ رأسُه لكثرة ما فيه، أحسّ بأنّه يريدُ أنْ يُسنِده على كتف، أيّ كتفٍ ولو كان جدارًا مُهدّمًا، أو فوهة مِدفع صَدِئ، أو شجرةً عجوزًا، أو امرأةً حُلُمًا؛ المُتعَبون يبحثون عن أكتافٍ يُسنِدون عليها رؤوسهم ولو كانتْ من خشب، نظر تحته إلى الخيط الفاصل بين عالَم الأموات والأحياء، رأى شقًّا عميق الغور مُظلِمًا، ليته يرتاح، لكنّه لا يستطيع، لقد أيقنَ أنّه لا يُوجَد مكانٌ واحدٌ في العالَم يُمكن أنْ يُريح فيه رأسَه!

تناول قِرطاسًا وقَلَمًا، أرادَ أنْ يكتبَ حياته، أنْ يقول ما لم يَقُلْه من قبل، كثيرٌ من الكلمات تُؤلمه إنْ ظلّت محبوسة، كثيرٌ من المشاعر تخنقه إنْ ظلّتْ دفينة، خطّ الكلمة الأولى: «أنا...». توقّف، استعادَ الماضي، نبشَه كما لو كان كومةً من رماد، بحثَ في عقله عن نفسِه، عن روحه الهاربة منه، عن ذاته الّتي ذابتْ في منعرجات الحياة الطّويلة، عن كلّ التّعريفات الّتي يُمكن أنْ يُقدّم بها نفسهَ إلى النّاس، لم يستطع أنْ يجدَ تعريفًا واحِدًا يُمكن أنْ يخبر عن هذا الضّمير الّذي يقف كعودٍ يابسٍ في وادٍ غير ذي زرعٍ وقد مرّتْ عليه أكثر من سبعة عقود: «أنا...». حاول مرّة ثانية، لكنّه ظلّ واقِفًا عند هذه الكلمة الأولى، شعر بالعجز، مسَحها، قال وهو يضع القلم على القرطاس ويُطلق تنهيدةً عتيقة: «نحن نكتبُ لكي لا نموت». أجّل الموت أيّها الفتى بما تكتب، كلّ شيءٍ بالكتابة قابلٌ للتأجيل؛ الوداع، والبكاء، والرّحيل، و... والموت!!

صرخَ طفلٌ خرج للتّوّ من رَحِم أمّه، سمعَ صوتَه من الحُجُرات البعيدة في البيوت المتناثرة، إلى متى ستظلّ أرحام الأمّهات تقذف بالأطفال؟ لقد خرجَ هو الآخَر من رَحِم أمّه؟ هل الحياة مراحل

لأمّهاتٍ وَلودات وأُمّاتٍ كثيرات؟ كم رَحِمٍ سيخرج منها قبل أنْ يُدرك فظاعة الأشياء. الأمّ رَحِمُ الصّرخة الأولى. السّلاح رَحِم الرّجولة الأولى. الكهولة رَحِم الطّفولة. الموت رحم الحياة الفانية. والقبور رحم الحياة الخالدة. كلّنا وُلِدْنا من أرحامٍ مُتعدّدة، كلّنا مُتشابِهون؛ وحده رَحِم السّلاح هو الّذي ميّزه عن الآخَرين!

***

(1)
سادِنُ الصّحراء

أنّتِ الرّيحُ أنينًا خافِتًا، عَلا صوتُها، نقلتْه الخيام الشّريدة في اللّيل المدلهمّ، إنّه صفيرٌ حزينٌ مُتابع؛ حَنونٌ لكنّه شجيّ، وخافتٌ لكنّه عميق! ناحتْ، كأنّها فقدتْ أولادَها العشرة في لحظةٍ واحدةٍ!! تقطّع صوتُها، كما لو كانتْ قد تعبتْ، أو لم تعدْ تجد في الصّوتِ فائدة، هدأت؛ إنّ لها رِئةً عملاقةً تستمرّ في الأنين دون انقِطاع، تحشرجَ صوتُها، الصّحراء تبكي يا جدّي... الصّحراء فراغٌ بعدَ الفراغ، لكنّها تبكي يا جدّي، فلأيّ شيءٍ كُلّ هذا؟ وها هو أفقها الرّحب يتّسع لكلّ عذابات النّاس مُذ كوَّر الله الأرض؟ فعلامَ تنوح؟ تبكي الرّاحلين يا بُنيّ، وتنوحُ على ما سيأتي؟ هل للصّحراء روح؟! إنّني أكادُ أحسّها تنسرب فِيّ يا جدّي، تسيل في عروقي، تنساب في شراييني. هل للصّحراء قلب؟ إنّني أسمعُ حشرجاتها، أسمعُ تأوّهاتها، إنّها تبكي من جديدٍ يا جدّي. قال جدّي: «لا تخف يا بُنيّ، نحن أبناء الصّحراء، وليسَ في أبنائها جبانٌ واحدٌ».

هل أنا أحلم يا جدّي، أرى حريقًا كبيرًا يبتلع كلّ شيءٍ، إنّها نارٌ ضخمةٌ تأكل في طريقها البيوت والنّاس والشّجر والتّراب، ولها عينا جِنّية ملتهبتان، وتخور كثور هائج، وتُرغي كجمل أورق، وهي تطلق السّباب والشّتائم، وتتوعّد بأنّها لن تُبقي على شيءٍ، إنّها الجحيم نفسه...

إنّها تسير بين المضارب فتلتفّ كأنّها زوبعة فتُحوّل بيوت الشَّعر والطّين إلى رمادٍ في دورةٍ أو دورتَين، إنّها تقترب، وأنا خائفٌ يا جدّي، «لا تخفْ». «خائفٌ من أنْ تحلّ قريبًا من دارنا». «لا تخف». ها هي تكنسُ كلّ ما تعثر به، ها هي تدخل مضاربنا، أين الفزعة يا جدّي؟ أين أبناء العشيرة لكي يوقفوا النّار، لم يحرّك أحدٌ منهم ساكِنًا، لا بُدّ أنّني أحلم يا جدّي، لكنّ النّار أصبحتْ قاب قوسَين أو أدنى من مضاربنا، من بيوتنا، أراها رأي العين، أكلتْ دار عميّ، ودار نايف، ودار عناد، ودار... وها هي تدخل دارنا، لهبُها شديد، وحرارتها تذيب الحجر... جدّي... ثُمّ...

أفقتُ من النّوم فَزِعًا، كنتُ أرتجف من البرد والخوف معًا، تلمّستُ طرف السّرير، نظرتُ حولي، كان الظّلام يجعل الموجودات كأنّما هي خيالاتٌ وظِلال، وقفتُ، مشيتُ إلى زاوية الخِباء، مددتُ يدي إلى القِربة، وكرعتُ ما فيها من ماءٍ دُفعةً واحدةً، قرقر الماء وهو يهوي إلى حلقي المُتيبّس، كنتُ ألهثُ وصوتُ جدّي عالقٌ في أذنَيّ، كانت الرّيح في المَهمَه المُترامي لا تزال تنشج، كأنّ النّهايات قادمةٌ من الفِجاج المجهولة، غريبةً، ثكلى، مُريبة، وغيرَ مُتوقّعَة. رفعتُ طرفَ الخِباء، ونظرت: «لا نار؛ والظّلام سيّد كلّ شيء». انكشفَ لي المشهدُ عن اللانهايات، أفقٌ بلا أفق، لم أدرِ السّاعة من اللّيل، غير أنّ الفجر بدا بعيدًا وسطَ هذا الظّلام الكثيف. كلّ شيءٍ ساج، الكلاب نائمة في الأخبية، البُعران جاثمة، والخيول هامدة، لم يُمَسّ أيٌّ منها بأذى. بيوت الشّعر المُتناثرة تُشبه قدرًا ينبتُ على غير هُدى، وضوء القمر ينوسُ على البيوت، فتُلقي تلك البيوت ظِلالها على الرّمال الوادعة، كان صوتُ

الرّيح قد خَفَت، وبدا أنّه تحوّل من النّشيج إلى النّشيد، سمعتُها يا جدّي، سمعتُها تغنّي، هل للرّيح في الصّحراء هذه القدرة معًا على الغناء والبكاء في الآنِ نفسِه؟

خرجتُ من البيتِ، نِداءٌ ما غامضٌ أخرجني، إنّه أنت!! لم يكنْ يُواري جسدي الضّئيل سِوى قميصٍ فضفاض، كلّما عبثتْ به الرّيح كشفَ عن عظامي النّحيلة، سرتُ في الطّرقات الرّمليّة الّتي عبّدَتْها الجِمال، كان صوتُ الرّيح يدخل في أذنَيّ: «العَطَشُ سيقتُلك». ابتسمتُ، لقد شربتُ قبل قليلٍ ما يكفي من الماء. صوتُ جدّي هبطَ كالطّائر الوَدود على كتفَيّ: «اتبعني». فهتفتُ: «لبّيك». حانتْ منّي التِفاتةٌ إلى كتفَي، إنّ عظمهما يبرز كالنتوءات في حوافّ الصّخور. تجاوزتُ عددًا من الجِمال الآمنة في مناخِها، فكّرتُ: «الجِمال صورة الصّحراء؛ صامتة، وصبورة، وأنا مثلها، لكنْ لديّ ما يُميّزني؛ الجِمال لا تنسى، وأنا سريعُ النّسيان».

إنّ سِرّ الصّحراء يسري في دمي، وشغفُ الهُيام بها تحوّل وسواسًا منذ ذلك اليوم الّذي سقطَ فيه رأسي على رِمالها اللّدنة، إنّ الصّحراء ساحرة، لا يعرفُ سِحرها إلاّ مَنْ أَذِنَ لها أن تنتزعَ قطعةً من فؤادِه، وعلى قدرِ ما تهب على قدر ما تأخذ، فإنْ وهبتَها قِطعةً صغيرةً من ذلك الفؤاد أعطتْكَ بقدرها، ولكنّ الصّحراء تعرفُ أنّني وهبتُها كُلّي، لا فؤادي فحسب، ولا روحي فقط، بل كلّ ما فيّ مِمّا يُمكن أنْ يكون قربانًا لسحر الصّحراء الغامض والقاتل معًا. للصّحراء لذّتها وألَمُها، للصّحراء خوفُها وأمنُها، وللصّحراء خفاؤها وتجلّيها، ولها كما لكلّ غانيةٍ مُشتهاة؛ رضاها وغضبها.

الحويطات في الخيام، ألقى عليهم النّوم سِنَتَه فغرقوا فيه، والضّيوف كذلك، خرجتُ من بينهم. مشيتُ باتّجاه القمر، كان صوتٌ ما لعلّه صوتُ جدّي يأتي من هناك، القمر الّذي بدا عُرجونًا قديمًا يوشك أنْ يغطس في الظلمة، السّماء صافية، لا يُوجَد بها مُزعةٌ من ضبابٍ أو غمام، والنّجوم تتلألأ، إنّه ليلٌ مثاليّ للسّير فيه. أحسستُ بأنّ هذا النّداء الّذي يدعوني طاغٍ، لا يُمكن أنْ أُفلتَ من سطوته، تبعتُ الصّوت، ظلّتِ الرّيح في ليلةٍ باردةٍ كهذه، تقول لي: «العَطَشُ سيقتُلك». ضحكتُ من جديد، نفضتُ رأسي لأبعدَ عنه وساوِسها، الرّيح تريدُ أنْ تُعيدني إلى البدايات، لقد انطلقت، ولا يُمكن لشيءٍ أنْ يوقفني.

عبرتُ المسافة الأولى الّتي تدور داخل المضارب، تجاوزتها كمأخوذ بنداءٍ خفيّ، صارتِ الخيام والبيوت خلفي، الجبال أمامي، الجبال أسنمة تتهادَى في البعيد، مضيتُ إلى حيثُ الصّوت الغامض: «اتبعني». «لبّيك».

مشيتُ اللّيل كُلّه، كنتُ قد قطعتُ مسافاتٍ لا تنتهي باتّجاه الجبال البعيدة، بدأتْ خُيوط الفجر بالالتِماع، وعلى السُّدُف في الأفق بدا اللّون اللازوردي يملأ البعيد، وغبش الظّلام يزول تدريجيًا، والسّماء تتخلّى عن السّواد لصالح الكُحليّ، ثُمّ للأزرق الصّافي الرقيق!!

كنتُ أعرفُ أنّ لديّ مَهمّةَ واحدةً؛ هي أنْ أتبع الصّوت؛ إنّه يبدو من جديدٍ كأنّه صوتُ جدي، وصوتُ جدّي لا يكذب. توقّفتُ عندَ صخرةٍ حمراء يتيمة، قائمةٍ بمفردها في بحرٍ من الرّمال، مَنْ يدري كيفَ تظهر صخرةٌ وحيدةٌ مثلها فجأة، أسندتُ ظهري إليها فشعرتُ بالدّفءِ يسري في أعماقي، كان برد اللّيل قد رقّق عظامي، فاستعرتُ من

الصخرة دِفئها كي أكون قادرًا على السّير في هذه الطّريق التي تبدو بلا نهاية.

مرّ سربٌ من القَطا فوقَ رأسي، خفقَ بأجنحته الصّغيرة في الفضاء، كان صوتُه عذبًا، تابعتُه بعينَيّ، أوغل جهة الغرب، راحَ السّرب يبدو خيوطًا من النّمل بعد أن ابتعد، رأيتُه يهبطُ شيئًا فشيئًا، ويدرج على الرّمل، أعرفُ أنّه إنْ فعل فمعنى ذلك أنّه وجد الماء، استيقظتْ فِيّ نداءات العَطش، وهتفت الرّيح الخافتة ثانية: «العطش سيقتُلك». نهضتُ بظهري عن الصّخرة، وشرعتُ أمضي باتّجاه القَطا، باتّجاه الماء، سمعتُ صوتَ جديّ: «اتبعني». ثُبتُ عن غَيّي؛ تركتُ القطا خلفي، ومضيتُ جهة الشّرق، حيثُ صوتُ جدّي الّذي لا يكذب.

سكنتِ الرّيح تمامًا. اشتدّتْ حرارة الشّمس. تحوّل الهواء إلى سياطٍ من اللّهب. لكنّني أمضي إلى غايتي ولو كان من دونها الهلاك. الغايات لا تُدرَك بالحيلة، وإنّما بالعِناد. كانت الشّمس تُرسِل رماحها الطّاعنة في وجهي، قالت الرّيح الّتي بدا صوتُها خافتًا أكثر هذه المرّة، وكأنّها تريد أنْ تلقي عليّ موعظتها الأخيرة قبل أنْ تذوب في اللّهب: «إنّ صبيًّا مثلك في السّادسة لكبيرٌ على الغاية، والعطش لا يرحمُ أحدًا، ولو بقيتَ ماضِيًا لافتُلِتّ، ليس في الإقدام شجاعةٌ إنْ أهلكتْك، وفي الرّجوع نجاة»، وعنّ ببالي أنْ أُطيعها، والتفتُّ خلفي، فرأيتُ رمالاً تضربُ في التّيه بلا آخِر، ولا أمل، وهممتُ أنْ أعود، ولكنّ صوتَ جدّي هتف بي في تلك اللّحظة بالذّات: «اتبعني». فقلتُ: «لبّيك». ومضيتُ إليه. قال الرّمل الّذي يشوي الأقدام: «إنّ جدّك يريد هلاكك». «كلا». «إنّه يقتلك». «كلا». «إنّه يقسو عليك أكثر مِمّا تقسو الصّحراء على الحُوار

اليتيم». «كلا». «تستطيع أنْ تصبر على أيّ شيءٍ إلاّ على الماء، فعُد». «كَلاّ». «لو بقيتَ تتبع صوتَه فلن تنجو». «كلا». واختلطتْ عليّ الأصوات، لكنّني لم أكنْ أجدُ أصفى من صوت جدّي: «أنا حمد بن جازي، سادنُ الصّحراء، وصوتُها الحَقّ، أنا لا أكذب؛ فاتبعني». واختلطت عليّ الأصواتُ أكثر، حينَ سمعتُ رفرفة أجنحة القطا عائدة من مساقط الماء رَيّا، وندمتُ على أنّني لم أتبعها لكي لا أموتَ عطشًا. ومضتْ وقد خلّفتْني بحسرتي، وتبعتُ الصّوت، ولسعتْني حرارة الرّمل، وكادتْ تشوي رِجليّ الصّغيرتَين، ومشيتُ مسافاتٍ طويلة، وتحمّلتُ من أجل أنْ أصل، وتشقّقتْ شِفاهي من العطش، والتصقَ لساني بسقف حلقي، وحاولتُ أنْ أحرّكه لعلّني أجدُ بعضَ اللّعاب فأبلعه، لكنّه كان قطعةً من الخشب المُتحجّر، ولم أقوَ حتّى على بلع ريقي، وكدتُ أختنق، وحلمتُ بقطرةٍ واحدةٍ من الماء تسيل في حلقي، لكنّه حلمٌ، والأحلام أضغاث! ومضيتُ، فاشتعل صدري بالنّار، ولُفِحَ وجهي بشواظ الهواء، وهبّتْ ريحٌ فجأةً لا أدري كيف، فسفّتْ الرّمل في عينَيّ، فعميتُ، وسقطتُ على الأرض، وكدتُ أستسلمُ للموت، لولا أنّه خُيّل إليّ أنّ جدّي يُناديني: «اتبعني». وتحاملتُ لأقفَ على قدمَيّ، وأزحتُ عن عينيّ الرّمل الّذي دخلَها، ولكنّني مع ذلك لم أعد أُبصر إلاّ بعضَ الخيالات، وهتفتُ بصوتٍ مليءٍ بالخوف والرّجاء: «جدّي». فأجابني صوتُه بثقة: «مشهور». «قطرةً من الماء يا جدّي». «عندي كلّ الماء فاتبعني». ومضيتُ باتّجاه الصّوت، وأنا أعمى، ورِجلاي تتلمّسان الطّريق تنوبان عن عينَيّ حتّى لا أسقط في الجُرُوف المنتشرة، ويداي منسدلتان على جانبيّ، وظهري مُتقوّس، أجرّ أقدامي

جرّا، وفجأةً دون إرادةٍ منّي سقطتُ على الأرض، وأظلمتِ الدُّنيا، وحاولتُ أنْ أفتحَ عينَيّ لكنّني لم أستطعْ، وشعرتُ أنّني وقعتُ في بئرٍ عميقةٍ مُظلمة، وسمعتُ أصواتًا تأتي من الأعلى متداخلة، وظللتُ أسقطُ، وبدأت تلك الأصوات تخفتُ شيئًا فشيئًا إلى أنْ تحوّلتْ إلى همهمات، ثُمّ صمتتْ تمامًا.

قالوا: لقد فقدتَ الوعي. في اللّيلة الثّالثة وجدوني، كان جدّي وأبي وبعضُ أبناء العمومة معهم. قال لهم جدّي: «إنّه في غيبوبةٍ منذُ ثلاثة أيّام». «ماذا نفعل؟ هل نُوقِظه؟». «لا؛ ستُصيبه صدمة العودة إلى الحياة من الموت؛ دَعوه». «كيفَ؟ هل تريدُ له أنْ يموت؟». «أنتم لا تعرفون شيئًا، مشهور لن يموت، مشهور بطل، والأبطال لا يموتون». «إنّه طفلٌ في السّادسة!!». «أنا أعرفه وأعرفُ كيفَ أعيدُه إلى الحياة أكثر منكم». «ماذا نعمل؟». «رُشّوا على وجهه قَطَراتٍ من الماء، ودَعُوه يستيقظُ ببطءٍ». رشقوا وجهي بقطراتٍ من الماء كما طلبَ منهم جَدّي، كانت البِئر الّتي سقطتُ فيها بالغة العُمق، كانت القَطَرات تسقطُ من أعلى، يرافقها الصّدى من فوهة البِئر وهي تتمايل في هبوطها الأسطوريّ حتّى تصلَ إلى شفتَيّ المُتيبّستَين، فتدخل من طرفهما، تحمل طوقَ النّجاة قبل الرّحيل الأخير، كان اللّيل قد هبط، وأولاد العمومة يتحلّقون حولي في دائرة مُتّسعة، وجدّي يراقب المشهد، انسربت القطرات المتابعات إلى حلقي، أصلحتْ ما في المريء من تشقّقات، ورمّمتْ ما في الحلق من أوجاع، فانتفضَ القلبُ لرطوبة الصّدر، وتحرّكتْ شفتايَ قليلاً، وأصابعي أقلّ، همسَ جدّي في أذنهم: «ابتعدوا؛ سيستيقظ في لَحَظات». ابتعد القومُ؛ هل كنتُ أراهم؟ لا أدري؛ كنتُ قد انشطرتُ

إلى جسدَين أوّل ما سقطتُ في بئر الموت، جسدي الّذي على الأرض خرج منه جسدٌ آخَر، خفيف كأنّه ريشة، وحلّق فوقي، يراقبُ ما يحدث، إنّها نفسي، أعرفُ ذلك ولا أعرفُ كيف؟ كانتْ نفسي تراقبني من الأعلى، وتراهم وتسمعهم، لكنّ جسدي الرّاقد في رمال الصّحراء، وغَبرائها، ولهيبها، كان غير قادرٍ على الحراك، ومع أنّه كان يستغيثُ بنصفي الآخَر المُحلّق فوقي إلاّ أنّه لم يكنْ يستجيبُ لاستِغاثاتي.

ابتعدَ القوم، كان اللّيل قد بدأ يُسدل سرباله الأسود على كلّ شيءٍ. أشعلوا نارًا هادِئة على بُعد بضعة أمتار من مرقدي، وقال جدّي لهم: «ضَعوا على النّار إبريقًا من الشّاي». وفعلوا. أحسستُ بالأمان. أمانٌ في جسدي الجُثّة الرّاقد في الأسفل، ولمّا شعرتْ نفسي بذلك الأمان بدأتْ تعودُ تدريجيًّا إليّ. ودخلتْ إلى جُثّتي، كان الماء قد أتمّ عمله. فاستيقظتُ، لكنّني لم أنهض، فتحتُ عينَيّ، ورأيتُ النّجوم، لم أكنْ أدري إنْ كانت هذه النّجوم الّتي تظهر لي هي من طرف الخِباء، أم من هذه الصّحراء المترامية الأطراف. لكنّني سمعتُهم يُنادُون علَيّ بصوتٍ خافتٍ كأنّهم بعيدون عنّي: «يا مشهور... يا مشهور... نحن إخوتك... أبناء عُمومتك...». ولم يقتربْ منّي أحد. كانوا يخافون أنْ يتحوّل استيقاظي إلى فزعٍ، نادَوا مرّة أخرى: «اقتربْ يا مشهور... اشرب الشّاي معنا». «أنا جدُّك... أنا جدّك حَمَد بن جازي». وكنتُ أعرفُ أنّ صوتَ جدّي لا يكذب، تحاملتُ على نفسي، ونهضتُ رويدًا، كانتْ قدماي لا تكادان تحملانني، لكنّ وجوه القوم أضاءت على وهج النّار، وهتفتُ في سِريّ: «أين رأيتُ وجوه هؤلاء من قبلُ؟»، وظننتُ أنّني أحلم، واختلطتْ أصواتُهم وهم يدعونني إلى مجلسهم، وحلّتْ في

روحي الطّمأنينة، واقتربْتُ، وسمعتُ صوتَ جدّي: «نحن بانتظارك يا مشهور». فأيقنتُ أنّ صوتَ جدّي لا يكذب، واقتربتُ، حتّى إذا قلّصتُ المسافة الّتي بيني وبين النّار، أمرهم جدّي ألاّ يقتربوا منّي: «الفزع سيقتُله وسيقتلنا لو اقتربْتم». ومثلَ قِطّ حَذِر ظللتُ أمدّ أقدامي نحوهم، وأنا أتملّى وجوههم: «إنّني أعرفُ هذه الوجوه، ليستْ غريبةً عليّ، لكنّني لا أدري متى وأينَ رأيتُها من قبل». وأماطَ جدّي عن وجهه اللّثام، اللّثام الأبيض الّذي كان معروفًا به، وبدا وجهه الّذي أحفظه، إنّه هو، لكنّه لم يبرح مكانه حول النّار، وتظاهر بأنّه لا يراني، ولم يُولّ وجهه جهتي، بل نادَى بصوتٍ حَنون: «نحن بانتظارك لتشرب الشّاي معنا، هلمّ». واقتربتُ حتّى صرتُ عنده، ولم يتحرّك من مكانه، بل مدّ كأسًا بلّوريةً لمعتْ على ضوء النّار بشرابها البنّيّ الدّاكن، وقال لي: «اشربْ». وأخذتُ منه الكأس، فلّما أدنيتُها من شفتَيّ، وقفَ جدّي بهدوء على قدمَيه، وظلّ القوم يجلسون القرفصاء حول النّار، ونظر جدّي بعد أنِ اعتدلتْ قامته إلى البعيد، وكنتُ قد أخذتُ رشفةً، وأردتُ أنْ أُتبِعها أخرى، فسمعتُه يقول: «ألا تريدُني أنْ أشربَ من كأسِك؟». وخجلتُ، ومددتُها إليه، فرشفَ منها رَشْفة، وهتف: «رَشفةٌ لي يا مشهور، ورشفةٌ لك، نتقاسَم؛ هل يُرضيك هذا؟». وبدأتُ أتبيّن وجوه القوم، وعادتْ إليّ الذّاكرة، فعرفتُ وجه أبي، ولّما أتممتُ شرب الكأس، عطفَ عليّ بثانية، ولّما أتممتُها في الرّشَفات المُقتَسمة، أخذَ الكأس منّي ومدّ بها لأحدهم، ثُمّ احتضنني طويلاً، فاستيقظَ فِيّ كلّ شيءٍ، وسمعتُه يقول: «من اليوم أنت لي ولن أتركَكَ لأحدٍ!».

وفي الطّريق ونحن عائدون إلى المضارب، سمعتُه يُحدّث أبي

بصوتٍ خافتٍ كأنّما يُعاتِبه: «كيفَ تركتموه يخرج من الخِباء وحده؟!». «كُنّا نائمين». «ليسَ هذا عذرًا، إنّها ثلاث ليالٍ، لولا لطفُ الله لَهَلك». «إنّه يمشي وهو نائم». «لن يفعل ذلك بعدَ اليوم، سينام إلى جانبي». «ولكنّ أمّه...!!» وتلعثمَ أبي ولم يُتِمّ الجملة، ولكنّني سمعتُ جدّي يقول له: «إنّ أمّه ستقبلُ بما أقول؛ أنا شيخُ مشايخ الحويطات، ولم يحدث أنْ ردّ لي أحدٌ طلبًا». ومضينا في الطّريق عائدين، وسمعتُ صياح بعض القوم من بعيدٍ قبل أنْ نَلِجَ المضارب، وقد تناقلوا الحادثة: «مشهور عادَ من الموت... مشهور عادَ من الموت». وهرّتْ كلاب، وصهلتْ خيول، وانفجر الفجر، ومدّ طائره جناحَيه على الأفق، ثُمّ... أتمّت الشّمسُ شُروقَها.

* * *

(2)
نحنُ سُطور

كانت الألواح الخشبيّة الصّغيرة يتراكم بعضُها فوق بعضٍ في الزّاوية، والمكان المصنوع من القشّ - بعد أنْ كانَ من الخَيْش فيما مضى - فسيح يتّسع لكلّ أولاد المضارب، الّذين زادَ عددهم في السّنوات الأخيرة بسبب الغارات الكثيرة، والهجمات المُسلّحة من الجنوب، «الأولادُ عُدّة الحرب». على اعتبار ما سيكون في المستقبل، حين يكبرون ويُصبحون قادرين على حمل السّيف أو الخنجر أو حتّى البندقيّة إذا كانوا من عيال الشّيخ نفسه. لا يدفع الأذى إلاّ الأذى. ومن ابتدرنا بالسّوأة فليس له إلاّ السّيف. وللجار المَنَعة، ونحميه كما نحمي أبناءنا. أمّا الّذين سوّلتْ لهم أنفُسهم أنْ يطؤوا رمل صحرائنا دفّناهم في تلك الرّمال ولا نُبالي، هكذا كان يعلّم الشّيخ حمد بن جازي العِيال.

دفع ثمنَ بنائه الشّيخ حمد، ووسّعه، وجعل الهواء يدخل من بابَيه، ومن نوافذه المُطلّة على الرّمال الصّفراء، وبنى دكّة للمُقرِئ في صدره، ومهّد الأرض للأولاد كي يجلسوا فلا يتعبوا، واشترى لهم الألواح السّوداء، والطّباشير، وأجرى راتبًا للمُقرِئ، وأسكنه أحد البيوت.

قفز مرشد، نقفَ سويلم بحصًى أصابتْ وجهه، وكادتْ تقتلع عينَيه، صرخ سويلم من شدّة الألم، توعّد مرشد بأنّه سيغبّر أنفه في الرمّل في التّوّ، وركضَ خلفه، فهرب، وأتمّا في الهروب واللّحاق ثلاث

دوراتٍ حول الكُتّاب وهم يصرخون ويضحكون ويشتمون. حجل سَعْد على رِجْلٍ واحدةٍ في حوش الكُتّاب، وهو يُغنّي: «حِنّا للسّيف حِنّا». دفعه (عتيق) من خلفه فأوقعه على الأرض، ارتطمتْ رُكبته بحجر لم يُسَوّ مع الرّمل، كزّ على أسنانه من شِدّة الألم، كتَمَ صوته، ومع ذلك أنّ بصوتٍ خفيض، ونهَض بسرعةٍ يتوعّد، وركَض خلفَ غريمه. هكذا تسير الأمور بُعَيد العصر من كلّ اثنين وخميس عندما ينتظر الأولاد شيخهم لكي يُقرِئهم القرآن ويُعلّمهم بعضَ قواعد النّحو والصّرف، وقليلاً من الجبر والحِساب، ومع أنّ الشّيخ حمد قد تكلّف كثيرًا في بناء الكُتّاب وإجراء الرّاتب على الأستاذ المُقرِئ إلاّ أنّ قليلاً من الأولاد كان يرغب في التّعليم، ولعلّه لولا (مشهور) ما فكّر الشّيخ حمد أنْ يمضي في الأمر قُدُمًا. قال لنفسه: «لا يستقيم الظّل والعُود أعوج». وعطفَ مُعزّيًا نفسه: «ولكنّ الأولاد هم الأولاد في كلّ عصرٍ وفي كلّ مِصر، وما يتوجّب عليّ فِعله سأفعله».

ملأ (راكان)، صيّاد العقارب كما كانوا يُسمّونه، علبةً من الرّمل ووضع فيها ثلاث عقارب، وأخفاها خلف ظهره، وتظاهر بأنّه يستظهر ما هو مطلوبٌ منهم للتّسميع من سورة القمر، وكان يقرأ وهو يخفضُ رأسه ويداه تحملان العلبة خلفَ ظهره: «اقتربتِ السّاعة وانشقّ القمر... وإنْ يرَوا آية...» لكنّه ينسى تتمّة الآية، فيبدأ من جديد: «اقتربت السّاعة...» حتّى إذا اقترب من (سويلم)، رفعَ يده بحركةٍ خاطِفة، وأفرغ الرّمل بما فيه على رأسه، صاح (سويلم)، لكنّه توقّف قليلاً حينما أحسّ بحركةٍ ليّنة على عنقه، ظنّ أنّها صرصار، أو سُحليّة، أو شيئًا من هذا، نثرها بيده، فرأى عقربًا يتلوّى زنبورها تحتَ قدمَيه،

قفز في الهواء، صرخ، قال له أحدهم: «هناك عقربان أُخرَيان»، ركَضَ كالمجنون، علا صُراخه، وأحسّ بأنّ عقربًا قد لسعتْه أو هكذا خُيّل إليه، فغامت الدّنيا في عينَيه، وسقط توًّا على الأرض، وبينما كان بعضُهم يحمله ليذهبوا به إلى الحكيم لمُداواته من تلك اللسعة السّامة كان (راكان) يكاد يستلقي على ظهره من شدّة الضّحك.

في الدّاخل عبثَ (مطلق) بالألواح، قال (لِعَلُّوش): «لولا أبي لكسرتُ لوحي». ردّ عليه عُلَيْش: «ما فائدة ما يفعله معنا المُقرِئ؟ آخرها نركبُ ظهر الخيل أو الإبل، ونغزو كما غزا آباؤنا وأجدادنا». أجابه: «لقد تحوّل آباؤنا العقلاء إلى مجانين، حين جاؤوا بصاحب الطّربوش هذا لنا». «من أينَ جاؤوا به يا تُرى؟!». «نفرٌ يقولون إنّه من الحجاز، ونفرٌ يقول إنّه من الشّام...». وسكتَ قليلاً قبل أنْ يُتمّ: «لكنّني لا أصدّق ما يقولون، إنّ سحنته تُشبه سِحَنَنا، سمراء وناشفة، لا بُدّ أنّه من عيالنا، لكنّه من بطْنٍ آخَر». «لكنْ ليس فينا من يُتقن قراءة القرآن والعربيّة». «اليوم النّاس تعلّمتْ يا سمعان، لا بُدّ أنّه من عيالنا المُتنوّرين». وصمتا ينتظران قدومَ الشّيخ (سلطان).

أمام الدّكّة الّتي ترتفع بمقدار شبر عن الأرض، وعليها جاعدٌ كبيرٌ من الصّوف، ومُتكأ من الشَّعر، وعن يمينها قربةٌ من الماء جلستُ أنا و(غازي) بهدوء كأنّ العالمَ الّذي يضجّ من حولنا لا يعنينا، كانت الشّمس ناعمة في عصر يومٍ ربيعيّ تُطلّ من النّافذة فتمسحُ وجوهنا بالرّضا. كنتُ أستظهر مع رفيقي ما حفِظنا من سورة القمر، وكنتُ حينَ أصلُ إلى قوله تعالى: «خُشّعًا أبصارُهم يَخرُجُون مِنَ الأجداثِ كأنّهمْ جَرادٌ مُنتشِر». أسرحُ بعيدًا بخيالي وأنا أتصوّر الموتى الّذين

يخرجون من قبورهم كأنّهم الجراد، ولقد رأيتُ الجراد صغيرًا وهو يسير في أفواجٍ مَهُولة تتلوها أفواج منتشرًا في كلّ مكانٍ من رمل الصّحراء كأنّه الرّمل، لكنّه يضطرب فيسري على غير هُدًى، وكم تخيّلتُني أنا وأبناء عمومتي وجدّي قد قُمْنا من قبورنا فنفضنا عن عيوننا الرّمل ورحنا نركض في الصّحراء كالجراد، صورةٌ كانتْ تُثير في نفسي مشاعر متضاربة من الفزع والغموض والخوف والرّهبة والهيبة والصّمت.

تهادَى الأستاذ (سلطان) من بعيدٍ، يلبس جُبّة كُحليّة قد بهتَ لونها من أثر الشّمس، ويعتمر طربوشًا أحمر على رأسه. كانتْ لحيته خفيفة، ولكنّ شعره كثّ، ولم يُفلح الطّربوش في إخفاء كلّ ما تناثر من شَعره على كتفَيه. وكان نحيلاً أسمر، ينقر الأرض برجلَيه نقرًا. كان يحمل تحتَ إبطه نُسخةً قديمةً من تفسير ابن كثير، اشتراها من سوق الحميديّة في إحدى زياراته لدمشق في أوائل العَقد الثّاني من القرن العشرين، قبل أنْ يقرأه مع كتبٍ أخرى في الفقه على يدِ إمام المسجد الأموي. رآه الأولاد فتظاهروا بالهدوء، ولكنّه ما إنْ صار على عتبة الباب يهمّ بالدّخول إلى الكُتّاب حتّى كان أحد الأشقِياء قد سحبَ حبلاً مربوطًا بقربةٍ مملوءةٍ بالماء، فانفتحتْ وانسكب كلّ ما فيها على طربوش الشّيخ وقُفطانه، فملأه عن آخِره، تَوَحْوَحَ الشيخ أوّل الأمر، وتراجع إلى الوراء وهو يُحَوْقِل، بينما كانتْ هناك ضَحِكات مكبوتة تصدر من هنا وهنا، وأرغى الشّيخ وأزبد، وهمّ أنْ يلعن لكنّه تراجع في اللّحظة الأخيرة، وتصنّع الهدوء، قائِلاً: «مَنْ فعل هذا؟». ولم يَعُد يُسمَع للأولاد حسيس، فأعاد الشّيخ بصوتٍ أعلى: «مَنْ فعل هذا؟ لو أخبرتموني فسأُسامحه؟». وظلّ الصّمتُ سائِدًا، وحاول الشّيخ مرّة أخرى: «مَنْ فعل هذا وسأخصّه بمعلومات من كتاب التّاريخ

لا يعرفها أحدٌ». ولكنّ الأولاد ظلّوا على صَمْتهم، حتّى إذا قال: «مَنْ يعترفُ بِفعلته هذه وسأعطيه رغيفًا شهيًّا؟». تململ (متروك) في موضعه، رمقه الشّيخ بطرف عينِه، فشعر أنّه اقتربَ من أنْ يعترف، مدّ الشّيخ يده إلى عُبّه، وأخرج رغيفًا كالبدر في ليلة تمامه، ولوّح به، وهتف: «هه... مَنْ فعل هذا يا أولاد وله هذا الرّغيف حلالاً زلالاً». وقفز هذه المرّة (مَتْروك) من مكانه، وهتف: «أنا... أنا يا شيخ». وتطاير الشّرر من عَينَي الشّيخ: «أنتَ يا ممعوط الذَّنَب؟!»، وأمر ولدَين من الأولاد ذوي البنية الجسمية الكبيرة أنْ يربطوه إلى سارية الكُتّاب، ولم أدر من أينَ جاؤوا بالحبال، ولكنّهم ربطوه، وراح يركلهم برجلَيه ويدفعهم بيدَيه، ويَعُضّهم بأسنانه محاوِلاً النّجاة والهرب، ولكنّه كان يبدو مثل هِرٍّ صغيرٍ يحاول التّملّص من بين أنياب كلابٍ ضخمة، وفي النّهاية تمكّنوا منه، وأوثقوه إلى العمود الّذي يتوسّط الكُتّاب، وانهال الشّيخ على (مَتْروك) بالعصا، و(مَتروك) يصيح ويتأوّه، ويَعِدُ بألا يُعيدها، والشّيخ كأنّه لا يسمع شيئًا من توسّلاته، وكانتْ عصا الشّيخ غليظةً ملساء قد عجَمَها الدّهر، لا تكاد تهوي على يد أحدنا أو جسده حتّى ينثعب منه الدّم، وظلّ الشّيخ يهوي بالعصا على (مَتروك) حتّى تعب الشّيخ وتعب (مَتروك)، أما الشّيخ فنزع طربوشه ووضعه على نافذة الشّمس، ثُمّ نزع قُفطانه، فعصره من الماء، ثُمّ أعاد لِبْسه وراح إلى مجلسه، واتّكأ وبدأ يُقرِئ الأولاد. وأمّا (مَتروك) فقد ارتخى جسده، ومال رأسه، حتّى لا مسَ صدره، وراح في غيبوبة لم يُفِق منها، والشّيخ يُعطي درسَه ولا يلتفتُ إليه.

ونظرتُ إلى (مَتْروك) في منتصف الدّرس فإذا هو كالمصلوب على الجذع، ورفعتُ يدي، واستأذنتُ الأستاذ أنْ أحمل (مَتروك) إلى بيته،

فنهرني. ثُمّ سألتُه أنْ نسقيه شيئًا من الماء فرفض. وحُمِل (مَتْروك) إلى بيته حملاً بعد انتهاء الدّرس، وكان الدّم يُغطّي أنحاء كثيرة من جسده، واختلطتْ حُمرته بلونٍ أزرقٍ داكنٍ يعلو سُمرة وجهه، ولم يُعطِه الشّيخ الرّغيف الّذي دفعَ ثمنَه من جسده. وغاب (مَتْروك) بعد ذلك اليوم المشهود عن الكُتّاب ولم يعدْ إليه ألْبتّة، ولا أدري إنْ كان غيّبه الموت أو الخوف من الشّيخ، أو الكُفر به.

وبقي معنا الشّيخ عامًا حفظنا عنه الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن، وتعلّمْنا شيئًا من النّحو والصّرف، وحفظْنا الأبيات المئة الأولى من ألفيّة ابن مالك، وكان الشّيخ قاسِيًا كأنّه سوط، وجافًّا كأنّه صخرة، وكان حادّ الصّوت يقرأ القرآن بسرعة، وكان يغفو أحيانًا ونحن بين يدَيه، وله غطيطٌ عالٍ لم أكنْ أصدّق أنّه يخرج من هذا الجسد الضّئيل، وكان إذا غَطّ سقطَ رأسه على كتفه الأيمن، فإذا آله صحا، ثُمّ نظرَ كالهائم إلينا وعادَ إلى نومه وغطيطه، وكان لا يُعيده إلى صَحوه إلاّ صوتُ المؤذّن في المسجد إذا نادَى لصلاة المغرب.

وبعد عام سمعتُ الشّيخ يقول لجدّي: «إنّ هؤلاء الأولاد هَمَل، ولا يُريدون أَنْ يتعلّموا، وقد بلغتُ معهم الغاية» فيقول له جدّي: «اصبِرْ عليهم فإنّما هم أولاد». فيردّ: «بل شياطين وقُرود وسعادين»، فيقول جدّي: «التّعليم مهنةٌ صعبة، ولكنّ أجرها عظيم». فيردّ مُستهزِئًا: «أجرها عظيم؟!! أكاد أخسر ما لديّ من حسناتٍ بسببهم». فيُصبّره جدّي من جديد: «لقد كان الرّسول مُعلّمًا». فيردّ: «لقد كان يُوحَى إليه، وأنا مَنْ يُوحِي إليّ؟!!». فيحاول جدّي: «إنّما الأجر على قدر المشقّة يا شيخ». فيردّ: «إذا بقيت ألتمسُ الأجر بهذه المشقّة فسأفقد

عقلي». فيقول جدّي: «إنْ كان الرّاتب لا يكفيك زِدْناه». فيردّ بإصرار: «ولو دفعتَ لي كنوز الأرض». فيقول له جدّي: «اتركْ تعليم الأولاد إنْ شِئت، ولكنْ لا تترك تعليم مشهور، وسأعطيك على تعليمه وحده ما كنت تأخذه على تعليمهم جميعًا». فيسأل باستخفاف: «ومَنْ مشهور هذا؟». «إنّه حفيدي». «إنّه هادِئٌ ووقور، حرامٌ أنْ يكون معهم». ويُدرك جدّي أنّه قد لان: «علِّمْه وحده، وأنا سآتي بشيخٍ آخَر لبقيّة الأولاد». ورضي الشّيخ سُلطان، وكان يقول لجدّي: «من أجلك يا شيخ حمد». فيردّ: «علّمه كلّ ما تعلم، ولا تبخلْ عليه بشيءٍ، ولدي هذا مُختلف، وأنا أرى أنّ له شأنًا عظيمًا ستكشفه لك الأيّام».

وكان الشّيخ يأتي بيتنا، ويعلّمني وحدي، وأحيانًا مع (غازي)، وقد أخرج أفضل ما لديه، وبدا أنّه حقًّا ما فعل ما فعل إلاّ بسبب شقاوة أولاد الكُتّاب، وذابتْ قسوته في حِلمه، وغضبه في رِضاه، وكان طُلَعَةً حُفَظَة، وعرفتُ قيمة الشّعر بين يدَيه، وكان طروبًا إذا بدأ بالقصيدة تمايل جِذعه، وإذا شدا اهتزّ جسدُه، وإذا غنّى افترّ ثَغْرُه. وكان يحبّ قصيدة كعب بن زهير الّتي أوّلها: (بانتْ سُعاد فقلبي اليوم متبول...)، وتنقّل بي بين أفانين الأدب حتّى حطّ بي على كلّ فنٍ رطيب. وكان خطّاطًا تنساب الرّيشة بين أصابعه انسياب الماء في الجدول، فخططتُ من خلفه سورة الكهف بخطّ النّسخ، وسورة مريم بخطّ الرّقعة، وكان يقول لي: «أُكْتُبْ قَدَرَكَ يا مَشْهُوْرْ... فِي رقٍّ مَنْشُوْرْ... وَجَعُ الحَرْفِ الأوّل يُنْسي وجَعَ الحَرْفِ الآخِرِ والدُّنيا سَوْفَ تَدُوْرْ... فَاكْتُبْ يا مَشْهُورْ... نحنُ سُطورْ».

* * *

(3)

إذا أكرمْتَها أكرمتْك

وكان جدّي يتمنطقُ بالسّيف، رافقه السّيفُ زمنًا طويلاً، ورافقتْه البندقيّة زمنًا أطول. كان جدّي شديد الأَسْر، مستقيم الجذع، لا طويلاً ولا قصيرًا، وجهه أسمر قليل اللّحم مسبوك تكاد عظمتا خَدّيه تبرزان، وكانتْ عيناه سوداوَين وعميقتَين، فيهما صفاء الحِكمة، والتماعة الشّجاعة، وكانَ يَشوبُ بياضَهما عُشْلة كعُسلة الذّئب. وفي عينَيه كان يُمكن أنْ تلمسَ حزنًا شفيفًا لا يُقال لكنّه يتكلّم بألف لغةٍ ولغة. وفيهما عوالم من الحِلم والرّضا والعِزّة. وكان له حاجِبان غليظان يُرى نفور شَعرهما وهما يتهدّلان فوق جفنَيه كأنّ همّا ثقيلاً قد أناخ بكلكله على روحه. وكان شارِباه غليظَين يمتدّان فوق شفتَيه ويدقّان عند طرفَيهما، وكانتْ لحيته سوداء قد وخطَها بعضُ الشّيب، وطالتْ عند الذّقنِ قليلاً، وكان يلبسُ عباءته البدويّة الّتي تُبرزه رجلاً قادِمًا من الأساطير الشّرقيّة، وكان يعتمر شماغًا أبيض وعقالاً أسود، وكثيرًا ما كان يلفّ الشّماغ الأبيض من تحت ذقنه ويربطه بأعلى العِقال فيبدو من الفرسان القُدامى، وكان إذا ركبَ فرَسه بدا كأنّه لم يُخلَق إلاّ لها ولم تُخلَق إلاّ له. وكان لا يتطلّب منه رُكوبُها إلاّ إشارةً من يده، فتفهم عليه، فتأتيه جَذلى تُهملِج، حتّى إذا صارتْ بين يدَيه خفضتْ رأسها كأنّها تُهيِء نفسها له، وصهلتْ كأنّها تُحيّيه، ورمقتْه بطرفِ عينَيها كأنّها تتودّد له، ثُمّ إذا تناول

عِنانها، ولواه إليه كان على ظهرها بحركةٍ رشيقةٍ واحدة!! وكان يقول لي: «يا بُنيّ الخيل لا تنسى المعروف؛ إذا أكرمْتَها أكرمتْك. يا بُنيّ إنّما خُلِقت الخيلُ للجهاد، فأَعِدّ نفسكَ لكيْ تكون فارِسَها المُجلّي. يا بُنيّ لا يقتسم معك الأجرَ في النّضال أكثرُ من الخيل، ذهبتْ بالشّطر في كلّ شيءٍ، قِتالُها كقتالنا، وجوعُها كجوعنا، وعطَشُها كعطشِنا، وصبرُها كصبرِنا، ولكنّ موتَها ليسَ كموتنا؛ يا بُنيّ إنّ موتَها مُضاعَف، إذا ذهبتْ ذهبَ صاحِبُها معها، وإذا هلكتْ هلكَا معًا، يا بُنيّ إنّ للخيل لغةً لا يفهمها إلاّ مَنْ أحبّها، ولو كانتْ ذا لسانٍ لكانت أفصَحَ مِنّا. يا بُنيّ لو لم يخلق الله الجَمال على صورة الخيل فكيفَ كان يُمكن أنْ يكون؟». وكان يمسح على أعناق الخيل كأنّهنّ نساؤه الأثيرات، وبناته الحبيبات. وكان مَهِيبًا، إذا مشى بين النّاس وقفوا حتّى يمرّ، وإذا سلّم على نفرٍ جعلوا يقومون بين يديه، وإذا حَكَمَ بشيءٍ بعد أنْ يُشاور فيه، لم يقطع دونَ رأيه رأيٌ، ولا ثنّى على ما قال أحد، وما رأيتُ أحدًا يُجادله حتّى الملوك الّذين طلبوا وِفادته ونزلوا مضاربه فيما بعد باستثناء صاحب الطّربوش الأحمر الّذي كان يُقرِئني، فإنّه كان ذا رأسٍ عنيدةٍ، وفتوّة غامرةٍ، واعتِدادٍ كبيرٍ بنفسه، ولم يكنْ جدّي يحاوره إلاّ من أجلي، ومن أجل أنْ يظفر بما عنده من العلم فيُخرجه لي. وكان جدّي يحبّ الصّحراء والصّحراء تُحبّه رغم ما يبدو عليه من أثرها في وجهه أو في خيله، وخاصّة في اللّحظات الّتي كان يعودُ منها من غزوٍ أو طِرادٍ أو مُجاراة. وكان إذا خرج في بعضِ خَلَواتِه أردفني خلفه، يقطع الفَلَوات، ويذهبُ بي عميقًا في مجاهل الصّحراء، وهو يُنشدني بعضَ أشعاره.

كُنّا يومئذٍ نأوي إلى (الرّشاديّة)، القرية الّتي أخذتْ من الصّحراء

لونَها ووجهها، وشِدّتها، وقلّة مائها، وكثرةِ مَعروفها، والصّحراء تختار حبيباتِها. وكان الإنجليز يحكمون بلادَنا، ولأنّ (الرّشادية) قرية الحويطات الّتي تجمع ولا تُفرّق، وتقرّب ولا تُبعّد، فإنّ الإنجليز وضعوا فيها مخفرًا كانتْ له الصّولة والجولة أحيانًا، لكنْ دون صولة جدّي وجولته، وكان يقوم على المخفر في الغالب ضابطٌ من ضُبّاط الإنجليز. وكان الإنجليز يحفظون عاداتِنا ويتظاهرون بأنّهم يُحبّوننا، وأنّهم يحموننا، ولم أدرِ يومئذٍ مِمّن؟ فلقد جِئتُ في زمنٍ صالح فيه جدّي العشائر أو كاد، وألّف القلوب، ونزع الثّارات، وأخمد الغارات، وأسكنَ النّفوس. ولعلّني شهدتُ بعضَ الإنجليز الّذين كانوا يحكمون في بعض قضايا البدو، وإنْ كان جدّي هو القاضي المُطاع أمرُه.

وفي الخِباء الفسيح الّذي كان يستقبلُ فيه ضُيُوفه، كان كثيرًا ما يجلسُ في المساءات فأستمع إليه وهو يُنشِد أبياتًا من الشّعر النبطيّ لأسلافه، فإذا ما أخذَ قِسطَه من النّشيد، قام إلى سارية المُنتصَف حيثُ يعلّق عليها سيفَه، وإلى جانبِ السّيف جِرابٌ يحتفظُ في داخله بِصَكّ، وكان يُخرِج الصّكّ ويتملاّه ليتأكّد من أنّه لم يُصَبْ بسوء ثُمّ يُعيده إلى مكانه، فإذا علّق سيفَه على وسطه، فمعنى ذلك أنّه سيذهبُ للطّراد، فإذا ما ركبَ الخيل أردفني خلفَه وجازَ بي المضارب، وهو يهمزها لكي تُسْرِع، وسألتُه مرّة: «لماذا كلّما قمتَ إلى السّيف أخرجتَ الصّكّ من الجِراب ونظرتَ فيه؟». فردّ: «لأنّ الصّكّ وثيقةٌ مهمّةٌ يا بُنيّ». فسألته: «ما فيه؟». فقال: «إنّه وثيقةُ احتجاجنا نحن مشايخ شرق الأردنّ إلى الحاكم البريطانيّ (بولز) على إعطاء الإنجليز وعدًا بإنشاء وطنٍ قوميّ لليهود».

وقال لي جدّي: «متى ستركبُ الخيل وحدكَ يا مشهور وتسير مع الثّوّار؟». فقلتُ له: «متى شِئت يا جدّي». فقال لي: «الخيل للكِرام». ورفعتُ صدري حتّى صار كأنّه قُبّة، وقلتُ: «أنا ابنُ الكرام يا جدّي». وكنتُ يومَها في الثّامنة.

وكُنتُ مُعجبًا بخالي الأكبر (نائل)، لقد كان يبدو أنّه يُشبه جدّي إلى حَدّ كبير، أرأيتَ إلى الجذع العتيق والزّهرة النّاضرة؛ كانا كذلك. أم رأيتَ إلى النّخلة الشّامخة تُساقط رُطبًا جَنِيًا؟ هُمَا هُما. كان صورةً عنه، بحجمٍ أقلّ، ولكنْ بتاريخٍ ربّما يلتقي في كثيرٍ من المنعطفات، وينتهي بالمآلات نفسِها، وكان جدّي يُبادله السّيف والعَصا، وكثيرًا ما حمل الولدُ عصا أبيه، وتَبِعَه إلى حيثُ يقوده في الطّراد، أو حمل سيفَه، وركبَا الخيل في ميدان الضّراب والطّعان. لقد كانا يُمثّلان بالنّسبة لي صورتَين نقيّتَين للبطل الّذي كنتُ أريدُ أنْ أكونَه أو أحلم به. كان ظِلاً أمينًا لجدّي، وكثيرًا ما كان الإنجليز يهابونه رغم صِغَر سِنّه ويتحاشَونه، ولكنّهم يكتمون ذلك، فأيّ فضيحةٍ أكبر من أنْ يُظهر رجلٌ مُدّججٌ بالسّلاح خوفَه أو رُهابه من شابٍّ لا يكاد يكون في جيل أبنائه. وكان خالي شديد السُّمرة، قليل الكلام، طويل الشَّعر، يتهدّل شعره على كَتِفَيه، وعيناه واسِعتان وادِعتان، ولكنّه إذا نظرَ ضيّق عينَيه وزَمّ شفتَيه فتغيّرتْ ملامحه، ورأيتَ فيه أسدًا يستعدّ للوثبة، وكان نادر البسمة، كان فيه ثورة الشّباب وحِكمة الشّيوخ، شربَ من الماء الّتي شرب منها جدّي، وشربتُ أنا منها بعدهما! وحينَ كَبُر قليلاً، كنتُ أراه يضعُ حِزامًا من الرّصاص كالنّطاق يوشّح به صدره، وكان عدد الرّصاصات فيه أقلّ من عدد الرّصاصات الّتي يحويها حِزام جَدّي، وسألته: «متى أضع

مثل هذا على صدري يا جدّي؟». وسألني: «نِطاق الرّصاصات يا مشهور؟». فأهزّ رأسي بنعم. فيضحك، ثُمّ يسأل: «وما الّذي يُعجِبكَ فيها؟». فأقول: «تلمع يا جدّي مثل عينَيك». فيضحك، ويقول: «حينَ تخرج معنا للتّدرّب على القَنص، سأقرّر؛ إذا تعلّمتَ بسرعةٍ فَلَكَ واحدٌ منها».

وجاءه مرّةً رجلٌ فارع الطّول، يلبسُ لِباسَنا، ويعتمر شماغَنا، ولكنّ سِحنته لا تُشبه سِحَنَنا، وعيناه زرقاوان، ووجهه أحمر، ولحيته شقراء، وأسنانه من لؤلؤ، وجلسَ مع جدّي يُحادِثه طويلاً، وجدّي يُنصِت إليه، ويُجيب عن أسئلته، وكان (دَهَش) يسكب القهوة له، فلا يردّه أبدًا، حتّى كرع أكثر من مئةِ فُنجانٍ في ساعتَين، ولا أدري لماذا فعل ذلك، ولكنّه كان يهزّ رأسَه بعد كلّ حديثٍ مع جدّي، كأنّه يُؤمّن على ما يقول، ولمّا انتهى قام فصافح جدّي، وانحنَى له طويلاً حتّى ظننتُ أنّه يقبّل يدَيه، وجدّي يُدير رأسه بعيدًا مُتأفّفًا، ثُمّ غادَر. واقتربتُ من جدّي أستطلع خبر هذا الرّجل الغريب، فسألتُه: «مَنْ هذا يا جدّي؟». «إفرنجي». «ماذا يعني؟». «هؤلاء يا جدّي مجموعة من الأجانب، يجوبون صحراءَنا وقد عوّدوا أنفسهم على صبرٍ أشدّ من صبرنا ليجمعوا معلوماتٍ وحقائق عن الحياة البدويّة في بلاد الشّام والجزيرة العربيّة والعراق، يُسمّونهم المُستشرقين، وأسمّيهم أنا عملاء الاستِعمار، ما هم إلاّ جواسيس جاؤوا ليحتلّوا بلادنا، ويبثّوا الفرقة بيننا، حتّى لقد سوّلتْ لنا أنفسنا أنْ نجعلهم حَكَمًا بيننا». وتساءلت: «لم أرَ مثل هذا الرّجل من قبل يا جدّي». «لقد قابلتُ أكثر من خمسين واحدًا منهم يا بُنيّ، ولكنّك لم تكنْ قد وُلِدتَ بعدُ، ولو أردتَ لعددتُ لك أسماء

هؤلاء الخمسين واحِدًا واحِدًا، ومن أيّ البلاد هم، وما الأسئلة الّتي سألوني عنها، وما الإجابة الّتي أجبتُ بها عن كلّ سؤال من أسئلتهم، ولقلتُ لك اليوم والتّاريخ والمكان الّذي التقيتُهم فيه، ولحدّثتُك عن طِباعهم فلا أفوّت في كلّ واحدٍ خَلّةٍ من خلاله إلاّ ذكرتُها لك». ولم أكنْ أفهم كثيرًا مِمّا قال جدّي، ولكنّني شعرتُ أنّ جدّي لا يُحبّهم.

وكان لدينا بيوتٌ من طين، وأخرى من حُبّ، ولكنّ جدّي كان لا ينام إلاّ في بيوت الشَّعر، وكان يقول: «بيوت الشَّعر مواطن العِزّ، إنّها تاريخُنا يا بُنيّ، أترى إلى هذه الخِيام السّود، لقد أطلعتِ النّور وصنعتِ الرّجال». وكان لجدّي بيتٌ من حجارةٍ عتيقة، لم يكنْ يذهبُ إليه إلاّ إذا كان يريدُ أنْ يقضي بين النّاس، ومع أنّ لجدّي زوجاتٍ كثيراتٍ لم أكنْ لأعرفَ عددهنّ، وأولادًا وأحفادًا لم أكنْ لأُحصيهم، إلاّ أنّه كان يحرصُ من بين هذه الأفواج المُتدافعة من الأولاد والأحفاد أنْ يأخذني معه دون سواي في حَلّه وترحاله، وكان هذا يغيظُ بعض أبناء العمومة، ويوُغِر الصّدور، إلاّ أنّه كان يُدافع عن خَياره باصطحابي قائلاً: «إنّني أرى في مشهور ما لا ترون». ثُمّ إنّه كان يعمدَ إلى إسكاتهم حينَ يطلبُ منّي أنْ أقرأ له قصيدةً من قصائد الشّعر الّتي حفظتُها عن الشّيخ سُلطان، أو سورةً من السّور الّتي أخذتُها عنه.

كان بيت الحجر الّذي يجلسُ فيه جدّي للقضاء يتكوّن من مدخل تعلوه قنطرة، تُفضي إلى بهوٍ صغير، وعن يمينه حجرة، وعن يساره أخرى، وكان يجلسُ في الحجرة اليُمنى، ويطلب من مساعديه أنْ يأتوه بالشّهود أو العُدول من الحجرة الأخرى الّتي غالبًا ما ينتظرون فيها حتّى يحينَ استدعاؤهم. وكان إذا جلس، جلس معه اثنان من وجهاء العشيرة

وحُكمائها عن يمينه، واثنان مثلهما عن يساره، وكان هو واسطة العِقد بينهما، وكانوا مُستشاريه، وكنتُ أجلسُ ثالثًا جهة اليمين، وسمعتُ عشرات المحاكمات الّتي حَكَم فيها جدّي مع مستشاريه، وأنصتُّ إلى ما كان يقوله المتّهمون وأهل الحجّة والأدلّة، وأصحاب الدّفوع والأظنّاء. وكان جدّي يقول أوّل ما اصطحبني معه إلى هذه المُحاكمات: «اسمعْ ولا تتكلّم. فإنّ المجالس مدارس». وأشدّ ما كان يجذبني قدرة جدّي على حلّ المنازَعات بين الفُرقاء، وكان يمتلك بصيرةً نافِذة يعرف كيف يُجسّر بها الهُوّة بين الخُصُوم فيَنزل كلّ طرفٍ عن شيءٍ من حقّه حتّى تزول المسافات بين المُتخاصِمين فيتصافَوا ويخرجوا راضين، وأشهدُ أنّ صبره وحِلمه وحُسنَ جِداله وطول إنصاتِه كانتْ علاماتٍ فارقة في قضائه تشرّبتُها وأنا ذلك الطّفل الصّغير فارتويتُ بها عن ظمأ. ومَنْ يدري إنْ كنتُ سأصبح قاضِيًا في المستقبل مثل جدّي أم لا؟ لكنّني أوقن أنّني تعلّمتُ وكبرتُ على ما سمعتُ في ذلك البيت الحجريّ كثيرًا.

وقال جدّي: «الوطنُ قلبُك»، وشعرتُ أنْ قلبي خفقَ بسرعةٍ، ووضعتُ يدي على صدري أُهدِّئ من خَفقَانه، وتابع جدّي: «ومَنْ لا وطنَ له لا قلبَ له». وشعرتُ بفراغٍ كبيرٍ في صدري. وقال: «انظر»، فنظرتُ حيثُ أشار، وفي البعيد، في بحر الرّمال عند نقطة التقائه مع بحر السّماء كانتْ هناك قافلةٌ تتهادَى في الصّحراء مُرتحلةً عبر الكُثبان الغائمة، وقال: «إنّ أوطانهم حيثُ ينزلون، ولكنّ قلوبهم فارغة». وتابع: «الرّحيل يبعثر الإنسان، إنّه يُفقدك وجودك». وشعرتُ يومَها بأنّ كلمة الرّحيل كلمة ثقيلة، وأنّها تعني شيئًا يُشبه الموت. وتابع: «هذه أوطانُنا ودونها أعناقُنا».

***

(4)

ألا يا فتى..!

وضع جدّي البندقيّة على صدري، كانتْ كبيرةً على طِفلٍ، كعبُها الخشبيّ استقرّ على أعلى الصّدر، محاوِلاً أنْ يعلّمني الطّريقة الصّحيحة أمسكَ بيدي اليُسرى، ومدّها بما استطاع، ثُمّ ركزها تحتَ السّبطانة، وثنى يدي اليُمنى، وأدخل إصبع السّبّابة في حلقة الزّناد، وقال لي: «أغمِض عينَكَ اليُسرى، وانظر باليُمنى عبر الحلقة الصّغيرة الّتي تعلو السّبطانة في مقدّمتها، أترى هذه الشُّعيرة الصّغيرة؟». وهززتُ رأسي بأنّني أراها، وتابع: «اجْعلْها أسفلَ المنتصف من الهدف». واقتربَ منّي، وقال بصوتٍ خفيض من خلال أنفاسه الدّافئة الّتي شعرتُ بحرّها قرب أُذنَيّ: «الهدف يحتاج إلى ضبط النَّفَس، والتّحكّم بالنّفْس، والصّبر، أهدافنا ليست عشوائيّة، ولسنا نبذّر أموالنا على الرّصاص لنقتل الفراغ، نحن نصيد الطّرائد». وسكتَ جدّي، ومرّت لحظاتُ صمتٍ، وأنا لا أدري ماذا أقول له، لكنّه اقتربَ أكثر هذه المرّة وقال: «نحن نصيد أهدافًا متحرّكة يا بُنيّ، واختيار لحظة القنص أهمّ من القَنصِ نفْسِه». وتراجع قليلاً، قبل أنْ يقول عبارته الأصعب: «اكتمْ نفسَكَ وانتظر الإشارة». ووقف على قدَمَيه، وكنتُ أظنّ أنّ الإشارة ستأتيني منه، فانتظرتُ، ومرّت الطّريدة الأولى في لمح البصر، فهتف: «أضعتَ الأولى فلا تُضِع الثّانية». وانتظرتُ لحظاتٍ مرّتْ كأنّها أعوام قبل أنْ أعرفَ ما

يجب عليّ القِيامُ به، واهتزّتْ ذبذبات الهواء في البعيد، ونقلتْ إليّ جسد الطّريدة الثّانية، ومع أنّها كانتْ بعيدة لا تكادُ تُرى، إلاّ أنّني شعرتُ بأنّ لأنفاسَها أصابعَ تلامس أذنَيّ، وأنّ قلبَها ينبضُ في أعماقي، واستيقظتْ لديّ غريزة القَنْص، وأدركتُ أنّني من الآن مضيتُ على هذا الدّرب، حتّى إذا صارَ بطنُها على الشّعيرة، ضغطتُ على الزّناد، فانطلقت الرّصاصة. دوّى أزيزها في الصّحراء، مُحدِثًا صدًى مُتتابِعًا، سقطَتِ الطّريدة، قفز قلبي فرحًا، ارتجّت الجَنَبات، أحسستُ أنّها رقصتْ معي، كانت تلك الرّصاصة الأولى الّتي أُطلقها في سِباق الطّرائد. قال جدّي: «في الرّصاصة يختبِئ الحتف، فإذا صوّبتَ فاعرفْ لمن تُرسِلُ حتفك». وقال: «بعينٍ واحدةٍ يُمكن أنْ ترى ما أخفتْه العينُ الأخرى». وفرح جدّي كما فرحت، وعُدنا بصيدنا في ذلك اليوم المشهود، وسألتُه ونحن نُردف صيدَنا على ظهور الخيل: «هل الطّريدة عدوّ؟». «ليس بالضّرورة يا بُنيّ، ولكنّ العدوّ طريدة، ومن الشّرف ألاّ تتركها تُفلت من بين يديك».

كانتْ أمّي (حِصّة بنت حمد) جميلة، ممشوقة. كحلاء. سُمرتُها خفيفة، وجهها كأنّما هو بُنّ فاتِح، عندها كبرياء الفتاة المُعتدّة بنفسها. وكانت أكبر بناتِ جدّي. وكان جدّي يُؤثرها، ولها في نفسه مكانةٌ خاصّة، وقد حملتْ عنه بعضَ الصّفات، حتّى إنّها مع جمالها الأخّاذ كانت تركب الخيل، وتُقري الضّيف، وتُقهيهم أحيانًا، ولولا سطوةُ جدّي لحَملَتِ السّلاح وقاتلتْ إلى جانبه. وكان أبي – وهو ابنُ عَمّها – طُوالاً، شُجاعًا، ولكنّه خَجول، وحينَ تقدّمَ لخطبة أمّي رفضتْه، ولم ترضَ أنْ يراها، وحرنت في البيت، فأجبرها جدّي على الزّواج من أبي،

ليس من أجلهما، بل من أجل ما سيأتي، وقال لها: «ستتزوّجينه، وستُنجبين منه ولدًا أفضل منكما!».

وحينَ جئتُ إلى هذه الدُّنيا، وكنتُ أوّلَ أحفاده حملني جدّي بين يدَيه، وقال لأمّي: «هذا ما كنت أعنيه». ورفعني عاليًا، وراح يرقص فَرِحًا. ومع أنّ أمّي أنجبتْ من بعدي كثيرين، إلاّ أنّه لم يملأ عينَي جدّي سِواي. والدُّنيا حُظوظ، ولكنّها مقسومة، ولم يذهب بحكمتها إلاّ التّغافل عن حِكمتها!

ورأيتُ أمّي تسهر ذاتَ ليلةٍ تُهذّب شماغًا أحمر، وتعتني به، وهي تخيطُ الهُدُب على أطرافه، وتنحني عليه بإجلال، ثُمّ هي تعلّق على زواياه الشّراشب. ثُمّ تَفرده أمام ناظرَيها بين فترةٍ وأخرى لتُدرك مدى التّناسق في خياطة الأهداب، وكانت هذه الأهداب كثّة، كبيرة الحجم، تُزيّن أطراف الشّماغ كأنّها باقات من الياسمين، ثُمّ هي تُعلّقه بعناية على مشجبٍ في الحائط، وتنام بعد سهرٍ طويل.

وسمعتُ جلبةً في البيت في صباحات إحدى الأيام، فدخلتُ، ورأيتُ أمّي تجلسُ وحدها وهي تدفن رأسَها في صدرها، وجسدها يرتجّ، وأظنّ أنّها كانتْ تبكي، فقدّرتُ أنّ أمرًا جَللاً قد حدث، ثُمّ ظهر أبي من الغرفة الأخرى فهالني منظره، كان أبي يلبسَ لباسًا عسكريًّا كاكيًّا، يلتفّ الجزء الأعلى على جسده المَمشوق، وينسدل الجزء الأسفل كأنّه إزارٌ مُحكمٌ على وسطه حتّى يُلامسَ قدمَيه، وكان يتقاطع على صدره حِزامان جِلديّان أحمران، وهتفتُ في غمرة انشِداهي: «أبي». ونظر إليّ، وغمَزَ بعينَيه، وكِدتُ أركضُ نحوه وأحتضنه، لولا أنّه سار إلى المِشجب فتناول الشّماغ، واعتمره فوق رأسه، ولفّه بطريقةٍ جعل

اثنتَين من حوافّه المُزيّنة بالهُدُب تتدلّيان على جانبَي رأسه، وكان الشّماغ الأحمر المُطوّق بالفراشات أو الزّنابق البيضاء يزيدُه جَمالاً، وكان التاج الملكيّ المُذهّب يرتكز على السّواد منتصفَ العقال، فيزداد الألق. وهممتُ بالفعل أنْ أحضنَ أبي طويلاً، وأقول له: «إنّني أريدُ مثل هذا الزّيّ العسكريّ». أنا مأخوذٌ بهذا البَهاء العسكريّ منذُ طفولتي!

وقامتْ أمّي، ومسحتْ ما كنتُ أحدسُ أنّها دموعٌ من طرفِ عينِها، وتناولت جنّادًا عريضًا يمتلئ بالرّصاص، ورفعتْه فوق عنق أبي، ووشّحتْه به بشكلٍ مائل من كتفِه الأيسر إلى خاصرته اليُمنى، وأراحتْ رأسَها بعد ذلك على صدره، فاحتضَنَها، ورأيتُ عينَيها تدمعان، ولم أكنْ أدري لماذا تبكي أمّي، وشاهدتُها بعد هذا الموقف تبكي كثيرًا، ولم أُفلِح مرّة واحدة في أنْ أدركَ سبب بُكائِها. ثُمّ أخذتْ أمّي الشّبريّة وركزتْها في منتصف الحِزام الّذي يلفّ وسطَ أبي، ثُمّ خفضتْ رأسها، وابتعدتْ إلى زاوية الغرفة وهي تُعطينا ظهرها، ولا تريد لنا أنْ نرى وجهها، وبدا أبي بعد أنْ أتمّ لباسه العسكريّ بطلاً أسطوريًّا، ولم أعدْ أريد أنْ أصبح إلاّ مثله، كان وهج اللّباس العسكريّ قد أتمّ خطفَ قلبي، وقال لأمّي الّتي غطّتْ وجهها بكفّيها، وتابعتْ بُكاءَها الصّامت: «يا أمّ مشهور، تنتظرنا حياةٌ سعيدة». وظلّتْ صامتة، وأردف: «أنا ذاهبٌ من أجلك ومن أجلِ عيالنا». والتفتَتْ هذه المرّة ووجهها غارقٌ بالدّموع: «أنتَ ذاهبٌ إلى الموت». «إنّ مرتّبي في قُوّات البادية سينتشلنا أنا وأنتِ والأولاد». «إنّ أبي ومكانته تكفينا». «أنا لا أريدُ أنْ أبقَى تحت رحمة عمّي». وتصمت من جديد، ويقتربُ منها أكثر، ويهمس: «يا امرأة، الالتحاق بقوّات البادية حُلْم كلّ بدويّ، والنّساء يفرحْن

بأزواجهنّ الّذين يلتحقون بالجيش، فالعسكريّة جاهٌ ونُفوذ». فتردّ: «حُلُم الفقراء الّذين يبحثون عن لقمة الخُبز، ولن أفرح مثلما يفرحْن». فيردّ عليها: «وماذا في ذلك؟ أبحثُ مثل بقيّة خلق الله عن لقمة خُبزٍ تكفينا مؤونتنا». «اللّقمة المُغمّسة بالدّم لا نريدها». ويعلو صوتُها بالبُكاء، ولم أكنْ أعرفُ أنّ أمّي تُحبّ أبي إلى هذا الحدّ، ولم أدرك أنّ هذه المرأة الحديديّة تتحوّل في لحظة ضعفٍ إلى امرأة حريرية؛ إنّها لوعةُ الفِراق، خاصّة إذا كان فِراقَ مَنْ تُحبّ. «لن أغيبَ طويلاً، وأوّل ما تسقطُ النّقود في يدي، سأعود، وسأشتري لك إسوارةً من الذّهب» قال لها. «لا أريدُ النّقود، نحن لسنا بحاجتها، أنا أريدُكَ أنْ تظلّ إلى جانبي». «سآتي في أوّل فرصة، لن أتأخّر ما استطعت». «بل ستغيبُ طويلاً، وستتركنا للفراغ بعدَك». ويتناول أبي بندقيّته، ويخرج من الغرفة على حَشرجات صوتِ أمّي، ولم تُجدِ كلّ محاولاته معها نفعًا، ولمّا أغلق بعده الباب غرقتْ أمّي في الظّلام والأنين.

وخرجتُ معه، فوجدتُ عشرةً من زُملائه ينتظرونه في السّاحة الفسيحة الّتي تضمّ دُور جدّي، وكانوا يركبون الإبل الهِجان، وقد زيّنوا أعناقها بالهُدُب الحمراء الّتي تُشبه هُدُب الشّماغ، وظهرتْ فوهات بنادقهم من خلف ظهورهم كأنّها الرّماح المُشرَعة، وركب أبي راحلته، وانطلقوا جميعًا باتّجاه الجنوب. وظللتُ أراقبه وأراقبهم حتّى اهتزّتْ أخفاف الإبل وقوائمها على ماء السّراب الّذي يلوح من بعيد، وموّهتْ صُورهم انكسارات الضّوء المرتعشة، ثُمّ غابوا عن ناظرَي، كأنّهم نجومُ ليلٍ سقطوا في أفق الظّلام. نعم غابَ أبي، وصدقتْ أمّي. لقد غاب أبي طويلاً. طويلاً جدًا إلى الحدّ الّذي كدتُ أنساه، وأنسى وجهه الحنون. ما

أقسى الغياب يا أبي؛ ما أقسى اللّوعة الّتي يحفرها في القلب! وكان جدّي يسدّ فراغ أبي، وكان أبي. ولكنّه كان يذهب إلى عمّان ليحضر جلسات المجلس التشريعيّ، وقد يبقى أسبوعًا دون أنْ يعود، فأعيشُ في فراغٍ قاتل، وكانتْ أمّي قد بدأت في تلك الفترة في غيابهما تقصّ عليّ بعضَ القصص، وتحدّثني بعض الأحاديث، وتسرد عليّ حكايات البدو من غزو وترحال وقضاء، فنَشِطتْ ذاكرتي، واتّسعتْ مُخيّلتي.

وكبرتُ قليلاً؛ صِرتُ في التّاسعة. وخَيْلُ جدّي كثيرة، وجدّي في عَمّان يحضر المجلس التّشريعيّ، ويقارع أصحاب المجلس في تعديل موادّه، وهذه الخيل تصدأ ظهورُها إذا غابَ فارسُها، فلماذا لا أكون أنا فارسَها. وكان عند جدّي فرسٌ يُسمّيها (الشّقراء) وهي كذلك، وكانتْ قد أُمِرّت، لكثرة طِرادِها وحُسنِ اعتِناء جدّي بها، وكان عنده عشرٌ غيرها على الأقلّ، وكانتْ أفراس إسطبلاتِه تُنتج ما لا أعرفُ ولا أُحصي، تمامًا مثل زوجاته. وعمدتُ إلى إسطبل الشّقراء، وفتحتُ بابَها، فلمّا رأتْني حمحمتْ، فعرفتُ أنّها عرفتْني، فحمحمتُ مُقلّدًا صوتَها. فرفعتْ سُنبُكَها، ثُمّ قائميها، فعرفتُ أنّها تُحيّيني على طريقتها، فمددتُ يدي فربّتُّ على عنقها، فهزّتْه يمنةً ويسرة، ونفضتْ عُرفها الأسود النّاعم، ففاحتْ رائحتها الذّكيّة حتّى عبقتْ في أنفي، ثُمّ إنّني قُدتُها من عِنانها، وخرجتُ بها من الإسطبل، ثُمّ اعتليتُ ظهرها، فوجدتُه أحسنَ مركب، وأوطأ مجلس، وألذّ موضع، ثُمّ شددتُ عليها، وشدّتْ معي، وصحتُ وصاحتْ معي، وعَدَتْ كما لم تعدُ من قبلُ، وسابقتْ بي الرّيح، وطارتْ وطِرتُ معها، وشعرتُ في لحظةٍ أنّني أسبحُ في الفضاء، فانتشيتُ، وحلّقتِ الشّقراء، نعم، حلّقتْ بي في الأفق، ووصلتُ إلى

الغمام الأبيض، وأنعشني رذاذه، وصار يتساقطُ فوقَ خدّي ندًى، وكانت الشّقراء مادّة عُنُقَها يتطاير شَعْرُ عرفِها الأسود الكثيف حتّى يكاد يلامس صفحة وجهي، وتنظرُ أحيانًا إليّ فأرى عينيَها جاحِظتَين وقد شابَ بياضَهما حُمرةٌ من برودة السّماء. وكانَ لُهاثُها يخرجُ بُخارًا حارًّا من فمها ومُنخرَيها، فيتكثّف مع البرد فيسيلُ قَطَراتٍ قَطَراتٍ... هل ما أراهُ حقيقة؟ لا بدّ أنّني أرى الحقيقة، ولكنّني أرى ما أريدُ، وبدأتُ أحلم، أحلمُ أنّني أرتقي في المدارج حتّى وصلتُ إلى النّجوم، أو هكذا خُيّل إليّ...

«وغنّيتُ لحنًا شجيًّا لها فانْتشَتْ... وظلّتْ تَصعَّدُ بي حيثُ لا مُنْتَهى... هناكَ، ولا مُرتَقى... وَسَمِعْتُ وَرَائِيَ صَوْتًا تَخَلَّلَ في الغَيْمِ يَدْنُو فيلمَسُ قلبي: «ألا يَا فتَى...» فانتبهتُ فَإِذْ هُوَ جَدِّي، فَأَرْجَحَنِي الإِضطِرابُ، ولكنّ بسْمَتهُ أرجعَتْ ليْ اتّزانِي، وَكان عَلَى فرسٍ حُرّةٍ هاتِفًا: «يا فتاي تُسابقُني...؟». «نعمْ». «فامْضِ ها نحنُ صِنوانِ... لا تَخْشَ شيئًا... فإنّ العِتاقَ عِتاقٌ بِفُرْسانها... ونَيْلُ المَعالِي بِنُشْدانِها... فلا تَقْبَلَنْ بالصّغائِرِ، إنَّ الكَبِيرَ كبيرٌ على كُلّ صَعْبٍ وَإِنْ مَزَّقَتْهُ المَنايا بأسنانِها».

* * *

(5)

اسمي عبد الرّحيم...
وأريدُ أنْ أخبرك بسِرّ

وقال لي جدّي: «ألمْ تَرُقْ لكَ إلاّ الشّقراء؟». فقلتُ: «رأيتُها أجودَهنّ». فقال: «كيفَ عرفت». فقلتُ: «من عينَيها، ومن صوتِها، ومن أنفاسِها، ومن سنابِكها». فقال: «وكيفَ؟». فقلتُ: «فأمّا عيناها فإنّها لا تُديم النّظر، وإذا سقطتْ نظراتُها تلقّفها قلبي. وأما صوتُها فإنّها إذا صهلت كان لها جلجلة، فيخرج صهيلها صافِيًا دقيقًا. وأمّا أنفاسُها فإنّها إذا عَدَتْ ضَبَحتْ. وأمّا سنابِكُها فإنّها إذا وقفتْ، وقفتْ على ثلاثٍ ورفعت الرّابعة حتّى ما تكاد تلامس الأرض». فصاحَ جدّي، وقام إليّ فاحتضنني، وهتف: «هذا ولدي... هذا ولدي حَقًّا». ثُمّ إنّه قال: «أَيَسُرّكَ أنّها لك؟». فقلتُ: «بلى. ولكنْ أينَ أنا من ذلك؟». فقال: «هي لك، فإنّما الكِرام للكِرام». ولم أصدّق أنّها أصبحتْ لي.

ونَمَتْ بيني وبين الشّقراء بعد ذلك علاقةٌ غريبةٌ، صرتُ أسمعُ صوتَها في قلبي إذا دعتْني، ولقد كنتُ أستيقظُ في اللّيل العميق على صوتِها، ولا أدري كيفَ يصعد ذلك الصّوتُ من أعماقي، نِداءً خفيًّا يسوقني إليها، فأقوم من الخِباء، فآتيها، فأجدها نائمة، قد خفضتْ عُنُقَها حتّى كاد يُلامس الأرض، فأربّتُ عليها قليلاً ثُمّ أعودُ للنّوم. وصرتُ إذا خرجتُ إلى البادية، ومضيتُ إلى دور أعمامي عند (غازي)

في نواحي الجفر، أشتاقُها، فأهتفُ باسمِها فما أكادُ أُنهي حتّى أراها فوقَ رأسي، فكيفَ كانت تقطع تلك المسافات وهي بعيدة؟ هل كانتْ لها أجنحة؟ هل كانتْ تطير في الفضاء كما فعلتْ معي ذلك اليوم الّذي لحق بي فيه جدّي؟ هل كانتْ روحُها الّتي تحضر عِوَضًا عن جسدها؟ أم أنّ الصّحراء قد لعبتْ بعقلي، والصّحراء تخلبُ ذا اللّب إذا أصحر دون أنْ يكون ذا زاد؟ أمّ أنّ ذلك من خيالاتي، أم أنّها حقيقة، أم أنّ حُبّي لها جعلني أرى فيها ما لا يُرى؟!

وكان جدّي في اللّيالي بعد أنْ يقضي بين النّاس، يجلسُ إلى أولاده وأحفاده، فأجلسُ عن يمينه، فيُحدّثنا أحاديث الجِهاد والمُقاومة، ولقد حفظتُ عنه أشياء لم أكنْ لأعرفها، وقد وقعتْ قبل أن آتي إلى هذه الدّنيا، حدّثنا عن ثورة البُراق، وعن انتفاضة النّاس للدفاع عن المُقدّسات، الثّورة الّتي انطلقت من المسجد الأقصى في القدس لتمتدّ إلى الخليل وبئر السّبع وصفد وعكّا، وكان يرسمُ لي صورةَ عكّا حتّى كأنّني أراها، ولقد عزمتُ إذا كبرتُ أنْ أزورها، وأقبّل عتبة مسجد أحمد باشا الجزّار فيها، وأقرأ الفاتحة على روحه الطّاهرة. وحدّثني عن الأبطال محمّد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزّير، وعن تسابقهم للصّعود إلى أعواد المشانق حينَ حكمَ عليهم الاحتِلال الإنجليزيّ بعد تلك الثّورة بالإعدام، وأنشدَنا أبيات إبراهيم طوقان فيهم، وحفظتُ عنه قوله:

يومٌ أطلَّ على العُصُورِ الخالِيَةْ

وَدَعَا: أَمَرَّ على الورى أَمْثالِيَهْ؟!

فأجابَه يَوْمٌ: أَجَلْ أَنا راوِيَـةْ

لِمحاكِمِ التَّفْتِيشِ تِلْكَ الباغِيَـةْ

وقال إنّ عَطا الزّير كتب لأمّه رسالةً ليلة إعدامه، وقال لها: «يا أمّاه، نحن الشّمس وأعداؤنا اللّيل، والشّمس تهزمُ اللّيل وإنِ استطال في غيابِها، وإذا طلعتْ ولّى كلّ هذا الظّلام. يا أمّاه لقد أعددْتني لهذا اليوم، فلا تُطيلي الحُزن عليّ، وإنّ موتًا يورث نعيما مقيمًا لهو شرفٌ. أوصيكِ يا أمّاه أنْ تستمرّي في زرع التّين والزّيتون، وأنْ تسقي الشّجيرات، والورود في حاكورتنا، سلّمي لي على أهلنا، وجيراننا. الوطن لن ينسَى ثوّاره، وإنْ مِتّ يا أمّي فسأعود؛ سأعود في طلّة الفجر، وفي بسمة الصُّبح، وفي زغرودة الأمّهات، وفي بَحّة الأذان. وأوصيك يا أمّي ألاّ تبكي عليّ، بل عطّري اللّيل بالدّعاء لي». وبكيتُ وأنا أسمع الرّسالة، وأدرتُ وجهي إلى الجهة الأخرى حتّى لا يرى أحدٌ دموعي. وقال جدّي قبل ثلاث سنوات بدأتْ ثورة أخرى، قام بها عزّ الدّين القسّام، وفرحان السّعدي، وقد استُشهِدا، ولم يخونا ولم يتخاذلا، وأمّا فرحان فقد كان قد جاوز الثّمانين حين انضمّ إلى رفيقه عزّ الدّين في أحراش يعبد، وكانوا يتمركزون في الجبال، ويعتصمون في الكهوف، ولا مُعينَ لهم إلاّ عزيمتهم، وقُوّة أملهم في تخليص بِلادنا من اليهود والإنجليز، وحينَ سيق الشّيخ فرحان إلى منصّة الإعدام لم تشفعْ له عند أعدائه أعوامه الثّمانون ولا صِيامه في رمضان، فارتقى شهيدًا وهو صائم ليُفطِر في الجنان.

ولم تخلُ ليلةٌ من ليالي السّمر دون أنْ يقصّ علينا جدّي مثل هذه الحكايات، وكنتُ أنا وخالي نائل يبدو علينا التّأثّر جليًّا. وجمعنَا ذات يومٍ وصفّنا كما لو كنّا سنخوض معركةً، وكان فينا مَنْ لم يتجاوز التّاسعة مثلي، ومَنْ نيّف على الخمسين، ووزّع علينا بنادق، وهتف: «إنْ لم

تُجاهدوا بهذه البنادق، ولم تطردوا بها المحتلّين من فلسطين فما نفعُ وجودِكم؟ وما معنى أنْ تُسَمُّوا أنفسكم رِجالاً؟». ثُمّ شدّ على الخيل وشددْنا معه، ومخرنا عُباب الصّحراء، وتدرّبْنا على القِتال، وكان إذا تعبَ درّبنا الحاجّ هارون، وكان ابن عمّه، وكان مقاتِلاً شرسًا وعنيدًا، وله قصصٌ تقترب من الأساطير، وسأرويها إنْ كان في الحرف مُتّسع.

وفي تلك الأعوام كان الإنجليز يُطاردون الثّوّار، ويُعلنون عن مكافآت نقديّة لمن يدلّ على قادتهم فيأتي بهم أحياءً أو أمواتًا. وكانوا إذا قبضوا على بعضِ هؤلاء الثّوّار أعدموهم بعد محاكمة صُوريّة لا تستمرّ إلاّ لساعات، وكان بعضُهم يُعدَم في زنزانته، وبعضُهم دون محاكمة. ولم تكنْ أحكام الإعدام هذه تَطَال أحدًا من اليهود مع أنّهم كانوا يعيثون في الأرض فسادًا وتقتيلاً، وسفكًا للدّماء وتخريبًا!

وما زلتُ أذكر هذا اليوم بصورةٍ جليّة، كان الوقتُ عصرًا، وكُنتُ أجلسُ إلى جدّي حين دخل علينا فجأةً عددٌ من الرّجال المُسلّحين، فهبّ جدّي واقفًا، وظننتُ أنّه سيُسارع إلى استلال بندقيّته، ولكنّه ابتدرهم فاحتضنهم، واحِدًا واحِدًا، وبكى على كتفِ الأخير، ثُمّ نظر في وجهه، وأزال عن وجهه وشَعره ما علق به من تراب، وقال: «سامحونا». ولم أفهم شيئًا، وأردف وهو يتقدّمهم: «يا هلا... يا هلا...». ونادى على خَدَمه ليُسارِعوا للقيام على الخدمة... كان عددهم سبعة، قد غبّرتِ الغبراء وجوههم، ولوّنت الشّمسُ سِحَنَهم، وأكل طول النّوى أبدانهم، كانوا شُعثًا غُبْرًا، تتهدّل شعورهم من تحت شماغاتهم مُلبّدة لطول عهدها بالماء، وكانتْ شِفاههم جافّة متشقّقة لشدّة عطشهم، ومع هيئتهم الّتي تبدو مُتعبةً وزَرِيّة، إلاّ أنّهم كانوا

مَهيبين، وكانوا يملؤون العين، هذا ما شعرتُ به، وكانوا يلبسون صَفَّين مُتقاطِعَين من الرّصاص؛ لم يكنْ مِشطًا واحِدًا كما كان جدّي وأبناء عمومتي يلبسون، بل مِشْطَين، ولم أعهدْ ذلك في فرساننا، ولم أدرِ من أيّ البلاد هم، ولا من أيّ الأصقاع وفدوا، ولكنّهم بالتّأكيد غرباء لم أرهم مِن قبلُ، وما فَتِئ جدّي أنْ فتحَ لهم صَدْر البيت، وهتف وهو يُشير إليهم بأنْ يرتاحوا على الفُرُش والبُسُط: «أهلاً بثّوار فلسطين». ورنّت الكلمتان (ثُوّار)، و(فلسطين) في أذنَيّ رنينًا ظلّ عالِقًا بها أمدًا بعيدًا، وقفزتْ صورة فرحان السّعدي وعزّ الدّين القسّام فجأةً أمام ناظريّ، وقفز قلبي معها، وظننتُ أنّ فيهم منهم أحدًا، أو لعلّ فيهم محمّد جمجوم أو عطا الزّير أو فؤاد حجازي، وأوقفتُ سيل تهيّؤاتي حينما تذكّرتُ أنّ كلّ هؤلاء قد استُشهدوا، فقلتُ لعلّ فيهم من كان أخًا لهؤلاء الأبطال أو ابنًا أو قريبًا. وامتلأتْ عينايَ بالفرح، ورحتُ أتملاّهم، وأُطيل النّظر في وجوههم، وقد بدَوا لي أبطالاً خرجوا من الحُلم، أو من صُورٍ رسمْتُها لهم في خيالي لأجدهم واقعًا أمامي. ونادى جدّي فجيء بالماء، فسقاهم بيده، فحاولوا التّمنّع فرفض أنْ يستجيبَ لهم، وقال: «ثُوّار فلسطين على رؤوسنا، ويَحُلّون في قلوبنا قبل مضاربنا، ونتعبّد الله بخدمتهم». ثُمّ سكب لهم الماء من الأباريق ليغسلوا أيديهم ووجوههم، ولم تُجدِ مرّة أخرى محاولاتهم في مَنْعه من أنْ يفعل ذلك بنفسه ولا محاولاتنا، وأصرّ أنْ يحظى بهذا الشّرف، وأردف: «أنا أتبارك بحلولكم في بيتي». ثُمّ ذبح لهم شياهًا كثيرة، وكان يُكبّر ويحمد كلّما ذبح واحدةً، ثُمّ أوقد تحتها النّيران، وصنع لهم طعامًا مشهودًا، وجمَع عليه فقراء القرية، وقرّبه إلى الضّيوف، وقال: «هنيئًا مريئًا، ما حلّ ببيتي

أعزّ منكم أيّها الصّادقون». وجلستُ بينهم آكل معهم، وأحدّثهم بما عندي، وهم يستمعون ويعجبون، ويضحكون أحيانًا استئناسًا بأقوالي. وقبلَ أنْ يُتِمّوا طعامهم، جاء مندوبٌ من مخفر الرّشاديّة، بعثه الضّابط الإنجليزيّ، وكُنّا ما نزال في مضافتنا، فقصد جدّي من دوننا، وهمس في أذنه وأنا أسمعه: «هؤلاء الّذين استقبلْتَهم في بيتك، غير مرغوبٍ بهم في هذه البلاد، فأخرجْهم من هنا قبل أنْ يقع ما لا يُحمَد عقباه». ورأيتُ عيني جدّي تجحظان، وأوداجه تنتفخ، وحدقاته تحمرّ، ووقف الضّابط قُبالته، وأمسكَ جدّي على مقبض السّيف الّذي كان لا يُفارقه، وسحبَه من غِمده قليلاً، وشعرتُ بأنّ رأس الضّابط سيطير في لحظة، وزفر جدّي، ورأيتُ يده المرتعشة تهدأ قليلاً، وتُعيد السّيف إلى قِرابه، ولكنّه صرخ في وجهه: «اسمع أيّها الضّابط، إنّ هؤلاء ضيوفي، ولو كنتَ تعرف ما معنى ضيوف الشّيخ لما سوّلتْ لكَ حماقتُك أنْ تقول لي هذا الكلام، هؤلاء الكرام لن يخرجوا من هنا إلاّ بموافقتي وموافقتهم هم، اذهبْ وبلّغ جماعتك بما قلتُه لك». وطرده من المضافة شرّ طِردة، ورأيتُ وجه الضّابط يمتقع، ولفّ جسده وغادر لا يُلوي على شيْء، وشعرتُ أنّ هؤلاء الضّيوف أعزّ على جدّي من أبنائه، وعرفتُ يومئذٍ ما معنى أنْ تحمي ثائرًا تُفتّش الدّولة المُستعمرة رمل الصّحراء لتقتله، وشعرتُ أنّ جدّي أقوى من الدّولة، وارتاح بال الثّوّار لمّا سَمِعوا هذا الكلام، وأتمّوا طعامهم في هناءةٍ، ثُمّ جهّز لهم المبيت، وطلبَ منهم أنْ يرتاحوا، وأنْ يُحدّثوه عن الثّورة والثّوّار في الغد.

وتسلّلتُ إلى المكان الّذي أعدّه جدّي لهم ليرتاحوا، ورآني أحدهم، فقال لي: «اقتربْ»، فاقتربتُ، وجلستُ أحادثه، وسمعتُ غطيط

الآخرين، وقد غرقوا في بحر النّوم، وسألتُه عن اسمه، فقال: «اسمي عبد الرّحيم». وتلمّستُ الرّصاصات في المِشطين اللّذَين وضعهما إلى جانبه، فسألني: «هل تُعجبك؟». فقلت: «نعم». «هل تريدُ أنْ تُصبح ثائرًا مثلَنا؟». فقلتُ: «ولكنْ ماذا يفعل الثّائر؟». فأجابني: «يُعيد إلى بلده وجهه، وفرحته، ويُدافع عن كرامته ومروءته». فقلتُ له: «نحن هنا أيضًا نفعل ذلك». فضحك، ثُمّ سألني: «وأنتَ ما اسمُك؟». فقلتُ: «مشهور». «والشّيخ حمد؟». «جدّي». «إنّه يُحبّك». «وأنا أحبّه». «إنّه بطل». «وأنا بطل». وضحك من جديد، ثُمّ مال إليّ قليلاً، وقال: «أريدُ أنْ أُخبركَ بسرّ؟». فانتبهتُ، وضيّقتُ عينيّ إشعارًا بأنّني مستعدّ لسماع السّرّ، فقال: «الاحتِلال وضع جائزةً مقدارها عشرة آلاف جنيه لمن يدلّ عليّ أو يقتلني». فضيّقتُ عينيّ من جديد، وزممتُ شفتيّ، وأطلقتُ صفيرًا خافِتًا وطويلاً، وسألتُه: «لماذا يريدون قتلَك؟». فقال: «لأنّهم يريدون أنْ يُعطوا فلسطين لليهود، ونحن الثّوّار نقف في وجههم». فخشّنتُ صوتي وأنا أقول له: «وأنا سأقف في وجههم، وسأدافع عنك، ولن أجعلَ أحدًا يصل إليك». فقال لي مُداعبًا: «كيفَ وأنتَ لا تحمل بندقيّة». فأجبته: «عندي بندقيّة، وأنا قنّاص، ولديّ فَرَسٌ أسرعُ من الرّيح اسمُها الشّقراء». وضحك هذه المرّة طويلاً، وقال لي: «اذهبْ لترتاح، الوقتُ تأخّر على صغيرٍ مثلك». وقمتُ حتّى إذا خطوتُ ثلاث خطواتٍ عدتُ، فقلتُ له: «ابقَوا عندنا طويلاً». فردّ: «غدًا في الصّباح سنرحل». فقلتُ: «ولماذا العجلة؟». فقال: «إنّ فلسطين تنتظرنا». فقلتُ: «بما أنّكم راحِلون أريدُ منكَ ذِكرى». فابتسم حتّى لمعتْ أسنانه على ضوء السّراج الخافت، وقال: «سَلْ ما شِئت».

فقلتُ: «أريدُ رصاصة». وضحك ضحكةً خفيفة، وقال: «فقط رصاصة؟!» فأجبتُ: «فقط رصاصة». فتناول مشطه، واستلّ منه رصاصة، ومدّها إليّ، وقال: «ها هي». فقلت: «ليس بعد». فثنى يده، وضيّق عينَيه، وسأل: «وماذا بعد؟». فقلتُ: «تنقش عليها بشبريّتك اسمي». فاستغربَ طلبي، ولكنّه لم يكنْ يملك إلا أنْ يستجيب له. وحفر بدقّة اسمي على جسم الرّصاصة، وكانت الحروف واضحة، غير أنّ دائرة الميم في الحرف الأوّل لم تكنْ مُغلقة، وتناولت الرّصاصة، وتفحّصْتُها جيّدًا، وقلتُ بنبرةٍ غير راضية وأنا أهزّ رأسي: «لا بأس». فقال وقد ازداد استغرابه: «هل هناك شيءٌ آخر؟». فقلتُ: «بالطّبع». فاستطلعَ الأمر، فقلتُ: «عليكَ أنْ تحفر اسمكَ على الطرف المقابل»، وأعدتُ له الرّصاصة.

في الصّباح، رحلوا كما قال، دون أنْ أودّعهم، أو أراهم ثانيةً، كان رحيلهم مُفاجِئًا، كأنّهم لم يحلّوا في ديارنا تلك اللّيلة الاستثنائيّة، كان رحيلهم مثل قدومهم حلمًا لم أفق منه رغم مرور سنوات طويلة على ذلك. كان رحيلهم وجعًا في الخاصرة ظلّ ينخزني كلّما تذكّرتُهم، لماذا لم يبقَوا فترةَ أطول، لقد أصابني انكِسارٌ ما في روحي لا أدري كيف هو، كنتُ أودّ أنْ أقول لهم أشياء كثيرة، أنْ أحدّثهم عن أشياء أكثر، أنْ أرحلَ معهم رُبّما، أنْ أسألهم أسئلةً موجِعة لم أبرأ من وجعها في حياتي كلّها، ولكنّهم – وواحسرتاه – رحلوا دون كلمةٍ واحدة، لا أدري كيفَ طوّعتْ لهم أنفسُهم ذلك، أنْ يملؤوا قلبي بالحبّ، وينزلوا فيه منزلةَ الحبيب، ثُمّ فجأةً ينزعوا أنفسهم منه دون استِئذان، هل كان هذا مِمّا يُمكن احتماله؟! لم أشعرْ بهم حينَ أزمعوا الرّحيل، لم يُوقِظني جدّي،

لم أسمعْ صهيل خيولهم، ولم أرَ ظلالهم في غبش الفجر وهم يذهبون غربًا إلى حيث يُصبحون مثل شجر تلك البلاد، سامقين، ومتجذّرين.

مرّ على رحيلهم شهران، جاءني جدّي، واحتضنني، وقال لي: «لم تعدْ طِفلاً، وأنا أريدُ أنْ أقول لك شيئًا». فقلتُ: «ماذا حدثَ له؟». فسألني: «مَنْ هو؟». فقلتُ: «عبد الرّحيم». فأخذه الدّهَش وقال: «كيفَ عرفت؟». فقلتُ: «سمعتُ صوته فجر هذا اليوم، وهو يقول: «مَنْ يرث بندقيّتي؟»». فتنهّد وقال: «نعم، لقد استُشهد المناضل عبد الرّحيم، أفرغ الإنجليز في رأسه عشرَ رصاصات». لم أبكِ، لم أفعل شيئًا ذا بال، فقط مددتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ الرّصاصة الّتي أهداها لي، ورفعتُها أمام عينَيّ، وقلتُ بتحدٍّ: «عبد الرّحيم لم يمت. الشّهداء لا يموتون، وأنا سأرثُ بندقيّته». وقبّلتُ الرّصاصة، ثُمّ أعدتُها إلى جيبي، وظلّتْ ترافقني أكثر من خمسين عامًا، وكلّما اشتقتُ إلى صوتِه، أخرجتها، ونظرتُ إليها لأسمعه، وهو يقول: «اسمي عبد الرّحيم... وأريد أنْ أُخبرك بِسِرّ». وكانتْ هذه الرّصاصة سِرّنا الصّغير، ظلّ السّرّ أمينًا لم يتغيّر فيه شيء، باستثناء دائرة الميم فقد انمحى جزءٌ آخر منها!

* * *

(6)

لكَ قلبُ فارس

أمعنَ أبي في غيابه، كانتْ تُغيّبه صحراء أخرى، الصّحراء الشّرقيّة من الأردنّ، خطوط النّفط الّتي تعبر الصّحراء من العراق باتّجاه فلسطين عبر قلبها الأردّن تدخّلتْ في تشكيل الفرق العسكريّة وتمركزاتها؛ حيثُ كان يستقرّ في المفرق في إحدى القواعد بعد أن التحقَ بقوّات البادية الرابضة هناك.

لم يكنْ بوسع أمّي أنْ تفعل الكثير، البيتُ مع ضجيجنا نحن الأولاد لم يكنْ ليشكّل لها فارِقًا في غياب صاحب البيت، وما نفعُ البيت إذا مال من جهة عموده؟! كان أبي ملاكَها الحارس، هذا الّذي رفضتْ أنْ تتزوّج منه في البداية، تحوّل إلى حبيبٍ يستقرّ في شِغاف القلب، يَسبيها، ويُؤلمها غيابه السّحيق، ويجعل منها امرأةً أخرى، ولذا كنتُ أنظر إليها خلسةً في الأماسي الخريفيّة تجلس على دكّة البيت، وقد مالت الشّمس للغروب، واتّحد لونها مع رمل الصحراء، واضعةً يدها تحت خدّها، ساهمةً، تتقاطر دموعها في صمتٍ على وجنتَيها. ظلّتْ أمّي تبكي في تلك المساءات الخريفيّة، تَخِيطُ شماغًا جديدًا وتبكي. يا لأمّي المسكينة!!

غيابُ أبي الطّويل لم يعدْ يؤثّر فِيّ. أنا الّذي نشأتُ قويًا في حضن الصّحراء، أبٌ آخر كان يتولّى المهمّة؛ جدّي (حمد)، السّنوات الثلاث

التّالية الّتي قضيتُها في الرّمال اللاهبة، أتقنتُ فيها ركوب الخيل، واستخدام البندقيّة، والحديث إلى روحها.

كانت الصّحراء يومئذٍ تبدو قفرًا غير مُتناهٍ، النّظرة الأولى إلى ثراها الممتدّ يُعطيكَ شعورًا بحلول الموت في كلّ ذرّة، الصّحراء لمن لم يَعِشْها همود، لا شجرَ، لا ماء، لا إنسَ، لا جِنّ، وعطشٌ، وشِفاه مُتيبّسة من لهب جهنم في الصّيف، وفراغ مُمتدّ، وصمتٌ مُطبِق، وهدوءٌ مَهيب، وآفاق بلا نهايات؛ ذلك ما تُوحيه لك النّظرة الأولى العابرة، لكنّ النّظرة الثانية العميقة ستكشفُ لكَ ألف حياة خلفَ كلّ موتٍ، وألف أملٍ ينبثق من تحت كُثبان اليأس، ومن أدلّ على الحياة من الصّحراء!!

ليالي طويلة قضيتُها مُستلقِيًا فوق رملها، لم أكنْ أدري أيّة أحلامٍ تلك الّتي كانتْ تدفعني إلى أنْ أفعل ذلك. أتلثّم بشماغي إذا لَفَحني هواؤُها الحارّ، أغطّي وجهي كلّه فلا تبدو منه إلاّ عيناي، ثُمّ أركبُ الشّقراء؛ هي تعرف ما أريد، تطير بي إلى أعمق نقطةٍ باتّجاه الشّرق، حتّى إذا سكنَ كلّ شيءٍ، ولم يكنْ في المهمه المُترامي سِوانا، وانقطعتْ أصوات الذّئاب والكِلاب، ولم يكنْ يلوح في المدى إلا التّيه، والشّمس تأذن بالغياب، في النّقطة الّتي يبدأ فيها الضّوء ينسحب ليحلّ محلّه السّواد على الوجود، والشّفق على المدى، آنئذٍ تتوقّف الشّقراء، وأهبطُ عنها، تصهل كأنّها تسأل، وتنفض رأسها، فيتطاير شَعْر عرفها كأنّها غادةٌ أعجبَتْها نسائم الغروب فنثرتْ فيه فِتْنَتَها، وراحتْ تَمايلُ على إيقاع الجمال. أمّا أنا فأربّتُ على عنقها: «اهدئي يا حبيبتي» أعدها بليلةٍ استثنائيّة، ثُمّ أستلقي على ظهري، مادًّا ذراعَيّ على اتّساعهما، وأبدأ الغناء، أغنّي لنفسي أغنيات الرّعاة المجهولين الّذين غابوا في الكُثبان ولم

يبقَ ما يدلّ عليهم إلا ألحانهم الّتي يُدندِنُ بها العُشّاق، وترانيم البدو الرُّحّل الّذين خطفَ حياتهم بريق السّراب وهم يبحثون عن الماء، وحُداء المسكونين بالرّضا والحبّ والسّكينة... كنتُ كلّما غنّيتُ بيتًا ظهرتْ نجمة وضحكتْ، كأنّ غنائي هو الّذي أطلعها من غياهبها، أو أحياها من موتها، فأضحكُ بدوري، وأجرّب اللّعبة مع نجمةٍ ثانية، فأغنّي بيتًا آخر، فتسطع نجمةٌ أخرى، وأضحكُ وتضحك، حتّى إذا أضأتُ مئة نجمةٍ في السّماء المُظلِمة، قمتُ فجمعتُ من الحطب والشُّجيرات والعيدان ما استطعتُ، فأوقدتُ تحتها النّار، كانتْ شُجيرات صحرائنا ذات رائحةٍ ذكيّة، ما إنْ تمسّها النّار حتّى تفوح بالعطر، تتراقصُ ألسنةَ اللّهب في الفضاء المُطلَق، وأنا أجلسُ أمامها، تُضيءُ وجهي، أهتف: «أضيئي ليلي أيّتها النّار بالحِكمة»، ثُمّ أغلي فوقها الشّاي، وأبقى اللّيل كلّه أشربُ الشّاي وأغنّي: «يا سَماءَ الله فِي اللّيلِ البَهيمْ؛ كُلُّ نَجْماتِك لي... سوفَ أَغْدُو في حياتي ما أَرِيْمْ... حارِسًا مُستَقْبَلِي... أنا مُذْ جئتُ على العَهْدِ القَدِيْم؛ ضارِبًا في الأزلِ... لن أعيشَ الدّهر كالطّفل اليتيمْ، أتهدّى سُبُلِي... أنا سيفُ الحقّ بالمجدِ يَهِيْمْ... واحْتشادُ الجحْفلِ... وأنا صوتُ البِشارات العظيمْ، وحُداءُ الأملِ...». وترقصُ الشّقراء على وقع الغِناء، وتطرب إلى إيقاع الشّعر، كان قلبي يومها مملوءًا بالآمال العريضة، كان كل الكون يومئذٍ لا يتّسع لأحلامي.

وكبُر الطّفل، وكان لا بُدّ للهلال أنْ يصير بدرًا. وصار جدّي يعتمدُ عليّ في كلّ شيءٍ، ولئن كان خالي الأكبر (نائل) ساعده الأيمن، فإنّني كنتُ ساعدهما معًا. وكُنّا ثلاثتُنا نهيم بالخيل، ونعشق الإبل،

ونقرض الشّعر، ونرقصُ بالسّيف، ونتوّعد غزاتنا بالويل، ونُطيلُ الوصف، ونستعدّ ليوم الزّحف.

وكان عمّي (هارون) يزورنا كثيرًا، ولازمَ جدّي فترةً، وكان قريب السّنّ من خالي (نائل)، وكثيرًا ما اجتمعا للتّدرّب على القنص، وعلى إصابة الأهداف المتحرّكة، وسمعتُ عمّي (هارون) ذات مرّة يقول لخالي (نائل): «الإنجليز ثعالب، يُبدون ما لا يُخفون لك». «أعرف، أضفْ إلى أنّهم يسيطرون على كلّ شيء، وأرواحنا بأيديهم». «إنّهم يملكون كلّ مقدّرات الدّولة: النّفط والسّلاح والمال». «الإنجليز شياطين، أموت وأعرف ما الّذي جاء بهم إلينا؟». «لقد جاؤوا لغاية، بالتّأكيد لم يأتوا ليقاتلوا معنا، أو ليُخلّصونا من مستعمر كما يزعمون، كيفَ لكفرةٍ أنْ يُخلّصوا مُسلِمًا من مُسلِم آخر يُعَدّ في نظرهم مُستعمِرًا، هذه كذبةٌ لا تنطلي إلاّ على السُّذّج». «هذه لهاية يا هارون، إنّ هناك ما هو أكبر». ويستحثّه هارون على القول، فيتابع نائل: «أبي يعرفُ مخطّطاتهم، لقد كانتْ مكشوفةً منذ البداية، ولكنّها الآن صارتْ عند أبي بالوثائق والأرقام؛ والهدف فلسطين». ويستمرّ الحديثُ بينهما طويلاً، ويتهامَسان، وأسمعُ شيئًا، وتنفلتُ من السّمع أشياء، ولكنّني تأكّدتُ من أنّ (هارون) قال لخالي (نائل): «لقد نويتُ على تشكيل طليعة مقاتلة، تضمّ خيرة الفرسان، وسأنتقيهم من الّذين يبيعون أرواحهم دون أنْ يُفكّروا في العواقب». رأيتُه متحمّسًا جِدّا، ورأيتُ خالي متحمّسًا مثله، وقال له هارون من قبلُ: «ما رأيُكَ أنْ تكون معي في هذه الطّليعة؟». وغابا عنّي زمنًا بعدها دون أنْ أراهما؛ كأنّهما كانا حُلْمًا شفيفًا.

وكان أبي يعود من المفرق كلّ ستّة أشهرٍ أحيانًا، وقد تطول الفترة أكثر من ذلك، وذات مرّة حينَ عاد، احتفتْ به أمّي، ورأيتُ الفرحة في عينَيها أوّل ما رأته، والدّمعة تكاد تنفلتُ من هناك، يا لأمّي المسكينة! إنّها تبكي في كلّ الأحوال، وكانتْ قد جهّزتْ له طعامًا طيّبًا، وغسلتْ قدمَيه في الطّشت بماء فاتر، وظلّتْ تفركهما له حتّى بَشْبَشا، ثُمّ لم تكنْ أمّي في ذلك اليوم أمّي، لقد غدتْ امرأةً أخرى، صار وجهها مُشرِقًا متفتّحًا كأنّه زهرةٌ في الرّبيع، نشيطةٌ كأنّها فرسٌ جَموح، كانتْ توزّع ابتساماتها ودعواتها علينا بدل اللّعنات الّتي كانت تُصبّ فوق رؤوسنا في غيابه.

بعد أنِ ارتاح أبي، دعاني إليه، سألني: «هل الشّيخ سُلطان ما زال يُدرّسك؟». «لا يا أبي». «ماذا حصل؟». «لقد عادَ إلى الشّام، أو سافر إليها ليتمّ دراسته، هكذا فهمتُ من جدّي». «وهل معكَ شيءٌ مِمّا تعلّمْتَه منه؟». «كلّ شيءٍ يا أبي، لقد حفظتُ عنه كلّ ما علّمني من القرآن والحديث والشّعر والتّاريخ والأدب والجبر والحِساب». «وماذا عن الشّعر؟». «حفظتُ على يَدَيه أكثر من ألفِ بيتٍ من الشّعر». وكان أبي مُضطجِعًا فاعتدل في جلِسته، وتنحنَح، وظنّ أنّني أمزح أو أبالغ، فقال لي مُستطلعًا: «ومن يُعجِبكَ من الشّعراء مِمّن حفظتَ لهم؟». فقلتُ: «من قدمائهم أم مِنْ مُحدَثِيهم؟». فزادَ ذلك في إعجابه، وهزّ رأسَه يمنةً أو يسرةً، وحبسَ الكلمة في فمه قبل أنْ يقول: «من كليهما». فقلتُ: «أمّا من القُدامى فيُعجبني عنترة، وأمّا من المُحدَثين فيُعجبني الشّابّي». وأخذ أبي نفسًا عميقًا قبل أنْ يسألني بفخرٍ: «وما أعجبكَ من عنترة؟». فقلتُ: «معلّقته الّتي يقول فيها:

«ما زلتُ أرميهمْ بثُغرةِ نَحْـــرِهِ

ولَبانِهِ حتّى تَسَرْبَلَ بالـــدّمِ

فازْوَرّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلَبانِـــــهِ

وشَكَا إليّ بِعَبْرةٍ وتَحَمْحُـــــمِ

لو كانَ يدري ما المُحاورةُ اشتكى

وَلَكانَ لو عَلِمَ الكلامَ مُكلِّمي»

فقفز أبي من مكانه كأنّ عقربًا لسَعَتْه، ونظَر حوله كالمأخوذ، وخلعَ شِماغه عن رأسه ولوّح به في الفضاء قبل أنْ يقذفه بعيدًا، وابتدرني فاحتضنني طويلاً، كأنّه أوّل مرّةٍ يراني أو يسمعني، وظلّ لافًّا ذراعَيه حولي، وهو يقول: «أنتَ فارس، تملك قلبَ فارس، لو لم تكنْ كذلك، ما حضرتْ شجاعة الخيل في معلّقة عنترة دون سِواها في وعيِك». ثُمّ صمت، وظلّ على عِناقه، وسمعتُ صوتَ أنفاسَه، ثُمّ تركني، فنظرتُ في عينَيه، فإذا هما تترَقْرَقان، ثُمّ عادَ إلى جِلْسته، واتّكأ، ليطرب إلى ما أعجبني من شعر الشّابّي، فسارعتُ إليه بما أحّب دون إمهال، وشدوتُ كما لو كنتُ أقفُ في سوق الشّعر، أو على قتَبٍ، أو فوقَ نَشَزٍ من الأرض، وأنشدتُ:

«سَأعيشُ رَغْمَ الدَّاءِ والأَعْداءِ...». فأكملَ أبي: «كالنِّسْر فوقَ القِمَّة الشَّمّاءِ». فثنّيتُ: «أَرْنو إِلَى الشَّمْسِ المُضِيئَةِ هازِئًا». فأجاز: «بالسُّحْبِ، والأمطارِ، والأَنواءِ»... وتمايل أبي طربًا وأنا أبثّ البيتَ الأخير كُلَّ ما في أعماقي من تَحَدٍّ:

لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ ولا أَرى

ما في قَرارِ الهُوَّةِ السّـــــوداءِ

وصرخَ صرخةَ صوفِيّ أخذه الوَجْد، أو هيمان انثقبَ له قلب، وهتف وهو مُغمِضٌ عينَيه: «الله... الله...». ووقفَ، ووَدّ أنْ يقول: «أينَ كنتَ عنّي، أو أينَ كُنتُ عنك؟». وتذكّرتُ جدّي الّذي كان يدفع شاةً كلّ شهرٍ للشّيخ سُلطان من أجل أنْ يعلّمني كلّ ما يعرف، وظللْنا تلك اللّيلة نتناشدُ أنا وأبي الأشعار، أنا مِمّا أحفظ وأختار، وهو مِمّا قَرَضَ وغنّى، وكان شاعِرًا مطبوعًا، لولا أنّ العسكريّة أخفتتْ نجمَه في الشّعر، لكانَ مِمّن يُشارُ إليهم بالبنانِ اليوم!

كانت أرضُنا قد تخفّفتْ قليلاً من هجَمات المُوالين لابن سعود على أراضِينا، وثقتنا بالدّولة بدأتْ تنمو هي الأخرى في قدرتها على حماية تلك الحدود من تلك الهجمات المباغتة. وتدخُّل الإنجليز حلّ كثيرًا من المشاكل على الحدود، وولّد أخرى، وكانتْ طائرات الإنجليز إذا حلّقتْ فوق جمهرةٍ من البدو الغُزاة القادمين من الجنوب أو من الشّرق وقذفتْهم براجِماتها لم تُمهلهم أنْ يعرفوا ما حدث، لأنّ لحمهم ودمهم سيكون لحظتَها قد اختلطَ برمل الصّحراء، وستكون جُثثهم قد دُفِنَتْ في باطنها، وفي كلّ مرّةٍ كان تَسويغ الحادث جاهِزًا: لقد كانوا يريدون تدمير الدّولة!!

وقلتُ لأبي: «لقد قرّروا إنشاء طريق رأس النّقب قرب معان – العقبة، وأنا أريدُ أنْ أعمل فيه». «وماذا ستعمل يا بُنيّ؟ أليستْ لديكَ مدرستك؟». «في العطلة يا أبي. يقولون إنّهم يحتاجون إلى حُرّاس للمنشآت على الطّريق، وأنا أستطيع أنْ أعمل في هذا المجال». كانت رائحة القار المغليّ تكاد تُصيبني بالإغماء لمّا وصلتُ إلى الموقع، كان هناك عددٌ آخَر من البدو الّذين جاؤوا للبحث عن عمل، لم أتعرّف على واحدِ

منهم مع أنّ مَنْ نظرَ إلينا يومئذٍ سيرانا نُسخًا متشابهة أو متطابقة. تلقّانا رجل طويلٌ أشقر، إفرنجي، إنجليزي، أو خواجة، لا أدري ماذا كانوا يُنادونه، وكان يفرزنا بمجرّد النّظر إلى وجوهنا، كُنّا ننفرز إلى صفّين: (رِجال، وأولاد)، أمّا الرّجال فكانوا يتقاضَون راتبًا مقداره (7) دنانير في الشّهر، وأمّا الأولاد فكانوا يتقاضَون نصف هذا الرّاتب. وبِعصًا سوداء، كان يفرّق بيننا، واصطفّ عدد منّا هنا، وآخَر هناك، ولمّا وصل الرّجل الأشقر إليّ طامنتُ رأسي، ورفعتُ كعبَيّ، ووقفتُ على أصابع قدَمَيّ، كان عمري يومئذٍ ثلاثة عشر عامًا، وأردتُ أنْ أقول له إنّني رجلٌ وأيّ رجل، وأنّ عليه أنْ يفرزني إلى جانب ذوي الرّاتب الكامل، لكنّ عَصاه الغليظة أفرزتْني إلى جانب الأولاد، وهكذا بجرّة عَصا فقدتُ نصفَ الرّاتب المُنتَظر، وصرتُ أتقاضَى على عملي حارِسًا في مشروع الطّريق هذه ثلاثة دنانير ونصف الدّينار. وقضيتُ العطلة كلّها حارِسًا، وتعرّفتُ فيها على بعض الأسماء والوجوه، وعرفتُ ما لم أعرفْ، فقد كان يُشرِف على الطّريق مهندسون وعسكريّون أغلبهم إنْ لم يكونوا كلّهم إنجليز. ومع أنّ الرّاتب كان يكفي لشراء عشرة خرفان على الأقلّ وشوائِها وأكْلِها في يومٍ واحدٍ، إلاّ أنّ العمل كان مُضنِيًا، ومتعبًا جِدًّا، وخطيرًا. ولم أكنْ أرتاح فيه إلى معاملة الإنجليز لنا، كانوا يتعاملون معنا بفوقيّة وعنجهيّة، وإنْ كانوا يُظهِرون أنّهم لا يفرّقون بين عامل عربيّ أو عاملٍ إنجليزيّ. ومن هناك اكتسبتُ بعضَ اللّغة، وفي اللّيالي تابعتُ النّظر في السّماء إلى أحلامي، وكنتُ كلّما نظرتُ إليها خاليًا أراها تصعد أعلى، حتّى لتكاد تغيب في تلافيف الغيوم، أو تُجاور النّجوم.

قالتْ أمّي لأبي في إحدى لقاءاتهما القليلة: «لقد كَبُرَ مشهور وأنتَ بعيدٌ عنه». «إنّه رجلٌ». «ولكنّه يحتاجك». «الشّيخ حمد يتولاّه». «إنّه يفعل، ولكنّك مختلف، خُذنا إلى مكان عملك». «إلى المفرق؟ وماذا سيتغيّر؟ إنّها صحراء أخرى، مُحرقة أكثر من صحرائِنا هنا، وأنا أعيش في الثّكنة، في سكن الجيش، حيثُ العقارب والسّحالي والذّباب والخنافس والجرابيع في النّهار القائظ، وبنات آوى والهوامّ والبَعوض في اللّيل، الحياة هنا أفضل». «نريدُ أنْ نظلّ إلى جانبك».

* * *

(7)
لماذا كلّ هذه الحروب؟

جاء إلى الأردنّ في العام الّذي وُلِدتُ فيه، وجاء إلى مضاربنا في العام الّذي بلغتُ فيه الرّابعة عشرة، وكنتُ قد تجاوزتُ مقدار الشّجاعة والنُّهى، ولا أزال أذكر حينَ قَدِمَ بعَرَباته العسكريّة، ورتلٍ من المُسلّحين، يتبعه عددٌ من الخُيول والإبل الّتي يعتليها فُرسانٌ من البدو والهجّانة، وكان قُدُومه مُفاجِئًا بالنّسبة لي على الأقلّ، ولا أدري إنْ كان جدّي وأخوالي وأولاد عمومتي يعرفون بتلك الزّيارة، ولا أدري كذلك إنْ كان مُهِمًّا أنْ يعرفوا مَنْ يطرق مضاربهم في هذه المهامه المترامية، فقد دأب جدّي على أنْ يستقبلَ الضّيوف وعابري السّبيل والمُهجّرين والمُطاردين والثّوّار دون أنْ يكون على عِلمٍ مُسبَقٍ بذلك، فيُكرِمهم أيّما إكرام، ويُجير مَنْ أراد منهم الإجارة، ويُحمّلهم بالطّعام، والمال، وأحيانًا بالسّلاح عندما يعزمون على الرّحيل.

لكنّ هذا القدوم الّذي أثار خلفه زوبعةً من الرّمال، علا غُبارها في السّماء، وأثار زوبعةً أخرى من التّكهّنات والأسئلة كان مُختلِفًا. ترجّل ضابِطٌ ميّزتُ أنّه إنجليزيّ أوّل ما رأيتُه من عربته السّوداء الّتي توقّفت على مقربةٍ من خيمة الشَّعر الّتي يجلسُ فيها جدّي وبعضُ الأقارب، ومِنْ لِباسه ومِنْ هيأته. وتوقّفتْ من خلفه السّيّارات، وتقدّمتْ فرقة الفرسان، فاصطفّتْ من خلف تلك السّيّارات على ظهور الخيل، ثُمّ على

ظهور الإبل، في منظرٍ مَهيب، ورأيتُ جدّي يقفُ على قدَمَيه، ويهتف: «يا هَلا بالضّيوف». ثُمّ يميلُ على أذني، ليهمس: «هذا قائد الجيش العربيّ يا مشهور». وشهقتُ، وإنْ أخفيتُ تلك الشّهقة حتّى لا أزعِجَ جدّي، وهتفتُ في أعماقي: «هل هذا عربيّ؟!». ولم يسمع جدّي تساؤلي، ولكنّه تقدّم فسلّم على قائد الجيش، ودعاه للجلوس في الخيمة. وضَحِكَ القائد ببرود، وقال لجدّي: «أهلاً بالشّيخ حمد، أنا أحبّ طريقتَك في التّرحيب بزائريك»، وبانَ نابان في ضَحِكته الباردة على طرفَي أسنانه ينزلان أكثر من صَفّ الأسنان، حادّان، أصفران، حتّى ليُخيّل إليكَ أنّكَ تنظر إلى أنيابِ ذِئب، وتقدّم القائد، كان مربوعًا يميل إلى القِصَر، ممتلئ الجسم قليلاً، حادّ النّظرة، ومشى وهو يضع كلتا يدَيه خلفَ ظهره، وتَبعه عددٌ لا يتجاوز الخمسة من مُرافقيه، وانتظر الآخَرون خارج المضارب، وبعضُهم ذهب إلى بيوت الضّيافة الأخرى ليرتاحوا، وسمعتُ جدّي يقول: «أهلاً بك غلوب باشا، يحلّ بِنا ضيفُنا نحن البدو بمنزلة الأهل». وضحك غلوب باشا هذا أكثر هذه المرّة، وقد صار النّابان المُميّزان أكثر وضوحًا في هذه الضَّحِكة، وقال وهو يرفَع طرفَي شماغِه الأحمر فوقَ رأسه ليتهَدّلا من الجانِبَين: «جِئتُكَ لمحبّتي لك يا شيخ حمد، ليس أكثر»، وجلس. ولاحظتُ أنّ لهجته تُشبه لهجَتنا تقريبًا، ولم يكنْ هناك في حديثه ما يُشعِر بأنّ هذا الرّجل تسري فيه دماء الإنجليز أبًا عن جدّ.

وجلسَ هو عن يمين جدّي، وجلستُ أنا عن يساره، ومكّنني ذلك من أنْ أراه عن قربٍ وأن أنظر في وجهه مُباشرة. لم يكنْ يُشبِهنا في شيءٍ ألبتّة، اللّهم إلاّ أنّه أُعير لِساننا، ولا أدري كيف، كان يتحدّث

العربيّة بطلاقة، وباللّهجة البدويّة الّتي نتميّز بها نحن عشائر الجنوب، بحيثُ إنّكَ تُضطرّ وأنتَ تستمع إليه أنْ تُعيد النّظر في وجهه مرّةً بعدَ مرّة. كان وجهه يلمع كأنّه من شَمْعٍ سُكِبَ عليه بعضُ الزّيت، وخدّاه مثل حَبّتَي مُشمشٍ أصفرَ مائلٍ إلى حُمرةٍ مُخمليّة، وكان يجلسُ متربّعًا مثل جلسة جدّي، ويلبسُ لباس الإنجليز العسكريّ، ذا اللّون الكاكيّ، الّذي تكثرُ فيه الأزرار، وكانت الأزرار دائريّة فضّيّة، باستثناء الزّرّ الأعلى القريب من الياقة فقد كان من التّاج الملكيّ الّذي يُمثّل شعار الجيش العربيّ، ومثل هذا التّاج لكنْ أكبر منه، كان هناك تاجٌ يتوسّط عقاله الأسود الّذي يلفّ رأسه. وكان هناك حِزامٌ أسود يلتف بشكلٍ مائل من كتفه اليُمنى إلى خاصرته اليُسرى تنتهي بِجرابٍ يستقرّ فيه مُسدّس من نوع الطّاحونة ذي الطّلقات السّتّ. وكان صدره يكتظّ بالأوسمة المُتراكمة، وبعض الميداليّات.

واهتزّ شارِباه الكَثّان العريضان - اللّذان لو هذّبهما قليلاً من طرفَيهما لأصبحا يُشبهان شاربَي هِتلر - فوق شفتَيه، وهو يقول: «ما أخبار جنودنا من بواسل الحويطات الّذين يُقاتِلون في فلسطين؟». وصمتَ جدّي لأنّ السّؤال كان مُباشِرًا، وإجابته لا تُقال في سطرٍ أو اثنَين، ولم يُمهِلْه غلوب كثيرًا، إذ إنّه أردف: «ما أخبار هارون ونائل؟». والتفتَ جدّي إلى خالي نائل الّذي كان يُشاركنا الجلسة، وأشار إليه: «هذا ولدي نائل». ورأيتُ غلوبَ يُسارع بالقِيام من مكانه، ويُبادر خالي الّذي تفاجأ بالسّلام، وشدّ على يدَيه، وقال كأنّه يريد جدّي أنْ يسمعه: «مثل هؤلاء الرّجال نريد في الجيش العربيّ». ولم يقلْ خالي نائل كلمةً واحدة، ولكنّني شعرتُ أنّ الأمر لم يُعجِبْه، وأردف غلوب: «أسمعُ

عنكَ كثيرًا وأوّل مرّة أراك». وازداد صمتُ خالي، ولولا أنّ القهوة دارتْ بيننا لطال الصّمتُ أكثرَ من ذلك. وكان غلوب يعرفُ عادات البدو ابتداءً من شُرب القهوة، وانتهاءً بالقضاء والنّزاعات والثّارات والزّواج كما تبيّنْتُ لاحِقًا، وقال وهو يُرجِع الفنجان إلى السّاقي: «وهارون؟». وكِدْنا ننسى لولا أنّه ذكّرنا، وردّ نائل بحدّة: «ليسَ هنا، وعلى أيّة حال ماذا يهمّك من شأنه؟ هل تُريد أنْ...» وأوقفه جدّي بإشارةٍ من يده، وأمر أولاد عمّي أنْ يُكرِموا ضيفهم، وكان جدّي حينَ يأمر بذلك، تسيل دِماء عشر رؤوسٍ من الغنم على الأقلّ.

كان لغلوب باشا عينان لوزيّتان زرقاوان، وجفنان مُنتفِخان من الأسفل قليلاً، وحاجِبان طويلان لكنّهما خفيفا الشّعر، وأنفٌ قَصَبَتُه قصيرة، وأرنبته مُستديرةٌ ضخمة كأنّها حبّة برقوقٍ، وسمعتُه يقول لجدّي: «لقد تعلّمتُ منك يا شيخ حمد أنّه لا تستطيع أنْ تُساعد النّاس إلاّ بأنْ تُصبِحَ واحِدًا منهم، تُشارِكهم بُؤسَهم، وفقرَهم، ومسرّاتهم، وأحزانهم. لقد كان المسيح يفعل ذلك. إنّكَ لا تستطيع أنْ تُساعد النّاس وأنتَ بعيدٌ عنهم». وصمت، وابتسم جدّي. وتململتُ في مكاني أريدُ أنْ أقول شيئًا، ولكنّني تراجعت. ولا أُنكِر أنّ كلامه قد أعجبني، وأنّ لهيئته ولكلماته تأثير السّحر.

وقال لجدّي: «أنا أحببتُكَ من كلّ قلبي يا شيخ حمد، أنا أليفٌ ألوف، يستحوذ عليّ ذلك النّوع من النّاس الّذين ما إنْ تنظر في وجوههم حتّى تعرف أنّهم لا يكذبون، وأنّهم مثال الصّدق والتّضحية والتّفاني». وكان جمر النّار قد وصل لهيبه إلينا، ورائحة القهوة المُحمّسة فوق المِحماس تبعثُ بروائحها حولنا فتكادُ تُسكِرنا.

وسأله جدّي: «لماذا كلّ هذه الحروب؟ أما شبعتِ الإنسانيّة من حربَين عالميّتَين؟ ألا يُمكن أنْ يعيشَ النّاس دون أنْ يُشرِعوا الرّماح ويجرّدوا السّيوف في وجوه بعضهم بعضًا؟». وحكّ غلوب ذقنه بطرف يده، ولاحظتُ أنّها غير طبيعيّة، وأنَّ فيها شِقًّا طوليًّا، وقال: «إنّ الجنود ليسوا هم الّذين يُوقِدون الحروب، بل السّاسة هم الّذين يفعلون ذلك، كذلك فإنّ الجنود لا يرغبون في الحروب. ولكن حينَ تحدث، يُستَفَزّ الجنودُ بتلك الغريزة الإنسانيّة المُشبَّعين بها تشبُّعًا عميقًا لأنْ يُضَحّوا بأنفسهم». وقال جدّي: «ففيم يُشعل السّاسة الحروب؟».

وسكتَ غلوب، فقال خالي: «لأجل مطمع أو منصب... أو خيانة... أنتم مثلاً...». وأسكتَه جدّي مرّة أخرى بإشارةٍ من يده، وقال غلوب: «لا تفسير للحروب، ولو جمعتَ كلّ فلاسفتها ما خرجتَ برأيٍ يُقنِعك، لكنْ إذا حامتْ حومتَها ووجدتَ نفسكَ مدفوعًا إلى أنْ تدخلها فينبغي أنْ تكون المُبادِر إلى الهجوم، إنّ الحرب لا ترحم من يتلقّاها دفاعًا، ولكنّها قد تخضع لمن يعتلي صهوة وحشها الهائج فيُعملِ في عنقها سيفَه». وقال جدّي: «قتلتْنا التّحالفات، ولو كان من تحالفٍ صحيح فيجب أنْ يكون مع الحقّ واستعادته لمن فقدوه، ولكنّ الحقّ ضاع في منطق الدّبّابة والصّاروخ». وضحك غلوب، وقال: «استعادة الحقوق يحتاج إلى وقت، ويستدعي بعض التّنازلات، من أجل أنْ تتقدّم خُطوتَين عليكَ أنْ تتراجع خُطوة». وهتفَ خالي نائل من مكانه: «الحقوق لا تنتظر ولا تحتاج وقتًا، ولا تستدعي أيّ تنازلٍ، وحتّى تملكها عليك أنْ تنتزعها انتِزاعًا». وأغمضَ غلوب إحدى عينَيه، وفتحَ الأخرى، وقال لجدّي: «ولدك هذا مُعلّقةٌ روحُه بسيفه، وهذا الصّنف

المتهوّر من النّاس لا يُعمَّر طويلاً». وزفر جدّي، قبل أنْ يبسطَ يدَيه ليدعو ضُيُوفَه إلى مأدبته.

وقاموا إلى العشاء، فهمستُ في أذن جدّي: «هل هذا الرّجل غلوب قائد الجيش العربيّ بالفعل؟». فأجابني على عَجَلٍ: «نعم». فقلتُ كمن يبحثُ عن فرصةٍ لإطالة الحديث بغيةَ ما وراءه: «حقًّا؟». وشدّ جدّي على أسنانه: «نعم، ماذا هُنالك؟». ولم يكنْ هناك من مفرّ للبَوح بالأمر دفعةً واحدة، فقلتُ دون تلعثُم: «أريدُ أنْ أصبح جُنديًّا في الجيش العربيّ». «الجيش العربيّ؟ أنتَ في الرّابعة عشرة من عمرك، أليسَ الوقتُ مُبكّرًا؟». «كلاّ يا جدّي، ليس مُبكّرًا، وأنا لستُ صغيرًا، ولدَيَّ شغفٌ وسِرّ». وسألني: «شغف؟». «أنْ أرتدي هذا الزّي المُقاتِل». «والسّرّ؟». واقتربتُ منه، وهمستُ في أذنه: «أنْ أصبح مكان غلوب هذا». ولمعتْ عينا جدّي، وحاول إخفاء دهشةٍ ظهرتْ فيهما رغمًا عنه، وبادل همسي بهمسٍ مُشابه: «إذًا ابقَ معنا حتّى ينتهي العَشاء». وكنتُ أعرفُ أنّ جدّي لا يرفضُ لي طلبًا، ولم يكنْ هناك من موقفٍ أحتاج فيه إلى استغلال استجابة جدّي لرغباتي أكثر من هذا الموقف!

وكانتْ رائحة الخِراف المطبوخة قد زكمتْ أنوفنا، ونحن نقوم إلى أخبية الضّيافة، حيثُ مُدّت الموائد، وبُسطتْ حولها البُسطُ الرّقيقة، وجلس غلوب كما نجلس، وأكل بيده كما نأكل، ولعقَ أصابعه من بقايا الأرزّ والشّراب كما نفعل، ثُمّ قام دون أنْ يُميّز نفسه أو يُميّزه أحدٌ مِنّا، فوقف حتّى حان دوره ليسكب الغاسلُ فوق يدَيه الماء من إبريقٍ من الفَخّار. وعُدْنا إلى مجالسنا، ودارتْ علينا كؤوس الشّاي بالزّعتر، وقد تلذّذ بِها كما نتلذّذ، وكانتْ صوتُ رشفاته تُشبه صوتَ رَشَفاتِنا، وإنْ

كانتْ موسيقاها تميل إلى الرّنّة الغربيّة دون العربيّة، ولا غَرْو فإنّ نَفَسَ غلوب ذي الوجه الشّمعيّ المُنتفخ ليس مثل نَفَس جدّي ذي الوجه الأسمر المسبوك.

ثُمّ جاءت اللّحظة المُناسِبة، فنظرتُ إلى جدّي بطرف عيني نظرةً ذات معنى، فتربّع جدّي في جلسته، وقال موجّهًا كلامه لغلوب: «أترى إلى ولدي هذا أيّها القائد؟». والتفتَ غلوب إلى حيثُ أجلس، فكأنّه استقلّني، ولم يملأ عينيه نحولي ولا ضآلة جسدي، ولكنّ جدّي تابع: «إنّ ولدي مشهور هذا يريد أنْ يُسجّل في الجيش». وتوقّفَ قليلاً قبل أنْ يُتِمّ: «ولسوف يُعجِبك، إنّه طرازٌ فريدٌ من الرّجال». وصمتَ غلوب، وأحدّ النّظر فِيّ مرّة أخرى، وشعرتُ بنظراته تخترق جسدي، قبل أنْ يقول: «وماذا ينقصه؟ إنّه رجل، وغدًا يذهب معي إلى القيادة في عمّان». وحوّلتُ نظري عن جدّي وعنه، وكدتُ أقفز في مكاني من الفرح، لولا أنّ هيبةَ جنديّ قَبِلَه غلوب القائد العامّ للجيش العربيّ للتّوّ يجب أنْ تكون في مكانها، وعليّ ألاّ أغامر بها، وظللتُ جالِسًا في مكاني، وإنْ كانتْ هناك عوالم تضجّ في أعماقي، وخيالات تتقافز في روحي.

وقامَ غلوب ورفاقه الضّيوف ليناموا، فلقد كاد اللّيل أنْ ينتصف، ولم أستطعْ أنْ أنام، وكيفَ لمثلي أنْ ينام في ذلك اليوم الّذي سيكون له ما بعده، ورأيتُ جدّي يتهادَى من بعيدٍ يقصد خِباءَه بعد أن اطمأنّ على ترتيب أمور الضّيوف، فلحقتُ به، حتّى إذا سِرتُ في محاذاته، انتبه إليّ وقال: «هل أنتَ مسرور؟». فتجاهلتُ السّؤال قائِلاً: «لديّ بعضُ الأسئلة».

***

(8)
وُلِدتُ لكي أكونَ جُنديًّا

«ماذا يا مَشْهُورْ؟ ». «نَبَتَتْ يا جَدِّي فِي صَدْرِي كَلِمَةْ.... صارتْ تَكْبُرْ... صِرْتُ بها أَضْجَرْ... مِثْلَ الشّوكِ على رَمْلٍ مُقْفِرْ... صارتْ خنِجَرْ... إنّي أسألُ: مَنْ جاءَ إلينا بالوجه الشّمعيّ فأصبح فينا القائدَ؛ ينهى أو يأمُرْ؟». «مَهلاً يا ولدي... أنتَ غَدِي... سأقولُ ولكنْ سأخبِّئ بعضَ القولِ ليومِ الفصلِ... هل تدري: أنَّ الحربَ لها أحكامٌ... أنَّ الدُّولَ لها حُكّامٌ... أنَّ التّاريخ يسطّره الطّرفُ الغالبُ ويوقّعه العسكَرْ... يا ولدي لا تضجرْ... سيجيئُكَ زمنٌ مُرٌّ مُنكَرْ... إنّ الأقدار على ما لا تدري تجري... في هذا البلدِ... فاصْبِرْ يا ولدي».

وسألتُه: «وجه غلوب لا ينتمي إلا إلى غلوب؟». فاستزادني، فقلت: «لا يُشبِه أحدًا مِنّا فكيفَ صارَ واحِدًا مِنّا؟!». ومسحتُ أسفل وجهي بأصابعي أكثر من مرّة، وأشرتُ: «هنا!». فاستزادني، فقلت: «إنّ في حَنكِه شِقًا عميقًا، قد تهدّل بعضُ اللّحم على جانبه، فهل هو ما رأيتُ؟». وضحك جدّي، ومال بنا إلى أحد بيوتاته، وعلى الباب على الدّكّة تحتَ ضوء سراجٍ معلّق فوقَها، جلسنا، قال: «إنّ لحنكِه قِصّة». فقلتُ: «هذا الرّجل قصصه لا تنتهي، حتّى حنكه انفردَ بإحداها». وقال جدّي: «قبل أنْ يأتي غلوب إلى الأردنّ، كان يعمل في العراق، ولكنّ قصّة حَنكِه كانت قبل أنْ يأتي إلى بلادنا العربيّة كلّها، فلقد

أصيبَ في عام 1917م بشظيّة من قنبلةٍ ألمانيّةٍ حطّمتْ فكّه الأسفل تمامًا، وكاد يموت بسبب ذلك، وأُخلِيَ إلى مستشفى عموميّ في لندن، وخلال ثلاثة أشهر تقيّح الجرح، ولم يُشفَ منه، وانتشرتْ رائحة القيح الكريهة، ثُمّ نُقِلَ بعد ذلك إلى مستشفى خاصّ لمعالجة هذا النّوع من الجروح، فنظّفوا الجرح، وأزالوا العِظام الميّتة، والأسنان المُحطّمة، ثُمّ جَبّروا له الفكَّين السّفليّ والعُلويّ، لكنّ ما انكسر في الإنسان لا يُصلحه الطّبّ دائمًا، ولهذا ظلّ أثر الشّظيّة الألمانيّة غائرًا في فكّه الأسفل فيبدو مائِلاً وفيه حَفْرٌ عميق، وهذا ما رأيتَه، وصار يُلقَّب بين جنود الجيش العربيّ بـ (أبو حنيك)، وهو لقبٌ يُحبّه». وقلتُ لجدّي: «إنّه مقاتلٌ عنيدٌ؟». فهزّ جدّي رأسه موافِقًا، وأردفتُ: «إنّه في منظور بلاده بطلٌ؟». فهزّ جدّي رأسه مرّة أخرى. «وفي منظور بلادنا؟»، فسكتَ جدّي. وكان اللّيل قد تناهى في العمر، وتثاءبَ جدّي، وكانتْ تلك إشارةٌ كافِية أنْ أسكت، وأتركه يرتاح، لكنّ حُمّى الأسئلة والقلق، والخوف، والفرح، والتّرقّب، وانتظار الغد، والحَدْس بالمجهول في الآنِ نفسه كانتْ قد بلغتْ ذروتها في رأسي، وأقنعتُ نفسي بسؤال أخير، فقلت: «ولماذا يلبس شماغًا أحمر مثل الّذي يلبسه أبي؟». فقال جدّي: «تلك قصّة أخرى؟». فتشوّفتُ، واعتدلتُ في جلستي، وهيّأتُ نفسي للسّماع، «إنّ هذا الرّجل بئرٌ من القصص المخبوءة». قال جدّي: «إنّ غلوب هو الّذي أدخل الشّماغ الأحمر لقوّات البادية وللجيش العربيّ على ذمّة الرّاوي يا بُنيّ، نحنُ هنا لم نكنْ نلبسه، صرنا نلبسه بعدَه، ذلك أنّه بعد أن عانت المصانع البريطانية التي كانت تنتج هذا النوع من أزمة ماليّة بسبب قلة الطلب على هذه الأغطية على إثر انتهاء الحرب العالمية

الثانية، جاء غلوب باشا الّذي يُعَدّ بريطانيًا وفيًّا لبلاده فعمّم الشّماغ على الجيش الأردني، ولبسه هو أيضًا ليكون قُدوة، ثم انتشر بعد ذلك بين عرب الجزيرة!!».

وسكتَ جدّي، ورأيتُ عينَيه تَنُوسان كما ينوسُ السّراج المُعلّق فوق رؤوسنا، وكان طائر اللّيل قد حَطّ بجناحيه على الصّحراء، فاسودّ كلّ شيءٍ. ونهضْنا إلى مجاثمنا لننام، وانسلّ جدّي في فِراشه، وانسللتُ مثله، وقال وهو يخلع شماغه، ويضع رأسه على المِخدّة بصوتٍ خفيض: «نُذُر الحرب قادمة، وعليكَ أنْ تعرفَ ما ينتظرك، ومَنْ توقّع الخطبَ استعدّ له». وشعرتُ بالرّهبة مِمّا قال، وسألتُه: «وما الحرب؟». فردّ: «خَصْمان بَغَى بعضُهم على بعضٍ، وفي النّهاية لا بُدّ من دم، ولا غالبَ إلاّ الله». ولمعَ في ذهني بيتُ زُهير بن أبي سُلمى، وهجستُ به:

وما الحَرْبُ إلاّ ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمُ

وما هُو عَنْها بِالحَديثِ المُرجَّمِ

وهتفتُ: «وُلِدتُ لكي أكون جُنديًا»، ولا أدري أَسَمِعَني جدّي أم لا، ولكنّني من بعدها سقطْتُ في غياهب النّوم.

كان يُمكن لشروق ذلك اليوم أنْ يكون عاديًا لولا أنّه كان يومًا فاصِلاً في تاريخ حياتي، وبه انفتح الباب على أحلامٍ ظلّتْ كذلك حتّى قرّرتُ أنْ أجعلَها واقِعًا. لم تَصِح الدِّيكة، لم تَرْغُ الجمال، ولم تصهل الخيل، أنا الّذي صحتُ بدلاً عنها جميعًا: «أريدُ أنْ أكونَ ما أريد». وانطلقتِ القافلة بعدَ ذلك، ولم تكنْ في الأرضِ من قُوّةٍ لتُعيدها، أو حتّى توقفها. ومَنْ يدري على أيّ المحطّات ستقف هذه القافلة، وفي أيّها

ستواجه الهلاك، وفي أيّها الآخر ستواجه الفوز؟!

وعلمتُ أنّ الحياة قافلةٌ ممتدّة امتداد النّجوم في السّماء، وكلّما سقط من هذه القافلة مُرتِحلٌ حلّ مكانه مُرتِحلٌ سِواه، وهكذا يموت أحدهم وينهضُ آخر، القافلة هي هي، والزّمن هو الّذي يتغيّر، وستظلّ هذه القافلة سائرة لن تتوقّف حتّى ذلك اليوم الّذي يُبدّل الله فيه الأرض غير الأرض والسّماوات.

صحا الرّتل العسكريّ عن بكرة أبيه، جمعهم غلوب بصوتٍ واحدٍ، كان عاليًا فيه حِدّة، وكان يصيح بالعربيّة، وانتظموا انتظامَ المِشط كما لو كانوا مصفوفين للقتال، وأجرى لهم بعضَ التّمارين العسكريّة، ورأيتُه يضع تحت إبطه عصًا لم أرها ليلةَ أمس، وكانتْ عصا رفيعة وطويلة، سوداء وفي قاعها كتشبان ذهبيّ. وكان حاسِرَ الرّأس، ولاحظتُ أنْ شعره أشقر، وكان يفرقه من المنتصف. وسمعتُ أصوات خبط أقدام العسكر على الأرض، فاهتزّ قلبي، وصدحَتْ بعضُ الآلات المُوسيقيّة المُرافقة، ولا أدري إنْ كُنّا نحن المقصودين بهذا الاستعراض العسكريّ المَهيب أعني جدّي، أم أنّه أمرٌ طبيعيّ، يفعله غلوب مع جنوده حينَ يُزمِع الرّحيل؟!

وسمعتُ هدير المُحرّكات، كانت العَربات العسكريّة تستعدّ للانطِلاق، وقال جدّي: «هل أنتَ جاهز؟». وشددتُ صدري، وضربني بكفّه عليه، وقال: «كُنْ رجلاً». ورأيتُ الخيّالة اعتلَوا ظهور الخيل، والهجّانة ركبوا الإبل، وكان الجمع ينتظر إشارة غلوب. وقال جدّي: «اذهبْ وودّع أمّك». وانطلقتُ إلى بيتنا، كانتْ أمّي تتكئ على النّافذة وهي تنظر إلى الرّتل، وكانتْ عيناها تدوران تنظر في الأرجاء

بقلق، وقدّرتُ أنّها تبحثُ عنّي، فلمّا رأتْني هتفتْ باسمي: «مشهور». وتحوّلتْ عن النّافذة واحتضنتْني، وهي تقول: «لا تذهبْ معهم». وتركتُها تُتمّ جملتها الباكية، حتّى إذا تركتْني قلتُ لها: «إنّ المستقبل أمامي يا أمّي... ادعي لي». فكرّرتْ: «لا تذهبْ مع هؤلاء الإنجليز، إنّهم ملاعين». فقلت: «إنّ جدّي باركَ ذهابي، سوفَ أُصبِحُ ضابِطًا كبيرًا، وسأجعلك تفتخرين بي». ومسحتْ أمّي دموعها، وكانت شفتاها ترتجفان، وتشهق بشكلٍ عالٍ، وتمسح دموعها باستمرار، وخرج صوتُها من بين دموعها ممطوطًا: «سيأخذونك منّي، لم أصدّق أنّكَ أصبحتَ رجلاً». فقلتُ: «لهذا يجب أنْ أذهب، وسأعود كلّما سنحت الفرصة، ولن أتأخّر في زيارتي». وكادتْ أمّي تصرخ بأعلى صوتِها: «كذّاب، كمْ تُشبه أباك!!».

وركضتُ إلى الإصطبلات، وقصدتُ الشّقراء، فلمّا رأتْني من بعيدٍ صارتْ تدور في موضعها كأنّها تريد أنْ تخرج من إصطبلها، وراح صوتُها في الصّهيل يعلو، وأخذتْ ترفع قوائمها الأماميّة فوق الباب الخشبيّ الواطِئ كأنّها تريدُ أنْ تعبره، ولمّا وصلتُ إليها مدّت عنقها نحوي فاحتضنتُها طويلاً، وأحسستُ أنّ دموعها تسيلُ فوقَ خَدّيّ، ورحتُ أرتجف، وأقول: «سامحيني، عليّ أنّ أذهب، تنتظرني أحلامٌ عريضة، لا تخافي يا صغيرتي، جدّي سيعتني بكِ جيّدًا». وغادرتُها دون أنْ أنظر ورائي كأنّني أهربُ منها، وأطلبُ منها أنْ تغفر لي خطيئتي!

ولم آخذ معي غير عباءتي البدويّة، ولباسي العربيّ، ودَعَوات أمّي الحزينة، وطموحي، لم أكنْ أملك يومَها شيئًا على الإطلاق، باستثناء هذه الرّوح الّتي تضجّ في جنبَاتها كلّ العوالم، وتدور في أفلاكها كلّ النّجوم.

وأشار غلوب بعصاه السّوداء كما لو كان يُعطي إيعازًا لبدء الحرب، وبدأتْ عجلات السّيّارات بالدّوران، وصَعِد غلوب سيّارته، ورآني أقف كالمشدوه، فأشار إليّ: «اركبْ معنا». وقفزتُ إلى السّيارة الّتي احتلّ هو مقعدها الأماميّ بجانب سائقه، وأنا خلفهما، ولم يكنْ معنا سِوانا.

وثار النّقع، وعلا الغُبار، واختلطت الأصوات؛ أصوات الخيل بأصوات البشر بأصوات المحرّكات بأصوات السّماء، بأصوات النّساء، ومضينا من الرّشاديّة إلى عمّان.

ثُمّ ها أنذا... إلى ما أريد. كانت الطّريق طويلة، تمامًا كالطّريق الّتي سلكتُها في العسكريّة، وشائكة، ومباغتة، وتحتاج إلى صبرٍ وحِكمة. وقال لي غلوب وقد استقرّ الرّتل على الدّرب: «ماذا تريدُ من الانتِساب إلى الجيش؟». فقلتُ: «أنْ أخدمَ وطني، وأنْ أخلّصه من المستعمر». «أيّ مستعمرٍ يا مشهور؟». «الصهاينة والإنجليز». ولا أدري كيفَ خرجتْ هاتان الكلمتان من فمي، وأحسستُ أنّهما سقطتا على أُذنَي غلوب كما لو كانتا كُرتَين من رصاص تسقطان على قدَمَيه العاريتَين، ودار بجذعه إلى الوراء ليراني، كان وجهه الشّمعي قد فقدَ لَمعانه، وقال: «ولكنّ الإنجليز أصدقاؤكم، نحن أصدقاؤكم يا مشهور». وصمتَ لحظةً، وعادَ ينظر إلى الأمام، وقال: «أريدُكَ أنْ تعرفَ شيئًا». وأرهفتُ سمعي لما سيقوله: «أترى هذا الجيش العربيّ الّذي ستُصبِحُ أحدَ مُنتسبيه بمجرد أن تتوقّف عجلات هذه السّيارة ونصل إلى عمّان، أنا الّذي أطلقت عليه هذه التّسمية، وأنا الّذي أنشأته، وأنا الّذي سجّلتُ أفراده واحِدًا واحِدًا، وأحفظُ أسماءَهم فردًا فردًا... وكان في بدْئه من قُوّات

البادية الّتي تولّتْ مهمّة حماية المنشآت البريطانيّة، ثُمّ قسّمتُ أنا بنفسي ألويته وأماكن خدمته، ووزّعتُ ولاءاته... أتعرف لماذا: لأنّني أحبّ الأمير عبد الله، ولأنّني أريدُ أنْ أخدمَ الأردنّ وفلسطين». وشعرتُ أنّه غضب، من طريقة إجابته، وشَدّه على الكَلِمات. وسألتُه: «هل الحربُ قادمة؟». فقال: «لا بُدّ من الحرب، حتّى المُنتصِرون الّذين يفوزون في حربهم الأخيرة، يبحثون عن حربٍ جديدة، يا بُنيّ؛ الحياة حَرب». وسألتُه ببلاهة: «ولكنْ لماذا تكون هذه الحربُ ضروريّة إلى هذا الحدّ؟». وعدّل الشّماغ الأحمر الّذي انتعشتْ به مصالح بريطانيا فوق رأسه، وداعبَ التّاج الملكيّ الّذي يستقر وسط العِقال بأطراف أصابعه الرّفيعة، وقال دون أنْ يلتفتَ إليّ: «سأنصحك نصيحةً يا بُنيّ لأجل حُبّي لجدّك؛ أنتَ ما زلتَ صغيرًا والمُستقبَل أمامك؛ لا تُدِم النَّظَر في الأشياء، فإنّ إدامة النّظر تُورِثُ شيئَين: العَمى والنّدم. ولا تُفكّر أبعدَ مِمّا يُطلَب منك؛ فإنّ ذلك يُورِثُ الحسرات». ورأيتُه يحكّ ذقنه المشقوقة، ويزفرُ طويلاً، ولكنّني سألتُه مرّة أخرى بسذاجة مُتعمّدة: «وإذا دارتْ حربٌ بين الجيش العربي والإنجليز فمع مَنْ ستُحارِب؟!». وأحسستُ هذه المرّة أنّني أطلقتُ قذيفة مدفع بهذا السّؤال، لأنّه صَكّ أُذنَيه بكلتا يدَيه، وخفض رأسَه، ومرّتْ لحظاتٌ ثقيلة قبل أنْ يقول: «لن تقوم مثل هذه الحرب. أنا أعرفُ متى وكيفَ تقوم الحروب». فعاجلتُه: «افْرضْ أنّها قامت». فردّ بكلّ ثقة: «عندها سأقاتل إلى جانب الإنجليز».

***

(9)
الرّقم 505

وعرفتُ غلوب عن قرب من خلال مرافقتي له في بداية خدمتي العسكريّة، لقد كان من الذّكاء والبراعة بحيثُ إنّه كان يُشعِر محدّثه بأنّه يهتمّ به وبشأنه أكثر من رؤسائه، وأنّه يفهم لِسانه ولهجته، وكان مَرِحًا، كثير الطّرفة، ومع أنّه كان أقوى رجلٍ في المنطقة يومئذٍ إلاّ أنّه كان يبدو رجلاً عاديّا لكلّ مَن التقاه. لقد أظهر لنا نحن العرب، وخاصّة المناطق الرّيفيّة والبدويّة، أنّه يحبّنا أكثر من الحُكّام العرب، فاستدرّ عطفنا، ولقد فتح المدارس في المناطق المنسيّة وشجّع التّعليم، وكان يرفع من مستوى تدريبات الجيش كما كنّا نعتقد، ولا شكّ أنّه خدم مناطقنا ولكنْ ضِمْنَ خُطّته، وضمن سياسةٍ إنجليزيّة مدروسة.

وصلْنا إلى عمّان، إلى منطقة العبدلي، ودخلتْ سيّارة القائد السّوداء، وكان لفيفٌ من الضُّبّاط والجنود والحرس ينتظرون عند الباب، وأدّوا لنا التّحيّة، وتساءل عدد منهم عن هذا الغُلام الصّغير النّحيل الّذي يجلس وحده في سيّارة القائد العامّ، ودارت السّيارة نصفَ دائرةٍ قبل أنْ تستقرّ على باب القِيادة، ويُفتَح لنا الباب من قِبَل الحَرَس، وننزل، ولمّا رأوا هيئتي البدويّة زادَ استغرابُهم، ولكنّه أشار إليهم: «إنّه زميلُكم منذ اليوم، وعليكم أنْ تُحيطوه بالعناية والرّعاية، وأنْ تبذلوا له كلّ ما يُمكن أنْ يرتقي به في ميدان الجُنديّة وشرف العسكريّة». قال هذا

الكلام لِضابطٍ كان يقف عن يمينه ينتظر أوامره بخشوع، كأنّه راهبٌ في محراب التّبتُّل.

وغاب غلوب مساء ذلك اليوم، وتركني إلى قَدَري، أمضيتُ تلك اللّيلة في غرفةٍ أشبه بزنزانةٍ ينتظر فيها العسكر المُجندّين حديثًا الذّهاب بهم إلى أماكن تدريبهم، ولم يكنْ فيها سِواي، وكانتْ خانِقة، ورائحتها كريهة، وينتشر فيها البَعُوض، واستلقيتُ على ظهري، وأنا أنظر إلى السّقف، فأراه متقشّرًا تكاد قشوره تسقط فوق عينَيّ، وقارنتُ بين هذا السّقف الكريه الّذي يضغطُ على صدري وبين قبّة السّماء المفتوحة والآفاق الواسعة في مضاربنا في الرّشاديّة، وشعرتُ أنّ أحلامي تصطدم بهذا السّقف الواطئ المتهالك، وأنّ السّماء الّتي كنتُ أضيءُ فيها النّجوم بأغنياتي من أجل أحلامي تبدو بعيدةً جِدًّا من هنا. وأدمتُ النّظر في السّقف من جديد، وشعرتُ أنّني محتاجٌ إلى معجِزة من أجل أنْ أخترقه إلى الفضاءات الفسيحة، وفجأةً في وسط خيالاتي أعتمت الغرفة، وانتشر السّواد في كلّ نواحيها، ولم أعدْ أرى حتّى يدي، وقدّرتُ أنّهم أطفؤوا الضّوء في كلّ القيادة، وأنّه على الجميع أنْ يخلدوا للنّوم، ولو كان النّوم بالخِيار لنمتُ تلك اللّيلة، ولكنّ أنّى لمثقوب الفؤاد أنْ ينام! وظللتُ أتقلّب على سريري الحديديّ وأسمع صوتَ صريره حتّى طلع الصّباح.

في الصّباح، كان وجه غلوب مُنكبًا على سجِلّ كبير يُشبه سجلاّت الدّيون في المتاجر، وهو يُردّد: «مشهور حديثة الجازي. الرّقم العسكريّ (505). يُؤخذ إلى معسكر التّدريب وفق الإجراءات المُتّبعة». ووقّع على النّصّ الّذي كتبه بيده، وبخطّ عربيّ واضح، ثُمّ رفع وجهه عن

السّجلّ ونظر إليّ، فرأيتُ في تلك اللّحظة وجهًا مختلفًا عن الّذي رأيتُه في مضارب جدّي، كانت هذه النّسخة من غلوب الّتي تتطلّع إليّ نسخةً لا تُشبه سابِقتها في شيء. قال وهو يُغلق السّجل: «أرجو أنْ تحافظ على شرف الجنديّة على الوجه الّذي يُرضي ضميرك». ثُمّ ذاب في بابٍ خلفيّ، كأنّه طيفٌ انسربَ من مقعده، ولم تبقَ منه إلاّ كلماته الأخيرة.

على باب مخزن السّلاح كان يقف رجلٌ مفتول العَضلات بلباس المُشاة، وكان يعتمر قبّعة إنجليزيّة، ولم يكن الشّماغ هنا في قيادة العبدلي ظاهرًا كثيرًا على رؤوس العسكر. تحقّق الرّجل من الورقة الّتي بين يدَيه، وتأكّد أنّها تحمل توقيع غلوب، وصَعّد نظره فِيّ أكثر من مرّة، وهتف مُندهِشًا: «بندقيّة 303!!». وأعادَ النّظر إلى الورقة ليتأكّد أنّها ممهورة بتوقيع الباشا. ثُمّ زّم شفتَيه استنكارًا، وأدخلني إلى المخزن، كانت البنادق تصطفّ كأنّها عرائس في غرفة طوليّة على الجوانب، وكان كلّ صفّ من البنادق يختلف عن الآخر، البندقيّة الّتي أمر غلوب بتسليمها لي هي بندقيّة من صنع إنجليزيّ، كانت تتربّع في الصّفّ المُميّز من طريقة تعليقها، والاهتِمام بها، ولها تاريخٌ في الحروب قدّمها على أنّها البطل ربّما الأوحد في كثيرٍ من الميادين وخاصّة في الحرب العالميّة الأولى والثّانية، وهي مُطوّرة عن صنفٍ أقدم من البنادق الّذي كان يُصدِر دُخانًا أسود مع كلّ رصاصة تنطلق منها، مِمّا يكشف موقع الجنديّ فيسهل قَنصُه أو أَسرُه أو تحديد مصدره، فيما بعدُ أنتج الإنجليز للبندقيّة الّتي لم يبقَ بيني وبينَ تسلّمها غير خطوةٍ واحدة مادةً عديمة الدخان تحترق بشكل نظيف دون انبعاثٍ يُرى.

تناول الرّجل ذو العضلات المفتولة البندقيّة ومدّ بها إليّ، وهو

يقول: «لا تنسَ أنْ تشرشل وزير مستعمراتنا قد حارب بها بنفسه، كان يتخيّل فوهتها سيجارًا، ولذلك لم يُخطِئ هدفًا واحِدًا صوّبَ نحوه!!». تلقّفْتُها منه، واحتضنتُها احتِضان العاشق، كانتْ بنادقنا في البادية أخفّ وأبسط وأقصر. نظرتُ إليها نَظرة الواله، كان خشبُها البنّي يلمع على ضوء الإنارة المتدلّي من السّقف، «إنّها لي» هتفتُ في أعماقي، «وسأصونها كما يليق بفاتنة» أكملتُ. «ولن أتخلّى عنها مهما حدث». كانتْ سبطانتها طويلة، ومخزنها يتّسع لعدّة رصاصات تنطلق بشكل آليّ، وتحديد الهدف فيها يتم عبر ممرّ بين حديدتَين قصيرتَين تتمركزان فوق الفوهة لا عبر شُعيرة في منتصف حلقة كما كانت بنادقنا في الرّشاديّة. وكان خشبُها مصقولاً تفوح منه رائحة مُسكِرة. وقبّلتُ كعبَها وسط دهشة الرّجل، واستلمتُ بقيّة مسلتزماتها من الرّصاصات والجنّاد والحِزام الحامل، والسّنجة، وأدوات تنظيفها. وخرجتُ من غرفة المخزن وأنا أحسّ أنّني امتلكتُ الكون!

كان صيفًا قائِظًا من عام 1943م ذلك الّذي صرتُ فيه جُنديًّا. وزّعونا على معسكرات التّدريب، كان نصيبي أنْ أعود إلى المناطق الّتي نشأتُ فيها، عُدنا إلى الجفر، تدرّبْنا على مدى ثلاثة أشهر في مخفر الجفر في قُوّات المُشاة، واستخدام السّلاح والرّماية، وكنتُ مُجلّيًا في ذلك، لم يتقدّمْني أحدٌ؛ فلقد كان السّلاح رفيقي منذ سنوات.

كان على كلّ متدرّبٍ جديد، أن يقوم بالحراسة اللّيليّة لمدّة ساعتَين، ومن شدّة التّعب في الأيّام الأولى بعد انتهاء التّدريب كنتُ أغفو. كان اللّيل يُغري بالنّوم، كان ليل الجفر - كما هو الليل في الصّحراء كلّها - ساحرًا، وحينَ كان اللّيل يُمعن في طُوله كنتُ أعودُ إلى هوايتي القديمة

في إضاءة النّجوم بالأبيات الّتي أغنّيها لها. وتذكّرتُ الشّقراء، ولم أدرِ ما فعل الزّمان بها بعدي، وحاولتُ استِعادة صوتِها فكان يأتيني من السَّحَر حزينًا رقيقًا، وكُنتُ أغفو وهي تهمسُ في أذنيّ، ولم أكنْ لأتبيّن ما تقول بسبب التّعب الّذي كان سرعان ما يسحبني إلى قاع النّوم، ولكنّني قدّرتُ أنّها كانتْ تُعاتبني، وتقول لي: «لماذا تخلّيْتَ عنّي؟». وانصرف الصّيف، فكان البردُ في ليل الجفر ذابِحًا، وكان يتسلّى خاصّة في أوقات حراستي اللّيليّة في حَزّ عِظامي، ولكنّ الجُنديّة كانتْ تعني أنْ أتحمّل مهما كان الثّمن.

ونُقِلتُ بعد الجفر إلى المفرق، حيثُ كان أبي يعمل ذات يومٍ، وقد انتهى عهده بذلك المكان من قريب، وصرتُ أحد العاملين في مخفر المفرق، وكنّا حوالي أربعين ضابِطًا وجُنديًّا، وكانوا جميعًا أمّيّين باستثنائي، وأوكلتْ إليّ مهمّة استلام البرقيّات الهاتفيّة الواردة من قيادة عمّان، أو من المخافر الأخرى، أو من شركة (I. P. C) النّفطيّة، وكانت هذه الشركة مسؤولة عن الخطّ البترولّي الممتدّ من كركوك إلى حيفا، وكانتْ قوّات البادية أو الهجّانة المنضوية تحت مُسمّى الجيش العربيّ هي الّتي تقوم على حراسته في نقاطه الّتي تمرّ بالأردنّ. ولم تكن الحراسة على الحدود بقدر ما هي على خطّ البترول نفسه، وكان الأردنّ يومَها بلدًا مفتوحًا على كلّ المنطقة، وربّما كان هذا قدرَه الجميل على ما أرى، ولِذا فقد وفدتْ إلينا من العراق ومن فلسطين ومن الجزيرة ومن سوريّة قبائل عربيّة، واستوطنتْ مرابَعنا، وكان يكفيها أنْ تحمل ورقةً من شيخها في بلدها الأصليّ لتُثبتَ وجودها في البلد الجديد، وتُشكّل هذا النّسيج المُجتمعيّ الّذي يدعو للدّهشة.

طلبَ منّي الضّابط المسؤول عن المخفر أنّ أذهبَ معه لاستِقبال عشيرةٍ نزلتْ بالحدود الشّماليّة قرب البويضة إلى الشّمال الغربيّ من المفرق، كانتْ عشائر الأردنّ آخذةً في التّشكّل، كأنّ يد الأحداث خلطت النّاس القريبين من بلدنا، وأعادتْ توزيعهم على ما يقتضي قَدَرُ الله، هل تعيدُ الجغرافيا تشكيل الوجوه؟! وصلْنا إلى قريةٍ تُسمّى (حوشا)، وكانتْ خَرِبة ليسَ فيها ما يدلّ على الحياة، ووجدْنا أنّ العشيرة المُهاجرة كانتْ قد نزلتْ فيها للتّوّ بعد اجتيازهم الحدود قادمين من سوريّة. واستقبلَنا شيخٌ جليل، كان ذا قامةٍ طويلةٍ مهيبة، ويلبس ثوبًا عربيًّا نظيفًا كأنّ السّفر لم يأخذْ منه شيئًا، وأصرّ علينا أن ننزل في ضِيافته ونأكل من طعامه، ونتناول الغداء على الرّغم من أنّه ورِجاله ونساءَه لم يكونوا قد أتمّوا بِناء بيوتهم. وقَبِل ضابط المخفر دعوته، ورحّب به باسم الحكومة الأردنيّة، وقال لنا: «إنّها بلادٌ واحدةٌ، وإنْ قسّمتْها خرائط سايكس بيكو». وكان هذا الشّيخ الجليل هو الشّيخ سعود القاضي، شيخ مشايخ بني خالد.

لم تكنْ مهمّتي الّتي تحوّلتْ إلى كاتبٍ في المفرق ثُمّ إلى مُحقّق سهلةً ألبتّة، فقد كان عليّ أنْ أحرّر المخالفات أو الشّكاوى الّتي تردنا بالبرقيّات عن حوادث الدّهس الّتي تقع حول خطوط أنابيب النّفط تلك، وحوادث القتل المريرة بسبب الخلافات العشائريّة على الأرض، وأحيانًا على أماكن الرّعي، ولعلّ سيرة كُليب والجسّاس كانتْ تحضر كثيرًا في صحرائنا؛ كأنّ العرب لم يغيّروا عاداتهم أو جلودهم منذ الجاهليّة الأولى!! وكثيرًا ما كنّا نذهبُ في دوريّة من المفرق عابرين الطّريق الموحشة المُظلمة لنحقّق في الأمر، فلا نجدُ غير الجثث ملقاة في

رمال الصّحراء كأنّ دماءنا منذ ذلك العهد السّحيق لا قيمة لها!! وكُنّا لا نعود إلاّ فجر اليوم التّالي.

كان الجيش العربيّ كلّه يومَها يخضع لغلوب، توسّعَ بشكلٍ أفقيّ، وامتدّ امتداد الماء على المُنبسط، وضمّ قوّات الأمن والبادية والهجّانة، ونصّب غلوب نفسه ليسَ بصفته قائدًا عامًّا للجيش فحسب، بل وقاضِيًا عشائريًّا يتدخّل في أدقّ الأمور الاجتماعيّة، ولربّما عنّ له أنْ يُطلّق امرأةً من زوجها، أو يُعيد أخرى إليه، أو يحبس زوجًا يعتدي على امرأته بحجّة أنّه يعتدي على أخته، فقد صار أبو حنيك أخًا لكلّ امرأةٍ مقهورةٍ أو يراها كذلك!!

وكانت المفرق يومئذٍ مُفترقَ طرقٍ وغايات، وكانتْ تُشبه خليّة نحلٍ لا تهدأ، وشكّلتْ بالنّسبة للإنجليز بعد انتصارهم في الحرب العالميّة الثّانية نقطةَ ارتِكازٍ مهمّة لقوافل الجيوش الّتي تعبرها شرقًا وغربًا، واتّسعتْ دائرة المهمّات الّتي تنطلق من تلك المدينة الصّحراويّة، لتشمل السّيارات العسكريّة الّتي تحمل جنودًا أردنيّين، يذهبون مع قوّات بريطانيّة أخرى إلى فلسطين لتولّي الحِراسة. وكانت هذه القوات تعمل في الثّكنات العسكريّة في فلسطين ستّة أشهر أو سنة، ثُمّ تعود، وكنتُ أسارعُ إلى العائدين، فأسألهم عن فلسطين وأهلها، وعن أحوالهم تحت التّهديد الصّهيونيّ، وكانوا يُحدّثونني أحاديث عجيبة عن جِهاد الثُّوّار فيها، وعن استبسال مُقاتليهم، ومن هناك بدأ حُبّي لفلسطين، وتشوّقتُ إلى أنْ أذهب في طليعةٍ من الجيش إليها.

واجتمع في المفرق بحُكم موقعها ومهامّها عددٌ من الشّخصيّات المهمّة في الجيش، وصادقتُ عددًا من المثقّفين والثّوريّين وأصحاب

الفِكر. ومكّنني ذلك من أن يتفتّح وعيي العسكريّ والسّياسي على ما يدور في فلسطين، وبدأتْ بوصلتي تتحدّد، وبدأتُ أراجع كلمات جدّي ونَظَرات خالي نائل، وهَمَسات عمّي هارون، وعرفتُ أنّ بوصلةً لا تُشير إلى فلسطين، ستكون بوصلةً عميلة عمياء، وراحتْ أقدامي دون أن أدري تسير في الدّروب الموصلة إلى القدس.

مع الأيام تشكّلت الصّورة وإنْ لم تتمّ، حضرت القدس في وعيي وحيفا ويافا والخليل وصفد، ... وبدأتُ أحاول مع الضّابط المسؤول عنّي أنْ ينقلني من قُوّات البادية إلى القُوّات المُسلّحة لأحظى بفرصة الذّهاب إلى الأرض الحُلُم. ولكنّ هذا الضّابط قال لي بلهجةٍ أبويّة: «لا تتعجّل يا مشهور، مَن استعجل الغاية فاتَتْه، اصبرْ حتّى تنضج الثّمرة، وسنرعاك حتّى يحينَ وقتُ القِطاف». ولقد صدقني الوعد.

***

(10)

أنا كائنٌ من حُلم

نُقِلتُ إلى مخفر رم، كان عليّ أنْ أحصّل الثانويّة العامّة، بقيتُ في ذلك المخفر ثمانية أشهر دون أنْ أغادره، صرتُ بعد حصولي على الشّهادة مُؤهّلاً لأنْ أدخل دورة المُرشّحين الّتي تقودني إلى أنْ أُصبِحَ ضابِطًا. ليس المهمّ أنْ تصبح ذلك الضّابط الّذي تحلم، بل المهمّ أنْ تكونَ حرّ الإرادة حينَ تُصبِحه. نحن لسنا أشجارًا، نحن أرواح، والأرواح خلقتْ لكي تظلّ حُرّة.

كانت الدّروس الّتي أخذتُها عن الشّيخ سُلطان في الخطّ قد أثمرتْ، وهكذا خلال فترةٍ بسيطة صرتُ الكاتب الأوّل في مخفر المفرق بعد عودتي إليه. كأنّ كلّ صلاةٍ عسكريّة في الأردنّ لم تكنْ لِتُقام إلاّ هناك، ولم يكنْ مَنْ يُحسِن النّداء إليها أكثر منّي. ولكنّ الأيّام تُعلّم، لقاء الأشخاص يفعل، المُفاجآت تُلقي دروسًا أكثر عمقًا، ولم أكنْ أكثر من تلميذٍ في مدرسةٍ أحبّها كانتْ تُدعَى في تلك الأيّام: الحياة العسكريّة.

كم سنةٍ مرّتْ منذُ رحيلي عن الرّشاديّة، عن وجه جدّي، عن دموع أمّي، وعن حُزن الشّقراء؟ ثلاث سنوات؟ ربّما، الأعمار ليستْ سنوات. السّنوات نبأ كاذبٌ في صحيفة العُمر، السّنوات شهابٌ خادع، لم أرَ شهابًا يُضيءُ أكثر من ومضة. إليكَ سِرّي: أنا كائنٌ من حُلم، تقتلني الدّهشة، وتصيدني الأحزان. الإنسان لا يعرفُ ماذا يحدث. يحدثُ

الّذي يحدث ويتقبّله. لم أسأل في بداية حياتي لو مرّة واحدة: لماذا حدث هذا؟ لماذا أسأل إذا كانت الأجوبة مُعلّقة، ولا يعرفها إلاّ القدّيسون الّذين يُخبِرون عن الله. «الحياة مهزلة». هكذا تبدو أحيانًا، هكذا قال جدّي ذات مرّة.

كان أصدقائي من الضُّبّاط القادمين من فلسطين يُخبِرون بعضَ الأحداث الّتي كنتُ أعتقد أنّها لن تحدث، من المستحيل أنْ تحدث، نحن لسنا في زمن الأساطير، ولا في زمن البطولات الأسطوريّة. ولكنّها كانتْ تحدث. كانت تحدث بالفِعل. ربّما لم أكنْ لأجدَ لها تفسيرًا منطقيًا إذّاك. ولكنّ الإنسان لا يبقى هو هو، يتغيّر، هل يُمكن أنْ تحدث المعُجِزات؟ هل يمكن لعقلي أنْ يتقبّل أنّ هذه المُعجِزات كانت تحدث. إليكم سِرّي الآخَر: لقد وجدتُ صعوبةً في تصديقها في البداية، ولكنّني مع الزّمن، ومع كثرة الدّلائل القادمة من تلك الفِجاج العميقة، درّبتُ نفسي على تصديقها.

هل يُمكن أنْ يتحوّل الإنسان إلى قنبلة، إلى طردٍ مُتفجّر، إلى رجلٍ له روح البارود، وصوتُ الرّعد، وأثر الزلازل؟ هل يُمكن للموت أنْ يمشي على قدمَين، أنْ يسمّي نفسَه في لحظةٍ فارقة بالشّهادة؟ إنّه زمن المُعجِزات إذًا. لكنّ المُدهِش أنّها كانتْ تحدث، وتحدثُ هناك، في فلسطين، ليسَ بعيدًا عن هنا، أراها في القادمين، في عيونهم، في تعابير وجوههم، وفي شَهَقاتهم وهم يروونها.

إضافةً إلى تسنّمي منصب الكاتب الأوّل لمئات البرقيّات والمُخاطبات اليوميّة أو شبه اليوميّة، تحوّلتُ إلى العسكريّ اللّطيف الّذي يرفع سمّاعة الهاتف ليستقبل المكالمات أو الإخطارات القادمة من

غرب النّهر. كان صوتي رفيعًا، لم يخشنْ بعدُ، وكثيرًا ما كان الضّابط أو المُتّصل على الطّرف الآخَر يُغلِق الهاتف ظَنًّا أنّه اتّصل بالجهة الخطأ. بعضُهم كان يسترسل في كلامه قبل أنْ يسمعني، من خلال هذا الاسترسال سمعتُ أصواتًا لا حصرَ لها، لم يكنْ أيُّ صوتٍ منها يُشبِه الآخَر، وكنتُ أتخّيل وجه قائله من الجملة الثّانية أو الثّالثة، ولِذا فإنّ ذاكرتي خزّنتْ في تلك الفترة آلاف الوجوه الّتي ربطْتُها مع أصواتِها، وكنتُ أصطاد قائليها عندما يأتون من حيفا أو من بغداد أو من القدس أو من المدن الأخرى إلى المفرق، أقول له: «أنتَ العميد سالم، وأنتَ الكاتب حمدان، وأنتَ....» كانتْ تُصيبهم الدّهشة، وأحيانًا كانوا يضحكون، وأحيانًا كان يُصيبهم الهلع. لم يكنْ واحدٌ منهم يدري أنّ للصّوت ذاكرة، أنّ للصّوت صورة!!

طال انتِظاري لتحقيق وعد مدير المخفر لي بالذّهاب إلى فلسطين في إحدى الطّلعات الدّوريّة. النّار تحرق المُنتظِر. والوعدُ لا ينتظر أكثر من ذلك، إنّني سأتحوّل إلى علبة كبريت لو بقي الشّوق إلى تحقيق هذه الأمنية الصّغيرة محبوسًا في صدري. القادة يُماطِلون، القادة يكذبون إلاّ أنْ يكون هناك ما يردع، أو ما يؤخّر تلك الكذبة، أو ما يَضطرّهم إلى تحقيقها في ظرفٍ طارئٍ خارجٍ عن الإرداة. من أجل ذلك؛ انتظرتُ إحدى عُطلنا في الجيش، خلعتُ لباسي العسكريّ، ولبستُ ثيابًا مدنيّة، وأبقيتُ على المسدّس على جانبي، وقصدتُ الفولة الّتي سُمّيتْ فيما بعد بالعفّولة، حيثُ يعمل في نقطتها العسكريّة أحد أقاربي. ركبتُ الباص المُتوجّه من إربد إلى الحمّة السوريّة، ثُمّ ركبتُ باص طبريّة، كانت البلاد الّتي نستقبلها تستقبلنا، البلاد التي نذهب إليها تذهبُ فينا، وتُحيّينا نحن

المنزرعين في مقاعدنا في الباص الّذي يعود إلى شركة نقل إنجليزيّة عريقة، ليس هناك ما هو أجمل من فلسطين، شيءٌ ما فيها مختلف، ولئنْ سألتَ ما هو ليُعيِينّكَ الجواب؛ قد يكون البحر، نسائمه العليلة. قد يكون هذا السّمو في جبالها، شاهقة كأنّها تأنف أنْ تظلّ في القيعان. قد يكون سهوله المُنبسِطة الّتي تجد فيها من كلّ ضيقٍ مخرجًا. وقد يكون كل ذلك مُجتمِعًا، ولكنّني أرى أنّ الأمر ليس بهذه السّهولة، ولا بهذا الوصف الشّاعريّ، هناك شيءٌ يُلمَس ولا يُقال في حقّ جمالها، شيءٌ من الصّعب أنْ تُعبّر عنه ولو كنتَ تملك لغات العالَم كلّها، شيءٌ ما يمسّ الرّوح الّتي فيك، يمسّ حواسّك المئة، ليسَ حواسّكَ الخمس، فتلك أقلّها استشعارًا لذلك الجمال، هناك أشياء أخرى كثيرة، هل يُمكن أنْ تصف الجنّة، أيّ لغةٍ تلك الّتي تستطيع أنْ تجعلك تتخيّل ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعتْ ولا خَطَر على قلب بشر!!

من طبريّة احترتُ في الحافلة الّتي يُمكن أنْ تحملني إلى العفّولة، تتشابه في هيئاتِها ولكنّها تختلفُ في غاياتها. وصعدتُ إحداها. ولمّا صرتُ في الباص رأيتُ كلّ العيون تتقحّمني، وفيها خوفٌ وحذَر، ونظرتُ إلى نفسي لأكتشف السّرّ في نَظَرات النّاس الغريبة إليّ، ولكنّني لم أجدْ ما يُثير الغرابة أو حتّى الفضول، بدويّ قادمٌ من الصّحراء، نحيلٌ وحالم، ويحمل مُسدَّسًا. هل المُسدّس هو المشكلة؟ لقد رأيتُ كثيرين بلباسٍ عسكريّ في رحلتي هذه يحملون البنادق لا المُسدّسات فحسب. ومضيتُ لأبحث عن مقعدٍ خالٍ، فرأيتُ العيون تتّسع دهشتُها وخوفُها وهي تُحدّق بي، ثُمّ قلتُ «لن أكترثَ بأحدٍ، ما دمتُ سأصل إلى وجهتي». ثُمّ عنّ ببالي أنْ أكون جريئًا مثلهم فأنظر في وجوههم،

فأنكرتُ الوجه الأوّل، ثُمّ الثّاني، ثُمّ أنكرتُ الوجوه كلّها، وعرفتُ حينَها لماذا ينظرون إليّ بهذه الطّريقة. لقد كنتُ أركبُ باصًا لليهود، كلّ مَنْ فيه هم من اليهود، كان بعضُهم يعتمر القلنسوة الدّينيّة فوق رأسه، وبعضُهم كان يُطيل جدائله فتتدلّى على صدره حتّى تصل إلى أسفل بطنه، ولم يكنْ بينهم عربيّ ولا حتّى إنجليزيٌّ واحد. كان سبب ذلك جهلي بالطّرق والحافلات. وكانتْ في تلك الأيّام قد كثرتْ حوادث القتل بين العرب واليهود، وكانت الباصات هدفًا سهلاً للطّرفَين، يصعدُ العربيّ حافلةً لليهود فيقتل عددًا منهم ثُمَّ يلوذ بالفِرار، أو يغرس يهوديّ تحت حافلةٍ عربيّة قنبلة، فتنفجر بها، وتقتل بعضَ مَنْ فيها. وجلستُ في مقعدي وأنا أتلفّت حولي مثلهم، وأتحسّس مُسدّسي لأكون جاهِزًا للدّفاع عن نفسي إذا لَزِم الأمر. ومرّ الأمر بسلامة، ووصلتُ إلى معسكر الجيش في العفّولة عند مغيب الشّمس، الّتي كانتْ تتنازل عن عرشها لتختفي في الطّرف الآخر من الأرض، وفكّرتُ: «ألا تتعب الشّمس من لعبة التّخفّي؟!». وأخذتُ نَفَسًا عميقًا وأنا أهبطُ من الحافلة، ونظرتُ من موقعي إلى المعسكر القائم على نشزٍ يكشف الطريق، ووجدتُ أنّ العسكر كالبدو، هم لا يُقيمون في أرضٍ إلاّ ريثما يتحوّلون عنها، وتخيّلتُ بركسات الجيش خيامًا أو بيوت شَعرٍ، لا يبقى من بعد رحيلهم إلاّ الأثافيّ. وقطعتُ الطّريق التّرابيّة الّتي توصل إلى باب المُعسكَر، وكشفتُ للحارس عن هويّتي، ولم أتعرّف إلى صوتِه، ولكنّني قبل أنْ أصل إلى المكان الذي ينزل فيه قريبي كنتُ قد أخبرتُ ثلاثةً بأسمائهم من خلال شيفرة أصواتهم. تلقّاني قريبي بالتّرحاب، وأنبأته بما حدث معي، فقال: «إنّ الله سَلَّم». وكانت الفولة يومئذٍ

مستعمرةً صهيونيّة، أقام عليها اليهود بيوتهم، وصنعوا فيها مدينةً، وعملوا فيها بالزّراعة، وكانوا قد اشتروا أراضيها من إحدى العائلات الثّريّة في لبنان.

في اللّيل، وكُنّا نستلقي على أسرّتنا، قال لي قريبي: «الإنجليز يأتون إلى هنا كلّ شهرَين مرّة، ويقومون بالتّفتيش على لِباسنا، ثُمّ يذهبون. منذ التِحاقي بهذا المعسكر، ونحن محبوسون فيه لا نفعل شيئًا... سألتُ أحد الضُّبّاط الإنجليز ذات مرّة عن جدوى بقائنا هنا من دون فِعْل أمرٍ ذي بال، فقال لي: هل يأتيكم طعامٌ جيّد؟ فأجبته بالإيجاب، وماءٌ نظيف، وأَسِرّة مُريحة، وأنتم بعيدون عن المشاكل الّتي تحدث في الخارج؟ فلماذا تريدُ أنْ تفعل شيئًا؟ فقلتُ له: إنّه لا بُدّ من غايةٍ لوجود العشرات منّا في هذه المُعسكَر في هذه المنطقة النّائية؟ فقال: نعم، أترى المحميّة الّتي تُبنى خارج هذا المعسكر، وكان يعني المستعمرة، وأكمل: إنّنا مُوكّلون بحمايتها، ومنع الاعتداءات عليها، وبما أنّه لم يحدث أيّ نوعٍ من هذه المشاكل حتّى الآن، فأنتم في أمانٍ، ولكنّني لا أشكّ أنّه إذا وُجّهت إليكم الأوامر العسكريّة فستهبّون للدّفاع عنها ضدّ العمليّات التّخريبيّة. إلى تلك اللّحظة كُلْ جيّدًا أيّها العسكريّ، ونَمْ ليلك الطّويل، إلى أنْ تأتيك أوامرنا». وقال لي: «شعرتُ يومَها بأنّنا عبارة عن أحجار لا تملك من أمرها شيئًا، وكرهتُ العسكريّة الزّائفة من ذلك اليوم. وأنا أفكّر أنْ أهربَ من هنا وألتحق بالثّوّار حتّى أشعر بجدوى وجودي في الحياة».

لم أنمْ تلك اللّيلة، كانتْ ليلةً يتيمة، وحيدة، ولكنّها أضافتْ إلى حصيلتي دروسًا أخرى. الصّورة ليستْ تلك الّتي تبدو لك أو تراها،

هناك ألفُ يدٍ خلفَها تعبثُ بها حتّى تراها على هذا النّحو، فيما هي غريبةٌ عن نفسها كلّ الغرابة.

في الصّباح، ركبتُ سيّارة البريد العسكريّ وعُدتُ إلى عمّان. أشياء كثيرة بعد تلك اللّيلة نبتتْ في صدري، صار صدري مستودَع أسرار، صار مخزون حكايا، وصار ذُبالة حُزنٍ مُعتّق!

* * *

(11)

هل يُعِيرُ الشّهداءُ الرّاحلون وُجوهَهم للشُّهداءِ المُحتَملين؟

نحن عُراة، جياع، مُمزّقو الثّياب، تشقّقتْ أقدامنا لطول ما مشينا حُفاة، مُشرّدون في مجاهل الأرض، لا شجرةَ نستظلّ تحتها، ولا حجر نُسند إليه ظهورنا المُثقلة. كنتُ أراهم وأنا عائدٌ في الصّباح إلى عمّان، عمّان العاصمة تبدو بعيدةٌ جدًّا عن هنا، عن هذا الدّمار الّذي يحدث في الخفاء. لقد رأيتُ وطني يموت، رأيتُ أبناءه يُذبَحون، رأيتُ فلسطين كلّها تُذبَح، كان المُقاتِلون يضطجعون في السّهول، كما لو كانوا ذِئابًا أصابتْهم رصاصاتُ الموت في ذات اللّحظة، كانوا ينزفون، وبطونهم مفتوحة، رأيتُهم يملؤون أكفّهم بالتّراب ثُمّ يغلقون تلك البطون المفتوحة به، يكزّون على أسنانهم ولا يصرخون، تراب الوطن مهما كان قاسِيًا لكنّه لا يُسبّب الألم، تراب الوطن مهما ذرّ في أعيننا العَمى، فسوف نظلّ نحتفظ به في تلك العيون، حتّى يكون عونًا لنا على إكمال الطّريق. تريدون أرواحنا؟ خذوها. تريدون أشلاءَنا لتشبعوا، ودمنا لتسكروا؟ إليكم هذا كلّه. تريدون كرامتنا؟ كلاّ. لا حياة لمن تُسلَب منه، فلْنمتْ بصمتٍ، بعيدًا عن كلّ ضوضاء؛ أخيرًا يُمكن أنْ نعرف لماذا نموت.

كم من مـأساةٍ عليها أنْ تحدث من أجل أنْ نُدرك أنّ الوطن لا

يُمكن أنْ يُساق إلى المذابح ونحن نتفرّج، وأنّه أغلى ما يُمكن أنْ تراه عينان، أو تُصغي له في ليل الشّجى أذنان!

أنْ تكون العسكريّ الوحيد الّذي يستطيع الكتابة، فمعنى ذلك أنّك ستقفز قفزاتٍ غير محسوبة ولا متوقّعة، ستتوسّع الصّلات، وستتعدّد الوجوه، وستتنامى العلاقات. وستُصبح مَلِكَ المخفر غير المُتوّج، وهذا ما حدث. لكنّ خلف ذلك قصصًا دامية، ربّما لو خُيّرتُ كنتُ سأُفضّل أنْ أظلّ بعيدًا عنها، لأنّها سكّين ذابحة، تحزّ الرّوح قبل الجسد!!

كانوا عشرةً رُحّلوا من فلسطين مع ثلاثين آخرين في (لوري) تابع للإنجليز، سمّاهم الضّابط الّذي دخل بهم عليّ (مخرّبين): «صَدِّرْ كُتُبَ هؤلاء». كانتْ أوّل مرّة أعرف أنْ الأردنّ يستخدمه الإنجليز معبرًا للتّهجير، تابع الضّابط الإنجليزيّ: «إلى العراق». ولم يكنْ شيءٌ ليُفسّر لي: لماذا إلى العراق؟ هل لأنّ الحُكم واحدٌ؟ أم لأنّ الحاكم واحد؟

دخلتُ عليهم الزّنزانة الّتي ضمّتْهم، هالني منظرهم، كانوا شُعثًا، غُبرًا، مُنهَكين تمامًا، كأنّما قد مرّ عليهم أسبوع دون أنْ يأكلوا أو يناموا! حبستُ دمعةً حارقة صعدت من أعماقي، وأوقفتُها قبل أنْ تطفر من العين وتسيل على خدّي، أعطيتهم ظهري حتى لا يروا هذا، وأشرتُ لهم من خلفِ كتفي أنْ يتبعوني. وقفوا أمامي على المكتب الّذي يحوي الكتب الرّسمية الّتي ستُرسِلهم إلى العراق.

من دون أنْ أنظر في وجوههم طلبتُ منهم أنْ يذكروا أسماءهم، كنتُ أعرف أنّني لو نظرتُ في وجوههم فسأنهار، لا يليق بضابطٍ مرشّح مثلي أنْ يبدو ضعيفًا، كلّ مَنْ في هذه النّقطة العسكرية من العرب والإنجليز يعتمد

على الكاتب الوحيد الّذي يُمكن لحروفه أنْ تنفّذ ما يريدون من إرسال هذه الكُتَل البشريّة خلفَ الحدود، إلى بلاد ما بين النّهرَين. وفكّرتُ: «كيف يُمكن أنْ نغامر بكلّ هذه الأرواح بِجَرّة قلم؟». وتساءلت: «مَنْ يكون هؤلاء؟ أليسوا مثلنا لهم أهلٌ ووطنٌ وماضٍ ومُستقبَل؟ ونحن؟ ماذا نفعل بهم؟ ندمّر في لحظةِ سلطةٍ غاشمة كلّ هذا».

أنهيتُ كتابة أسمائهم وأعمارهم حسب بروتوكول الإبعاد، وأنا لم أنظر في وجه واحدٍ منهم، وإنْ خزّنتُ أصواتَهم في ذاكرتي، مع أنّ كلّ واحدٍ منهم لم يقلْ أكثر من سطرٍ أو سطرَين، وكان الواحد منهم إذ يُجيب على أسئلتي المُقتضبة باقتضاب، يعود إلى الصّمت فيغرق فيه. وناديتُ أحدَ العسكر وأشرتُ لهم أنْ يُعيدهم إلى الزنزانة، وغدًا في الصّباح تأخذهم لوري المخفر إلى الحدود لتسليمه إلى نقطةٍ أخرى داخل العراق. وأداروا ظهورهم ليخرجوا، ورفعتُ رأسي لأنظر إليهم بعد أنْ تكون عيونهم قد صارتْ في الجهة الأخرى لا تراني، كانوا يتهادَون كأنّ أحزان الدّهور قد ركبتْ أكتافهم، أتعرفون كيفَ يُمكن لوطنٍ أنْ يُمزّق إلى أشلاء، ثُمّ يُوزّع دمه بين القبائل؟ كانوا كذلك!

كان ذلك في عام 1944م، وكان ذلك الفوج هو البداية، ثُمّ تتالى تهجير ثُوّار فلسطين إلى العراق، وتفريغها من أهلها بشكلٍ لا يُمكن تخيّله، ولقد ابتُليتُ في ذلك حتّى إنّني لأعدّ هزيمتي أمام نظَراتهم أكبر هزيمةٍ مُنِيتُ بها في حياتي.

كنتُ أكتبُ في اليوم أكثر من خمسين كتابًا، استمرّ ذلك حتى عام 1945م، لم يكنْ هناك من آلاتٍ لنسخ الكتاب، ولا لتصويره، فكنتُ أكتب مِن كلّ كتابِ إبعادٍ ثلاثَ نُسخٍ بخطّ يدي، ولقد أثّر ذلك في

إصبعي، فتشوّه تشوّهًا دائمًا، ولا أردّ ذلك إلاّ للمُصيبة الّتي أجبرتُ على القِيام بها!

كان ذلك في شتاء عام 1945م، مَنْ يقدر أنْ يتحمّل بردَ المفرق، برد الصّحراء الذّابح الّذي تتكسّر منه العِظام، وكانوا أكثر من خمسين مُرَحّلاً زُجّ بهم في شاحنةٍ غير مُغطّاة، وجيء بهم إلى هنا، وكانوا يرتجفون من البرد، لدرجة أنّ أسنانهم كانتْ تصطكّ، ولا يلبسون ما يُمكن أنْ يُبعد عنهم شبح الصّقيع، وبعضُهم كان لا يزال في ثيابه العسكريّة الثّوريّة أوّل ما ألقَوا القبضَ عليه. كنتُ قد اعتدتُ الأمر بعد مرور أكثر من عامٍ على العشرة الأولى، صرتُ أحاورهم، أنظر في عيونهم، ولربّما أسمعُ دقات قلوبهم. ومع اعتيادي على ذلك لم أعتد على وخز الضّمير الّذي كان يُشعرني بأنّني شريكٌ في جريمة التّهجير هذه. ذلك الشّتاء لم يرحمْنا نحن الّذين أخذْنا كلّ احتياطاتنا في المفرق، فكيف بالقادمين في هذه الشّاحنة المكشوفة؟! كان المطر غزيرًا في الطّريق، وصلوا مُبلّلين من أعلى رؤوسهم حتّى أخامص أقدامهم، كانوا يرتعشون كعصافير انسكبتْ عليها أمواه السّماء دفعةً واحدةً. ازرقّتْ وجوههم من الصّقيع، وكانوا ينفخون هواء أعماقهم في أيديهم لعلّهم يشعرون ببعض الدّفء، ويلتفّ بعضهم على بعضٍ إلى درجة الالتصاق اتّقاء الزّمهرير، ولكنْ دون جدوى، كانتْ حتّى أنفاسُهم الّتي تصعدُ من أعماقهم باردة باهتة تنوء بثقل الهَمّ.

دخلتُ عليهم الزّنزانة الّتي كانوا محشورين فيها وسط الظّلام، أضأتُها لهم، ثُمّ ناديتُ عسكريًّا قريبًا، ووبّختُه: «تضعون خمسين في زنزانةٍ واحدة، أليس لدينا زنزانات أخرى؟». فردّ: «هكذا أمرني

الضّابط الإنجليزيّ». فصرختُ: «أنا المسؤول هنا، لا هو». وقمتُ بتوزيعهم على ثلاث زنازين، وبعثتُ لهم بمدافِئ، وطعامٍ ساخن، وغِطاءٍ وافر. وقلتُ لهم: «ارتاحوا، يُمكننا أنْ نُكمل الإجراءاتَ غدًا».

في اللّيل لم أستطعْ أنْ أنام، ومع أنّ الفارق بين غرفتي وزنزانتهم هو بضعة أمتار، إلاّ أنّني شعرتُ أنّها مجرّات ضوئيّة، وأنّها جدًّا شاسعة، ومُستحيلة، وآخذة في التّباعد. قُمتُ من سريري، خرجتُ إلى ساحة المخفر، لفحتْني ريحٌ باردة، سرعان ما تصاعدَ البُخار من فمي، كانت الرّيح تزمجر في الخارج، لكنّني كنتُ أشعرُ بالاختِناق، وكان عليّ أنْ أسير حتّى لو في هذا الهواء القارس لعلّني أتخفّف شيئًا من الثّقل الّذي أشعر به. لم أقوَ على السّير بعيدًا في الظّلام، رآني الحارس على البوّابة الخارجيّة فجفل، وانتفضَ على رِجلَيه، وأدّى لي التّحيّة، طمأنْته أنّ الأمور بخير، ودعوتُه أنْ يعود إلى عمله. شعرتُ بالإنهاك، لم يكنْ تعبًا في الجسد، أعرف ذلك، كانتْ روحي من الدّاخل تتداعَى.

عُدتُ إلى الدّاخل، أويتُ إلى سريري، كان سريري وثيرًا مقابل أسرّتهم، لم يطلِ الأمر كثيرًا حتّى حانتْ لحظة السّقوط الّتي أعرفها، فوقعتُ فيها، وذهبتُ في نومٍ عميق. في النّوم حلمتُ أنّ هؤلاء الخمسين قد خرجوا من الزّنازين، وأنّ الحارس الّذي على الباب لم يرهم، وأنّهم مَشَوا متقاطرين، يقفو الواحد منهم الآخَر، وكان يبدو أنّهم عُميان، لأنّهم كانوا يسيرون على وتيرةٍ واحدة! وفجأة ظهر نهر، نهرٌ في المفرق!! ورأيتُهم يسقطون فيه واحِدًا واحِدًا كأنّهم مدفوعون إلى ذلك، ثُمّ لا يخرجون منه أبدًا. وأفقتُ من النّوم فَزِعًا، وتلمّستُ صدري، ورحتُ ألهث، ووقفتُ على قدَمَيّ، وسارعتُ إلى الزنازين لأتأكّد من أنّني كنتُ أحلم، ونظرتُ من

الطّاقة في الزّنزانة الأولى فرأيتُهم يغطّون في نومٍ عميق هادِئ، وكأنّهم يتلذّذون به، وكذلك رأيتُ البقيّة في الزّنزانتَين الأُخرَيَين! وكانوا في عالَمٍ آخَر غير عالَمي، لا يُحسّون بشيء!!

وقفَ الأوّل، سألتُه عن اسمه، فقال لي: «عبد الرّحيم». ارتجفتُ، سقطَ القلم من يدي، توقّف نَفَسي في تلك اللّحظة، نظرتُ في وجهه، فشهقتُ، إنّه يُشبهه، أيكونُ هو؟ كيفَ وقد استُشهِدَ من سنوات؟ هل يُعير الشّهداءُ الرّاحلون وجوهَهم للشُّهداء المُحتَمَلين؟ هل تحلّ أرواحهم في أجسادٍ أخرى تحمل الاسم نفسَه والوجه نفسه؟ والعينَين؟ أليس للعينَين بصمة؟! والصّوتُ؟ كيفَ يكون لجسدَين، أو لروحَين الصّوتُ ذاته؟! أنا أعرف ذاكرة الأصوات جيّدًا؟! نفضتُ رأسي مرّتين لأبعد عنّي الأوهام الّتي بدأتْ تستحوذ عليّ. وتابعتُ معه عن عمره، وعن البلد الّذي أتى منه. وفعلتُ الشّيء نفسه مع الآخرين، بقيتُ سحابة النّهار وأنا أُصدّر كُتُبَهم، وأُملي أسماءهم وقرارات الإبعاد. في الخمسين استوقفني أحدهم، حينَ سألتُه عن عمره قال: تسعون. أسقطتُ القلم من يدي هذه المرّة، ونظرتُ في وجهه، فرأيتُ بالفعل شيخًا في التّسعين، كان العمر جليًّا على وجهه، لكنّه كان جليًّا أيضًا أنّه لم ينلْ من عزيمته، فسألتُه: «تُقاتلهم وأنتَ في هذه السّن؟». فأجاب، وهو يشدّ على أسنانه: «وإلى آخر نَفَسٍ يتردّد في صدري». فقمتُ إليه فقبّلتُ جبهته، وضممتُه إلى صدري بحنوّ، وقلتُ له: «سامحْني». ولكنّه لم يكترثْ. وتذكّرتُ قول أحمد شوقي في عمر المختار:

تسعونَ لو ركبتْ مناكبَ شاهقٍ

لترجّلتْ هَضَباتُهُ إعيـــاءَ

***

(12)
لا يَصنعُ السّلامَ مثلُ الحَرب

«ثلاث سنوات مرّتْ ولا زلتُ أنتظر منك مكالمةً أو خِطابًا، ألهذا الحدّ تخطفكَ العسكريّة منّا يا بُنيّ». كانتْ هذه برقيّة من جدّي وصلتْ إلى المخفر اليوم. تنهّدتُ، وسرحتُ بخيالي بعيدًا، استرجعتُ الأيّام الّتي قضيتُها في الرّشاديّة إلى جانبه، بكيتُ، ليس بسبب الشّوق فحسب، بل لأنّني تغيّرتُ سريعًا، وأنّني أعطيتُ قلبي كلّه للبندقيّة وللفضاء الّذي أنظر إليه من خلال فوهتها. كتبتُ على طرف البرقيّة: «أنا مشتاقٌ يا جدّي، كثيرٌ من المياه في النّهر جرتْ يا جدّي منذ رحيلي عن المضارب، كثيرٌ من الرّياح جرتْ، قليلٌ منها بما تشتهي السّفن. سآتي في أوّل فرصةٍ تسنح لي. حفيدك مشهور». ونزلتْ دمعةٌ من طرف عيني فسقطت على حرف الميم المُغلَق فأذابتْ حِبره فانفتح، صار يُشبه الميم المنقوشة على رصاصة عبد الرّحيم. هل الأمر صُدفة؟ كيف تختار الصُّدَف ضحاياها أو قدّيسيها؟ كيفَ يكون في أمرٍ ما صُدفةٌ إذا كان كلّ شيءٍ مُخطَّطًا له في السّماء، ومكتوبٌ في الأقدار الّتي لا تتبدّل ولا تتغيّر ولا تتحوّل؟!

في أوّل إجازةٍ بعد تلك البرقيّة، ركبتُ جناح الطّير ورحتُ إلى الرّشاديّة، قبّلتُ يد جدّي، ووجهه، وعقاله. كان قد هرم في السّنوات الثّلاث كثيرًا، كان يبدو مُتعبًا، قال لي: «لم يعدْ في الرّشاديّة أحدٌ مذ

غادرْتَنا». سألتُه عن عمّي هارون، فقال: «إنّه وفى بوعده، وشكّل طليعةً مُقاتِلة، وها هو في فلسطين، يتمركز في الجبال المُطلّة على القُدس». وسألتُه عن خالي (نائل)، فقال: «إنهما يُقاتِلان اليهودَ معًا». ثُمّ تنهّد، وقال: «تعلم أنّكَ حبّة الفؤاد يا مشهور، فلّما غِبتَ انتُزِع شيءٌ من قلبي، وأعلم أنّك لن تُقيم هنا طويلاً، فالواجب العسكريّ سيُناديك، إنْ لم يكن اليوم فغدًا، وتعلم أنّ ابني الأكبر (نائل) حبّة الفؤاد الأخرى، وبرحيله هو الآخر، انتُزِع جزءٌ آخَر من قلبي، ولولا وجودُ أمّك إلى جانبي لكنتُ فقدتُ عقلي. ولكنّني عازمٌ...». وسكتَ، فسألتُه أنْ يُكمل، فقال: «عازمٌ على القتال في فلسطين، إنّ اليهودَ يحاولون استصدار موافقة أمميّة على قرار التّقسيم، وهذا القرار لو تمّ، فسيعني ذلك مَحْوَ العرب من فلسطين وتجذير اليهود فيها، ولم يعدْ إلا القتال... أترى إلى الرّوح إذا فاضتْ في أجلها المحتوم، أتردّها عن ذلك قوّة مهما عَظُمتْ في الأرض؟ كلاّ. وأنا أريدُ لروحي أنْ تفيض على تراب فلسطين». وشعرتُ برنّة الشجّن في صوتِ جدّي، شعرتُ بأنّه يرى أجله أمام عينَيه، وأنّ غيابَ ابنه في جبهات القِتال سيجعله ينضمّ إليه عن قريب. كان جدّي قد جاوز السّبعين يومئذٍ، ونظرتُ في عينَيه، فإذا هما غير عينَيه بالأمس، هل يسكبُ غياب الأبناء في عيون الآباء كلّ هذا الحزن؟ كان حزينًا وصابِرًا وذاهِبًا إلى النّهايات!

بِتّ تلك اللّيلة في بيتنا، كان أبي قد تركَ الجيش، حاول أنْ يلعبَ معي لعبة استظهار المحفوظ من الشّعر كما كان يفعلُ في السّابق، لكنّ أمّي نهرتْه: «نريدُ أنْ نسمع من مشهور عن حياته وماذا حدث معه، لا عن حياة الميّتين وما حدث معهم، ألا يكفيهم ما هم فيه من موت؟».

وشعرتُ بغصّةٍ في حلقي؛ ماذا أقول لك يا أمّي؟ أأقول إنّ جِراحَنا تتّسع وليس لها من راقٍ؟ أأقول إنّ بلادَنا تضيع أمام أعينُنا ولا نستطيع لذلك دفعًا؟ أأقول لك إنّ الّذين تآمروا علينا من الّذين هم منّا كانوا أكثر وأوجع من الّذين جاؤونا من الغرب أو من أصقاع الأرض البعيدة؟ أأقول إنّنا نسير إلى الحتف في مشهد انتحارٍ جماعيّ ونحن ندري، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يوقف هذا المدّ السّائر؟!

وقال جدّي: «سألحق بهارون ونائل، إنّهم ينتظرون كلّ فردٍ قادرٍ على حمل البندقيّة أن يلتحق بهم. ربّاه... ماذا يحدثُ لو خذلناهم؟». وقلتُ: «إنّهم يبحثون في الإذاعات عن السّلام». فردّ: «كذبوا؛ لا يصنع السّلامَ مثلُ الحَرب، إنّما يرتدع الجبّار بالحرب الّتي تشنّها عليها، كأنّها الرّيح فلا يدري من أيّ جهةٍ أتته». وقلتُ: «إنّ قادَتنا الإنجليز يقولون إنّهم سيحاربون إلى جانبنا ضِدّ الغُزاة». فردّ بحنق: «مَنْ يضع ثقتَه في قادةٍ كهؤلاء يخونوه، بل إنّه إنْ فعل فهو نفسُه خائن، لا تلسع الأفعى إلاّ عن لين، ولا تلدغ العقرب إلاّ عن صمت».

وسألتُه: «غَدُنا؟»، فقال بحسرةٍ: «تأتي به وتُعيدهُ دبّابةٌ». وَأَرَدْتُ أَنْ أَحْكِيَ الّذي شاهَدْتُه: «غَدُنا الّذي سَنَمُوتُ حتّى لا يَمُوْتْ... غَدُنا الّذي يَنْهارُ في زَمَنِ الثُّبُوْتْ... هَذِي البُيُوتُ تَمُوتُ يا جَدّي، وَكَمْ ماتتْ على وَجَعٍ بُيُوتْ... غَدُنا الّذي قَدْ صَار بعدَ تتابُعِ الأَهْوالِ أَوْهَى مِنْ خُيُوطِ العَنْكَبُوْتْ... لكنّه يومًا سَيُزْهِرُ مِثْلَ بُرْعُمَةٍ تُحاوِلُ أَنْ تَشُقَّ الصَّخْرَ فِي دَأْبٍ صَمُوتْ».

لقد وافقتِ الأممُ المتّحدة على قرار التّقسيم. صار علينا أنْ نكون حُماةً رسميّين للصهاينة؛ إيّاك أنْ تقترب من مناطقهم؟ إيّاك أنْ تتعرّض

لمواطنيهم بأيّ أذًى؟ إيّاكَ أنْ تدخل إلى مستعمراتهم الّتي ينزلون فيها آمنين ومُسالِمين؟! إيّاك أنْ تمتلك أيّ سِلاحٍ خارج السّلاح الّذي يُعطَى لوحدتك العسكريّة! إنّ أيّ (فَشَكةٍ) ولو كانتْ فارغةً تُضبَطُ في حيازتك فإنّ مصيرَ صاحبها التّعليق على حبل المشنقة دون مُحاكمة!! وإنّ أيّ خرقٍ لذلك سوف يُعرّضك لعقوبةٍ شديدةٍ في محكمةٍ إنجليزيّة تنتهي بالإعدام غالبًا!!

وتوالى المُبعَدون الّذين أرسلتُهم بحروفي إلى العراق. من ملكٍ إلى ملك؛ إليكَ دُفعةً جديدة من أبناء جِلدتك يُعاقَبون لأنّهم قالوا للقوانين الّتي أقرّتْها الأمم المُتّحدة: «لا». من مَلِكٍ إلى مَلِك، إليكَ هؤلاء المُناضلين؛ إنّهم لا يليقون بفلسطين، ولا تليق فلسطين بهم، فانثرهم على رمل الصّحراء عندكَ لعلّهم يموتون جوعًا. من مَلِكٍ إلى مَلِك متى كان اللّحم العربيّ رخيصًا إلى هذا الحد؟ إليكَ هذه الدّفعة الكبيرة، إنّ مُعظمهم أطفال، كانوا يحلمون بفلسطين، دَعْهم يحلمون بفلسطين في جبال كركوك الشّمالية العالية الجرداء. من مَلِك إلى مَلِك، هذه الدّفعة تزيدُ عن مئتين، لم أعدْ قادِرًا على إحصائهم، لكنّ السّياسة تقتضي أنْ توزّع كلّ واحدٍ منهم في بلدٍ، وتبعثرهم في الصّحارى والجبال والوديان والسّهول، وإذا أردتَ أنْ تُلقي بعضهم في النّهر فافعل، نعم افعلْ كلّ ما يحلو لك، ولا تدعْ واحدًا يجتمع بالآخَر، فإنّهم إذا اجتمعوا صاروا قُوّة، ونحن لا قِبَل لنا بما يتحلّون به من قُوّة؛ إنّ قوّتهم تكمن في أنّهم يُحبّون الموت!! أيّ عقوبةٍ يُمكن أنْ تُنزِل بامرئٍ هو يبحث عن الموت؟! من مَلِكٍ إلى مَلِك... لقد مللتُ هذه الخطابات المُتتابعة، ألا يُمكن أنْ يرتاح الإنجليز من تهجيرنا ولو لأسبوعٍ واحدٍ؟ إنّ أصابعي لم تعدْ قادرةً على

خَطّ أوامر الإبعاد، لقد صارتْ إصبع الوُسطى في يدي مُنحنيةً، وانحفرت في جزئه الأعلى حفرةٌ كاد العظم يبين من تحتها!!

وأراد الأمير عبد الله الّذي نزل بشرق الأردنّ أنْ يبنيَ مسجدًا عن أبيه، فعزم على ذلك، فعمدَ إلى المسجد العمريّ القديم الّذي لم يكنْ قد بقي منه إلاّ صحنُه، فوسّعه وأعلاه وأشهقَ مآذنه، وسمّاه المسجد الحُسيني، وإنّه لعلامةٌ بارزة في عمّان القديمة، وتنتهي إليه شوارع وأزقّة تهبط إليه من كلّ الأرجاء، كأنّها وديان صغيرة تأوي إلى عمقها، لتستقرّ في قلبٍ كبير يضمّ عليها أنحاءه. أو كأنّها طيورٌ مهاجرة تهوي من التّلال المُحيطة وتحطّ على حجارته.

أثناء بناء المسجد الّذي عمل فيه عُمّال أردنيّون وفلسطينيّون وشركس وشيشان وسوريّون وغيرهم، كانوا يحملون الحجارة على ظهورهم، وخاصّة الشّركس متحمّلين التّعبَ تبرُّكًا بعمر بن الخطّاب الّذي كان أوّل مَن أرسى قواعد هذا المسجد، وبهندسةٍ من عصر الرّاشدين تحمل بصمتهم، وبقي صحنه قائِمًا ليُشير إلى أنّ التّاريخ يبقى شاهِدًا على الّذين أذنوا لكلمة التّوحيد أنْ تنتشر في أصقاع الأرض... قُبَيل أنْ ينتهي البِناء، بعثَ رئيسُ البنّائين إلى الأمير يُخبره بأنّه لم يعدْ هناك من حجارةٍ يُمكن استخدامها لإتمام البناء، فأشار عليهم بأنْ يأخذوا ما تهدّم أو تناثر من حجارة المدرّج الرّوماني الّذي لا يبعد عن الموقع كثيرًا. وبالفعل، نُقلِت حجارة المدرج على ظهور المُحتسبين، وتمّ بها البناء، وصل الخبر الفاجعة إلى (جون فيلبي)، ضابط الاستِخبارت الإنجليزيّ الّذي لعب في مطلع القرن العشرين الدّور الّذي لعبه عبد الله بن سبأ في مطلع العهد الأمويّ، والغريب أنّ هذا الجاسوس الّذي

أظهر إسلامه غيّر اسمه إلى (عبد الله)، فكأنّه يقول لمن يقرأ التّاريخ: إنّني النّسخة الجديدة منه، حينَ عرف جون بأمر حجارة المُدرّج الرّوماني أبرق على وجه السّرعة إلى (تشرشل)، قائِلاً: «إنّ عبد الله تجرّأ أنْ يستلب حجارة الرّومان لكي يجعلها في مسجده الّذي سيُسمّيه على اسم أبيه». وغضب (تشرشل) غضبًا شديدًا، وثارتْ ثائرته، وقال: «يسرقون حجارة آثارنا وأرواح أجدادنا ويبنون بها مساجدهم!». وكتب (تشرشل) إلى الأمير: «إذا وصلك كتابي هذا فانزع حجارتنا من مكانها ولو تهدّم المسجد على رؤوس عابديه، وأعِدْها إلى المدرّج». وامتثل الأمير للأمر، وأعيدت الحجارة الرومانية إلى مكانها، وبحثَ البنّاؤون عن مصدرٍ آخَر يسدُّون به ما نقص... تذكّرتُ هذه القصّة اليوم وأنا أمرّ بالمسجد في إحدى إجازاتي، كان بهيًّا، لكأنّ روح الخطّاب تخطر في أرجائه. وكان يُشعّ روحانيّة، لكأنّ الملائكة صلّت على مُصلّيه. ولم يكنْ يُعكّر نقاءه وصفاءه إلاّ أصوات الباعة الّذين تضجّ بهم السّاحة الممتدّة أمامه، ونهيق بعض الحمير العابرة. ورحتُ أسأل خادم المسجد عن موضع الحجارة الرومانية الّتي أُزيلت، فلم يهتدِ إليها، وقال إنّه مرّ زمنٌ طويلٌ على ذلك. وأنّ عينَيه قد ضَعُفتا، ورأيتُه يتلمّس بعضَ الحجارة، فأعفيتُه من المهمّة. وحمدتُ الله أنّ (تشرشل) تصرّف على هذا النّحو؛ فكيف لمكانٍ طاهرٍ يشهد فيه المُصلّون لله بالوحدانيّة أنْ يتلوّث بحجارة الوثنيّين من الرّومان الّذين كانوا يعبدون ألفَ إلهٍ وإله!!

قبلَ أنْ تُزمِع الأممُ المُتّحدة الموافقةَ على قرار التّقسيم فتُعطي لليهود أكثر من نصف فلسطين، اشترى الإنجليز سكوتَ حلفائهم مقابل غنائم مُستعجلة، حدثَ ذلك قبل هذا القرار بسنة، أُذِن لإمارة

شرق الأردنّ أنْ تُصبح مملكةً، وتُوّج الأمير عبد الله مَلِكًا عليها، وابتدأ فيها عهدٌ جديد. كان هذا إضفاء شرعيّاتٍ كثيرةٍ على ما يُضمره الإنجليز، وإنْ كانوا قد أعلنوه منذ عام 1917 في وعد بلفور. قال الإنجليز: تكتسب العائلة الحاكمة في الأردنّ شرعيّتها من تاريخها، ومن انتسابها للرّسول الأعظم. قالت المُحادثات البينيّة: من أجل ذلك كُفّوا عن التّفكير بغيركم، لقد صار لكم وطنكم، فما شأنكم بأوطان الآخَرين؟ هل كان على الأردنيّين أنْ يفرحوا؟ إنّها مكافأة مُجزِية. ربّما بعض العمالات الكبيرة تنتهي بالتّخلّي الكامل عن العملاء أنفسهم، شواهد التّاريخ على ذلك كثيرة، ولكنّ بعضَ هذه العمالات أو سمّها التّفاهمات تنتهي بجوائز كبيرة أيضًا!!

كلّ شيءٍ يحتاج إلى وقت. هكذا قال الإنجليز للملك المُتوّج حديثًا، سيأتي اليوم الّذي سنرحل فيه من هنا، ولكن علينا أنْ نُتمّ بعض التّرتيبات. قالت الحقيقة أو بعضُها: لقد جاؤوا إلى بلادنا منذ أكثر من مئة سنة من أجل هذه التّرتيبات!! قال بعضُ الّذين استيقظوا متأخّرين: هل كُنّا سُذّجًا إلى هذا الحدّ؟!!

أصدر غلوب بعدَ أشهرٍ من الاستقلال قرارًا بترفيعي، هذا الرّجل العجيب لم ينسَني، كان يُتابع أخباري عن كثبٍ، يتسقّطُها دون أنْ أدري، مارسَ معي كما مارسَ مع كثيرٍ من القادة الّذين كان يتوجّس منهم خِيفة لعبة المنصب الممنوح بكلمةٍ، كلمة غلوب كانتْ نافذةً كالرّمح، قاطِعة كحدّ السّيف. لكنْ هل يستطيعُ أحدٌ أنْ يدخل إلى دائرته، هذا الثّعلب أذكى من أنْ تطأ ليسَ على ذيله، بل على حبّة رملٍ في حِماه؛ حدث ذلك في زمن اهتمامه بي، كان يعمل معنا عددٌ كبيرٌ من

العُرفاء، والعساكر، والجنود الحافين، مرّ بنا الملك عبد الله ذات مرّة، وقفَ عريفٌ في حضرة الملك، ونثرَ أمامه كلماتٍ من الشِّعر النّبطيّ أعجبتْه، سأله الملك عن اسمه ورُتبته، أخبره بانكِسار وأملٍ أنّه عريف، وأنّه يتمنّى لو يُعلّق ولو شريطةً واحدةً على ذراعه، ضحك الملك، وقال له: «أنتَ منذ اليوم ضابط صفّ». علّق له مديره في المساء على كتفه لا على ذراعه شريطتَين لا واحدة، وصل الخبر إلى غلوب، أمر بنزع الشّريطتَين قبل أنْ يطلع الصّباح، وإعادته إلى عريف، قال بهدوء: «أنا قائدُ الجيش، وأنا الّذي أمنح الرُّتب». فقالوا له: «إنّ الملك قد أمر بذلك». ردّ عليهم: «قولوا للملك إنّ الجنديّة تعني الانضِباط، وعلى هذا الجنديّ أنْ ينتظر دوره حتّى يحصل على رتبته بحقّ».

يا لكَرم الإنجليز، ويا لَعَدالتهم! كُنّا صورتَهم في المرآة، وصوتَهم في السّاحات، وبنادقهم على الأكتاف، ومن أجل ذلك كلّه كانوا يمنحوننا الأوسمة الّتي تليق بخدماتنا على الوجه الّذي يجب!

***

(13)

غولدامائير

«أبرز ما عَلِق بذاكرتي أنّني خائفة»... يدفعني التّفكير الدّائم في ردّ فِعل الطّرف الآخَر إلى الخوف، قد أبالغ في ذلك أحيانًا، ولكنّني أعتقدُ أنّ الحذر حتّى في حالة اللاّحرب أفضلُ بكثيرٍ من الرّكون إلى الأمان. ليستْ كلّ الأيادي الّتي تمتدّ إليكَ بالورد صادقة. إنّني ابنة الهولوكوست العظيم، لي عشرات من الخالات والعمّات وأولادهم الّذين كنتُ أسامرهم في طفولتي، وأحتسي معهم الشّاي في أيّام السّبت والعُطلات، ونغنّي لساعاتٍ طويلة، ذهبوا ضحيّة المَحرقة، مَشهدان لا يُمكن نسيانهما: براءتهم وهم يُنشِدون، وصرخاتهم بعد ذلك وهم يُعذّبون!

ليس من العدل أنّ نقول إنّنا شعبُ الله المُختار، وأنّ الله اختارنا، الأمر الّذي يبدو أكثر معقوليّة أنّنا نحنُ من اختارَ الله. وخيارُنا الّذي كان عن وعيٍ وإرادةٍ حُرّة جعلَ مِنّا شعبًا فريدًا في نوعه.

أنا قاصّة حكايات مُحترِفة، بدأتُ ذلك مع أولادي الصّغار، ثُمّ مع الشّعوب، ثُمّ مع الحُكّام، وأقول مُحترفة، لأنّ كلّ الّذين قصصتُ عليهم حكاياتي صدّقوها، بل وآمنوا بها حدّ الاعتِقاد الحارّ. وللأمانة: كانتْ قصصي دروسًا في التّاريخ!

إذا كُنّا قد نُفينا من أرضنا قبل ألفَي عامٍ، فلقدْ أصبحَ واضِحًا أنّ

هذا الوطن لا يُمكن أنْ يكون إلاّ لنا، ولا يمكن أنْ يكون كذلك إلاّ بالعودة إليه. إنّها أرض صهيون، وعودتها إلينا تُشبه عودة الرّوح إلى الجسد الميّت، لا يُمكن أنْ يتمّ بَعْثُ هذا الجسد من دونها، هذا ما كان يُؤمن به (هيرتزل)؛ الأب الرّوحيّ لنا، وعندما سمعتُ أنّه مات، بكيتُ في أعماقي بحرقة شديدةٍ، وقرّرتُ أنا وأختي أنْ نلبس السّوادَ منذُ وفاته ولمدّة عامَين كاملَين.

في طفولتي آمنتُ بقاعدةٍ، اتّخذتُها أساسًا في حياتي كلّها: الأمور لا تحدثُ فجأة، ما من شجرةٍ نبتتْ من باطن الأرض فجأة، لم يكنْ كافِيًا للمرء أنْ يكون مؤمنًا بشيءٍ ما، حتّى لو كان هذا الشّيءُ عادِلاً، الإيمان يتحوّل إلى خُواء، على المرء مقابل ذلك أنْ يكون لديه الجَلَد على مواجهة العَقَبات والكِفاح من أجل قَهرِها. لم تكنْ هذه قاعدةً سياسيّة، كانتْ قاعدةً تُبنَى عليها الحياة بأكملها، وهل السّياسة إلاّ جزءٌ يسيرٌ منها؟!

للّذين يجهلون كيف تتحرّر الأوطان وكيفَ تُستعاد؟ سأخبركم بحادثٍ مهمٍّ وقعَ في حياتي، إذْ قمتُ بأوّل عملٍ عامٍّ عندما أنشأتُ صندوقًا لجمع الأموال اللاّزمة لشراء الكتب وتوزيعها على الّذين يتلهّفون للقراءة ولا يملكون المال. فيما بعد صرتُ أمينةً لإحدى المكتبات الكبيرة، كان عملي هذا أجلّ عندي من عملي الّذي أصبحتُ فيه رئيسةً للوزراء في الدّولة القويّة. وكنتُ أرى أنّ التّدريس هو أنبل المِهن، فالمُدرّس يفتح آفاق الدُّنيا أمام تلاميذه.

آمنتُ بأنّ بناء دولة إسرائيل في فلسطين هو أكبر مُساهمةٍ يُمكن أنْ تُقدّمها اليهوديّة للإنسانيّة، وسيجد اليهود وأصدقاؤهم في أرضِ إسرائيل الفرصة الكاملة لِصُنع مجتمعٍ عادلٍ من خلال العمل الجادّ.

وإنّ العمل اليدويّ قادرٌ على تحرير اليهود من عقليّة (الجيتو).

قلتُ لأبي: يُمكنني أنْ أظلّ إلى جانبكَ أنتَ وأمّي، وأخدمكما بعيوني، ولكنّني سأهدم بذلك حُلُمي وحُلُمكَ وحُلم كل اليهود في العالَم، إنّ هناك وطنًا بعيدًا جِدًّا من هنا، ولكنّه وطننا، وفي أعماقنا تعيشُ أشواق ألفَي سنةٍ للعودة إليه، وبصراحة قاسِية هو أهمّ عندي منكما ولذلك سأهاجر إليه، وأدعوكما إلى أنْ تفعلا مثلي. بكى أبي بحرقة. بكتْ أمّي بهدوء، كانت على ثقةٍ من أنّها يومًا ما ستلتحق بي. إنّها تؤمن أكثر منّي بالوطن الموعود. بهذه الدّموع ودّعتُ أمريكا إلى أرضِ آبائي وأجدادي.

ركبتُ الباخرة من (نيويورك)، إنّها قِصّةٌ أخرى، وهِجرةٌ أخرى، صورةٌ مُصغّرة عن هجرة أبناء إسرائيل الضّاربة في التّاريخ، ومأساةٌ مُصغّرة عما كان يحدث معنا، ويُمكن أنْ أرويها في كِتاب. كان ذلك عام 1921م. كانت الباخرة غير صالحة للملاحة، ولكنّنا غامرنا بحياتنا من أجل حُلمنا الّذي هو أكبر من حياتنا. قبل أنْ تبدأ الرّحلة أعلن القُبطان العصيان احتجاجًا على الشّركة المِلاحيّة، فتأخّرنا أسبوعًا. كُنّا نجلس بلا عمل ننتظر، ولولا مجموعة الكتب الّتي أحملها، والّتي أنفقتُ الوقتَ في قراءتها لأكلني الملل والخوف. وصلْنا إلى (بوسطن) وبقينا فيها تسعة أيّام. زارنا وفدٌ من الصّهاينة العُمّاليّين، وشدّوا على أيدينا، وهتفوا بِاسْمنا واحِدًا واحِدًا، وقالوا لنا: «أنتم أبطال حقيقيّون».

غادرنا بوسطن، ووصلنا إلى جزر (الأزور)، لكنّ الباخرة المتهالكة توقّفتْ هناك أكثر من أسبوع لأنها تحتاج إلى إصلاح. عنّ ببال أربعةٍ من البحّارة الغاضبين الّذين لم يستلموا مُستحقّاتهم الماليّة أنْ يُغرِقوا الباخرة

بمن فيها. هكذا بهذه البساطة: (عليّ وعلى أعدائي). ولكنّ الأمن ألقى القبضَ عليهم في اللّحظة الأخيرة. ثُمّ أبحرنا ثانيةً. بقينا في عُرض البحر شهرًا. أثناء ذلك حدث ما لا يُمكن تخيّله، كانت الباخرة مُعرّضة لأنْ تغرق في أيّة لحظة. انفجر برّاد الباخرة، فاضطررنا إلى الاكتفاء بالأرزّ والشّاي. وماتَ أحدُ الرّكّاب لسبب لا نعلمه، فشاهدتُهم يُلقون جُثّته في البحر دون اكتِراث. وأصيب شقيق القُبطان بتصلُّبٍ في جسده وهذيانٍ في عقله فحبسوه في غرفته. وقبلَ أنْ نصل إلى (نابولي) أطلق القُبطان النّار على نفسه وانتحر!

لم يكنْ يتوقّع أحدٌ أنّنا نجونا. كان الخبر الّذي وصل إلى أهلنا أنّ الباخرة قد غرقتْ بكلّ مَنْ فيها. وراح أبي يهذي: «كنتُ أعرف أنّ هذه الرّحلة مشؤومة... ألم أقلْ لك يا ابنتي ألاّ تُهاجري». ثُمّ ركبْنا القِطار إلى (برنديزي). ومن هناك ركبْنا الباخرة مرة أخرى إلى (الإسكندرية)، والتقَيْنا على متن تلك السّفينة بمهاجرين أمريكيّين من الطّبقة البرجوازيّة الّذين قالوا لنا عندما رأوا فقرَنا: «لن تحتملوا البقاء في فلسطين أكثر من ثلاثة أسابيع». وقبل أنْ تُقلع الباخرة صعد ضُبّاطٌ مصريّون على متنها يبحثون عن اثنَين من الشّيوعيّين يُدعَيان (رابابور)، وتصادفَ وجود اثنَين من زملائنا يحملان هذا الاسم، فأخذوهما، وحقّقوا معهما لساعاتٍ طويلةٍ مُضنية، وبعد عودتهما، كان الخوف والتّشاؤم قد بلغ منتهاه فينا، فقرّرنا السّفر عبر القِطار. ونزلنا من السّفينة، كانت الإسكندريّة مليئة بالشّحّاذين، والقذارة يومئذٍ، وشققنا طريقنا عبر كلّ ذلك إلى القِطار، وسافرَ بنا القِطار عبر سِيناء، وبدا لي موسى في كلّ شبرٍ منها، وسمعتُ صوتَه عندَ كلّ محطّة فيها، ورأيتُ

طيفَه يلوح فوق كُثبانها المترامية، وكأنّه يبتسم في وجوهنا، ويُبارك هجرتنا، ويأخذ بأيدينا، وطَوال الطّريق ظللتُ أتساءل: «كيفَ عبر موسى مع أجدادي كلّ هذا الهَلاك، ولم يكنْ لديهم إلاّ الله؟». وحينَ بدأت الصّحراء تغيب، وتبرز الجِبال من خلف نوافذ القِطار ظهرتْ لي صورة (هيرتزل)، كان حاضِرًا في وِجدان كلّ يهوديّ، لقد سمعتُ صوتَه ينسل من بين أصوات الطّبيعة السّاحرة في الخارج وهو يقول: «لهذا السبب أعتقدُ أنّ جيلًا رائعًا من اليهود سوف يُولَد. سوف يستيقظ المكابيين مرة أخرى. دعوني أكرر مرة أخرى كلماتي الأولى: اليهود الذين يريدون دولةً سيحصلون عليها. سوف نعيش أخيرًا كرجال أحرار في أرضنا، وسنموت بسلام في بيوتنا. وسيتحرّر العالم بحريّتنا ويُثري بثروتنا ويكبر بعظمتنا. وكلّ ما نحاول تحقيقه من أجل رفاهنا سوف يستجيب بقوة وبشكل مفيد لفائدة الإنسانية». هل كُنّا حالمين إلى هذا الحدّ؟ ولكنْ مَنْ يدري؟ كلّ هؤلاء اليهود في كلّ العالَم في أيّ بقعةٍ منه يعملون على أنْ يجعلوا هذا الحُلمَ الكبير واقِعًا حقيقيًّا. وهذا ما حدث؛ لقد كُنّا نحن الجيل الّذي تنبّأ (هيرتزل) بولادته، وكُنّا أدوات الدّولة الّتي تنبّأ بولادتها أيضًا. ومَنْ عَمِلَ وجد.

وأخيرًا وصلْنا إلى (تل أبيب) وأنا لا أكادُ أصدّق أنّني وصلتُ، ولكنّ فرحتي لن تكتمل اليوم، إنّما ستكتمل يوم أحقّق حلم (هيرتزل) و(بن غوريون) و(وايزمان) بإقامة دولتنا على هذه الأرض المُبارَكة. واليوم قد بدأ العمل.

وانتسبتُ إلى (الكيبوتز)، كانت الكيبوتزات يومئذٍ عبارةٌ عن مستوطنات زراعيّة جماعيّة ليس فيها ملكيّة خاصّة، وكلّ مَنْ فيها يعمل

لصالح الجميع، كانت المجموعات الّتي تعمل فيها مسؤولة عن تلبية احتياجات أفرادها، بالنّسبة لي، كانت الكيبوتزات في نظري هي طريقة الحياة الوحيدة الّتي يُمكننا التّعبير فيها عن أنفسنا كصهاينة وكيهود وكبشر.

وبدأنا نشتري فلسطين، في الواقع قبل مجيئي إلى هنا بزمنٍ طويل، أوّل مَنْ حاول ذلك بشكلٍ كبير هو (هيرتزل) مع السّلطان (عبد الحميد)، ومع أنّه فشل في إقناعه بمقايضة أراضٍ مُحدّدة من فلسطين مقابل سداد ديون الدّولة العُثمانية إضافةً إلى ملايين اللّيرات الذّهبيّة للخزينة وله على وجه الخصوص، أقول مع كلّ ذلك الفشل إلاّ أنّه ألهم كلّ أصحاب رؤوس الأموال من اليهود بعد ذلك ليحذوا حذوه بهمّة ودون كلل، وبعدَ سقوط عبد الحميد كان الأمر يبدو سهلاً جِدًّا. لقد أنشأت الحركة الصّهيونيّة الصّندوق القوميّ لليهود عام 1901م، وكان له غرضٌ مُحدّدٌ واحدٌ فقط؛ وهو شِراء الأرض في فلسطين باسم الشّعب اليهوديّ. بدأنا نشتري مساحات شاسعة بأموالنا بدءًا بالعام 1904م. سيقولون غدًا إنّنا سرقْنا هذه الأرض من أهلها، والحقيقة غير ذلك، لقد أثرى كثيرٌ من العرب بهذه الصّفقات، لقد دُفِعتْ لهم أموالٌ طائلة، لم يكن الصّندوق القومي يفعل ذلك وحده، أفرادٌ ومؤسّسات وشركات أيضًا اشترتْ برضا أهلها أراضيَ كثيرة. وبحلول عام 1947 كان الصّندوق القوميّ وملايين الصّناديق الزّرقاء تملك أكثر من نصف الأملاك اليهوديّة في فلسطين.

لقد عاشَ آلاف اليهود، بل مِئات الألاف من اليهود في فلسطين لا يقف وراءهم أحدٌ باستثناء عزيمتهم، وأموالهم، والحركة الصّهيونيّة في

الخارج الّتي تبنّتْ فكرتنا في استعادة وطننا القوميّ، الّذي سُلِبَ مِنّا على مدار ما يقرب من ألفَي عام. ليس لأحدٍ علينا فضلٌ. صنعنا ما صنعنا بأنفسنا. بذكائنا، وإنْ شِئت فقل بدهائِنا ودَأَبِنا؛ فإنّ الحرب خُدعة. وبالإغراءات الكبيرة الّتي كان يسيل لها لُعاب العربيّ الجائع حاكِمًا كان أو محكومًا، مَلِكًا أو عبدًا. ومن أجل هذا كُفّوا عن التّباكي أيّها العرب، كُفّوا عن نعتنا بنعوتٍ هِيَ أليقُ بكم مِنّا. كان أمامنا وأمامكم ميدان، فسبقناكم وتأخّرتُم. وكان بيننا وبينكم وطنٌ، فظفرنا به وفقدتموه. وكان بيننا وبينكم حربٌ؛ فمن الطّبيعي من أجل هذه المُقدّمات كلّها أنْ نفوز وتخسروا.

***

(14)
هَتِيكْفــــاه

كان كلّ مليمٍ ضروريًّا من أجل بناء الحلم. وهل الملايين والمليارات الّتي جمعناها من بعدُ إلاّ من هذه الملاليم. كُنّا نقبل حتّى التّبرّع بالطّعام، وباللّباس، ما دامتْ فيه بركة صهيون، أمّا الّذي لم أكنْ لأقبله أبدًا فهو أنْ يلعب المُقامرون الكِبار (الكوتشينة) والرّابح يتبرّع بالأموال الّتي جَناها من أجل إقامة وطننا الحلم، لمّا علمتُ ذلك في إحدى جولاتي لجمع التّبرّعات كدتُ أضرب رأسي بالسّقف، وأنا أصرخ: «بإمكانكم أنْ تلعبوا الورق كما تشاؤون، ولكنْ لا تلعبوا باسم فلسطين، على الحُلم أنْ يظلّ نظيفًا».

التّخريب سيظلّ يجري في دم العرب، إنّهم مجموعة من الغوغاء الّذين لا يريدون بأنفسهم ولا بغيرهم خيرًا. في عام 1936م في أعقاب الشّغب الّذي قام به الشّيخ القسّام هو ومجموعته، أقدمَ إرهابيّون عرب على إحراق مئات الآلاف من الأشجار الّتي زرع اليهود كلّ شجرةٍ منها بالحبّ والدّفء والسّلام. لقد نفّذ أتباع الشّيخ أكثر من ألفَي هجمةٍ علينا أسفرت عن مقتل ثمانين يهوديًّا وإصابة الآلاف. وحينَ قُضِي عليه هو وحركته كان قد قضى من شعبنا النّبيل أكثر من خمسمئة ضحيّة سقطوا جرّاء العنف العربيّ. في تلك السّنوات الثّلاث 1936 – 1939 لم يكنْ بمقدور أيّ يهوديّ أنْ يُسافر من مدينةٍ إلى أخرى دون أنْ يتوقّع

الموت، إلى درجة أنّني كنتُ أُقبّل أطفالي كلّما توجّهتُ من القدس إلى تل أبيب لأنّني قد لا أعود إليهم. ومع أنّني جُرِحت غرب القُدس في عام 1947م جرحًا بليغًا، وفقدْنا على أيدي المُخرّبين قائدًا حكيمًا من قادة الوكالة اليهوديّة، كان أحدُ مُلهميّ هو (هانس برايت) إلاّ أنّ هذا الموت لم يثنِنا عن هدفنا، كان لدينا هدفٌ واضِحٌ وسنصل إليه، ولن يكون الموتُ مهما كان كثيرًا عائِقًا عن تقدّمنا.

ولكنْ؛ لماذا يُهاجموننا بهذه الوحشيّة؟! لقد كانوا يقولون: إنّهم يفعلون ذلك لأنّنا قد اغتصبْنا ممتلكاتهم وسرقنا بيوتهم، ولستُ في حاجةٍ لأثبت زيف هذا الادّعاء بالرّجوعِ إلى السّجلاّت البريطانيّة الّتي تُثبت أنّنا لم نسرقْ أيّ شيءٍ؛ بل اشترينا كلّ شيءٍ.

قضيتُ أعوامًا جميلة في تل أبيب، ومن بيتي، كنتُ أجلسُ على الشّرفة المُطلّة على البحر وأستعيد في ذاكرتي قصّة الطّفل اليّهوديّ الّذي ألقى بنفسه في البحر تنفيذًا لتعاليم موسى لبني إسرائيل بأنْ يرموا أنفسَهم فيه. وسرحتُ بخيالي بعيدًا وأنا أرى البحر وأحلم باليوم الذي يكون لنا فيه أسطولٌ تجاريّ يرفع علم نجمة داوود، وكان يوم افتتاح ميناء تل أبيب عيدًا قوميًّا، وتمنّيتُ لو أنّهم سَمّوه باسم ذلك الطّفل الشّهيد!

أجمل ما في البحر أنّنا ملأناه بالسّفن الّتي تحمل المهاجرين والأسلحة إلى وطننا الحُلم، في الأربعينيّات فقط كانت ترسو أكثر من ستّين سفينةً ضخمةً في الميناء فيها كلّ ما يتطلّب للمساعدة في بناء دولتنا الحديثة. لقد صار بإمكان (الهاغانا) أنْ يفخروا بأنفسهم؛ فقد كانوا أبطال الهجرة الّذين نسّقوا كلّ هذا: البشر والسّلاح.

وكانت الحرب تُطلّ برأسِها، وعرفتُ أنّنا لن نستطيع مواجهة الجيوش العربيّة بالكلام، ولدينا مهمّات أوّلها جمع المال، وشراء السّلاح، وعقد الصّفقات مع القادة الّذين يمكن أنْ يكونوا إلى صفّنا، وأمّا المُحاربون، فلا مشكلة عندنا فيهم، إذ كان عدد اليهود يومئذٍ يقرب من ستّمئة ألف، وكلّ واحدٍ فيهم يعرف كيف يستخدم السّلاح سواءً أكان رجلاً أم امرأة، طِفلاً أم شيخًا. كُنّا جميعًا نريد لدولتنا أنْ تقوم، ولم نكنْ نشكو من المعنويّات، متحمّسين لدرجة أنّنا يُمكن أنْ نقاتل بأيّ شيء.

وتولّيتُ مهمّة جمع المال، نحن نحتاج المال للحرب، لا لتشجير الأرض ولا للزّراعة، ولا للطّعام، بل لمواجهة الجيوش الّتي تتوعّدنا صباح مساء، ولمْ يكنْ أمامنا إلاّ يهود أمريكا، طِرتُ إلى هناك، واستثرتُ في أغنيائنا العاطفة الدّينيّة، وكانوا يشعرون بالالتزام نحو دولة إسرائيل حتّى ولو لم يكونوا متديّنين، وجمعتُ في أقل من أسبوع (500) مليون دولار، ورستْ أكثر من مئة سفينة على ميناء تل أبيب محمّلة بالسّلاح، ووُزّع السّلاح عل كلّ قادرٍ على حمله، وبقينا في حالة استِعدادٍ وحذر. وكان عالِمُنا العظيم (وايزمان) مبعوثَنا عند الرّئيس الأمريكي (ترومان) ليسهّل قيام الدّولة بعد الحرب على المستوى السّياسيّ.

إنّهم يتحرّشون بنا، ولو أنهم رَضُوا ما أُعطوا لَسَلِموا، ولكنّ الدّبّ فتح قفير النّحل؛ فقد اندلعت الاضطرابات العربيّة بعد قرار التّقسيم، وقُتِلَ العديد منّا، وأشعل العربُ الغاز في المركز التّجاريّ اليهوديّ في القدس أمام أعين الشّرطة البريطانيّة الّتي لم تتدخّل لولا أنّ (الهاغانا)، وذراعها الضّاربة (البالماخ) ردّتْ لنا الاعتِبار!

التقيتُ بالملك عبد الله قُبيل قرار التّقسيم في أوائل تشرين الثّاني من

عام 1947م، كان يحملُ صفة ملك، وكنتُ أحمل صفة رئيسة الدّائرة السّياسية في الوكالة اليهوديّة. التقيتُه في منزلٍ على ضِفّة نهر الأردنّ قرب محطّة كهرباء تُديرها شركة كهرباء فلسطين. قدّم لنا القهوة وهو يبتسم، كنتُ لا أريدُ الخوض في أحاديث جانبيّة لا قيمة لها، فدخل إلى صلب الموضوع، قال لي: «سأحاول ألاّ تكون هناك حرب؛ أنا أريدُ السّلام مثلكم، لقد شبعنا من الحروب، ومن حقّ شعوبنا علينا أن يعيشوا في سلام». ورشفَ قليلاً من فنجان القهوة، وأكمل وهو يُعيده إلى الطّاولة الصّغيرة أمامه: «ثُمّ إنّ عدوّنا واحدٌ وهو الحاجّ أمين الحُسيني مفتي القدس. وباتّحادنا يُمكن أنْ نجعله ضعيفًا». كنتُ أتذكّر في تلك اللّحظة مطلع شبابي، كنتُ لا أزال خائفة، لم يكنْ بمقدوري أنْ أنظر في وجهه مباشرة، كنتُ مُضطربة، ولم أستطع أنْ أتبيّن شيئًا لأتذكّره باستثناء العمامة البيضاء الّتي كان يلفّها فوق رأسه ومن تحتها تبدو جبهته أسطوانيّة، وعلى العكس منّي كان يبدو هادِئًا يتكلّم بثقة، ولم يكتفِ بما قال، بل إنّه اقترح أنْ نلتقي ثانيةً بعد أنْ ينتهي التّصويت على قرار التّقسيم في الأمم المُتّحدة.

كان لقائي بالملك تتويجًا لمسيرةٍ طويلة، من قبلُ كان يلتقيه أحد خبرائنا وهو (عزرا دانين)، التقاه كثيرًا، وكان مطلوبًا منه أنْ يفهم نظرة الملك إلى اليهود ودورهم في المنطقة. وبعد ما يزيد عن عشرين لقاءً، لخّص (عزرا) للوكالة اليهوديّة ذلك بقوله: «إنّ الملك يرى أنّ العِناية الإلهيّة شتّتت اليهود وأبناءهم في كلّ أوروبّا لكي يستوعبوا الحضارة الأوروبيّة، ثُمّ إنّ هذه العناية الإلهيّة هي الّتي جمّعتْهم من جديد، وجاءتْ بهم إلى فلسطين وهم يحملون تلك الحضارة ليضيئوا بها بلادنا، ويُعيدوا

إحياء هذه المنطقة». في الحقيقة لم أكنْ لآخذ نظرته هذه على محمل الجِدّ، وإنْ كنتُ أرى أنّه صادقٌ في حُبّه لنا، ولم يكنْ ذلك مُلزِمًا له.

كان وجود الملك عبد الله مُهِمًّا من أجل تقليل مساوئ الحرب فيما لو وقعتْ بيننا وبين العرب، ومن أجل ذلك حافظْنا على الاتّصال به خلال شهرَي كانون الثّاني وشباط من عام 1948م، وكنتُ أُراسله عن طريق صديقٍ مُشترَك كان يحمل رسائلي إليه، وكُنّا نحاول ألاّ يُشارك في الاجتِماع الّذي ستعقده جامعة الدّول العربيّة بشأن الحرب المُحتَمَلة، وقد كان يؤكّد لي على الدّوام أنّه لن يفعل ذلك، ولمّا جاءتْنا بعضُ المعلومات الّتي تقول إنّه لن يشارك كعضو في الجامعة العربيّة فحسبُ، بل إنّه سيلقي بكلّ ثِقَله فيها، كاشفتُه في ذلك وسألتُه بشكلٍ مُباشر إنْ كان سيغيّر موقفه، وسيقبل بالانضِمام إلى الاجتِماع؟ فبعثَ إليّ رسالةَ عِتابٍ كبيرة، وقال إنّ السّؤال جَرَحه، وإنّ عليها أنْ تتذكّر في وَعده ثلاثةَ أشياء: «أنّه بدويّ ولذا فهو رجلُ شَرَف، وأنّه مَلِك ولِذا فإنّه رجل شَرَفٍ مُضاعَف، وأنّه لا يُمكن أنْ يحنثَ بوعدٍ قَطَعه لامرأة مهما كانت الأسباب». أزالتْ هذه الرّسالة قلقي، وجعلتْني أطمئنّ تمام الاطمِئنان. ولكنّ الّذي حدث أنّه شاركَ في ذلك الاجتِماع بالرّغم من وعوده السّابقة، وصرتُ أفكّر في جدوى الاتّصال به من جديد، ولكنّ خبيرنا (عزرا دانين) الّذي يعرفه أكثر منّي، قال إنّه يُمكن أنْ نناور معه على فكرة تحييده هو وقوّاته عن الاشتِراك في الحرب، فقلتُ له: إنّ ذلك يحتاج إلى مُعجزة، ولكنّها لو حدثتْ فإنّ الجيش العراقيّ لن يستطيع أنْ يخترق فلسطين ليواجهنا، ورأى (بن جوريون) أنّه لا بأس من المحاولة معه من جديد.

طلبْنا أنْ نلتقي به هذه المرّة من تلقاء أنفسنا، ولكنّه رفضَ أنْ يحضر إلى نهر الأردنّ في موقع لقائي السّابق به، وقال لرسولنا: «إنّ ذلك خَطِرٌ للغاية. عليها أنْ تتحمّل هي المُخاطرة وتأتي إلى عمّان». كانت المخاطرة بالنّسبة لي كبيرة، ولكنّها ليستْ أكبر من الهدف الّذي نسعى إليه، ولهذا وافقت.

كان ذلك في العاشر من أيّار من عام 1948، كان عليّ أنْ أصل إلى تل أبيب من القُدس، كانتْ فلسطين كلّها تغلي، فلمْ أتمكّن من ركوب السّيارة خوفًا من استهدافنا، وكانت الأحوال الجوّيّة سيئّة، وكان عليّ أنْ أترك طائرة المساء هذه، وآخذ طائرة الصّباح، ولكنْ لم يكنْ ذلك ممكنًا، فلم يكنْ قد تبقّى على قيام دولتنا سِوى أربعة أيّام، وسأطير إلى تل أبيب ولو كانت السّماء تزمجر بالعواصف أو تقذف لهبًا. وقد فعلتُ. ركبتُ مروحيّة قديمة لم تكنْ صالحةً للطّيران، يُمكن للنّسمة أنْ توقعها، فكيفَ بالعواصف والأعاصير الّتي تهدر في السّماء. ووصلت إلى تل أبيب، ثُمّ توجّهتُ إلى حيفا، ونزلتُ في الطّريق، وغيّرتُ أكثر من سيّارة، وصعد معي في إحداها (عزرا دانين)، وقد تنكّر باللّباس العربيّ وكان يتكلّم العربيّة بطلاقة، ولم يكنْ أحدٌ ليشكّ حين يراه أنّه غير عربيّ، أمّا أنا فلبستُ الحجاب، وغطّيتُ رأسي، وارتديتُ العباءة السّوداء، لأبدو كامرأةٍ مُسلمة، وكان عليّ أنْ أرافق عزرا باعتباره زوجي، ولكنْ دون أنْ أحدّثه بكلمة. ومن عمّان غيّرنا السّيّارة كذلك ثلاث مرّات حتّى نضمن ألاّ أحدَ يتعقّبنا إلى أنْ وصلْنا إلى منطقةٍ قريبةٍ من القصر، لم أنبس بكلمةٍ واحدةٍ في مناطق التّفتيش الّتي أوقفْنا بها، كانت البنادق تُصوّب نحونا قبل أنْ نُسأل عن هويّاتنا، وكانت النّظرات

الشّاكّة تخترقنا، كنتُ خائفةً جِدًّا ولكنّني في الوقت نفسه واثقةٌ من قدرة عزرا بعربيّته السّليمة أنْ يُخرجنا من هذه المآزق، وعند نقطةٍ معيّنة كان علينا أنْ نقابل أحد الأدلاّء الّذي سيأخذنا بدوره إلى الملك.

دخلنا بيت الدّليل، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى دخل علينا الملك، كان يبدو مُرهقًا، وحين جلس خلعتُ حجابي، وأزلتُ غِطاء الرأس لأبدو على طبيعتي، وسألتُه مباشرة: «هل أخلفتَ وعدَكَ لي؟». تنحنح، وبدا أنّ وجهه ازداد رَهَقًا، وقال: «حينَ أعطيتُكِ ذلك الوعد كنتُ أعتقدُ أنّني أتحكّم بمصيري، وأنّني قادرٌ على أنْ أعمل ما أراه صحيحًا دون الرّجوع لآخرين، ولكنّني اكتشفتُ غير ذلك». ثُمّ جاء الخدم بالقهوة، وأتمّ هو: «على كلّ حالٍ ما زلتُ أعتقدُ أنّه يُمكننا تجنُّب الحرب لمصلحة الطّرفَين». قلتُ له: «ونحن لا نريدُ الحرب، كلّ ما نريدُه هو إعلان قِيام دولتنا، وهذا حَقٌّ طبيعيُ لنا». فحكّ ذقنه الّتي بدا أنّ الشّيب قد ملأها أكثر من لقائي السّابق به، مع أنّه لم يمرّ على ذلك اللّقاء وقتٌ طويل، وسألني: «لماذا أنتم في عجلةٍ من إعلان دولتكم إلى هذا الحدّ؟ لماذا صبرُكم قليلٌ إلى هذه الصّورة؟ ألا يُمكن أنْ تنتظروا حتّى نتوصّل إلى حلٍّ يُمكن أن ينزع فتيل الحرب؟». فقلتُ له: «أعتقد أنّكَ تتّفق معي أنّه لم يصبرْ شعبٌ مثلما فعلَ شعبُ إسرائيل؛ لقد صبرْنا ألفَي سنة من أجل هذا اليوم». فهزّ رأسه كأنّه يتّفق معي في ذلك، ثُمّ قلتُ له: «ألا تُدرك أنّنا حُلفاؤك الوحيدون في المنطقة، وأنّ البقيّة كلّهم أعداؤك ويتربّصون بك؟». فهزّ رأسه مرّة أخرى ولكنْ بأسى، ورأيتُه يضع يده تحت ذقنه، ويقول: «أعرف، ولكنّ الأمر ليس بيدي». فقلتُ له: «عليكَ أنْ تعلم أنّه إذا فُرِضتْ علينا الحرب، فسوفَ يحاربُ صغيرُنا

قبلَ كبيرنا، ونساؤنا قبل رجالنا، وسنكسب الحرب». ورأيتُه ينفثُ زفرةً طويلة، ثُمّ يعتدل بظهره قليلاً، قبل أنْ يقول: «أعلم ذلك، ولكنْ ألا يُمكن أنْ توقفوا الهجرة الحُرّة لليهود إلى فلسطين قليلاً، وتُؤجّلوا إعلان دولتكم بِضع سنوات، وسوفَ أسيطر فيها على الأوضاع، وسأرعاكم، وسيكون لكم ممثّلون في مجلس النّوّاب، وسأعاملكم معاملةً حسنةً لطيفة، ولن تكون هناك حرب». كان الملك يتحدّث إليّ بنبرةٍ حزينة، فأجبتُه بصوتٍ قاطع: «إنّك تعلم كم تحمّلنا من صعوبات، وكم تكلّفْنا من ضحايا على مدى نصف قرنٍ، ونحن لم نُقدّم كلّ هذه التّضحيات لكي نُمثّل في برلمانٍ أجنبيّ، أنتَ تعرف ما نريد، وما نسعى إليه، وإذا لم يكنْ لديكَ ما تُقدّمه لنا غير ما قلتَه الآن، فستكون هناك حرب، وسنكسبها، أعدكَ بذلك». وصمتْنا جميعًا، قبل أنْ أستدرك: «ولكنْ إذا رأيتَ أنْ نلتقي بعد الحرب وبعد قيام الدّولة اليهوديّة فسنلتقي». وسكت الملك دون أنْ يقول كلمةً واحدة، ولكنّ عِزرا أمالَ ذقنه، ونظر إليه من زاوية عينه، وقال: «إذا كنتم تعتمدون على دبّاباتكم، فإنّنا سنسحقها كما تُسحَق الحشرات، ونُحطّمها كما تحطّم خطّ ماجينو». ورفع الملك رأسه، واستمرّ الصّمت، وبدا أنّ اللّقاء قد وصل إلى نهايته، وأكّدتْ على ذلك جملة الملك الّتي تفيضُ حسرةً: «إنّ الأحداث تجري على أعنّتها، ولن يوقفها أحدٌ إلاّ أنْ يكون هناك تدخُّلٌ إلهيّ، وسوفَ نعرفُ جميعًا ما يخبّئه لنا القدر». وظننتُ أنّ علينا أنا وعِزرا أنْ نقوم، لولا أنّه قال للملك: «إنّني آمُل أنْ نبقى على اتّصال حتّى بعد أنْ تنشب الحرب، وتتّجه الأمور إلى النّهايات». فردّ الملك: «بالطّبع، وعليكَ أنتَ بالذّات أنْ تأتيَ لرؤيتي». وسأله عِزرا مُتشكّكًا:

«ولكنْ كيف؟». فردّ عليه الملك وهو يبتسم: «لن تعدم الوسيلة». ثُمّ قال له عِزرا: «قبل أنْ نخرج من هنا، أريدُ أنْ أحذّركَ من شيءٍ مهمّ أنتَ لم تنتبه له، إنّكَ تُصلّي في الجامع الحُسينيّ، وتسمح لمواطنيك بتقبيل أياديك، والتّمسّح بردائك، وفي هذا خَطَرٌ عليك، ولسوفَ يأتي يومٌ يتسلّل فيه إليكَ أحدُ المُجرمين فيُلحق بك الأذى، لقد آنَ لكَ أنْ تمتنع عن ذلك من أجل سلامتك». وغضب الملك، ورأيتُ الغضبَ في وجهه، وقال: «أنا بدويّ، ولا أخاف إلاّ الله، ولنْ أتحوّل إلى سَجينٍ بين حُرّاسي، وإذا كنتَ تقصدُ اغتيالي، فيا مرحبًا بالشّهادة في سبيل الله». وودّعنا وخرج من المكان.

في تمام السّاعة الرّابعة بعد الظّهر من الرّابع عشر من أيّار من عام 1948م، في متحف تل أبيب في شارع روتشيلد، وقفَ (بن جوريون) مرتديًا حلّة سوداء أنيقة، وربطة عنق، ودقّ على المكتب بالمطرقة الّتي يحملها، كان ذلك إشارةً للفرقة الموسيقيّة أنْ تبدأ بعزف النّشيد الوطني لدولة إسرائيل (الهتيكفاه)، ووقفتِ الجموع وأنشدتِ النّشيد الوطني بحناجر عاليةٍ وحماسةٍ مُطلَقة: «لِيَرْتَعِدْ مَنْ هُو عدوٌّ لنا... ليرتَعِدْ كلّ سُكّان مصر وكنعان... لِيَرْتَعِدْ سُكّان بابل... لِيُخَيِّمْ على سَمائهم الذُّعْرَ والرُّعْبَ مِنّا... حينَ نغرسُ رِماحَنا في صدورهم... ونرى دِماءَهم تُراق... ورُؤُوسَهم مقطوعة... وعندَئِذٍ نكونُ شعبَ الله المُختار حيثُ أرادَ الله... وسنعود إلى المدينة الّتي نزل عليها داود». ثُمّ أنهينا النّشيد، ووقف بن جوريون من جديد، وتلا وثيقة الاستِقلال، وبكى فرحًا عند الفقرة الحادية عشرة منه وهو يُعلِن قيام الدّولة اليهوديّة على أرض إسرائيل. وبكيتُ أنا، وبكى كلّ قادة إسرائيل الّذين تجمّعوا في ذلك

المكان، وبكى الشّعب الّذي ينتظر هذا الإعلان في الخارج وقد ضّجتْ بهم الشوارع، بكى الجميع من الفرح، ولكنّ أحدنا كان يضحك، يبتسم ويهزّ رأسه، لم يكنْ معنا، كان قد رحل منذ ما يزيد على أربعة عقود، لكنّه صنع الحلم، وتنبأ بهذا اليوم المجيد لكلّ شعب إسرائيل في كلّ العالَم، كان ذلك هو (هيرتزل).

لم يستغرقْ إعلان قيام الدّولة أكثر من رُبع ساعة، وموجةٍ من الصّياح والتّصفيق، وعمرًا لن ينتهي في خدمة البشريّة، ثُمّ كان ذلك الإعلان البوّابة الأولى لطرد الإنجليز من أرضنا، والسّماح لنا بالقضاء على ما تبقّى من ذيولهم في بلادنا... ثُمّ ماذا يُمكن أنْ يحدث؟ لا شيء لا نعرفه، ولا شيءَ لم نستعدّ له؛ لقد اندلعتِ الحرب!!

***

(15)
مُوتوا عَطَشًا أيّها الغُزاة

كنتُ لا أزال أتلقّى أمواجًا من المُهجّرين قادمين من فلسطين، في سيارات التّرحيل الإنجليزيّة، بعضُهم وصلَ إلى هنا ينزف، لم يُكلّف الإنجليز أنفسهم إسعافه أو إعطاءَه حقّه كأسيرٍ، أحدهم رأيتُه مُمتقع اللّون، كانتْ عيناه زائغتَين، ينظر إليّ ولا يراني، كان على حافّة الغيبوبة، رأيتُ أنّ ساقَه قد قُطِعتْ، وأنّه ربطَ فَخِذه، أو ما تبقّى من رجله بما تيسّر له من قِماش، كان قميصًا أزرقَ قد ارتشح بالدّم، حتّى حال لونُه، كان الإنجليز قد ألقَوه على حاله هذه في الشّاحنة، والتهبتْ رجله في الطّريق الطّويلة من فلسطين إلى هنا، ولم يجدْ من يُسعفه، ولم يسمح له الإنجليز بذلك، كان كلّ شيءٍ في جسده يُوحي بأنّ الموتَ يسكنه، تركتُ الأوراق اللّعينة الّتي بين يدَي، وهممتُ أنْ أمزّقها، وأقذف بها في الجدار. ولكنّني قمتُ إليه، أعطيتُه ظهري، وأمسكتُ بيُمناه وحملتُه على كتفيّ، وذهبتُ به إلى سيّارة الإسعاف الّتي تربض أمام المخفر، تداعَى مُسعفان إلينا، ووضعوه في الدّاخل، جلستُ فوقَ رأسه وأمرتُهم أنْ يذهبوا بنا إلى المُستشفى. قلتُ له: «لغم؟». هزّ رأسه بالإيجاب. سألته مرّة ثانية: «في صفد؟». فهزّ رأسه بالنّفي. «في عكّا...» عددّتُ له مدن فلسطين كلّها ونسيتُ القدس. «القدس» قال وهو يُجاهد في أنْ يلفظَ الكلمة من بين شفاهه البنفسجيّة. «القدس» هتفتُ في نفسي.

كلّهم يريدون القدس، القدس الّتي تتجه إليها كلّ السيوف وكلّ الورود. كانتْ عيناه تودّان أنْ تشكرني، ولكنّني كنتُ خَجِلاً ممّا أنا فيه، كان شعوري بأنّني أقومُ بدوري في الجريمة على أتمّ وجه يُمزّقني، يبعثرني من الداخل، ويكسرني. أردتُ أنْ أقول له: «سامحني». كما قلتُ لزميلٍ له من قبلُ، ولكنّ الكلمة لم تُطاوعني، كيفَ أقول له ذلك، وأنا أساعد في قَتْله، هل تكفي القاتلَ كلمةُ الاعتذار لكي يُسامحه القتيل؟! لكنّني في النّهاية جاهدتُ نفسي، ومرّنتُ صوتي وفكّي، حتّى خرجتْ باهتة، كأنّني أقول له: «لا تسامحني». وكسابقه لم يكترثْ لما قلت!

عدتُ إلى البقيّة، قلتُ لهم: «انتظروا زميلكم، سيبقى بضعة أيّام في المستشفى، وبعدها سنُتمّ الإجراءات». في الأيّام الثّلاثة الّتي قضَوها في مخفر المفرق، أكلتُ معهم، كانوا ثلاثين مناضِلاً، وشربتُ معهم، ونمتُ في إحدى اللّيالي في زنزانتهم، وتحدّثْنا طويلاً، كانوا يُشبهوننا، كانوا يُشبهونني، يُشبهون روح جدّي. بدأتُ آلَفُهم، تحوّلوا إلى إخوة، تماهت الحدود الفاصلة بين السّجّان والسّجين، بين النّافي والمنفيّ، صرنا واحِدًا. لكنْ لا أدري ما الّذي حدث، فجأةً استيقظَ فِيّ النّداء الآثِم، النّداء الآخَر، نِداء العسكريّ الّذي عليه أنْ يقوم بواجبه الّذي ائتمنه عليه رؤساؤه وإلاّ تعرّض للعقاب، خرجتُ من بينهم كأنّني أهربُ منهم، كأنّني اكتشفتُ أنّ روح النّضال والبساطة والصّدق الّتي عندهم ستُصيبني بالعدوى، وأنّ ذلك سيُهدّد مركزي الوظيفيّ، وسيأتيني الضّابط الإنجليزيّ الأعلى منّي وسيتّهمني بخيانة الأمانة أو بالتّواطؤ على الأقلّ. وهززتُ رأسي بقوّة لأصحو، ما الّذي يحدث؟ مَنْ صنَع هذا الخطّ الفاصل بيننا، هذا الجدار الوهميّ الّذي يقف عاليًا في

وجوهنا؟ كيفَ لنظامٍ احتلاليّ أنْ يقنعني أنّني مع هؤلاء المناضلين لا نقف على ضِفّة واحدة، بل كلّ منا يقف على ضِفّة مغايرة!!

في صباح اليوم الثّالث أتممتُ معاملاتهم، ورحلوا في شاحنةٍ إنجليزيّة، ودّعتُهم على الباب، عانقتُهم عناقًا حارًّا، وبكيتُ على كتف عبد الرّحيم، صار كلّ حنينٍ يُشبهه، صار كلّ شوقٍ إلى ذلك اليوم يأتيني بعبد الرّحيم. بدوا والشّاحنة تتهادَى بهم في الطّريق الصّحراوي طيورًا مُهاجرة أُجبرت على أنْ تُغيّر الجبال الّتي كان يُمكن أنْ تنعم فوقَها بالحياة.

كان البريد يصل إلى مخفر المفرق كلّ اثنين وخميس، وكان بعضُه مُوجَّها لي، أو لضُبّاط آخرين في المخفر، وأحيانًا لعائلات العسكر في المفرق، بعضُ هذه البرقيات كان يحمل الصّفة العسكريّة السّرّيّة، وبعضُها كان مراسلات عاديّة مدنيّة. وكان يأتي بالبريد ساعٍ إنجليزيّ يركبُ سيّارة (بكب)، تتّسع لراكبَين فقط، ولها صندوق خلفيّ كبير، يملؤه بالرّسائل، وأحيانًا يصل معه طرود وجُوالات، وأحيانًا مُعدّات حربيّة أو أسلحة، كانتْ سيّارة البريد في تلك الأيّام تحمل كلّ شيء، بالإضافة إلى الطّعام والشّراب.

وصلتْ إحدى الرّسائل من غلوب، كان على غلافِها الخارجي، سرّي للغاية، وتُسلّم إلى المعنيّ، وكنتُ أنا المعنيّ، وبمجرّد رؤيتي لكلمة (سرّي للغاية) أصابني قليلٌ من الخوف، وهيّأتُ نفسي لأمر عسكريّ جلل، فضضتُ الرّسالة، وبدأت أقرأ ما فيها، وكدتُ أبصقُ على الأرض، كان غلوب يقول: «ولدي الحبيب مشهور، صحيحٌ أنّ كلاًّ منّا يُؤدّي واجبه في مكانٍ مُختلفٍ وبعيد، ولكنّك في قلبي، وأتابع

أخبارك عن كثب، وأسأل عنك كلّ مَنْ يمرّ بمخفر المفرق من ضُبّاطنا، وتأتيني الأخبار الّتي تملأ قلبي بالفرحة، فأنا لم تخبْ فيكَ فراستي، لقد كنتُ أراكَ جنديًا قادرًا على خدمة بلده، منضبطًا، وسيكون لك شأنٌ في المستقبل. وانتظر منّي ما يسرّك. تحيّاتي على أمل أنْ أراكَ قريبًا».

كيفَ يُفكّر غلوب؟ كيفَ يتعامل وهو القائد العامّ للجيش مع ضابطٍ صغيرٍ مثلي؟ لم يتجاوز العشرين من عمره؟ لماذا يُصرّ على أنْ يُشعرني بأنّني تحت مراقبته؟ وبهذه الأبويّة الحانية؟ مَنْ أكون بالنّسبة له؟ كانتْ رسالتُه قد أشعرتْني بالثّقة العالية بنفسي، ولكنّها في المقابل زرعتْ شوكةً من القلق ظلّتْ تَحيك في صدري، ولم أرتحْ لها طوال السّنوات الثّماني المتبقّية. بعد شهرين من تلك الرّسالة، وصلتْ إليّ رسالةٌ أخرى منه: «لقد كنتَ على الدّوام محطّ ثقتنا، ونحن نأمر بترفيعك إلى رتبة ملازم أوّل».

قضيتُ آخر أيّامي في مخفر المفرق، وأنا أتحرّق شوقًا للأخبار الّتي تأتيني من فلسطين، بعضُ الضّبّاط الّذين يعملون هنا كانوا يُشاطرونني الهَمّ؛ كانتْ العمليّات الاستشهاديّة البطوليّة في فلسطين محور حديثنا هنا. كان لا بُدّ لي من أنْ أعودَ إلى الرّشاديّة لأرى خالي (نائل)، لقد سمعتُ أنّه موجودٌ في مضاربنا وأنّه لن يُقيم فيها طويلاً قبل أنْ يعود مرّة أخرى إلى ساحات القِتال في فلسطين.

وصلتُ إلى الرّشاديّة مساءً، كان خالي يجلسُ مع جدّي. قبّلتُهما، وهويتُ على يد جدّي فلثمْتُها، ثُمّ ضممتُها إلى صدري طويلاً. إنّها يدٌ جاهدتْ أكثر من سبعين عامًا. ظللنا صامتين لأكثر من ساعةٍ ونحن ننظر في البعيد، حيثُ تمتدّ الصّحراء الخالية، لم نتكلّم بكلمةٍ واحدة، كُنّا

نبدو غرباء، لم يعرفْ بعضُنا بعضًا من قبلُ. كان وجه جدّي حزينًا، ووجه خالي سارِحًا كأنّه ليس في العالَم الّذي نعيشه، ولا في اللّحظة الّتي نتقاسمها. قلتُ له: «هل حقًّا ستعود إلى فلسطين؟». هزّ رأسه ولم يقلْ شيئًا. «متى؟». رفع ذقنه، ولم يقلْ شيئًا. «وعمّي هارون؟». حينَها اعتدل، وقال: «سألتحق به غدًا، ولن أتركه وحده في الساحة». ولوّح بقبضته في الهواء. كان جدّي لا يزال صامِتًا. على هيئته وهو ينظر في الصّحراء أمامه، بعد فترةٍ من الصّمت، رأيتُه يميل إلى خالي نائل ويقول: «وأنا لن أترككما وحدكما سأرحل معك غدًا إلى فلسطين». كلا يا أبي، لقد قارب عمركَ على الثّمانين ووجودك هنا أهمّ من وجودك هناك، الأولاد الصّغار ونساؤنا وبيوتنا». ورأيتُ وجه جدّي يمتقع من الغضب: «تريدني أنْ أبقى مع النّساء والأولاد وأترك شرف النّضال في فلسطين اذهبْ أنتَ وحدك، لن أذهبَ معك، سأجد طريقتي الخاصّة». وسكتْنا بعد تلك الهيجة. وكانت النّار الّتي تُحمّس فوقَها القهوة تبعثُ بالرّائحة الزّكيّة فتخفّف شيئًا من الغضب الّذي دار. ومال جدّي هذه المرّة ناحيتي، وهمس: «وأنت؟». «ماذا عنّي يا جدّي؟». «ألا تريدُ أنْ تُقاتل في فلسطين». «نحن ننتظر الأوامر يا جدّي». وضحك جدّي طويلاً، وقال: «تنتظر الأوامر... هه... مِمّن تنتظرها؛ من غلوب؟ الإنجليز لن يُساعدونا في إطلاق رصاصةٍ واحدةٍ ضِدّ اليّهود، فَنَمْ ليلكَ الطّويل يا مشهور وأنتَ تنتظر تلك الأوامر». وشعرتُ بالغَصّة، وأنا أدرك أنّ الأمر على ما قال جدّي، ولكنّ في البال موّال، وسأغنّيه على رأسي.

في الصّباح، ذهب خالي نائل إلى أمّي، ودّعها كما يُودّع طفلٌ صغيرٌ

أمّه، بكى على صَدْرها، بكتْ هي الأخرى، كانتْ تعرفُ أنّه لن يعود، كلّ شيءٍ في وجهه وفي عينَيه كان يقول ذلك. كانتْ تُدرك أنّ جسده يغوص في الثّرى وأنّ روحه ستُحلّق عاليًا، قال لها: «سامحيني... نحن كلّنا لم نقمْ بحقّك، أجبركِ أبي على الزّواج من حديثة، وغابَ زوجُكِ سنين طويلة، وغادرك ابنُكِ ليظلّ قلبُكِ معه في غربته القسريّة... كم كنتُ أودّ أنّ أظلّ إلى جانبك، ولكنّني مثلهم، ها أنذا أشترك في إثمهم فسامحيني». وشدّتْ على يدَيه، وظلّتْ تنظر إليه من خلال دموعها، وقال لها: «وصيّتي، ابني الوحيد سلامة، إنّه طفلٌ لم يعرفْ أباه، قد تأخذني الحرب بعيدًا عنه، الحرب لعينة، أخاف ألاّ أراه مرّة أخرى، فإذا لم أعدْ فكوني أمّه وأباه. وأخذ يدَها ولثمها، وظلّ ينشق.

كان عمّي هارون وخالي نائل قد رابطَا على مقربة من القدس، يُنفّذان مع مجموعتهما عمليّات بطوليّة ضِدّ اليهود. كانتْ مجموعة عمّي هارون هذه واحدة من مئات المجموعات الّتي هبّتْ للدّفاع عن فلسطين ومحاربة اليهود بعد قرار التّقسيم، لكنّها كانتْ مجموعة بلا رأس، بل كان لها مئة رأس، لم يكنْ لهم من قيادةٍ توحّدهم أو تُوحدّ جهودهم، وكانتْ فلسطينُ يومئذٍ مشاعًا، لا حكومة لأهلها تُدبّر شؤونهم أو تُشكّل جيشًا للدّفاع عنهم، وظلّتْ مثل الحُرّة الّتي استُبيحتْ من ألفِ طرفٍ وطرف. وكان هذا أهمّ عوامل انكساراتنا المُدوّية.

تشكّلتْ جماعات من المُقاتلين أخذتْ على عاتقها حماية المُدُن والقرى من هجمات الصّهاينة، ومن تذبيحهم لأهلها. جماعاتٌ أخرى تركّزتْ مهامّها في مهاجمة مواصلات العدوّ، وقطع الطّرق المهمّة الّتي

يستخدمها، وقَطْع الإمدادات عن سُكّانها المُغتصِبين.

كانوا هذه المرّة خمسةً وعشرين مُهجّرًا، سألتُ إنْ كان فيهم مَن اسمه (عبد الرحيم) فرفع أحدهم يده، نظرتُ إليه، لا يُشبه عبد الرّحيم القديم، ولكنّني لم أسمع صوتَه، وذاكرة الصّوت عندي لا تُخطِئ، فقلتُ له: «تكلّمْ حتّى أراك». فقال: «أنا عبد الرحيم». فلسعتْني العقربُ ذاتها، إنّه صوتُه، وهممتُ أنْ أجثو على رُكبتَيّ أمامه، أو أهوي نحوه فأعانقه، لكنّني تجلّدتُ. أخذتُهم هذه المرّة إلى مكان الضّيافة، لا إلى الزّنزانة، أكلوا مِمّا نأكل، وشربوا مِمّا نشرب، وناموا على أسرّتنا، وودتُ لو أنّني أستطيع أنْ أُعيدهم في الشّاحنة ذاتها إلى فلسطين. بعد شهرٍ من ذلك، وصلتْ إليّ برقيّة من غلوب: «إنّ شرفَ العسكريّة يعني ألاّ تخون ثقتي فيك أو تنتقص منها. ماذا تفعل مع المُخرّبين الّذين نرسلهم لك؟». مزّقتُ برقيّته، ورميتُها في سلّة المهملات تحت رِجلَيّ. وقلتُ لعبد الرّحيم: «كيفَ قبضوا عليك؟».

لم يكن لدينا سِلاحٌ كافٍ، نحن نطلب من الدّول الّتي يتحتّم عليها مُساعدتنا أنْ تبعثَ لنا بالسّلاح، ولكنّها لا تستجيب، السّلاح قليلٌ في أيدينا، ولكنّه كثيرٌ في أيدي الصّهاينة والإنجليز. هاجمتُ أنا ومجموعتي مستودعات مدرسة البوليس في (الرّملة) التّابعة للإنجليز، وفيها أسلحة بأكثر من مليون جنيه، كان سهلاً التّخطيط للاستيلاء عليها. أسهل شيءٍ أنْ تُهاجم في لحظةٍ خاطفة، لا أحد يتوقّعها أو يتوقّعك، ستفوز بكلّ شيءٍ. خرجْنا من المستودعات بأربعمئة بندقيّة، وثمانية مدافع ستن، وستين ألف طلقة للبنادق، ولم يكنْ عددُنا كافِيًا لأخذ المزيد، إضافةً إلى أنّ هجوم الإنجليز علينا جعلنا ننسحب دون أنْ نفقد

أحدًا منّا، خبّأنا تلك الأسلحة في مكانٍ أمين، وانتقلْنا بها يكفينا منها لنرابط على مقربةٍ من مستعمرة (بن شمن)، مرّتْ قافلة يهوديّة، عائدة إلى المستعمرة، كانتْ صيدًا سَهلاً، قبل أنْ تتحرّك قوّات الإنجليز لفهم ما يجري كُنّا قد قتلْنا اثني عشر جنديًا يهوديًا، وجرحنا عشرةً آخرين، واستولينا على الموادّ الغذائيّة الّتي بحوزتهم. طوّقتْنا القُوّات البريطانيّة، انسحبَ أكثرُنا، وقعتُ أنا واثنان آخران من مجموعتي في أيدي الإنجليز، في التّحقيق، قلنا لهم: «كُنّا في حالةِ دِفاعٍ عن النّفس، إنّ اليهود هم مَنْ تحرّشوا بِنا وبدؤوا بإطلاق النّار. بعدَ أسبوعٍ من تلك الحادثة، رُحّلتُ أنا إلى هنا، ولا أدري ماذا حلّ برفيقيّ». كنتُ أُصغي باهتِمام، حامتْ في رأسي مئات الأسئلة، عمّا يفعله اليهود، عمّا يفعله الإنجليز، وعمّا نفعله نحن؟ لقد بدا البونُ كبيرًا بين دورِ كلّ واحدٍ مِنّا.

في كلّ دُفعةٍ من المُهجّرين، كان هناك واحدٌ منهم على الأقلّ يملك اسمه، أو يملك صوتَه، قُل يا عبد الرّحيم. «لقد تسلّلتُ مع خمسين من مجموعتي إلى الطّريق الوحيد المُؤدّي إلى النّقب، وزرعنا مئة قنبلة تحت خطّ الأنابيب الّتي تنقل الماء إلى المستوطنات السّبع والعشرين المتناثرة في الصّحراء. واتّفقْنا على نقطة الصّفر، وقمنا بتفجير القنابل المئة في لحظةٍ واحدة، لن تصدّق جَمال المنظر ولا روعته ولا رهبَته، كانت الأنابيب تشتعل بالنّار على طول أكثر من سبعين ميلاً في الجنوب. فلْيمت الغُزاة عطشًا. كُنّا نغنّي مُبتهجين». قبّلتُه: «لقد تزايد عدد الّذين يُشبِهونني».

كان الجيش العربيّ في فلسطين يأتمر بأمر غلوب، كُنّا جزءًا حقيقيًا من القُوّات البريطانيّة الّتي كانتْ تتظاهر بأنّها تريدُ الفصل بين المُتنازِعَين؛ اليهود والعرب.

في إحدى الأماسي الباردة من يوم خميسٍ، كان البريد قد تأخّر، قال لي السّاعي: «لقد مررتُ على أكثر من محطّة، وكان الضّباب في الخارج كثيفًا». قرأتُ عشر رسائل لم يكنْ أيٌّ مِنها مُهِمّا بالنّسبة لي، الرّسالة الحادية عشرة ثقبتْ فؤادي، كانت من جدّي، يقول فيها: «سنواتي الطّويلة معها لم تكنْ أعزّ عليها من سنواتك القليلة معها، ماذا فعلتَ لها حتّى تُحبّك إلى هذا الحَدّ، كانتْ كلّما أتيتُها من بعيد، تُطلّ برأسِها كأنّها تتطلّع لأنْ تراك أو ترى طيفكَ من خلالي، وحينَ أصلُ عندها، أجدها تخفضُ عنُقَها كأنّما أصيبتْ بالخيبة. يوم الجمعة الفائت، أتيتُ إليها من أجل أنْ أقدّم لها الطّعام، لكنّها رفضتْ أنْ تأكل، ظلّتْ صائمة، كانتْ هامدة، صامتة، إلاّ من صوتٍ خافتٍ يخرج بطيئًا كأنّه صوتُ الحنين أو البكاء، وصباح اليوم كانتْ قد دفنتْ رأسها في صدرها وهي رابضة على الأرض. لقد ماتت. ماتت الشّقراء يا مشهور». وبكيتُ مع العبارة الأخيرة، وظلّتْ الدّموع تنهمر على خدّي حتّى بلّتْ نحري. الخيول تموتُ يا جدّي إذا غابَ أحبابُها، لقد قلتَ ذلك من قبلُ. قلوب الخيل تعمر إذا عمر قلبُ صاحِبها بها، أما وقد تركتُها كلّ هذا الزّمن فحُقّ لها أنْ تحزن على فراق حبيبها، وحُقّ لي أنْ أعزّي نفسي بفَقْدِها، ولكنّ ما يخفّف المُصاب إنّي سأظلّ معها على العهد الّذي وُلِدَتْ له وُوُلِدتُ له، عهدُ النّضال في سبيل التّحرّر.

على ذيل الرّسالة، كتبَ جدّي بخطّ مُرتعش هذه العبارة: «لقدْ رحلتَ أنتَ ورحلَ ابني الأكبر نائل ورحلتِ الشّقراء، لم يعدْ لي هنا في الرّشاديّة ما يربطني بها، إنّ فلسطين تُناديني». وسقطتْ دمعة!

* * *

(16)
صوتُ الطَّلَقات لا يَكُفّ

إنّها الدّفعة الأخيرة الّتي سأقابلها قبل أنْ أتوجّه بدوري إلى فلسطين، يبدو أنّ الأوامر صدرتْ لنا بالذّهاب إلى هناك. أعرف أنّ هؤلاء المهاجرين لن يكونوا الأخيرين، ستتلوهم دفعات أخرى، ولكنّني لن أكون في مخفر المفرق لأخطّ كُتُب نَفْيِهم، في تلك السّنوات الّتي كان الإنجليز يُفرّغون فلسطين من أهلها، وبالأخص من مُناضليها، كان الإنجليز أنفسهم يسمحون للسّفن والبواخر في حركةٍ شبه يوميّة أنْ ترسو في ميناء تل أبيب محمّلة بالمئات والآلاف من المهاجرين اليهود.

كانتْ وتيرة العمليّات قد تصاعدتْ. أرواح المناضلين تحلّق في السّماء. الطّيور تلتقط تلك الأرواح وتطير بها إلى الأعالي. تأوي إلى ظلّ ظليل، وتطلبُ من الثّوّار المتبقّين على الأرض أنْ يُواصِلوا المسيرة. الشّهداء لهم رَغَباتُهم هم الآخَرون، ليسوا من ورق، وليسوا من طيف، إنّهم بشرٌ مثلُنا، ولهم أحلامٌ كتلك الّتي نحلم بها، ولكنّ أحلامهم أكبرُ منّا ومن وجودنا كلّه، أحلامهم كبيرةٌ بحجم أوطانهم. التّراب على الأرض مرّتْ عليه سنابك الخيل، الدّماء روّته، الأرواح طهّرتْه، والأنبياء عمّدوه بالسّكينة، والتّاريخ كتبَ سِفره المفتوح هناك.

كانت هذه الدفعة مُميّزة. أوّل ما دخلوا احتضنْتهم. ودون أنْ

أسألهم عن أسمائهم كنتُ أعرفُ أنّهم جميعهم يحملون هذا الاسم (عبد الرحيم).

قال الأوّل: «قدتُ سيّارة بريد زرعتُ في قلبها لُغمًا، كنتُ قد تعلّمتُ ذلك بالطّريقة الّتي فعلَها اليهود فينا، اقتحمْتُ الخطوط اليهوديّة، وتركتُها بينهم وتراجعتُ أراقبُ السّيّارة عن كثبٍ، حين انفجر اللّغم، كان عددٌ كبيرٌ من الجنود اليهود قد طاروا في الفضاء وتحوّلوا إلى جُثث مُتفحّمة، أُلقي القبض على كلّ مَنْ كان عربيًّا في المنطقة، وأنا من بينهم، لا أحدَ يعرفُ أنّني فعلتُ ذلك، الآنَ أنتَ تعرف؛ أقول لكَ هذا الأمر، لكي تكون زارع ألغامٍ جيّدًا». منحتُه وسام الشّجاعة، قلتُ له ونحن نضحك: «لماذا يكون بمقدور القادة أنْ يمنحوه لمن لا يستحقّ في حفلٍ أحمق، نحن قادة، وأنتَ تستحقّ، ولا يوجد حفلٌ أجمل من اجتماعنا هذا».

قال الثّاني: «لستُ المنفّذ، ولكنّني الرأس المُدبّر للعمليّة. وضعنا شاحنة مليئة بالمُتفجّرات في شارع يهودا في القدس، وهو شارع يزدحم باليهود، اليهود الّذين جاؤوا في دفعات الهجرة من كلّ أصقاع الأرض ليأكلوا أرضَنا، حين انفجرت السّيّارة قتلتْ ما يقرب من سبعين يهوديًّا، وأدّتْ إلى تشقّق بعض المباني وانهيارها، مبنى جريدة البالستين بوست انهار بأكمله. اعُتقِلتُ مع آخرين، ليس واحدٌ منهم معنا هنا في هذه الدّفعة، لا أدري ماذا حدثَ لهم، لكنّني أستطيع أنْ أقول ما حدث معي. اقتادني الإنجليز إلى سجن القدس، مبنى المسكوبيّة الّذي حولّه الجنرال اللّنبي إلى سجن، انتزعوا كلّ شيءٍ منّي، الثّياب، الحِزام، الحذاء، والسّاعة، وكلّ شيءٍ، بقيتُ عريانًا، أدخلوني إلى زنزانة مُرعبة، علّقوني

على كلاليب، غاصتْ حدائدُها في يدَي فصار الدّم ينزف منهما في خطوط وينزل على ذراعي، ويتقاطر في عينيّ، تناوبَ جَلاّدان على ضربي بالسّياط، كان جسدي كلّه ينزف، كان كلّ شيءٍ فِيّ ينزف، بقيتُ معلّقًا يومَين دون طعامٍ أو ماء، رأيتُ الموت، الموت يا مشهور كائنٌ حَيّ، يُرَى، ويُحَسّ قبلَ ذلك، وعلاقته معك تُحدّدها أنتَ، إمّا أنْ يكون صديقًا لطيفًا، أو عدوًّا مرعبًا، وأنا قرّرتُ أنْ أتّخذه صديقًا، فرحّبْتُ به، ابتسمَ لي، وأراني منازل أصدقائي الرّاحلين في النّعيم، وقال: لكَ خيرٌ مِمّا لهم! في اليوم الثّالث صحوتُ في المستشفى، أعادوني بعدَ أنْ تعافيتُ قليلاً إلى السّجن، دخل عليّ المُحقّق في الزّنزانة، كان يحمل في يده ورقة قال لي: وقّعْ هنا إذا كُنتَ ترغبُ في الخروج. أخذتُ الورقة، كانتْ تتضمّن اعترافًا بأنّني نفّذْتُ العمليّة مع آخرين، بصقتُ فيها، وكعبلتُها ورميتُها في وجهه. صرخَ، كان الزّبدُ يتطايرُ من زاويتَي فمه، قال لي وجهك إلى الحائط، تراخيتُ، شدّني من كتفي، وكرّر: وجهك إلى الحائط، استدرتُ، وفي لحظة خاطفة تناول مُسدّسه، ثُمّ (طاخ)، ودوّى صوت الطّلقة. المجنون صوّب نحوي، لكنّه صوّب فوقَ رأسي، تداعَيتُ من الهلع، كدتُ أعترف، لكنّني تماسكْت. أطلقَ طلقة ثانية، ثُمّ في الثّالثة كنتُ قد بدأتُ أرى صوتَ الطّلقات نغمًا موسيقيًّا. خرج من الزّنزانة وصفقَ الباب خلفه، كانت فوارغ الرّصاص تتناثر على أرضيّة الزّنزانة، وقد أحدثتْ ثقوبًا في جدارها المقابل لي. لم أعترفْ بشيءٍ، أعترفُ لكَ لأنّني رأيتُكَ قبل هذا اليوم، رأيتُكَ في المنازل العالية تلك، نحن نعرفُ بعضَنا من قديم يا مشهور، الأرواح تتلاقَى وتتعارف قبل الأجساد، دَعْكَ من كلّ هذه الرّتب العسكريّة، وهذه الحواجز المَقيتة،

نحن إخوة. المهمّ رحّلوني بعد ذلك بعشرةِ أيّام إلى هنا. ومدّ يدَيه، وكشفَ عن ظهره، كانت آثار التّعذيب لا تزال ظاهرةً على جسده». شددتُ على يديه بحميميّة وهتفت: «ليتقدّس اسمُك يا عبد الرّحيم».

قال الثالث: «ركبتُ سيّارة القنصل الأمريكيّ، أنا في الحقيقة سائقه، كان رقمُها يدلّ عليها، رقم هيئة دبلوماسية، وعلى مُقدّمتها يرفرف العلَم الامريكيّ، وفي الدّاخل كُنتُ أنا والُمتفجّرات، ما يقرب من نصف طنٍّ شديد الانفِجار. قدتُ السّيارة إلى مبنى الوكالة اليهوديّة بالقدس، المبنى الّذي يجتمع فيه زعماؤهم، تركتُ السّيّارة أمام المبنى، وغادرتُها بهدوء. حينَ انفجرت اهتزّت القُدس بأكملها لدويّ الانفِجار، تهدّم جزءٌ كبير من الوكالة، مات العشرات، وعددٌ من الشّخصيّات المهمّة مثل (يافة) مؤسّس الكيرن هايسود، وقُتِل كذلك (بن زفي) و(شموئيل دوب) و(ئيل ميتس)». عانقتُه، وقلتُ له: «وماذا بالنّسبة لجولدامائير وبن غوريون؟». «نَجَوا. ولكنّ الأيّام تدور». ورأيتُ الوعدَ في عينَيه.

قصص الشّجاعة تُعدي. إنّهم يتنافسُون، أوطانُنا تُشبِهنا ونحن أحياء، لكنّها تُصبح أجمل حينَ نموتُ من أجلها. بضعة أيّام وأكون في فلسطين. لا أدري كيفَ ستسير الأمور. أين ستتمركز كتيبتي؟ وما الّذي يريدُهُ مِنّا غلوب؟

قال غلوب: «إنّهم شراذم الأمم، مُشتّتون، جُبناء، لا يعرفون عقليّة الجنديّ العربيّ العنيدة، ولا عقيدته القتاليّة الصّلبة. سوفَ نُحطّمهم، أنتم جيشٌ مُنظّمٌ وهم عصابات متفرّقة». أثنى الملك عبد الله على ما قال، وتلا قوله تعالى: «لا يُقاتلونكم جميعًا إلاّ في قُرًى مُحصّنةٍ أو من وراء جُدُر».

كانت ألوية الحرب قد رُفِعتْ، اليهود يعلنون ذلك صراحةً، ويقولون بالصّوت العالي: «سنكسب الحرب». والعرب ينتظرون قيادةً تجمعهم. كانت فكرة جامعة الدّول العربيّة هي فكرة إنجليزيّة صِرفة؛ فقد قال (أنتونى إيدن) وزير خارجية بريطانيا في 29 مايو 1941 في إحدى خطاباته: «إن العالم العربي قد خطا خطواتٍ عظيمةً منذ التّسوية التي تمّتْ عَقِب الحرب العالميّة الماضية، ويرجو كثيرٌ من مُفكّري العرب للشّعوب العربية درجةً من درجات الوحدة أكبر مما تتمتّع به الآن. وإنّ العرب يتطلعون لنيل تأييدنا في مساعيهم نحو هذا الهدف ولا ينبغي أن نغفل الرّدّ على هذا الطلب من جانب أصدقائنا». وفي 24 فبراير 1943 صرح (إيدن) في مجلس العموم البريطانيّ بأن الحكومة البريطانيّة تنظر بعين «العطف» إلى كل حركة بين العرب ترمي إلى تحقيق وحدتهم الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة. لقد نظروا إلينا يا جدّي بعين العطف ذاتها الّتي نظروا فيها إلى اليهود في وعد بلفور عام 1917م. إنّ عيون بريطانيا كانت وما زالتْ مليئةً بالعطف على الدّوام!

كانوا يعُدُّون عجائب الدنيا سبعًا، لكنهم لم يعدّوا العجيبة الثامنة وهي تأسيس جامعة الدّول العربيّة! لم نجد نحن العرب ذوي الكلمة المُتفرّقة دائمًا غير الإنجليز ليجمعونا على كلمة سواء!

في اجتماع جامعة الدّول العربيّة، تقرّر تقسيم فلسطين إلى أربع قيادات عسكريّة، هي: اللّواء الشّماليّ ويمتدّ من الحدود السّوريّة واللّبنانيّة ويشمل جبهة النّاصرة وجنين ونابلس وطول كرم وجلجولية وعكّا، وتولّى قيادتها فوزي القاوقجي. ومنطقة القدس ورام الله وأريحا والخليل وتولّى قيادتها عبد القادر الحُسيني. ومنطقة اللدّ والرّملة وقُرى

يافا وتولّى قيادَتَها حسن سلامة. ومنطقة غزّة والجنوب، وتولّى قيادتها طارق الإفريقيّ. وكان على كلّ هؤلاء القادة في النّهاية أنْ يأتمروا بأمر رجلٍ واحدٍ إذا نشبت الحرب. كان ذلك (غلوب). تلك عجائبنا، ذلك وهمُنا.

أراد جيش الإنقاذ الّذي يقوده فوزي القاوقجي، والّذي درّبته الجامعة العربيّة، وكان يضمّ ما يقرب من ألف مقاتلٍ إرسال أوّل كتيبة منه إلى فلسطين، ولم تكن الحرب قد بدأتْ، فاعترض (كيركبرايد) الوزير البريطاني المُفوّض بحجّة أنّه لا يجوز أنْ تزيد الحكومة الأردنيّة متاعب حليفتها بريطانيا!

وبعد مفاوضات، سُمِحَ بشروط لهذه الكتيبة الّتي لا يتجاوز مقاتلوها المئات بالمرور بشروطٍ قاسية، وهي أنْ تمرّ سِرًّا وبعد منتصف اللّيل، وأنْ تمر الكتيبة دفعة واحدةً مع تسيير حرسٍ أردنيّ أمامها وخلفها حتّى تعبر الحدود، وألا تتعدّى على مناطق التّقسيم، وألا تذهب إلى القدس، بل إلى منطقةٍ عربيّة من المناطق الّتي أعطاها التّقسيم للعرب. وكان ذلك إذلالاً لا يعرفه إلاّ مَنْ كابده.

على الجانب الآخر من فلسطين، تلقّى الأهالي الكتيبة بالتّرحاب، كما لو كانوا مُحَرِّرين أو فاتحين؛ وهُرِعوا لاستقبال مُنقذيهم من إخوانهم العرب! بل إنّ النّساء رُحْنَ يُزغرِدْنَ ويبكين فرحًا بمقدم هؤلاء الّذين سيخلّصونهم من ذُلّهم وقَهرهم، ومن هجمات اليهود اليوميّة الّتي تقتلهم وتُعمِلُ فيهم ذبحًا. بل إنّهنّ رُحْنَ يُخرِجْنَ ما في بيوتهنّ من طَعام، وراح الرّجال يذبحون الشّياه لِيُطعِموا جيش الإنقاذ هذا.

وكان الجنديّ من هذه الكتيبة، يُغمّس اللّقمة في المرق، وهو يعلم

أنّ ضابِطًا صغيرًا إنجليزيًّا لو أراد أنْ يمنعه من الوصول إلى هنا هو وكلّ كتيبته لفعل. إنّها لقمة الذّل، وإنّه طعام الخضوع. وإنّهم لعبيدٌ عند سادةٍ وكبراء أضلّونا السّبيل!!

ستغادرنا بريطانيا عن قريبٍ، مثل لِصٍّ سرقَ كلّ ما في البيت تحت تهديد السّلاح، وطردَ أهله، وقال لآخرين جاؤوا من خلفِ البِحار: «هذه لكم، لقد كنتم على حقّ، ونحن نعتذر!». لقد أقرّوا قرار التّقسيم لحماية اليهود، وبعد أنْ يتأكّدوا بأنّ اليهود لديهم ما يكفي لإقامة دولته سيرحلون، ويتركون فلسطين نهبًا مشاعًا. كانتْ فلسطين يومَها عروسًا، كلّ أمّة تدّعي حقّها في الاقتران بها، ومع أنّ أكثر مَنْ جاؤوا إلى هنا دفعوا دماءَهم مهرًا لها، إلاّ أنّ الدّم وحده لم يكنْ كافِيًا، كانتْ هناك أشياء أخرى كثيرة لا يُمكن الحدْسُ أو التّنبُّؤ بها!

وردتْني هذه البرقيّة من جدّي: «خالك نائل يُقاتل بصدره عاريًا في باب الواد، وأنتَ ما زلتَ هنا تأكل وتشربُ مثل النّساء!!». طويتُ الرّسالة، ووضعتُها في جيب الذّراع للبِزّة العسكريّة الّتي أرتديها، كنتُ أريدُ أنْ تكون كلماته الجارحة هذه سبيلي إلى ألاّ أنسى!

ظللتُ أبكي طيلة اللّيل. شعرتُ بالعجز والقهر والعار. ظلّتْ صورة خالي تحوم في ذهني، ظلّ طيفه يملأ عليّ ذرّات غرفتي، ها أنذا أراه، يُلقّم البندقيّة بالرّصّاص، يُصوّب، ثُمّ يطلق... ذراعه ترتدّ إلى الوراء، لكنّه يعود، يضع إصبعه على الزّناد، رأسه على الشُّعيرة، كأنّه يقبّلها، شماغه يهتزّ هو الآخر مع كلّ طلقة، عقاله يكاد يقع، وصوتُ الطّلقات لا يكفّ... لا يكفّ أبدًا!!

***

(17)
عبد القادر الحُسيني

من كلّ آيات القرآن الّتي حفظتُها وأنا صغير، كنتُ أتوقّف كثيرًا عند قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]. لم يعنِنِي أنْ أكون الأوّل في مراحل دراستي كان يعنيني أنْ أكون الأوّل في صفوف المُقاتلين. ولم يَعنِنِي أنْ أُطرَد من الجامعة الأمريكيّة في بيروت، ولا أحصل على الشّهادة فيها بسبب نشاطي الوطنيّ ومقاومتي للمحتلّ، كان يعنيني أنْ أحصل على شهادةٍ من نوعٍ آخَر. وفي الجامعة الأمريكيّة في القاهرة، حينَ تخرّجتُ هناك أعلنتُ في حفلة التّخريج وأنا ألوّح بالشّهادة الكرتونيّة أنّ حصولي عليها ليس الغاية، وأنّ الجامعة لعنةٌ على الأمّة بما تبثّه من أفكارٍ وسموم في عقول الطُّلاّب، وطالبتُ الحكومة المصرية أن تغلقها، وصرّحتُ:

«جامعاتنا إنْ لم تُعلّمْنا كيفَ نحمل البندقيّة ونستعيد حقوقنا فهي مفارخ للدّجاج»، فطُرِدتُ من مصر.

عدتُ إلى فلسطين، وحولي من الرّجال ما أعتمد عليهم في مشروعي النّضاليّ، حملْنا البندقيّة معًا، وقاتلْنا حتّى أكلَ الرّصاصُ من أجسادِنا، ونهشتِ الأرضُ من جلودنا، ولولا أنّ خالدًا عنى بها نفسه، لكانتْ تعنيني من قريبٍ، فقد خُضتُ مع اليهود معارك وحروبَ

عِصابات، حتّى لم يعدْ في جسدي موضعٌ إلاّ وفيه طلقةُ رصاصة، أو شظيّة قنبلة، أو قطعة لُغم.

تخصّصتُ في استخدام القنابل، صوتُها الأجمل بالنّسبة لي، في عام 1936م ألقيتُ قنبلة على منزل سكرتير عام حكومة فلسطين، كانت القنبلة الأولى، وبعدها ألقيتُ قنبلة أخرى على المندوب السامي البريطاني. وأنا الّذي نفذّتُ عمليّة اغتيال الميجور سيكرست مدير بوليس القدس ومساعده، وأسّسْتُ الوحدات المُقاتلة الّتي هاجمتْ القطارات الإنجليزية، وخطوط النّفط، وأنابيب المياه الّتي تُزوّد المستعمرات اليهوديّة.

لم تكنْ بريطانيا قريبةً لنا يومًا، ولا صديقة، ولا حتّى عدوًّا يتحالف معنا مرّة، ويُقاتلنا مرّة أخرى، بل كانتْ على الدّوام وباختِصارٍ في كلمتَين: «عدوًّا لدودًا». وسيرتنا نحن الّذين قاتلْنا من أجل تحرير بلادنا تشهد بذلك في كلّ مراحل حياتنا، ولا أدري متى سيستفيق المُغيّبون فيُدركوا ما أعنيه؟! ربّما بعدَ رحيلي؟! ربّما لن يفعلوا!

طوّقتْ قُوّات الإنجليز منطقة حُوسان وجِبال قرية الخِضر في أواخر عام 1936م من أجل أنْ تسحقنا، نحن المجموعات الّتي تعتبرنا مُخرّبين، عَلِمْتُ أنا وسعيد العاص بذلك، فأدركْنا أنّهم سيرمون بثقلهم العسكريّ لاجتِثاثنا، اقترحتُ مع سعيد أنْ نقاتلهم بعشرةٍ مِنّا، ونطلب من البقيّة الانسِحاب، ونحن نقوم بتغطية انسِحاب أفرادنا، كُنّا نضنّ بخيرة شبابنا أنْ يموتوا هذا الموت الجماعي تحت قصف الطّائرات والمدفعيّة والهاون والرّصاص، لكنّ المجموعة بأكملها رفضتْ ذلك، وبايعتْنا على الموت، وكان نشيدُ الموت عذبًا على أفواهنا، فطلبْتُ منهم

أنا وسعيد أنْ تحتلّ كلّ مجموعةٍ مرتفعًا يُطلّ على الطّريق العامّ، سنكون مكشوفين للطّائرات، ولكنّنا سنكون قادرين على قنص المُشاة من هنا كالفِئران! تمركزْنا حسب الخُطّة، وأرسلتُ مجموعةً أخرى صغيرة لكي تنسفَ قِسمًا من سكّة الحديد الّتي تحتنا. حينَ مرّت طليعة القُوّة الإنجليزيّة بسبب خروج قطارها عن السّكّة المقطوعة، تدهورتْ العربات الأماميّة، وبدأنا بقنص مَنْ نجا منهم ونزل مِن عَرَبته، جاءتْ قُوّة كبيرة لمساندتهم، لم يعرفوا بالضّبط مصدر النّيران، اضطرّوا لأنْ يسلكوا الطّريق العامّ، ويتوقّفوا عند نقطةٍ منه، والنّزول من العربات، والبدء بصعود المرتفعات في مجموعاتٍ راجِلة. أمر سعيد العاص ألاّ تُطلِق أيّة مجموعةٍ رصاصةً واحدةً حتّى يقتربوا إلى مسافةٍ قريبة ويكونُ قنصُهم أسهل. هذا ما حدث، هكذا راحوا يتساقطون كأنّهم أشجارٌ تُجتثّ من فوق الأرض. دارتْ بيننا معركةٌ شرسة استمرّتْ يومًا كامِلاً، كانت الصّليات الحامية تأتيهم من المرتفعات كلّها، ودبّ في قلوبهم الرّعب والذّعر، فأرسلوا في طلب النّجدة بقوّات أكبر، حلّقت الطّائرات في الجوّ، وتوجّهتْ إلينا الدّبابات على خمسةِ محاور، قاتلْنا حتّى آخر طلقة، ثُمّ لّما نفدتِ الذّخيرة، قاتلْنا بما لدينا من خناجر وسِنجات. مزّقتْ رصاصةٌ رأس سعيد العاص ببندقيّة جنديّ بريطانيّ تسلّل من الخلف وأطلقَ عليه النّار غدرًا. وقعتُ أنا في الأسر، وانهالتْ عليّ البنادق من كلّ جهةٍ، ونزف كلّ شبرٍ من جسدي دمًا، وجاء القائد الإنجليزيّ، وحُمِلتُ في سيّارة عسكريّة، وفي الطّريق العامّ توصّلوا مع البوليس الفلسطينيّ إلى تسليمي لهم، ونُقِلتُ إلى المستشفى الحكومي بالقدس، وكنتُ أتوقّع أنْ يأتي بعضُ الجنود الإنجليز، ويُجهِزوا عليّ،

ولكنّني تعافيتُ، وخرجتُ من المستشفى لأواصل الكِفاح.

جُرحتُ في أكثر من عشر معاركَ بعدها، وتعافيتُ، وكنتُ أخرج بروحٍ جديدةٍ في كلّ مرّة، ولكنّ معركة بني نعيم الّتي وقعتْ في خريف عام 1938م، كانتْ فارقة، لقد كان جرحي بحجم الأسى على ما يحدث لوطني المذبوح، نقلني رفاقي إلى مستشفى الخليل، ثمّ خافوا عليّ هناك، فقاموا بنقلي خفية إلى سورية، فلبنان، ومن هناك نجحتُ في الوصول إلى العراق بجواز سفر عراقي. وفي بغداد عملتُ مُدرّسًا للرياضيات في إحدى المدارس العسكرية، وأيّدتُ ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق الّتي قامت عام 1941، وشاركتُ في قتال القوات البريطانية، وكانوا يُسمّوننا (الفرسان السّتة عشر) لأنّ القُوّات البريطانيّة كادتْ تُجنّ من تحرّكنا في ساحات القِتال من خندقٍ لخندق. ولم نكنْ نجد من الطّعام إلاّ ما يسدّ الرّمق، يأتينا في قماشةٍ صغيرة، يرميه لنا أحد المتعاونين معنا في الخندق، فيختلط بالتّراب، ومع ذلك نأكله بشهيّة كبيرة. واعتقلتُ في إحدى تلك المعارك أنا وطليعةٌ من المُقاتلين، وذهبوا بنا إلى سجن (العمارة) في بغداد، وقضيتُ فيه مع الرّفاق ثلاث سنواتٍ، وخرجتُ منه في أواخر سنة 1943، لأعود إلى النّضال من جديد.

ها أنذا من منفى إلى منفى، ومن قتامٍ إلى قتام، ولم أجدْ لي وطنًا غير فلسطين، ومن أجلها كلّ هذا، لم يكنْ في قلبي غيرُها، قضيتُ في السّجون والمنافي، والبراري، مُشرّدًا، وطريدًا، وجريحًا، وذاهبًا إلى النّهايات، سنواتٍ طوالاً لم يكنْ لينهض في خاطري سِواها. أمشي على قدمَيّ شهورًا عديدة، وأقطع آلاف الكيلومترات، ولم تغبْ عن بالي

لحظة. غير أنّ أساي بها شديد، وإنّه ليتعاظَم حتّى يُفتّت الكبد، وينمو حتّى لكأنّه صبّارة شوكٍ كلّما تذكّرتُ حبيبتي تحرّك فجرّحتْني أيّما تجريح!!

ولم أدرِ على أيّ منفى كنتُ حينَ نزفتُ لها هذه الكلمات:

كيفَ ألتذّ بنومي أو رُقــــادي

وبلادي قدْ غدتْ نهبَ الأعادي

شبّتِ النّيرانُ واجتاحتْ فُؤادي

مُذْ دعاني هاتِفٌ صوبَ بِــلادي

ناوليني السّيفَ أُمّي ناولينـــــي

***

لم أدّخر جهدًا من أجل فلسطين، كانت ابنتي (هيفاء) تبكي كلّما أسِرتُ أو جُرِحت أو شارفتُ على الموت، وكانتْ عائلتي لا تكاد تراني في الشّهر أو الشّهرَين أوالسّنة الكاملة مرّة، وعاشتْ كلّ حياتها في قلق، وكان يمكن لخبرِ موتي أنْ يطرقَ بابهم في أيّة لحظة كأيّ زائرٍ غريبٍ آخَر.

كانتْ (كفار عصيون) هدفي القادم، قمتُ بمحاصرة مُستعمراتها الصّهيونيّة الواقعة بين القُدس والخليل، ولمّا أوجعهم الحِصار أرادَ اليهود أنْ يفكّوه لإمداد مستعمراتهم بالماء والغِذاء، وكنتُ أنتظر ذلك منهم، خرجتْ من المُستعمَرات في صباح السّابع والعشرين من آذار من عام 1947م ثلاثون سيّارة يهوديّة من بينها ثماني مصفّحات، تحمل ثلاثمئة جنديّ يهوديّ، طلبتُ من مُقاتِلِيّ أنْ يتركوها تمرّ بسلام،

سنُشعرهم أنّ الطّريق أمان، وسنصيدهم في العودة، حين يكونون مُحمّلين بالمُؤن. نظّمتُ الطّلائع، وكمنّا نراقب الطّريق، واستعدَدْنا للاشتِباك، حينَ صارت القافِلة في مواجهة نيراننا، طلبتُ من رفاقي أنْ يفجّروا أوّل سيّارة وآخر سيّارة في الرّتل فقط، فعلْنا ذلك باحتراف، صارت القافلة مُحاصرة، واضطرّت للتّوقف، وهنا أمرتُ الطّلائع بالاشتِباك معهم، دارتْ بيننا معركةٌ حامِية، صاح قائد القُوّة اليهوديّة عبر مكبّر الصّوت يطلب الاستِسلام، وهُرِعت القُوّات البريطانيّة لإنقاذ أحبابهم، لكنّهم وصلوا متأخّرين، غنمْنا الأسلحة كلّها، وأخذْنا السّيارات، وسمحتُ لمن بقي حَيًّا من اليهود أنْ يسافر إلى القُدس مشيًا على الأقدام، هلكَ نِصفُهم ونجا نِصفُهم، لامني بعضُهم على أنّني تركتُ نصفَهم ينجو؛ الشّهامة العربيّة أحيانًا قاتِلة!

كنتُ أعرفُ أنّ جيش الإنقاذ الّذي بعثَته جامعة الدّول العربيّة كان خيانةً لفلسطين لا إنقاذًا لها، وأنّ قادَته كانوا متآمرين، كان بعضُهم يعلم دوره في المؤامرة، وكان بعضُهم الآخَر يجهل هذا الدّور. من أجل ذلك ذهبتُ إلى بيروت، وطلبتُ من مكتب فلسطين هناك أنْ يزوّدوني بالأسلحة الّتي قيل إنّها اشتُرِيتْ من أجل جيش الإنقاذ للجهاد، فلم أُعطَ قِطعةً واحدة، كان مُفتّش جيش الإنقاذ طه الهاشميّ شريكًا في الجريمة، لأنّ أوامر الرّفض كانتْ تصدر عنه، اقتحمتُ عليه مكتبه في دمشق، وطلبتُ منه أنْ يزوّدنا بالسّلاح، فقال: «ليس لدينا أسلحة». فقلت: «إنّ مكتب فلسطين مليءٌ بهذه الأسلحة». فردّ: «إنّ ملكيّتها تعود لجيش الإنقاذ». فصرختُ في وجهه: «لماذا تُزوّدون جيش الإنقاذ بمختلف الأسلحة، وتمنعونها عنّا؟». فقال بصلافة: «أنتم لا تُتقِنون

استخدام الأسلحة الثّقيلة!». فقلتُ له بهدوء: «المدفعيّة الّتي لدى جيش الإنقاذ يلعب في سبطاناتها الهواء، لقد أُهملتْ حتّى صار الأطفال يركبون فوهاتها للّهو، لماذا لم تُستخدَم منذ دخولها إلى فلسطين ولو لمرّة واحدة، ومناطق اليهود لا تبعد عن هذه المدفعيّة أكثر من (30كم)، يُمكننا أنْ نسحقهم لو سمحتم لنا بذلك!». فأرعد المُفتّش، وتوعّد أنْ يتّخذ ضِدّي إجراءات عقابيّة، فأجبتُه: «إنّني أتحدّى جيش الإنقاذ الّذي تُنفِقون عليه الملايين، وتُزوّدونه بأنواع الأسلحة الخفيفة والثّقيلة كافّة، وتُوفّرون له اللّباس والغِذاء والرّواتب، وليس له من عملٍ سوى أنْ يتدخّل في شؤون الأهل واعتِداء بعضهم على بعض، الجيش لم يأتِ لحلّ النّزاعات بين النّاس، بل جاء ليُحامي عنهم ويُقاتِل لتحرير فلسطين، هذا الجيش المسلوب الإرادة الّذي يُساهم في ضياع فلسطين إذا اضطُرّ إلى دخول معركةٍ فإنّه يخرج منها خاسِرًا، بعدَ أنْ يموت عددٌ من الجنود الأبرياء. وأتحدّاك أنتَ بالذّات إذا كنتَ تستطيع أنْ تُنكِرَ شجاعة أبناء فلسطين والانتِصارات الّتي أحرزوها، ولا يهمّني تهديدكَ، ولكَ أنْ تفعلَ ما تشاء، فأنا ما جِئتُ إلى دمشق للرّاحة، لديّ ما أقومُ به، لديّ تاريخٌ طويلٌ من النّضال لا يُمكن أنْ أخونه أو أتنكّر له لحظة، جئتُ للمطالبة بحقّي وحقّ المُقاتلين معي من الأسلحة، أنا لا أخافكَ ولا أخافُ الموت، إنّ الموتَ لَهُو ما أشتهي، وإذا كنتَ جادًّا أنتَ وجماعة هذا الجيش الّذي حولّتموه إلى مهزلة في إنقاذ فلسطين، فافتح أبواب مستودعاتك لأهل فلسطين، واترك لهم هذا السّلاح، فما نفعُ البنادق إنْ ظلّتْ مُكدّسةً دون أنْ تنتزعها أذرع المُجاهدين، وسأقول لك شيئًا أخيرًا: نحن الّذين سنُخلّص فلسطين بسواعدنا ودمائنا وليس أنتم».

وصرخ من أعماقه: «هذه الأسلحة مِلْكٌ لجيش الإنقاذ، ولن ندخل في صِراع مع الإنجليز، وأنا لن أسلّمك رصاصةً واحدة قبل انتهاء الانتِداب البريطانيّ على فلسطين في 15 أيّار. وعلى هذا تنصّ المواثيق».

«العدوّ لا عهدَ له ولا ميثاق ولا ذِمّة، وإذا تقاعستم عن إجابتي إلى ما أقول، فإنكم ستحتاجون بعد 15 أيّار إلى عشرة أضعاف ما أطلبه منكم الآن، ومع ذلك فإنكم لن تتمكنوا من هؤلاء اليهود، إني أشهد الله على ما أقول، وأحمّلكم سلفًا مسؤولية ضياع القدس ويافا وحيفا وطبرية، بل فلسطين كلّها». وخرجتُ من عنده، وأنا أعلم أنّني على أيّة حالٍ مخذول، وتوجّهتُ إلى عبد الرّحمن عزّام نفسه وكان أمينًا لجامعة الدّول العربيّة، وطلبتُ منه أنْ يزوّدني بالسّلاح، فأعطاني نزرًا يسيرًا، واستكثر على مُقاتلينا ما لدى الجامعة من أسلحةٍ كثيرة، سوف تصدأ في مخازنها، ولم يفعل ذلك إلاّ لتَهدِئتي. وخرجتُ من عنده مخذولاً، ومضيتُ إلى الصّحراء، كنتُ أريدُ البحثَ عن السّلاح في رمالها، مِمّا خلّفتْه الحربّ العالميّة الثّانية، فقد تكون الصّحراء الشّاسعة الخالية أكرمَ من العرب، وهل العرب يومئذٍ إلاّ بقايا قد ألقتْ بهم الرّيح في كلّ مَوْماة؟! وأنا؟ كنتُ أستجير من الرّمضاء بالنارِ!!

***

(18)

القَسْطل

القسطل شِريان القُدس. قريةٌ قادرةٌ على أنْ تهب القدسَ الموت أو الحياة، مَنْ سيطرَ عليها استطاع أنْ يحافظَ على القدس، ومَنْ خَسِرها في المعركة كان من الطّبيعيّ أنْ يخسر القدس. تقع على هضبةٍ تبعد (8) كم غربَ القُدس، وتُشرف بشكلٍ تامّ على طريق القدس - تل أبيب - يافا. كُنّا في القسطل على قلّة عددنا نُحاصر أكثر من مئة ألف يهوديّ يعيشون في القُدس الغربيّة.

من هنا ترى القُدس، ترى القباب والسّاحة الفسيحة والسّور العظيم، والتّاريخ، وتسمع حمحمات الخيل، وترى صلاح الدّين، وترى سجدة ابن الخطّاب، وترى كذلك ملوك الفرنجة يخرجون منها صاغرين، من هنا كلّ شيءٍ يبدو واضِحًا وحقيقيًّا، من هنا يُمكن أنْ تشمّ النّسائم النّديّة الآتية من الأقصى فتنتعش الرّوح وسطَ هذا الخراب الّذي يعمّ كلّ شيءٍ. ومن هنا كان يُمكن أنْ تُهاجم أيّ هدفٍ متحرّكٍ للعدوّ، من هنا من القسطل أُبيدتْ قوافل يهوديّة، ومُشاة، وسرايا، وكتائب، وأذقْنا عصابات الهاغاناه الويل. من هنا وعن هذه القمّة كان يسقط كلّ مَنْ سَعَى إلى صعودها، كانتْ عصيّة على كلّ ارتِقاء، وكانتْ لنا وحدَنا.

في الثّالث من نيسان من عام 1948م، بعد أنْ كاد الغِذاء ينفد من

يهود القُدس المُحاصرين، توجّهت عصابات (البالماخ) بسريّة كاملة تتكوّن من (500) مُقاتِل وشنّتْ هجومًا على القسطل لفكّ حصارها عن القُدس. كان يحمي القسطلَ يومَها خمسون مقاتِلاً فقط من العرب. ومع موقعها الحصين إلاّ أنّ اليهود بمدافع الهاون، وبسلاح الدّروع، وبعدَ أنْ نفدتْ أسلحة المُقاومين وانسحبوا من الموقع، استطاعوا احتِلالها، كان احتِلالُها ضربةً قاصِمةً للمُجاهدين.

في الرّابع من نيسان، فكّرتْ قيادة منطقة القُدس باستعادة القسطل قبل أنْ تستقرّ فيها أقدام اليهود، وقبل أنْ يتمكّنوا من بناء تحصيناتهم فيها، اتّجه إليها ثلاثمئة مقاتل، لكنّهم لم يستطيعوا استِعادَتها، بل سيطروا على التّلال الواقعة بينها وبين عين كارم. وفي الخامس من نيسان نسف المُجاهدون الجسر الّذي يصل القسطل بالمُستعمرات اليهوديّة المجاورة لها بالقرب من قالونيا. في ذلك اليوم عدتُ من دمشق وأنا جرّة حُزنٍ وغيظ، أحمل فوق ظهري فلسطين كلّها، التحقتُ بالمجاهدين فور وصولي في السّادس من نيسان، كنتُ أعرفُ أنّني ذاهبٌ إلى النّهايات، ولكنّني لا يُمكن أنْ أظلّ حيًّا لأعاني كلّ هذا الألم، وأنا أرى شريان القُدس يُقطَع. لم يكنْ لدينا سِلاح. كَذَبني العرب في دمشق والقاهرة. لم يكنْ لدينا رجالٌ كثيرون، كَذَبني جيش الإنقاذ وبقيّة القوّات العربيّة، والجيش الّذي كان يأمره غلوب ويرابط داخل القُدس. كَذَبوني جميعًا لأنّهم ظنّوا سراب الإنجليز ماءً. لن أستعينَ بأحدٍ منهم اليوم ولو تناثرتُ أشلاءً في سماء القسطل. لم يعدْ من وسيلةٍ سوى اللّجوء إلى الله، ولقد عرفتُ أنّني سأحاول مُلكًا أو أموتَ فأُعذَر. ولكنّني قبل أنْ أرحل عليّ أنْ أقول لهم الكلمة الّتي يجب أنْ أقولها، ولو

كان في هؤلاء القادة ذرّة من حياء، لأجابوني إلى ما طلبتُ، ولكنْ لا حياءَ لمن تنادي. كتبتُ مُذكِّرةً إلى أمين جامعة الدّول العربيّة الخائب والخائبة: «السّيّد الأمين العامّ لجامعة الدّول العربيّة، القاهرة... إنّني أحمّلكم المسؤوليّة بعدَ أنْ تركتُم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عونٍ أو سِلاح».

جمعتُ ما يقربُ من ثلاثمئة مقاتِلٍ، كان لديّ رِجالٌ الواحدُ منهم بألف، كان لديّ هارون بن جازي، تركَ أرضَه وأهله وجاء إلى القُدس يتتبّع آثار نبيّه ويتلمّس الأرض الّتي مشتْ عليها أقدامُه الطّاهرة. كانتْ مهمّة هارون وآل الجازي الّذين معه أنْ يبدؤوا الهجوم من الجهة الجنوبيّة الغربيّة، ولقد قاتلوا عن عقيدة، وعن شجاعة، تشهدُ لهم الأرض والدّماء، والله يشهد، وأنا أشهد.

وضعتُ خُطّة، ربّما أردتُ أنْ تكون الأخيرة، فقد كان هناك صوتٌ في أعماقي يشدّني نحو السّماء، كنتُ أرى الموت، لا بُدّ أنّ عبدالرّحيم محمود، سبقَنا جميعًا إلى رؤيته، حين قال: (لعمرُكَ إنّي أرى مصرعي... ولكنْ أغُذُّ إليه الخُطا). ولقد غذذتُ إليه الخُطا بالفعل، ربّما تريّثتْ خُطُواتي قليلاً وأنا أفكّر بابنتي هيفاء أو بأبنائي موسى وفيصل وغازي وأمّهم، لكنْ ماذا يُمكن أنْ يُقدّم الأب إلى زوجته وأبنائه غيرَ تاريخه، وغيرَ دمه، ها أنذا أضع أمامهم تاريخي بكلّ ما فيه، ودمي بكلّ شَذاه. ربّما لم أحبّ أحدًا مثلهم باستثناء فلسطين، ومن أجل هذا تتقدّم عليهم في هذه اللّحظة ويحضرون في قلبي بعدها، ربّما سيكون هذا الوطن الّذي لن يمرّ زمنٌ طويلٌ من هذه اللّحظة الفارقة حتّى يضمّ رفاتنا جميعًا، وإذّاك سيعرفون لماذا فعلتُ ذلك. كتبتُ قبل أنْ أتحرّك

التّحرّك الأخير الرّسالة الأخيرة: «أحبابي هيفاء وموسى وفيصل وغازي، قبلاتٌ حارّة لكم جميعًا، أنا بخير، أنا في جبهة القتال، إذا عشتُ فسأراكم، وإذا متّ فستراكم روحي، لكنْ لماذا لا تكتبون إليّ، لدي كلّ شيءٍ إلاّ أنْ أسمع منكم، أنا أحيا بالكلمات القليلة الّتي تبعثونها، إنّها شِفاء ما أنا فيه أحيانًا، إذا لم أعدْ إليكم فأرجو أنْ تكونوا مُتحابّين وأولادًا طيّبين. لا تُعذّبوا أمّكم، لقد تحمّلتْني كثيرًا، وتحمّلتْ أكثر حينَ ربّتْكُم وأنا بعيدٌ عنكم. ما أرجوه أنْ تذكروني بخير، وأنْ تكونوا مُجتهدين في دروسكم، وإذا نجحتم في المدرسة فسأشتري لكم بنادق ومُسدّسات حقيقيّة لتقتلوا بها اليهود، وسأشتري لهيفاء أدوات إسعاف لتضميد جراح المُجاهدين... سوفَ أراكم قريبًا على أيّة حالٍ... الله يرضى عليكم...».

ها أنذا أزحفُ بقوّاتي إلى القسطل، لن أرجع دون تحريرها، ولو قاتلتُ في النّهاية وحدي، طوّقْنا القسطل من كلّ الجهات، وبدأ هارون بن جازي إطلاق النّار كما كانت الخُطّة، هارون لو نجا فعلى قادة العرب إذا كانوا يُنزِلون الرّجال منازلهم أنْ يجعلوه قائدًا لجيوشهم، إنّه مُسعّر حرب، كان يدي اليُمنى، وكنتُ كثيرًا ما أعتمد عليه في الاقتِحامات الصّعبة، الآن هو رجل الموقف، بدأ النّار، وستنهال بعدها الثّورة، فلسطين يا هارون في عنقك وفي عنق كلّ المناضلين، تعالَ عاهِدْني أنتَ والرّفاق على ألاّ نعود إلاّ بها، أو تعودَ هي بِنا، أمّا أنْ نتركها لعصابات اليهود، ولقادة الإنجليز، فمعنى ذلك أنّنا نُفرّط بشرفنا، وأنتَ تعرفَ ما أعني.

قابل اليهود نيراننا بالنّيران، إنّهم يُنظّمون صُفوفهم، يتفوّقون في

الموقع والعدد والسّلاح، ولكنّهم يحارِبون عن عقيدةٍ زائفة، عن كذبة. ونحن نُحارب عن عقيدةٍ صحيحة، وعن حَقّ. فلمن الجولة اليوم؟ دخلْنا إلى قلب القسطل، نحن ستّة عشر مُناضِلاً، ذات الرّقم الّذي دوّختُ به الإنجليز في العراق، واجهونا بمدافع الهاون، أرأيتَ كيفَ يطير الجسد في الفضاء، كان شُهداؤنا يطيرون، هل يتحوّلون في لحظة استشهادهم إلى طيور، أكادُ أراهم على هذه الصّورة! إنّنا في القسطل، دخلْنا القرية، انضمّ إليّ عددٌ من الميسرة والميمنة حينَ علموا باستشهاد الّذين معي، ها نحن نسير من شارعٍ إلى شارع، ومن بيتٍ إلى بيت، ها هم يظهرون كالقرود عند كلّ منعطَف، معهم أسلحة حديثة اشتروها بأموالهم وساعدهم العالَمَ كلّه على ذلك، وباركَ خُطوتهم، أمّا نحنُ فكُنّا كالأيتام على مآدب اللّئام، لا أحدَ معنا غيرُ عقيدتنا والله، وهما كثيرٌ لو رضي العرب الخَوَنة أنْ يُعطونا الرّكن الثّالث؛ السّلاح. استحْكمْنا داخل هضبةٍ صغيرةٍ في القرية، معنا بعضُ مدافع الهاون، أطلقْنا باتّجاه البيوت القريبة، البيوت تسقط، كلّ مَنْ فيها يُقتَل، ونحن نواصل التّقدّم، الأمر يبدو لصالحنا على الأقلّ فيما أرى. لكنّ الأمر يحتاج إلى صبرٍ وإلى إسناد، سمعتُ من مُقاتلٍ كان يتبعني أنّ هناك تعزيزاتٍ قادمة، هل سمعتُ هذا حَقًّا؟! لا أدري على وجه الدّقّة، ولكنّني على الأقلّ هببتُ لكي أقاتل بحماسةٍ أكبر، أين أنتَ يا هارون. اترك منطقتك الغربيّة وتعالَ هنا إلى القلب، في القلب سترى اليهود يتساقَطون أمامك بصورةٍ أسرع، هتفَ صوتٌ عن يساري: «أنا هنا يا سيّدي... أنا هارون...». قلتُ له: «هارون أخي؟». فردّ: «لبّيك». فأردفتُ: «لا نجوتُ إنْ نَجَوا». واقتحمْنا. وصلْنا إلى جامعٍ في القرية، إنّهم

يتحصّنون داخله يا هارون، لقد نجّسوه، علينا أنْ نطهّره من دَرَنِهم، هيّا يا هارون، هيّا أيّها الرّفاق، كان بعضُهم قد اعتلى سطح المسجد، أطلق باتّجاهنا قذيفة هاون، فطار كلّ مَنْ حولي، وأصابتْني شظيّةٌ في بطني فبدأتُ أنزف، كان الدّم يسيل سريعًا. صرختُ: «هارون، هل أنتَ حيّ؟!» لكنّه لم يُجب، كان الغبار كثيفًا، والأتربة تُغشّي العيون، ودخان القذائف يخنق الأنفاس، أنا لا أرى ولكنّني أرى، لا أدري ماذا حلّ بهارون، هل استشهد؟ لقد خسره العرب، لكنْ يا صديقي، لا رجوع، سأدخل إلى صحن المسجد، وأقتلُ كلّ يهوديٍّ نَجِسٍ فيه، ها هم، أطلقتُ باتّجاه الأوّل فأرديتُه صريعًا، والثاني، والثّالث،... قتلتُ ستّةً بمسدّسي، أين الرّفاق، أريدُ بندقيّة، بندقيّة أُجهِز بها على مَنْ تبقّى هنا، أتتْني الرّصاصات من الجهات الأربع، اخترقتْ واحدةٌ صدري، الثّانية حزّتْ عُنُقي، والثّالثة استقرّتْ في فخذي، والرّابعة في ذراعي، سقطتُ لا بسبب الرّصاصات، فقد كنتُ أراها ذبابًا يطنّ في أذني، ولكنْ بسبب النّزيف، خارتْ قُواي. يبدو أنّني أرحل سريعًا، سريعًا قبل أنْ يتمّ المشروع الّذي نذرتُ له حياتي. كنتُ أسمعُ أصواتًا مُختلطة من حولي، هل هؤلاء جنودي جاؤوا لِيُساندوني، ولكنّهم يتحرّكون حولي بسرعة، غامتْ عيناي، إنّني أرحل، لكنْ مَهلاً... إنّها ابنتي هيفاء! هل جاءتْ إلى هنا بالفعل، رأيتُها تأخذني وتحتضنني، وتبكي، لا تبكِ يا هيفاء، أنا حيّ، حَيٌّ في مكانٍ آخر، في زمنٍ آخَر، لا تبكِ يا ابنتي، أعدكِ ألا أتركك، وألا أترك إخوتك ولا أمّكم بعد اليوم، مسحتْ بضمّادة بيضاء الدّمَ الّذي غَطّى وجهي، مَن اشترى لك أدوات الإسعاف يا هيفاء، لقد كنتُ أريدُ أنْ أفعل لكِ ذلك بنفسي، لا بأس، هل المُجاهِدون الآخَرون

بخير، كان شيءٌ ما يرتفعُ إلى أعلى، هل هو جسدي؟ كنتُ أرى جسدي مُسجًّى على أرض المسجد، إنّها روحي إذًا، لماذا تُغادرُ روحي جسدي، لماذا تُسرِع هكذا في الرّحيل، أريدُ أنْ أرى بقيّة أبنائي... ها هم دخلوا من باب المسجد، وهُرِعوا إليّ، يا أبنائي: «سيحدّثونكم عن السّلام فإيّاكم أنْ تُصدّقوهم». حملني موسى بين يدَيه، وجاءتْ زوجتي، كانتْ تبكي، لا تبكِ يا أمّ موسى فأحزان اليوم أفراح الغد، أحزاننا ستمضي لا محالة. لكنْ مهلاً، ما هذا؟ أسمعُ أصواتَ عُرس، إنّه عُرسٌ بالفعل، إنّه يومُ زفافي، كيفَ أراه وأنا أواصل صُعودي إلى الأعلى، إنّها زوجتي تلبسُ فستان العرس، وتضحك، نعم هكذا أريدكم أنْ ترسموا هذه البسمة على وجوهكم، لقد واصلتُ صعودي، توقّفتُ قليلاً لأرى ما تبقّى من المشهد؛ كانتْ هيفاء تواصل تضميد جروحي، وتمسح دمائي، وهي تقول: ما أطيبَها! وغازي قدّمَ لي كأسًا بلّوريّة يترقرق فيها ماءٌ باردٌ؛ لقد جاءتْ في وقتها يا غازي؛ فأنا عَطِشٌ يا بُنيّ، وفيصل أمسكَ بيدّي، وقال لي: هيّا، اعتذرتُ منه، قلتُ له: لا أستطيع، إنّني أمضي إلى حيثُ يريدُ الله، ورأيتُ موسى يُمسك رشّاشه ويدافع عنّي ويُطلق صلياته باتّجاه اليهود. وزوجتي كما لو كانت يومَ زفافها، تزداد ابتسامتها اتّساعًا وتدعوني لأرافقها إلى مكانٍ جميل، مضيتُ معها، كنتُ لا أزال أحلّق إلى الأعلى، وصلتُ إلى هناكَ وحدي، سألتُ عن هذا المكان الّذي حلّقتُ باتّجاهه، لكنْ لم يُجِبْني أحدٌ، كانت تُشبه القدس... لا أوجاع فيها، لا يهود، عادتْ إلى أهلها، إنّها عروسٌ هي الأخرى!!

لقد بكتْ فلسطين في هذا اليوم، في الثّامنِ من نيسان من عام 1948م، لقد سالتْ على خدّها دمعة حرّى، ظلّتْ ريّانة لم تنشف بعد

كلّ هذه السّنين، كان جسدُ عبد القادر مُغطًّى بأكمله بالدّماء، لم يعرفه حتّى اليهود، كان كلّ شبرٍ في جسده تستقرّ فيه شَظِيّة، وجنّاد الرّصاص الّذي يستقرّ على صدره امتلأ هو الآخر بالدّم، أخذه عمّي هارون، كان فارِغًا قد استخدمه عبد القادر كلّه في القِتال، ولم يكنْ قد تبقّى فيه إلاّ رصاصةٌ واحدةٌ، احتفظَ بها عمّي عنده، ولكنّني استحلفْتُه بالله أنْ يُعطيني إيّاها، فرضي. وطلبْتُ منه أنْ ينقش على أسطوانتها اسمي واسم عبد القادر بشبريّته، ففعل.

أمر غلوب جيشَ الإنقاذ، وكلّ القوّات والوحدات العسكريّة الموجودة في القسطل أو قريبًا منها بالخروج منها، وإعطاء الفرصة للجيش العربيّ النّظاميّ أنْ يقاتل، قال وهو يشدّ على أسنانه: «لن نقاتل متفرّقين، علينا أنْ نُنظّم صفوفَنا، هذه ليستْ حرب عصابات، هناك جيشٌ يقود عمليّة تحرير فلسطين وأنا قائده الأعلى!!».

كان عبد القادر سورًا من أسوار فلسطين المنيعة، حينَ انهار هذا السّور، كان من السّهل أنْ ينهار بعدها كلّ شيء!!

***

(19)

لماذا تَسرقُنا الحَربُ مِن أبنائِنا؟

وُلِدْنا في الخنادق، نحن جيلُ الهزيمة الأولى، الجيل الّذي لم يكنْ قادرًا على أنْ يفهم أنّ الشّمس ليستْ ملكًا لأحدٍ، وأنّها تُعطي بلا حدود. لكنّ المشكلة أنّنا لم نكنْ نرى الشّمس، كُنّا معتادين على رائحة التّراب العَطِنة ونحن في الأسفل في خنادقنا، على رائحة البارود، ولم نكنْ نُفرّق في ليالي الشّتاء بين وميض البرق ووميض الطّلقات ونحن نُصوّب بنادقنا على هدفٍ ما. كانتْ أهدافُنا مثلنا ضائعة. لم نكنْ نعرف إلى أينَ نُصوّب تلك الفوّهات الّتي نادرًا ما كانتْ تخرج من تحت التّراب، ولم نكنْ ندري ما إذا نشبتِ الحربُ الّتي يصرخ بها المذيعون في محطّات الرّاديو أم لم تنشبْ بعدُ؟ وإذا كانتْ قد نشبتْ لم نكنْ ندري ما إذا انتهتْ أم لا تزال ناشِبة؟ كانت الحرب مثل فتاةٍ لعوب تسكر في اللّيل، تنام مع الجميع، وتشتم كلّ الّذين ناموا معها في الصّباح!

يقولون إنّنا نخسر القدس؟ هل صحيحٌ ما قالوا؟ لا أدري كيفَ يعبّرون عن كارثةٍ فادحةٍ بهذه السّذاجة والحيوانيّة، إذا خسرْنا القدس، فعلينا أنّ ننام على بطوننا وندع اليهود يركبوننا! صوتُ الرّشّاشات يأتي من بعيدٍ، أرى صوتَه يلمع مثل البرق الّذي يلمع كثيرًا دون أنْ يكون هناك شِتاء. كلّ الشّتاءات الّتي مرّت عليّ منذ أكثر من سبع سنين هي شتاءات حزينة، حزينةٌ للغاية، أنا أستمتع بحزن الشّتاء، وأريدُ جبلاً من

الحزن إذا كان للحزن وزن. نحن نخسر كلّ شيءٍ.

الرّعاة الّذين يسوقون أغنامهم إلى هنا، يجلسون في الأماسي الحزينة يُغنّون، يُخرجون شبّاباتهم لتنساب أنغامهم في الهواء، اللّحن نهر، ولكنّه يجري إلى الأعلى، يسقي عطش الرّوح. الغناء جرح، إذا سال شَفى. إنّ غناءَهم حزينٌ، يُمزّق القلب، ولكنّهم لا يبكون! أبكي أنا وحدي في الخندق، أهمّ أنْ أخرج من هنا وأبكي على صخرةٍ بالقربِ منهم، ولكنّني أخاف أنْ يروا دموعي، كيفَ يبكي رجلٌ يحمل بندقيّةً على كَتِفه؟ كيفَ يضغطُ مقاتلٌ على رأسه بأصابع يدَيه ويبدأ بالعويل؟ الّذين يذهبون إلى الحرب يجب أنْ يكونوا بلا قلوب!

كان ذلك قبل عامَين من خندقي هذا، على ما أذكر، أرسلونا من خلف النّهر في كتيبة مُدرّعة، لإسناد حامية القُدس. وصلْنا إلى مُعسكر العَلَمَين، أقمْنا هناك أربعة عشر يومًا، كانت المناوشات بين المُناضلين واليهود لا تتوقّف، خلال أربعةَ عشرَ يومًا لم أذقْ طعم النّوم؛ كان صوت الطّلقات المتبادلة بين الطّرفَين لا يتوقّف في ليلٍ أونهار. كُنّا مثل القنافذ الّتي تكمن في جحورها وهي ترتعش لسماع دويّ النّزاع. كُنّا جيشًا، ولذلك كُنّا طرفًا ثالثًا، واقتلعتُ وتدَ خيمةٍ في أحد الأيّام وقلبْتُها، وقلبتُ كلّ ما فيها، وأنا أصرخ: «لماذا يُقاتِلون وحدهم؟». وصرخ معي هذه الصّرخة المدويّة ضابِطٌ آخَر، وفي اللّيل تسلّلْنا إلى تجمّعات المُناضلين، وكدْنا نهلك بسبب هذه المغامرة، لولا أنّنا رفعنا أيدينا، وقلنا لهم: «نحن إخوانكم. نحن من الجيش العربيّ الرّابض في معسكر العلمَين، جِئنا على رؤوسنا لمساندتكم. أيّة عمليّة في هذه اللّيلة اجعلونا من ضمن الّذين يُنفّذونها. أنا مشهور حديثة وهذا (غازي)،

نحن أولاد عمّ، ومن البادية، من جنوب الأردنّ، ولكنّ فلسطين...». وضربتُ على صدري، ولم أكمل، فقد تهدّج صوتي. ومع ذلك لم يطمئنّوا إلينا، ولم يُشركونا إلاّ بعد أسبوع من المناورة، لم يكونوا يُحبّون الجيش كثيرًا!!

بعد شهرٍ، صار معسكرنا هدفًا. سقطَ جنودٌ بريطانيّون وعرب، وكذلك ضُبّاط، كُنّا قد اكتشفنا أنّ نقاط القِتال بين الطّرفَين قد تغيّرت واستدارتْ وصِرنا نحن في المنتصف، ولذلك كُنّا كالخُشخيشة، أيّ رصاصةٍ تخرج من هنا أو من هنا، تجدُ طريقَها إلى رأسِ واحدٍ منّا. ولذلك فككْنا خِيام المعسكر، ورحلْنا. كالبدو رحلْنا.

تمركزْنا في معسكرٍ آخر قريبٍ من باب الواد. هارون انتقل بعد استشهاد عبد القادر إلى باب الواد هذا. نائل معه. نائل يشتاق إلى ابنه سلامة كثيرًا. الأولاد يكبرون في الحرب بسرعة. يُحدّث هارون عنه؛ إنّه جميلٌ، جميلٌ للغاية، وقريبًا سينطق الكلمة السّحريّة: (بابا)، صحيحٌ أنّني لم أسمعها منه، ولكنّني متأكّد أنّني سأسمعها. الحرب ستُمهلني بعضَ الوقت لأسمعها. الحرب ليستْ متوحّشة إلى هذا الحدّ، أليسَ لها قلبٌ مثلنا يا هارون؟ يصمتْ هارون. يسأله نائل مرة أخرى، يردّ هارون: ربّما. يستدرك نائل: ولكنْ لماذا تسرقنا الحرب من أبنائنا؟ يُخفّف عنه عمّي، ويُقدّم له حِساءً ساخِنًا. اشربْ. الحساء السّاخن يُبرّد الحُزن. يشرب حساءَه، يلعق آخر ما في الصّحن، ويقومان إلى عمليّة جديدة. يُطلِق هارون، ويُطلِق نائل، ورفاقهما يُطلِقون النّار، تهتزّ أكتافهم بعد كلّ طلقة، يطير الشّماغ، يطير القلب، وشيءٌ من الرّوح يطير كذلك، مع الزّمن بعدَ كلّ طلقة، وفي لحظةٍ لا أحدَ يستطيع توقّعها

ستطير الرّوح بشكلٍ نهائيّ، وحالمًا تطير بعيدًا بعيدًا لن يكون بإمكانها أنْ تعودَ إلى صاحبها أبدًا. هارون يُغنّي، ونائل يتعجّب منه. هارون يُلقّم بندقيّته، ويقول: ما زالت الرّوح قويّة يا نائل، يبدو أنّ ألفَ رصاصةٍ لن تستطيع أنْ تُزحزحها من جسدي، ويضحك، لكنّ عينَي نائل تلمعان، هل كان يبكي؟

«يا هارون» قال نائل، «إنّ تحصينات اللّدّ والرّملة هَشّة، نُباغت الحامية اليهوديّة ونحتلّهما، المُباغتة بعشرةِ رجال أفضل من الحرب بعشرة آلاف في موعدٍ مضروبٍ للحرب». «هل ترى ذلك يا نائل؟». رشفَ نائل ما تبقّى في كأسه، ونظر عبر عينَيه الواسِعتَين، وجمع شَعرَه الطّويل بيدَيه خلفى رأسه، وقال: «لن يصمدوا طويلاً». «سنموت». «كأنّنا لا ندري أنّنا سنموت. نحن نمشي إلى الموت واثقين يا هارون منذُ تركْنا الرّشاديّة خلفَنا، ومنذُ سمعتُ بكاءَ سلامة وهو في حِجر أمّه، مَنْ يخفْ من الموت لا يستحقّ الحياة». وشاور هارون بقيّة المُناضلين، فرفعوا بنادقهم عالِيًا. وأطلقوا طلقةً في الهواء، كانت الطّلقة تقول: «نحنُ لها».

كانوا لا يزيدون عن خمسين شخصًا، هاجموا مواقع التّحصينات، بالقنابل، رمى (نائل) القنبلة الأولى، رآها تنتحي مثل قوس قُزَح، ثُمَّ تنفجر، لهب النّار تصاعدَ أمتارًا فوق برج المراقبة، كان هذا في الجهة الشّمالية من المدينة، في الجنوب، كان أحد المناضلين يقنص ببندقيّته اليهود الّذين يتمركزون في الأبراج هناك، سبع طلقات تعني أنّ التّحصينات قد سقطت. دخلوا المدينتَين، توزّع كلّ ثلاثةٍ في حيّ، اتّفقوا على نُقطةٍ يلتقون فيها عند مغيب الشّمس، دارت المعارك من حارةٍ

لحارةٍ، ومن حيٍّ إلى حيّ، كان نائل يقفز فوق الأسوار كأنّه وُهِبَ جناحَين، قال لهارون من قبلُ: «اللّد والرّملة مرحلة، علينا أنْ نحتلّ الجامعة العبريّة ومستشفى هداسا». ضحك هارون، وسأله: «لماذا هذين بالذّات؟»، ردّ: «أمّا الجامعة فأريدُ أنْ أحولّها إلى كلّيّة عسكريّة، وأجعل أبناءَنا يدرسون فيها، وأمّا المستشفى، فلكي يستقبل جرحانا الّذين يموت كثيرٌ منهم قبل أنْ يتلقّى العلاج». وضحك من جديد، دعْنا ننتصر في اللّدّ والرّملة، أليست الحياة مراحل، و...». يُقاطعه نائل، وهو يهزّ شَعره الطّويل، ويُشير بإصبعه رافِضًا: «كلاّ يا هارون، لا وقتَ لديّ، أريدُ أنّ أنتهي من كلّ هذا، أريدُ أنْ يرحل اليهود قبل أنْ أموت، أريدُ أنْ أراهم يحملون ما تبقّى لهم من أمتعة، ويركبون بواخرهم اللّعينة، ويُغادرون بلادَنا، أريدُ أنْ يتحقّق ذلك في حياتي».

قبل أنْ تسقط الشّمس عن القبّة، وتغوص في بحر الظّلمات كانت اللّد والرّملة قد وقعتا بالكامل في أيدي المُجاهدين. قال نائل: «يا هارون، نحن لن نبقى هنا، علينا أنْ نتحرّك إلى الجامعة العبريّة ومستشفى هداسا، أمّن المدينتَين وهيّا إلى ما نريد». ردّ هارون: «ليس لديّ ما يكفي من الجنود لتأمين المدينتَين، ربّما سأسلّمهما إلى الجيش العربيّ». زمّ نائل شفتَيه، وقال: «لستُ مطمئنًّا. أنا تركتُ الجيش وجِئتُ لأقاتل معك». «ليس لدينا خيارٌ آخَر». قال هارون لغلوب: «لقد سقطَ سبعةُ شهداء من أفضل المقاتلين لديّ من أجلهما، ونحن نستأمنكَ عليهما، أمّنْ أهلهما، وزِدْ في حراستهما، واحمِهما من هَجَمات الصّهاينة». تهدّل جفنا غلوب، واهتزّ شارباه، وقال بصوتٍ خشن وهو يشير إلى عينَيه بإصبعَيه، ثُم يضع يده على قلبه: «المدينتان في عينَيّ وقلبي، لا

تخف أيّها المقاتل الصّلب». في الصّباح أعاد غلوب المدينتَين لليهود، قال لقائد الهاغاناه: «جنودي لا يُقدّرون الأمور كما يجب، عليكَ أنْ تعذرهم، إنّهم جَهَلة، ليس كلّ مَنْ تحت إمرتي يعرف ما يجري». والتمعتْ عينٌ يتيمةٌ في وجه دايان، لكنّ أسنانه بدتْ كاملة من تحت شفتَيه، وهو يشدّ على يد صاحبه!

لا تَبْكِ يا نائل، لم يكنْ قدرُنا أنْ يتولّى أمرَنا مَنْ يمدّ لنا في يُمناه الوَرْد ويُخفي الخنجر خلفَ ظهره، كان هذا عِقابًا لنا. نحن جلبْناه إلى هنا، وإنْ لم نفعل فقد رضينا به، وفتَحْنا له دورَنا وأوطاننا، وأعطيناه كلّ شيءٍ. لا تبكِ يا نائل، شُدّ البندقيّة على صدرك كما كنتَ تفعل دائِمًا، إنّ راية النّضال ستبقى خفّاقة في سماء فلسطين ما دامتْ روحك هنا، مرفرفةً على هذا الوطن الحزين، وستأتي من بعدكَ أجيالٌ تظلّ على العهد، ربّما هم قادرون على سرقة أرضنا، لكنّهم غيرُ قادرين على سرقتنا، نحن وعدُ الله بالنّصر، ولئنْ تأخّر، إنّه آتٍ لا محالة، وكلّ مُوعودٍ مُنتَظَر.

* * *

(20)
الأحرار يَمُوتون واقفين!

الإنجليز يقولون إنّهم سيرحلون صبيحة اليوم الّذي ينتهي فيه الانتداب على فلسطين، ويسلّمونها لأهلها، كانوا يقصدون اليهود بالطّبع. اليهود ليسوا أصدقاء لأحد، لكنّهم سيُصبحون يومًا ما كذلك. إنّه يوم التّسليم إذًا، نحن في الرّابع عشر من أيّار من عام 1948م. خرج الإنجليز، وتركوا مستودعات الطّعام والأسلحة، خرجوا من البحر، خرجوا بأعدادٍ كبيرة، وعلى هيئة قُطعان. قادتُهم الّذين أسّسوا الجيش العربيّ لم يرحلْ واحدٌ منهم، ما زالوا هنا جميعُهم، فمَن رحلَ إذًا؟ ذوو الياقات الزّرقاء، والثّياب الفارهة، والبدلات المخمليّة، والنّساء المعجونات بالزّبدة، هؤلاء رحلوا. هم وحدهم.

فؤاد أحد النّاجين من المذبحة، أوى إلى معسكرنا لكي يُفلِتَ من الموت جُوعًا، لم تعدْ معدته تحتمل أكل الحشائش الموجودة على جوانب الطّرق، ولم يعد النّوم في الكهوف آمنًا. كان منظره مُرعِبًا، شعره يتهدّل فوق كتفَيه، ملبّدًا وَسِخًا، الجرب يشقّق زوايا فمه، ورائحته عَفِنة، وعيناه تكادان لا تظهران من شدّ القذارة الّتي حولَهما، قال لي بصوت خفيض: «سأموت». كان يهرّ مثل حيوانٍ عجوز مُشرِفٍ على الهَلاك. منذ شهرَين وهو في البراري بلا مأوى. أردف كمن يتوسّل: «لم يبقَ من عائلتي أحدٌ». أشرتُ له أنْ يتبعني، كانتْ هناك خيمة نتّخذ منها حمّامًا،

فيها برميل فراغ نُعبّئه بالماء، ملأتُ الدّلو وألقيتُه على جسده، انتفضَ كعصفور، راح يتلقّى قطرات الماء الّتي تتقاطر من كُبّة شعره، ويشربها، لا تشرب هذا الماء يا فؤاد، لدينا ماء نظيف، اخلع ثيابك الآن، سأخرج، هذه صابونة الغار، عليكَ أنْ تستحمّ. كادَ يبكي من الفرح، رغا الصّابون على رأسِهِ، استنشقه عميقًا، إنّ رائحته أطيب من ريح المسك، تلمّس الطّراوة الّتي أحدثتْها الرّغوة والماء، فكاد يبكي مرّة أخرى. عندما خرج كان خَلْقًا آخر. قال فؤاد، وأنا أسكبُ له كأسًا ساخِنًا من الشّاي، ونجلس في خيمتي: «لم يُشارك فردٌ واحدٌ من قريتنا الصّغيرة في أيّة هجمةٍ ضِدّ المُستعمرات الصّهيونيّة، ورفضَ مختارنا الطّلب الّذي تقدّم به المُجاهِدون لينضمّ شباب دير ياسين للجهاد، وحينَ قابَلَهم المختار، قال لهم بالحرف الواحد: «لن نسمح لكم بتجنيد فردٍ واحدٍ ولو كان طِفلاً في هجماتكم على اليهود، ولن نسمح لكم باستخدام ولو شِبْرٍ واحدٍ من قريتنا لتنفيذ هجماتكم على أيّة قاعدةٍ يهوديّة». ردّ المُناضِلون على المختار بأنْ قاموا بقتل رؤوس الأغنام فيها. ردّ المختار على ذلك بأنْ وقّع اتفاقًا بينه وبين اليهود للالتزام بالسلم وعدم العدوان على الجيران. بعد شهرٍ من توقيع الاتّفاقية ردّ اليهود على المختار وعلى المناضلين وعلى المعاهدة وعلى القرية، بأن استباحوها بالكامل: «انقعوها واشربوا ميّتها». عائلتي كلّها قُتِلتْ. عندما دخل اليهود بيتنا، سارعتِ الأمّ إلى أولادها الثّلاثة، واحتضنتْهم بين ذراعَيها، ودفنتْ رؤوسهم في صدرها. أطلقَ الجنديّ الصّهيوني الرّصاص فحطّم الباب، وهشّم الزّجاج، قوّست زوجتي ظهرها أمام فوّهة الرّشّاش، اخترقتْها أكثر من ثلاثين رصاصة في أقلّ من عشر ثوانٍ، استقرّت

الرّصاصات الثّلاثون في جسدها، بينما كان الدّم يخرج نوافير من جسدها، لم تُصِبْ رصاصةٌ واحدةٌ الأولاد، لكنّ الجنديّ، دار من الخلف، وأفرغ ثلاثين رصاصةً أخرى في رؤوس الأولاد الثّلاثة، تفجّرتْ أدمغتهم، طار دماغ كلّ واحدٍ منهم وارتطم بالجدار وسال عليه، وأنا وقعتُ مغشيًّا عليّ. ظنّوا أنّني مِتّ، وحينَ أفقتُ في اللّيل كان كلّ شيءٍ قد انتهى». حضنتُه، وبكيْنا معًا، كان جسدُنا الملتحم يرتجّ، كان الهواء الّذي سمع الحكاية يئنّ هو الآخَر، قال فؤاد: «أريدُ أنْ ألتحق بصفوف المناضلين لأنتقم». كنتُ أريدُ أنْ ألومه، أنْ أقول له: «آلآن؟». ولكنّني انخرسْتُ. ذهبتُ به إلى كتيبة عمّي هارون، قلتُ لهم: «هل تقبلونه بينكم؟».

قبل أيام توجّهَتْ من بِئر السّبع إلى معسكراتنا في القُدس قافلةٌ من الشّاحنات الكبيرة، الشّاحنات الّتي يتّسع صندوقها إلى أطنان من الأطعمة والأسلحة. كانت قد حمّلتْ ما تركه الإنجليز وراءهم في بئر السّبع، وجاءتْ لتسندَ قوّات الجيش العربيّ بالمؤن والسّلاح. في الطّريق حاصرتْها العصابات اليهوديّة. خرجوا من الرّمل، رمل الصّحراء، كم يُشبه رمل سيناء، هم أبناء سيناء هؤلاء، فلئن تاهوا هناك، فقد أرادوا أنْ يجدوا أنفسهم هنا.

طلبَ منّا القائد الذّهاب لفكّ الحصار عنها، من أجل أنْ نحضرها إلى القدس، ثُمّ إلى عمّان. توجّهنا إلى بئر السّبع في ثلاث قوافل مدرّعة. كنتُ أسيرُ في مدرعّتي خلف الدّرع الثّاني، ولمّا وصلْنا إلى طلعة العرّوب قرب الخليل، توقّفتْ مدرّعتي. نزلتُ منها، فاكتشفتُ أنّ محرّكها قد تعطّل، كان الموتور يخلط البنزين بالماء، فخنفر كأنّه رجلٌ هَرِمٍ يهوي، ثُمّ

هَمَد. ركبتُ المدرّعة الّتي تسير خلفي، وأمرتُ السّائق وضابط الصّفّ وحارِسَين أنْ ينتظرونا في المدرّعة المُعطّلة ريثما نعود من مهمّتنا، وتابعنا مسيرنا، كدنا نُشوى في داخل المدرّعات بسبب حرارة الجوّ، المَطَرة الّتي تستقرّ على جانبي يغلي فيها الماء هي الأخرى، هل كان إعلان الحرب بداية جهنّم؟ مررْنا بمفترقات كثيرة، وطرق متعرّجة داخل بيت جبرين، وبعد مسير أكثر من ثلاث ساعاتٍ في الشّمس وصلْنا إلى القافلة، وذُهِلتُ لحجمها، كان هناك حوالي مئة شاحنة عملاقة تنتظرنا مُتخمة بالطّعام والسّلاح. عُدْنا أدراجَنا قاصدين القدس، ومن قصد القُدسَ استقلّ غيرها، أمرني القائد أنْ أسير مع مدرّعات صفّي خلفَ القافلة لحمايتها، وسارتْ بقيّة المدرّعات أمامها، عندما وصلْنا إلى مدخل مستعمرة كفار عصيون، خرج إلينا اليهود من الكمائن، كانوا يبدون من بعيدٍ بلباس العصابات الأسود كالنّمل، وبدؤوا بإطلاق النّار من الرّشّاشات ومدافع الهاون، احترقتْ شاحنة، فثانية، فثالثة... الملاعين يعرفون كيفَ يُصوّبون، أصابتْ قذيفة هاون مدرّعتي، انقلبت بشدّة على جانبها، قبل أنْ تقفز في الهواء لشدّة ارتطامها بالأرض، كنتُ خارجَها، رصاصةٌ أو شَظِيّةٌ أصابتْ ذراعي، رأيتُها تحترق، أطفأتُها بالرّمل، وبدأتْ النّيران تتهاوَى من الطّرفَين على الطّرفَين، كانت الأصوات تخترق الفضاء، تدوّي، انفِجار هُنا، انصِعاق، ارتجاج، رمال تشكّل سحابةً في الفضاء، أشلاء تتمزّع، صِياحٌ هناك، وصوتٌ شممتُ فيه رجاءَ الحياة الهاربة: «أنقذني يا مشهور». هُرِعتُ إليه، كان يلفظُ أنفاسه، أشار بإصبعه إلى وسطي، ثُمّ مرّر إصبعه على شِفاهه المُتيبّسة، تناولتُ المطرة، سقيتُه، هبطتْ دُفقة الماء على شفتَيه، ارتاح، ثُمّ ارتخى

جسدُه بالكامل؛ ماتَ وهو ريّان.

صاح القائد بنا أنْ نسير رغم الرّصاص الّذي ينهمر فوقنا كأنّه حديدٌ مُذاب، وأنْ نُشاغلهم بالرّدّ بالمدافع ريثما نجتاز هذه المنطقة الضّيّقة الواقعة تحت مرماهم، لكنّ نداءَه لم يكنْ بأثمنَ من نِداء الحياة، لم يستجبْ له أحدٌ، نزلَ السّوّاقون من مدرّعاتهم، وارتموا على الأرضِ تحتها يحتمون بها من الموت الهاجم نحونا على شكل رصاصات! سقطَ (عايد)، أحد أولاد عمومتي، لم يُمهله خيطُ الحياة المُتبقّي فيه أنْ يطلبَ شربةَ ماءٍ قبل أنْ يموت، وصلتُ إليه متأخّرًا، وأنا أطلق النّار من رشّاشي باتّجاه المُستعمرة وأنحني حتّى لا تجد رصاصةٌ طريقَها إلى عنقي أو صدري، جثوتُ على رُكبَتَيّ، غسلتُ وجهه بما تبقّى معي من ماء، قبّلتُه على جبهته، وقمتُ. صياحٌ وهلعٌ في كلّ مكانٍ، نحن نتساقط كأوراقٍ يابسةٍ واحِدًا خلف الآخَر، كنتُ قد بدأتُ أشعرُ بآلامٍ في ذراعي، كانتْ شديدةً لا تُحتَمل، الدّماء تثعب منها بشكلٍ متدفّق، كأنّها عينٌ متفجّرة، مزّقتُ جزءًا من شماغي، وربطتُه على موضع الجرح، سرعان ما امتلأ بالدّم. ومال لونه إلى السّواد.

لم نستطع أنْ نتحرّك من أماكننا مترًا واحِدًا، عرفتُ أنّه لا فائدة من الهروب برتل الشّاحنات هذه، وأنّ الخيار الوحيد، أنْ نقاتل حتّى آخر جنديّ، أو يكون للقدر شأنٌ آخَر. صحتُ: «الموت ولا المذلّة». وبدأنا نُقاتل. فرغَ رشّاشي، تناولتُ رشّاشات الشّهداء، كان أربعة من أبناء عمّي من آل الجازي قد استُشهِدوا إلى الآن. الأحرار يموتون هكذا. الأحرار لا يموتون في بيوتهم. بيوتهم هناك بعيدةٌ جدًّا من هنا، في الرّشاديّة أو الجفر، في الجنوب القصيّ، بعيدةٌ لا أحدَ يعرفها أو يراها،

لكنّها حاضرةٌ هنا، لأنّ هذا التّراب الّذي نموت عليه الآن حاضرٌ في كلّ قلب... الملاعين لا يُمهلوننا لحظةً لنلتقطَ أنفاسَنا، يبدو أنّا وقعنا في فَخّ مُحكَم، وأنّنا نحوص في أماكننا مذعورين، ولكنّ نداء الحياة حتّى وأنتَ ترى الموتَ أمامك يظلّ يطرق سمعك، إنّنا نحاول أنْ نحيا كما نريد، ونموت كما نريد، ولن نسمح لهم أنّ نحيا أو نموت كما يريدون. قلتُ لهم: «النّصر صبرُ ساعة، ولن نستسلم بطريقةٍ مُخزية. إذا كان لا بُدّ من الاستِسلام، فلا تُسلّموا لهم أنفسكم إلاّ شُهداء»، ودبّتْ فينا العزيمة من جديد، كأنّ الله يبعثُ نسمةً ما علويّة من عنده، فإذا دخلتْ أرواحنا واستقرّتْ في قلوبنا صنعْنا الأعاجيب. استمرّت المعركة حوالي ثماني ساعات، من الواحدة ظهرًا إلى التّاسعة مساءً. كانت المعركة في نهايتها، بدأ صوتُ الرّصاص يُسمَع متقطّعًا، اليهود يعودون إلى داخل مستعمرتهم، هل نفدتْ ذخيرتهم؟ ربّما. هل تعبوا؟ ربّما. هل هي هدنة؟ ربّما. لا أحدَ يعرفُ ما يجري. ولكنْ يبدو أنّنا قد أحدثْنا ممرًّا عبر هذا الفخّ يُمكننا أنْ نواصل فيه السّير. وهذا ما صار، حملْنا شُهداءَنا وجرحانا في السّيّارات، كان الزّملاء يقذفون بهم في قلب إحدى الشّاحنات، هُرِعتُ إليهم، صرختُ بهم:«ماذا تفعلون؟ لا تحملوا الشّهداء هكذا كأنّكم تحملون جُثثًا أو موتى؟ هل جُننتُم؟». واقتربتُ من أحد العساكر الّذي حمل شهيدًا وهمّ أنْ يُلقيه في الشّاحنة كما لو كان يُلقِي جوالاً من التّراب، أو كيسًا مليئًا بالحجارة، وكدتُ أصفعه، وتراجعتُ، وأخذتُ منه الشّهيد، وحملتُه بين ذراعَيّ برفق، كان خفيفًا كنسمة، وشذيًّا كوردة، ومُشرق الوجه كأنّ البدر حلّ فيه، وكان جسده طريًّا، وجرحُه ما زال ينزف، ولولا أنّه لم يكنْ يتنفّس لظننتُ أنّه حَيّ.

وقفزتْ صورةٌ ما من زمنٍ بعيدٍ إلى ذهني وأنا أنظر إلى وجهه، وشعرتُ أنّني أعرفُ هذا الوجه، أعرفه تمامًا، وأنّه قريبٌ جِدًّا منّي، ودقّقتُ النّظر فيها، وغُصتُ عميقًا لأستخرجه من الذّاكرة، وكان وجهه كلّما عُدتُ بذاكرتي لأستخرجه منها فتحَ لي بابًا جديدًا ليُعينني على أنْ أعرفه، وعبرتُ ممراتٍ كثيرة في تلافيف دماغي، ورُحتُ أُسرِع في العبور، حتّى التقيتُ به، وتوقّفتُ، رأيتُه، إنّه هو، وأمعنتُ النّظر فيه ثانيةً، نعم، إنّه هو، (مَتْروك) الّذي صَلَبَه الأستاذ على سارية الكُتّاب، وكفر بالدّراسة من يومها، وسمعتُ صوتَه، ذات الصّوت، وأنا أحتفظ في ذاكرتي بصوت كلّ الّذين قابلتُهم في حياتي، سمعتُه يقول: «إنّه أنا، وإنّني قد سبقتُك على الدّرب، فلا تنكص».

وسقطتْ دمعةٌ من عيني فوقعتْ على خدّه، فرأيتُ شفتَيه تتحرّكان في ابتسامةٍ هادِئة، هل تحرّكتْ شفتاه بالفعل؟! وضممتُه إليّ، ورُحتُ أنتحب.

عُدنا إلى طلعة العرّوب، لنأخذ أفراد المدرّعة المُعطّلة الّتي تركْناها هناك. ولكنّنا لم نجدْ غير الدّم، وبعضَ ملابس جنودنا المُمزّقة، والمدرّعة وهي تحترقُ في حلكة الليل. علمْنا أنّ مجموعةً من الهاغاناه حاصرتْهم، وحدثَ إطلاق نارٍ بينهم، قُتِلَ سائق المدرّعة والضّابط، وأُسِر اثنان آخران.

كنتُ سأكون هذا الضّابط الّذي قُتِل لو بقيتُ هنا، وشعرتُ بالأسى؛ كأنّني أنا الّذي بعثتُ إليه بالموت حينَ تركْتُه هنا ومضيتُ إلى غايتي، هل يُمكن أنْ يبدّل الموتُ ضحيّته؟ هل يمكن أنْ يهبَ أحدُنا جسده للموتِ نيابةً عن آخَر؟ وهل الأجل محتومٌ على مَنْ نظر الموتُ في

عينَيه، وتركَ مَنْ لم ينظر فيهما؟! وأنا؟ كيفَ عرفتُ أنّني سأنجو مع أنّ الموت كادَ أنْ ينظر في عينَيّ لولا أنّني سارعتُ بالنّزول من العربة؟!

ومضينا إلى القُدس. وكانت القُدس يومئذٍ حبيبةً مُشتهاة، لم ترها عيني من قبلُ، ولكنّها لم تغبْ في أحاديث كلّ من رآها وأخبرَ عنها؛ فهل يكون العِيان على قدر الخَبَر؟

***

(21)

في الحرب

هويتُ ساجِدًا أوّل ما تراءى لي سُورها القديم، جثوتُ على رُكبَتَيّ كما لو كانتا غيرَ قادرتَين على حَمْلي، ثُمّ انحنيتُ انحناءة المُتيَّم، وعفّرتُ جبهتي بترابها، وتلوتُ آيةَ العشق، وبكيتُ كطفلٍ.

مضينا راجِلِين، للقُدس رائحة الشّهادة، طعنةٌ في القلب ووردة، يُمكن من هنا أنْ تقرأ التّاريخ، أنْ تعرفَ بوّابات الخلود لا بوّابات القدس، فالأخيرة حجارة، والأولى روح.

مشيتُ وَلِهًا مأخوذًا، شعرتُ بأنّ الأرض ترفعني إلى الأعلى، خفيفًا كطيف، لا يُمكن أنْ تدخل هنا دون أنْ تهبَ لما ترى قلبَك، هوينا باتّجاه باب العمود، الباب الّذي تفتح السّاحة الّتي أمامه لكَ ذراعَيها مُرحّبة، شعرتُ وأنا أنظر إلى ارتفاعه الشّاهق، وقوسه الأخّاذ، وحجارة ساحته المرصوفة، والأعمدة الصّغيرة الّتي تسمو فوقَ سوره كأنّها مآذنُ صغيرة، شعرتُ بأنّني أهمّ بالدّخول إلى تاريخٍ جديدٍ، كان الباب يبدو لي فاصِلاً بين تاريخَين، وبينَ زمنَين، وبين عالَمين، لكأنّ من يدخله سيغيبُ في السّحر لدرجة أنّه سيُخامره يقينٌ بأنّه ودَّع العالَمَ الأرضيّ بكلّ ما فيه من أسى وولج إلى العالم العُلويّ بكل ما فيه من السّكينة والرّضا. كانت القُدس عروسًا في لُجّة السّحر.

هُنا التّاريخ، والعَظَمة، والجَمال، وعلى المرء من أجل رؤية كلّ هذا

أنْ ينظر بقلبه. دخلْنا البوّابة العالية وانفتح في الدّاخل لنا عالَمٌ أشدّ إدهاشًا وإجلالاً.

السّاحة الفسيحة، السّاحة الّتي درجَتْ عليها في لحظةٍ كونيّة فارقة أقدام الأنبياء جميعًا، هنا إبراهيم وموسى وأحمد، يحملون صُحُفَهم ويتلون ما تيسّر، هنا زكريّا يقول لمريم: «أنّى لكِ هذا». وهي تقول: «هو من عند الله». كانت القُدس كُلّها من عند الله! وهنا عيسى يقول ليحيى: عمّدْني بماء الأردنّ، ويقول للمؤمنين: «مَنْ يملكْ قميصَين فلْيمْنحْ واحِدًا للّذي لا يملك شيئًا، ومَنْ يملك طعامًا فلا يدع جارَه جائِعًا». وهنا أنفاسُ الرّسل والشّهداء والعُظماء وكلّ مَنْ عشق فنذر دمه لها مهرًا.

لكأنّني أسمع صيحات الثّائرين من هنا، واستغاثات المكلومين تخرج من بين شقوق التّراب، ومن تحتِ صخور الحجارة الّتي تنام على هذا الثّرى منذ آلاف السّنين.

لكأنّني أسمع (باليان) يقول لصلاح الدّين بعد معركة التحرير الأخيرة: «الآن دوركَ يا صلاح الدّين وقد انتصرت، فاقتلْنا عن بكرةِ أبينا كما قتلْناكم»، فيردّ عليه: «ولكنّني لا أُشبهكم... أنا صلاح الدّين؛ جئتُ لأستعيد محبوبتي، لا من أجل أنْ أُسيل الدّماء على ثراها». هنا اعتزل الفلاسفةُ النّاسَ في التكايا والبوائك والمدارس من أجل أنْ يُعيدوا للدّين روحه، وهنا أنا... ها أنذا أرى القُدس... وأرى هذا النّهر الممتدّ من التّاريخ الّذي لا يكفّ عن التّدفّق!

كيفَ يُمكن لمدينة أنْ تأسرك كما تفعل هذه الرّائعة، أنّى لحجارةٍ أنْ تجعلك منخطفًا، لا تدري كيفَ تمر الأيّام، ولا كيفَ تنقضي السّاعات،

مثلما تفعل هذه السّاحرة؟ تلك هي القُدسُ، نور الله الّذي لا ينطفئ، وجذوة أنبيائه الّتي لا تخبو.

أقمتُ في القدس ثلاثةَ أيّام، حتى وردُها على جُرحي، ورطّب نسيمُها ألمي، وأعادني وجهُها إلى نفسي. كانَت يدي قد بدأتْ تتقيّح، الجرح لم يُنظّف، وقد رُمّ على فساد. ولم أكنْ قد ذهبْتُ إلى مستشفى بعدُ، شغلتْني القدسُ عن نفسي. وحُقّ لها ولي.

ركبْتُ سيّارة عسكريّة أخذتْني إلى إربد. مكثتُ فيها فترةً لكي يُعالجوا جروحي. لم أعدْ إلى كتيبتي، كانت الحربُ قد بدأتْ، أعلنتْ سبعُ دولٍ أنّها ستخوض الحرب ضِدّ كِيانٍ هجين، لم يُعلنْ نفسه دولةً إلاّ من يومٍ واحدٍ أو ساعات. هل هناك مهزلة من نوعٍ ما؟ حضر صوتُ جدّي. لم يعدْ بإمكاني أنْ أفعل شيئًا باستثناء الالتِحاق بصفوف القِتال. وأنشدتُ مع عبد القادر: «ناوليني السّيفَ أُمّي ناوليني». وكانتِ الجيوش تتجمّع في الشّونة في غور الأردنّ.

في طريقي إلى سريّتي، كنتُ أسمع الإذاعات العربيّة، وهي تتوعّد بابتِلاع الكيان الغاصب. كان المُذيع ذو الصّوت الأجشّ، يقول: «ماذا يُمكن أنْ تفعل دُوَيلةٌ لقيطة أمام سبع دولٍ وجيوشها الجرّارة؟». لقد ظلّ هذا السّؤال عُقدتي إلى اليوم!

في الطّريق جاءني صوتُ (غلوب)، يبدو أنّه سَبقَنا إلى الشّونة، كان صوتُه هادِئًا وواثِقًا، ويتحدّث معي على اللاّسلكي: «أنا لستُ مطمئنًّا يا مشهور». فاجأني اتّصاله في البداية، ثُمّ فاجأني حديثُه بهذه الصّورة، لم أقلْ حرفًا واحِدًا، كنتُ لا أدري عمّ يتحدّث، ولا ماذا يريدُ أنْ يقول، لم يدع حيرتي تزداد، فقد أردف: «الجيوش العربيّة لن تنتصر في الحرب».

أرجعتُ اللاسلكي عن أذني، وعضضتُ على شفتيّ، لأتأكّد من أنّني لا أحلم، وبأنّني بالفعل أسمعُ صوتَ الرّجل الأوّل في جيوشنا السّبعة، ومرّة أخرى لم يتركْني للحيرة كي تبتلعني، فأكمل: «أشعرُ بأنّ الجيوش العربيّة سيُقاتِلُ بعضُها بعضًا بدل أنْ يُقاتِلوا اليهود». وصدر صوتُ تشويشٍ طويل. ثُمّ بدأ الصّوت يصفو، وسمعتُه يقول: «لقد أرسلتِ الوكالة اليهوديّة برقيّة إلى الملك تستنكر فيها مذبحة دير ياسين، وتُلقي باللّوم على عصابات شتيرن والأرغون، والمَلِك...» وعاد التّشويش مرّة أخرى، وانقطع الصّوتُ نهائيًّا. وهززتُ رأسي، ونظرتُ أمامي حيثُ السّائق، ولكزتُه بطرف اللاسلكي، لأتأكّد مرّة أخرى من أنّها ليست هلوسات بسبب الجرح الّذي أصبتُ به. وراحت السّيارة تتهادى في الطّريق، وإذْ دخلْنا شارِعًا غير مُعبّد مليءٍ بالحجارة راحت السّيّارة ترتجّ، وراح رأسي يهتزّ، للحقيقة هلوساتُها هي الأخرى!

كان ذلك يوم الجمعة في الرّابع عشر من أيّار عام 1948م، تجمّعْنا في الشّونة على مبعدةٍ قليلةٍ من جسر (اللنبي) في السّاعة الرّابعة ظهرًا، وجاء الملك ليخطبَ فينا، ووقفَ عن يمينه (غلوب)، وكان حنكه يومَها أكثر ارتِخاءً من كلّ المرّات السّابقة الّتي شاهدتُه فيها، ولم يكنْ قد عادَ منذ سنين إلى لبس الشّماغ الأحمر، بل صار يلبس الطّاقية العسكريّة الخاصّة بالضّباط، والّتي تُشبه قارِبًا مقلوبًا. ورأيتُ عن يساره القائد (عبد الله التّل) الّذي سمعتُ عنه كثيرًا. وحينما أرادَ الملك أنْ يخطبَ فينا، هبّتْ رِياحٌ عاصِفةٌ قويّة، ولم يكنْ هذا موسمَها ولا وقتَها، وخاصّة في غور الأردنّ الّذي تسكنُ فيه الرّيح في هذا الشّهر وترتفع فيه درجة الحرارة، ولكنّ العاصفة عنّ لها أنْ تُزمجر أكثر، ورأيتُ شفاه الملك

تتحرّك، ولم نسمع ما يقول، لكنّنا مع خسارتنا لِخطابه في تلك اللّحظات العجيبة، فإنّنى استطعتُ أنْ أحصل على عبارةٍ ما زالتْ ترنّ في أذني: «أوصيكم بالطّاعة يا جنودي»، وأشار إلى غلوب، وأكمل: «فهي عِمادُ الجيش». ورأيتُ عددًا من الجنود الصّغار ينحنون ويلثمون يده، وطرفَ رِدائه.

وغادر الملك إلى عمّان، وهدأت العاصفة، وخيّم وجومٌ على الكتائب الخمس الموجودة بألويتها المدرّعة ومُشاتها جميعًا. وكانتْ قد سبقتْنا إلى القدس كتيبتان أُخرَيان، وبدأ الجميع يُدرك الموقف عند انسحاب الشّمس جهة الغرب، لكي تختبئ خلفَ جِبال فلسطين، هل تخجل الشّمس فتغيب؟!

وفي الثّامنة من مساء ذلك اليوم، قال لي (غلوب): «الجيش إذا دخل معركة القُدس فسيُسحَق». فسألتُه: «كيف؟». فردّ: «إنّ أكثره من البدو، والبدو لا يعرفون حروب المدن». ونظرتُ إلى نابَيه اللّذين يسقطان من طرفَي فمه، وشعرتُ بأنّ كلماته خرجتْ من هناك. في السّاحة الخارجيّة الّتي تجمّعتْ فيها الجيوش وما حولها تنتظر ساعة الدّخول عبر النّهر إلى فلسطين للحرب، سمعتُ أصواتًا ولهجاتٍ كثيرة، كان الجيش الأردنيّ يهتف بحماسةٍ عالية: «أبو طلال لا تهتَمْ... سيفكْ أحمر ينقّطْ دَمْ». ويدبكون على الإيقاع الّذي يصدح به جنديّ ذو صوت جهوريّ، ويردّده من بعده الجيش في دويّ مرعب. وسمعتُ جنود الجيش العراقي يهتفون: «مال يهودا نِنْهَبْها... ودم يهودا نشربْها». وكانوا يرقصون كذلك. وسمعتُ جنود الجيش السّوري يصرخون: «دين محمّد دين السّيف... خلّ السّيف يقول». وكانوا يتمايلون أيضًا.

ومع كلّ هذا اللّغط، كنتُ أرى (غلوب) ومعه عشرات القادة الإنجليز صامتين، كان يُمكن لكلّ هذا الهِياج أنْ يتوقّف لو أراد (غلوب) أنْ يُصدر أمرًا بذلك، لكنّه لم يفعل. كان يجلس في مكتبه بهدوء وينظر من شُبّاكه في اللّيل على مزارعِ الشّونة الممتدّة والمحاذية للنّهر، وهو سارحٌ في خيالٍ بعيد. كم هي القُدس بعيدة!

بحثتُ عن (عبد الله التّل)، كان يجلسُ وحيدًا، تحت نخلةٍ، يسند ظهره إليها، يتناول حصًى من الأرض، ويرميه بصمتٍ. كنتُ في أوائل العشرين من عمري، وكان هو في أوائل الثّلاثين، كنتُ أسمع عن شجاعته، وعن عقيدته القِتاليّة، وعن حماسته، لكنّني في تلك اللّيلة رأيتُ وجهًا آخر منه، اقتربتُ منه، وسألتُه: «كيفَ ترى الأمور؟». فردّ دون مقدّمات: «إنّهم يُقدّموننا قربانًا». ولم أفهم، فسألتُه: «مَنْ تعني؟». فردّ بكلمة واحدة: «الأنظمة». واستوضحتُ منه، فالتفتَ إليّ وقال: «أتعرفُ كم عدد جيوشنا السّبعة الّتي سمعتَ هياجها وصِياحها قبل قليل، الجيش الأردنيّ والمصري والعراقي والسّوري واللّبناني والسّعوديّ وجيش الإنقاذ، ومعه جيش الجهاد المُقدّس، كلّ هؤلاء لا يزيدون عن عشرة آلاف، واليهود الّذين نُسمّيهم عصابات، يملكون أكثر من مئةٍ وعشرين ألف مقاتلٍ... ما معنى هذا يا مشهور؟». ووجمتُ، لم يكنْ لديّ أيّ جواب. لكنّه قال: «هل تعتقد أنّهم يريدون تحرير فلسطين بهذه الطّريقة أم تسليمها؟ هل تعتقد أنّهم يريدون لنا نحن أفراد الجيوش السّبعة أنْ نقاتل أم ننسحق، إنّهم يبعثون بنا إلى مجزرة يا مشهور؟ إنّهم يُلقون بنا إلى مذبحةٍ جماعيّة! أرأيتَ إلى شليّة من الأغنام تُحبَس في زريبةٍ ثُمّ تمتدّ إلى أعناقها آلاف السّكاكين؛ ها نحن».

ولم أرَ بؤسًا ولا يأسًا في وجه رجلٍ كما رأيتُه في وجهه ذلك اليوم، وأخذتْني بعضُ الحميّة فقلتُ: «ولكنّ هذه النّفسيّة ستُحطّم جيشنا». فردّ: «جيشنُا لا يدري شيئًا، وسيبقى لا يدري شيئًا، أمّا أنا وأنتَ والّذين يعرفون فعلينا أنْ نقاتل حتّى حزّ الحلاقيم، هذا قَدَرُنا ولا فِرار منه». ووقف على قدمَيه، وقبل أنْ يمضي بعيدًا، قال وهو ينفثُ هواءً حارًّا من صدره: «أتعرفُ كم عدد القادة الّذين سيخوضون المعركة ضدّ اليهود؟ إنّهم خمسةٌ وخمسون قائدًا، ليس بينهم من العرب إلاّ خمسة، والبقيّة إنجليز، وغلوب القائد العامّ إنجليزيّ، ولا أحد يستطيع أنْ يشرب كأس ماءٍ واحدةٍ دون الرّجوع إليه... هل هذه حرب تحرير أم حربُ تدمير... أم حرب تسليم؟!». ومضى، ورأيتُ ظهره قد انحنى كأنّ جبلاً من الهمّ قد أناخَ عليه!!

في السّاعة العاشرة ليلاً كان المُعسكَر كلّه هادِئًا، أكثر من نصف الجنود غَطُّوا في نومٍ عميق، لم يكنْ يُسمَع إلاّ نقيق الضّفادع يتناهَى في سُكُون اللّيل من خلف الأشجار. جمَعَنا (غلوب)، نحنُ قادةَ الفِرق والكتائب والألوية وأركان الحرب، وقال: «إنّ الجيش سيدخل بعد السّاعة الثّانية عشرة إلى فلسطين عن طريق جسر اللّنبي – أريحا – الجفتلك – نابلس. وإنّني حدّدتُ للجيش الموضع الّذي سيُعسكر فيه، وأيّ واحدٍ يخرج عنه فسيتعرّض للمحاكمة العسكريّة، وإذا مررتُم بالقرى في طريقكم فلا تطلقوا رصاصة واحدةً في الهواء، لا نريد للنّاس أنْ يعرفوا قدومنا، ولا نريد للحماسة أنْ تدفعهم للمُشاركة في القتال، أو حتّى التّرحيب بنا، إنّهم سيكونون عبئًا ثقيلاً علينا. أمّا الكتيبة السّادسة فلن تقطع الجسر، ستبقى في الأردنّ خلف النّهر لتكون إسنادًا

لبقيّة الكتائب». وقلتُ لعبد الله التّل: «لقد اختار الطّريق الطّويلة، لماذا لم يخترْ طريق أريحا – القدس فهي أقرب وأسرع؟». فنظر إليّ عبد الله التّل: «تستطيع أنْ تجد لذلك جوابًا إذا دخلتَ في عقل الرّجل، ولكنّ السّؤال الأصعب أنّه لم يَقُلْ لماذا نحن ذاهِبون إلى القدس، وماذا سنفعل في معسكراتنا، ولماذا علينا أنْ نلتزمها ولا نخرج منها أبدًا، إنّه لم يذكر الحرب أبدًا، هل نحن ذاهبون في نزهة؟».

بعد أنْ دخلْنا، عسكرتْ سريّتان في منطقة الخان الأحمر على طريق أريحا، وكان عليها أنْ تحفر الخنادق والاستِحكامات، وبناء أبراج المراقبة، وتحضير الألغام لنسف طريق القدس أريحا إذا بدأ القِتال، وخاصّة الجسور، لِتُعيق تقدّم اليهود إلى أريحا ريثما تصل النّجدات. وعسكرتْ كذلك سريّة قرب جسر دامِيا، لحراسته، وللانطِلاق من هناك لنسف الجسور الواقعة على طريق بيسان. وكان على سلاح الهندسة مراقبة طائرات اليهود وتجمّعاتهم في منطقة بيسان.

لم يكنْ أحدٌ في الجيش يعرفُ إنْ كانتْ هناك خُطّة للقتال أم لا. كانوا يتلقّون الأوامر، ولا يدرون ما خلف هذه الأوامر، استلم قيادة الجيوش كلّها (غلوب)، ولا ندري إنْ كانتْ لديه خُطّة لنا، أو خُطّة لهم. ولكنّنا كُنّا ننفّذ ما يقول بالحرف، وكان معه برود هارست، ونورمان لاش، وداونز، وجونز، وبيرس هاوس، وجولدي، وكورفيلد، وهايش، وآشتون، وبلاكدن، وواتسون، وسليد، وولسن، و... وعشرات آخرين من القادة وكلّهم إنجليز، حتّى زادوا على خمسين قائدًا، وكنّا نحن العرب لا نقطع دونهم أمرًا، وعلينا مهمّة سَهلة، حتّى لنكاد نسخر من سهولتها في أناشيدنا وأغانينا، إنّها تحرير فلسطين

فحسب، ومَنْ مِنّا لم يكنْ لِيُرِيدَ ذلك؟!

كلّ الأسلحة الثقيلة من المدفعية والمدرّعات كانتْ في كتائب يقودها الإنجليز، ولذا كان الحصول على إنفاذ طلقة مدفعيّة، يحتاج إذنًا من (غلوب)، وهو الوحيد القادر على أنْ يُقرّر إنْ كان في إطلاقها على الجيش اليهوديّ مصلحةٌ أم لا!!

وكان العالَم العربيّ قد علّق آمالَه كلّها على هذه الجيوش العربيّة الّتي ستُعيد له وطنه المغتصب، وكرامته المهدورة، وتقضي على العصابات الصّهيونيّة الآثمة.

كانت القُدس بعد انسِحاب القُوّات البريطانيّة منها قد سقط أكثرُها بأيدي اليهود، دمّر اليهود ممتلكات العرب، وعاثوا فيها فسادًا، وتمركزوا في أهمّ مناطقها، وراحوا يسخرون من الحرب، احتلّ اليهود بقتالٍ مُنظّمٍ من القدس معسكر اللّنبي والعَلَمين، ودير أبو طور، والنّبي داود، والمسكوبيّة، والمستشفى الإيطالي، ونوتردام، والمصرارة، وباب العمود، وسعد وسعيد، والشّيخ جرّاح. ولم يبقَ للعرب خارج السّور إلاّ باب السّاهرة ووادي الجوز، ومع أنّه كانتْ هناك هدنة، وموقّعة من الأطراف الثّلاثة العرب والصّهاينة والإنجليز، إلاّ أنّ اليهود كانوا يخرقونها، ويحتلّون في كلّ مرّة بالتّفجير وبالسّلاح جزءًا جديدًا من القُدس، ولم يكنْ من اللّجنة من ردّة فِعل سوى الاحتِجاج للجنة الهُدنة، والشّكوى للصّليب الأحمر، وكانت اللّجنة والصّليب يُعلنان أنّهما ليسا جيشًا ولا يستطيعون منع اليهود من شيءٍ!

وتذكّرتُ باب العمود، واستحضرتُ صورتَه يومَ رحّب بي قبل أسبوع أو أقلّ، وظلّ شذاه عابِقًا في صدري، ولكنّ في صدري غَصّة

أخرى؛ كيفَ تسقط هذه الأحياء بيد اليهود بهذه السّهولة؟ هل خَلَتِ الدّيارُ من أهلها؟ وكانت هناك ألفُ إجابة وإجابةٍ مُقنعة، ولكنّني كنتُ أتصامم عنها.

ولم تُحرّك الجيوش الّتي رابضَتْ على مقربةٍ من القُدس ساكِنًا، وظلّتْ تنتظر أوامر (غلوب)، وكانت صرخات الاستِنجاد الّتي تأتينا من الأهالي تكاد تثقب القلوب قبل الآذان، ولكنّنا لم نفعل شيئًا، وكان (غلوب) يردّد في كلّ مرّة: «إنّني أريدُ أنْ أحمي جيشي، نحن جيش مُنظّم ولسنا عصابات، والحِكمة الّتي تُنقذنا لا التّهوّر، ولن يراهن أحدٌ على إخلاصي لجيشي ولمهمّته الشّريفة». ونفد صبرُ بعض الجنود مِمّا يحدث، فقرّر بعضُهم التّسلّل من ثكناته العسكريّة سِرًّا، والتّطوّع في المجموعات النّضاليّة الصّغيرة الّتي تُدافع عن القُدس، ولم يكنْ من مناصٍ للتّحرّك إلى القدس، حتّى ولو بدون إذن (غلوب)، فلم يعد الأمر يحتمل السّكوت.

وكان عمّي هارون الجازي، وخالي نائل، ما زالا يُقاتِلان، لم يهدآ منذ أن انخرطا في هذا النّضال، وتبعهما عددٌ من المُتطوّعين الآخَرين، وكانوا قادرين على أنْ يُحقّقوا ما عجزتْ عنه الجيوش. وعلمتُ أنّ الأمر إرادة لا أكثر، وأنّ الجيش سيبقى مرهونًا بإرادةِ عدوّه الّتي ستشلّه وستقضي عليه.

وبدأ (عبد الله التّلّ) يُحرّك الكتيبة الّتي يقودها باتّجاه القُدس، وتدخّل (غلوب)، ومَنَعَه من ذلك، ولكنّ (عبد الله التّلّ) أصرّ أنْ يسير بمن معه، وسحبَ (غلوب) إحدى السّرايا التّابعة له، وخذّلها، وأمرها أنْ تبقى على جسر (داميا) تنتظر أوامره، فالتزمتْ بذلك. واكتفى (عبد

الله التّلّ) بسرايا المُشاة الثّلاث الّتي معه، وسار بها طروبًا إلى القُدس.

بعضُ المعارك لا أسماء لها، تكتسب اسمَها من المكان الّذي دارتْ فيه، بعضُ المعارك لا تُكتَب في التّاريخ لأنّها هزائم، بعضُها يُضخّم، بعضُها يموت، بعضُها يخلد، بعضُها يُنسَى مع الزّمن، وبعضُها يُنسَب إلى قائدها لعَظَمته، كانت معركة (عبد الله التّل) في القُدس من النّوع الأخير.

* * *

(22)

باب الواد

كُنّا على الجسر، لا أدري أيّ جسرٍ! ولكنّه جسر؛ من ذلك النّوع الّذي ينقل النّاس من ضِفّة لأخرى، وهل الجسور تفعل شيئًا آخَر؟ ولم أدر على أيّ ضِفّة كُنّا، ولا إلى أيّ ضِفّة نمضي؟ كان كلّ شيءٍ يبدو من خلال ضبابٍ كثيفٍ، إنْ تحرّك جزءٌ منه وكشفَ عمّا وراءه، سرعان ما غطّاه جزءٌ آخَر فعاد لا يُرى، لم يكنْ أحدٌ منّا نحن القادة العرب يدري إلى أيّة أهدافٍ يرسلوننا، ولا ماذا سنفعل بعد أنْ نصل. وكتبتُ ملاحظةً أرسلتُها إلى (آشتون): «هل نحنُ آتون للنجدة فقط أم للحرب؟» ولم يأتِني جوابٌ. بعد وصولنا، وزّعونا على مناطق متعدّدة، بعضُنا تمركز حول سورٍ لا يدري ما هو، آخرون في قرية، وغيرنا في دَيْرٍ سمعْنا من خلف أسواره التّراتيل الكَنَسيّة، بل إنّ بعضَ قُوّاتنا ذهبتْ لتتمركز حول زريبة أغنام!! ولم يكنْ أحدٌ يعرفُ كيفَ يتّصل بالآخَر، واستبدّ بي الغضب، وكتبتُ من جديد إلى (آشتون) هذا: «هل هذه مراكز عسكريّة يجدر بنا أنْ نقيم فيها، أين نحن من القتال؟». وجاء هذه المرّة آشتون بنفسه، ونظر إليّ من خلف كبريائه بعينَين بليدَتين، ومدّ إليّ الكتاب: «هذا خَطُّك؟». فقلتُ له: «نعم». ستعود إلى الخُطوط الخلفيّة، ولو فعلتَها ثانيةً فسأعيدكَ إلى إربد! ولم أكنْ أدري أنّ هناك خطوطًا أماميّة لكي تكون هناك خطوط خلفيّة. ولكنّهم حرّكوا الحجر الّذي

كانني إلى مكانٍ آخَر. وهكذا نحن؛ أحجارٌ هنا، وأحجارٌ هُناك!

وانفرد (عبد الله التّل) قائد الكتيبة السّادسة بجنوده، وأراد أنْ يكسر حالة اللاّجدوى واللاّمعنى الّتي وقع فيها الجيش، فوقف أمامهم، وقال: «إنّ مصير العالَم العربيّ يتوقّف على ثباتكم وشجاعتكم وصبركم. إنّكم ولا شكّ ستُحافِظون على سمعة الجنديّ العربيّ الّذي إذا هاجَمَ لا يهابُ الموت، وإذا دافعَ لا يتراجع حتّى النّهاية. لقد دنت السّاعة الّتي تُمكّننا من الانتقام لدير ياسين الّتي انتُهِكتْ أعراضُنا بها. هيّا لتبييض أعراض العرب بالدّماء والله ينصركم». ولا أدري إنْ كان (عبد الله التّل) فعليًّا هو الّذي بدأ الحرب أم سواه. ولكنّ كتيبته بدأتْ تُقاتِل في القُدس، وهبّ جنودٌ عربٌ كثيرون سمعوا غَضبته، واستبسلوا في الدّفاع عن مدينتهم، وقاوموا حتّى آخر قطرة.

كانت (باب الواد)، وكان لها تاريخ، ويومٌ مشهود، إنّه اليوم الّذي ينقطعُ فيه الجُند عن أسباب الأرض، ليتعلّقوا بالسّماء، كقناديل، كنجوم، وربّما كغيماتٍ مُسافرة. باب الواد الّتي تبعد حوالي عشرين كيلومترًا غرب القُدس، تبدأ منها الطّريق إلى القدس، والطّريق إلى القدس هو الطّريق إلى الخلود، تتعرّج الدّروب، وتدخل بين جبلَين عالِيَين، قبل أنْ ينكشفا عن المدينة السّاحرة، من هنا، من هذه النّقطة، وبالذّات عند هذا المضيق الذّاهب إلى المدينة القديمة تمرّ القوافل اليهوديّة لتزوّد اليهود بالمؤن والسّلاح والدّواء، وكانتْ لا تمرّ إلا بحراسة إنجليزيّة شديدة.

وقف هارون الجازي أمام طليعته، وصرخ: «كيفَ استطاع اليهود أنْ يظلّوا في القُدس إلى اليوم؟». ظنّ الجنود أنّه يتساءل لا يسأل،

نظر في وجوههم علّه يجد إجابة، فلم ينطقْ أحدٌ بحرف. أعاد السّؤال: «لماذا تشبّث اليهود هنا بالأرض على أنّها الأرض الموعودة، يأتون من كلّ الأصقاع، ونحن نهرب، السّكّان يفرّون؟!». وقف نائل، وأجاب: «لقد بقروا بطون الحوامل في دير ياسين، لقد فجّروا المساجد، وروّعوا الآمنين، وأخافوا السُّكّان». ابتسم هارون: «هذا هو، إنّ سلاحهم ليس المدفع أو الرّشّاش بالدّرجة الأولى، إنّ سلاحهم الرُّعب، إنّهم يقذفون بهذا الرّعب في وجوهنا فنفرّ، في وجوه أهلنا فترتعد فرائصهم فيهربون، إنّ الرّعب جنرالهم الّذي ينتصر في كلّ مذبحة، يلوّحون به فنحني له رؤوسنا، ونخفض لها هاماتنا، ونولّيه ظهورنا. الرّعب أيّها السّادة الرّعب! ونحن؟ ألا نستطيع أنْ نستخدم معهم السّلاح نفسه، لماذا لا نزرع هذا الرّعب في كلّ خليّة من أجسادهم، لماذا لا نجعله يطلع لهم في الطّرقات، وفي الجسور، وفي الهواء، يتحسّسون جنوبهم كلّما خَطوا خُطوة، ويظهر لهم في الكأس حين يهمّون بشرب الماء؟ لماذا لا نفعل ذلك؟». صمتَ قليلاً، وطاف على أفراد طليعته، نظر في عيونهم واحِدًا واحِدًا: «اليوم سنرميهم بالرّعب». شدّ نائل البندقيّة على جنبه، شدّ الآخَرون بنادقهم في حالة استِعداد، بدا الصّوتُ الجماعي لأعقابها مَهيبًا كأنّها بندقيّة واحدة.

ها هي تقترب، إنّها قافلةٌ كبيرةٌ مزوّدة بما يكفي طليعتنا لأكثر من ستّة أشهر، يجب أنْ نقتل كلّ أفرادها ونستولي على كلّ ما معهم، نظر هارون في المِنظار، إنّها تقترب ببطء، تسير بكلّ هدوء، يبدو أنّهم لا يشعرون بالرّعب، وزّع الأفراد على ثلاث مناطق، تمركز عشرةٌ منهم في خندقٍ محفورٍ في فم المضيق الّذي تؤدّي انفِراجته إلى القدس، وقال لهم:

«إذا أُتينا من جهتنا، فلا يُؤتَيَنّ من جهتكم». وعشرةً لتبدأ المناوشة في آخر الطّريق، وعشرةٌ معه على التلّة الّتي تُشرف على الطّريق، سأل: «هل مدافع الهاون جاهزة؟». سمع صوتًا من خلفه لا يدري لِمَن: «ثلاثة مدافع». «هل المدافع تعرفُ أهدافَها؟». «كما تعرفنا».

تقدّمت القافلة، يبدو أنّ حراسَتَها خفيفة، لا أرى أكثر من أربعة جنود، تعجّب أنْ تكون قافلةٌ بهذا الحجم لا يحرسها إلاّ هؤلاء المرتزقة الأربعة، ظلّتْ تسير، تقطع الطّريق، كادتْ تدخل المضيق، كان عليه أنْ يُعطي إشارته، لكنّ مشهدًا في المنظار جعله يُؤخّر ذلك، حوّل المنظار عن الطّريق الأفعوانيّة، ورفعه قليلاً إلى الأعلى، إلى الجبل الآخَر، بدا له في التّلّة المقابلة شيءٌ ما يتحرّك، هل هي حيوانات، كلاب؟ أم أشجار؟ أم أشباح؟ دقّق النّظر؛ كلاّ إنّهم جنود. يبدو أنّه فَخّ. ولكنّه حافظَ على هدوئِه، طلبَ من المدافع أنْ ترمي باتّجاه التّلّة المقابلة، تناثرتْ كُبّة الجبل، طارَ الشّجر والبشر والحجر، إنّهم عشرات الصّهاينة، أزاح المنظار عن عينَيه، وقفز من الفرح: «أصبْناهم... أصبناهم...». تناثرت الأشلاء، والتحم الصّفّان، أصابت القذائف مُقدّمة القافلة، سدّ عليهم العشرة الّذين في فم المضيق الطّريق، ونزلوا إلى الشّارع، ودارتْ المعركة من نقطة الصّفر، دوّت الطّلقات، الرّصاص لم يسكتْ، القذائف لم تتوقّف، عَرَض قائد القافلة اليهوديّ الهُدنة. أرادَ هارون أنْ يُريح جنوده، لقد انتصروا وغَنِموا، فماذا بعدَ ذلك، لكنّ نائل، قال له: «تُصالِحهم، ولا زالتْ صرخات الضّحايا في دير ياسين تصكّ مسامعنا؟! لا والله». «لن أُصالحهم يا نائل، بل أُهادِنهم». «كلاّ، الهدنة مع هؤلاء المرتزقة كالصّلح خيانة». «إذًا، يستلسموا ونأخذهم أسرى،

ونُبادِل بهم أسرانا». «ما على هذا خرجنا من الرّشاديّة يا هارون يا أخي، لن تغرب شمسُ هذا اليوم إلاّ وقد أجهَزْنا على مَنْ تبقّى منهم». وتراجع هارون إلى الوراء، وقال: «إلى الخندق إذًا يا نائل، إنّ رصاصَهم سيقنص رأسَك». ووقفَ نائل، ورفَع صدره عالِيًا، ولوّح بشماغه في الهواء، ورماه بعيدًا: «هنا». وأشار إلى عنقه، «أنا لا أخاف، أنا أقودُ الخوف، أنا الّذي سأجعلكم تهذون به»، وكشفَ عن صدره، وسار حتّى لم يعدْ بينه وبين القافلة إلاّ أمتار، كان يُطلق من رشّاشه، وهو يصيح: «أنا ابن حمد.. أبي الّذي علّمني أنّ الموت في سبيل الله لحظةُ خُلود، لا نجوتُ إنْ نَجَوا». ورأى اليهود الموتَ قادِمًا نحوهم في هيئة رجل، فانحلّتْ رُكَبُهم، وبلغت قلوبهم الحناجر من الهلع، وكان يراهم أهدافًا سهلة، حشرات، مجموعة من الفِئران تهرب مذعورة، وهو يقنصها بسهولة، واعتلى الشّاحنة الّتي في مُقدّمة القافلة، وقتل سائِقها الّذي كان يختبئ تحت مِقودها، وقفز فوقَها، وقنصَ كلّ مَنْ في قلبِها، حتّى إذا أجهزَ عليهم، نزل إلى الثّانية، ولمّا ارتقاها، أردفَتْ معه البندقيّة، فرماها، ومدّ يدَيه، في تلك اللّحظة جاءتْه رصاصةٌ في الصّدر، غاصتْ بحُنُوّ داخله، وتحسّس صدره، وشعر بالرّاحة، إنّ دمه دافِئ، وقانٍ، ويسيل برفق، وله رائحة طيّبة، هل أكسبَه هذا المكان هذه الرّائحة؟ وانتبه لنفسه، وهمس: «ولكنّني ما على هذا جئتُ أقاتِل، ولا بهذه أُقتَل، بل على رصاصةٍ في العُنُق». وأتته الرّصاصة المُشتهاة، مرّت في الجهة اليُمنى من عنقه، وخرجتْ كأنّها أبتْ أنْ تسكنه كالرّصاصة الأولى. وسقط. سقط نائل، وكان لا يزال يمدّ يدَيه كأنّه يريدُ أنْ يحضن الموت، أو يرحّب بالزّائر الّذي طال انتِظاره.

لحقنا جدّي من الرّشادية، إلى مستشفى نابلس، حُمِلَ خالي نائل إلى المستشفى من أرضِ المعركة، كانت النّقّالة تهتزّ به والمُسعِفون يحملونه مُسرعين، كان قد بقي أكثر من ساعةٍ ينزف في ساحة المعركة حتّى فقد الوعي، وكان جسده يرتجّ، ودمه يسيل من فمه، وشعره الطّويل قد اصطبغ باللّون الأحمر الدّاكن، وعنقه مُغطّاة بالكامل بالدّم.

طلبتُ من آشتون أنْ يسمح لي بزيارة خالي المُصاب، ولكنّه رفض. كان جدّي في العَقد الثّامن، كان يحملُ تارِيخًا طويلاً من النّضال، وحينَ أرادَ أنْ يلتحقَ بكتائب المُتطوّعين في الحرب، كان أوّل خبرٍ تلقّاه هو إصابة ابنه فيها، سأل جدّي الطّبيب إنْ كان هناك أملٌ في أنْ يعود ابنُه للحياة، فهزّ الطّبيب رأسه بأسف.

كان وجه خالي ساكِنًا، لا شيءَ فيه يتحرّك، وجدّي فوقَ رأسُه ينظر في البعيد ويصمت، في الفجر فاضتْ روحُه. قرؤوا وصيّته: «إذا مِتّ فادفنوني تحت السّور قريبًا من الأقصى، أريدُ ألاّ تفوتني الصّلاةُ فيه». ماتَ خالي، وظلّتْ روحه تحت سور القدس، تحلّ عليها سكينة المكان، لم يكنْ يريد أكثر من ذلك، أمّا جُثمانه فليذهبوا به إلى حيثُ شاؤوا، فهو لم يعدْ له!

أخذ جدّي بندقيّة ابنه (نائل)، وأقسم أنْ يقاتل بها اليهود حتّى يلحق بابنه في عِداد السّماء، في ذلك المساء رأيتُه في اللّطرون، قلتُ له: هل هذه بندقيّته؟

أجاب: «نعم»، سألتُه إنْ كانتْ قد أردفتْ معه في المعركة، فردّ: «نعم، رصاصة واحدةٌ وقفتْ في بيت النّار، وأبتْ أنْ تخرج، لو خرجتْ لربّما كانتْ أنقذتْ حياته».

قال جدّي ذلك بتحسّر، احتضَنْتُه وقلت: «ولكنّها الّتي قدّمتْه إلى السّماء يا جدّي».

فصمت. وقلت: «أريدُ منك طلبًا يا جدّي».

فقال: «أعرف ما تريد».

فقلتُ: «وهل معك الشّبريّة؟». فبانتْ ابتِسامته، وخطّ على رصاصة الشّهيد الأخيرة، اسمي، واسم خالي نائل.

* * *

(23)

تلك هي الحقيقة

«لقد هُزِمنا!!». ليسَ هناكَ أوضح من هذه الحقيقة، كيفَ يُمكنني أنْ أقولها بطريقةٍ أخرى، هل هناك كلمة أكثر دلالةً منها؟ كانتْ لنا انتِصاراتٌ صغيرةٌ هنا وهناك، وكان لدينا أبطالٌ، ولكنّنا لم نستثمر تلك الانتِصارات، ولم نُحسِن التّأسّي بأولئك الأبطال، ولا أنْ نجعلهم نماذج يُحتَذى بها، بل رميناهم بالخِيانة، وبالخروج عن الأوامر، كانتْ خيانة أؤلئك الأبطال أنّهم لم يعرفوا بوصلةً يُوجّهون بنادقهم من أجلها غير القُدس، كانت هناك بوصلات أخرى كثيرة، مُشتّتة، مُبعثرة، تضطرب في الدّقيقة الواحدة ألف مرّة، وكان يُراد لنا ذلك!

«لقد هُزِمنا». هزمتْنا الارتِجاليّة، هزمتْنا الأنظمة المُتعفّنة، هزمتْنا الفرقة، وهزمَنا الإنجليز الّذين كشفْنا لهم ظُهُورَنا قبل اليهود، وهَزَمتْنا أنفُسُنا قبلهما معًا!!

نحن نُقاتل بلا رأسٍ، كان الرّأس نائِمًا، في الحقيقة كان يمدّ الإنجليز بالسّلاح، ويسكتُ عن مجازرهم، نحن أدخلْنا الأفعى إلى صدورنا، فلمّا أنستْ بذلك الدّفء لدغتْنا، لا يُمكن أنْ نلومَ أحدًا. اللّوم وجهٌ من وجوه الهزيمة المُقنّعة.

حَمَل الحاخام الأكبر في الحيّ اليهوديّ القُدس العَلَم الأبيض أمام (عبد الله التّلّ) في ليلة الثّامن والعشرين من أيّار من عام 1948م، وقال

له: «حافِظْ على ما تبقّى مِنّا بحقّ إبراهيم الّذي تُؤمن به». كان (عبد الله التّل) يدكّ بالمدرعّات ومدافع الهاون بيوتهم في تلك اللّيلة، وكان جنوده يُضيّقون الخِناق على مقاتلي اليهود، لم يعد الحَيّ يُرى لكثرة الانفِجارت، ولا بيوته تظهر من سحب الدّخان السّوداء الكثيفة الّتي غَطّتْه، كان صُدغ الحاخام يسيل دمًا ويتقاطر على عَلَمِه الأبيض، وعبد الله التّل يأمر أطبّاءَه أنْ يُسعِفوه. وتبعه وفدٌ من الحاخامات يطلبون التّسليم، ثُمّ قَدِم قائد الهاغاناه مُستسلِمًا كذلك، وجاء من بعدهم مختار الحيّ، وهم يقولون: «ألا يوجَد في دينكم رأفة؟! نحن نضع أرواحَنا بين أيديكم». قدّموا استِرحامات كثيرة لعبد الله التّل، وسألوه أنْ يأخذهم أسرى دون أنْ يدمّر ما تبقّى من بيوتهم، ورضُوا بأنْ يُسلّموا النّساء والأطفال للصّليب الأحمر من أجل أنْ يخرجوا من القدس. ووقّع على ذلك عبد الله التّل، وموشيه دايان، وكان ذو العين العوراء هذه الّتي فقدها في الحرب العالميّة الثّانية يعرف ما يفعل. كان الحيّ اليهوديّ بأكمله قد سقط. وبعثَ عبد الله التّل الأسرى إلى عمّان، ومن هناك رُحّلوا مع أسرى آخرين إلى المفرق. فماذا صار معهم بعد ذلك؟ كيف حُرّروا؟!

وهُرِع (غلوب) يشتكي لدى الملك، إنّ جنودنا يخرقون الاتّفاقيّات، ويعتدون على مناطق اليهود المحميّة بقرار التّقسيم الأمميّ. وقال الملك لغلوب: «سننظر في الأمر. أنا عربيّ هاشميٌّ مُسلِم وأعرف كيف تَعاملَ جدّي مع الأسرى في بدر».

واستطاع (نيومان) الأستراليّ اليهوديّ الّذي يقود الكتيبة الثّالثة في جيشنا باتّفاقٍ سرّيّ مع الهاغاناة ومع موشيه دايان أنْ يضع كتيبته تحت مفرمة القُوّات اليهوديّة في الشّيخ جرّاح فقُتِلنا كما لو كُنّا نُقدّم كذبائح

لليهود، ودمًا لفطير صهيون، وأمر من بعدُ أنْ يُخلي منطقة (النوتردام) بعد أن احتلّها جيشُنا، ويُعيد السّريّة الّتي احتلّتْها إلى (باب العمود) بحجّة إعادة تنظيم الصّفوف!

«لقد هُزِمنا». تلك الحقيقة الّتي تقف بكامل وضوحها أمام انتصاراتنا الفرديّة، لم نحتلّ منطقةً في القدس أو فلسطين إلاّ جاءتْنا الأوامر من (غلوب) أو من قادته الآخرين بإخلائها، والخروج السّريع منها، لأنّ ذلك قد يؤدّي إلى خرقٍ إمّا لهُدنةٍ مُختَلقة، أو مخالفة لقرار أمميّ، أو تغيّر طارئٍ في الخُطّة الّتي لم يكنْ لها من هدفٍ أكثر من تشتيتنا، وتخفيف الضّغط على اليهود، وذبْحنا شرّ ذِبحة.

كان لا بُدّ من الاعتِراف؛ نحن في مقاومتنا بدائيّون؛ بدائيّون في السّلاح وفي التّدريب، لقد كُنّا نُجابه (120) ألف مُسلّح من بقايا الحرب العالميّة مجُنّدين في الفيلق اليهوديّ، ويُزوّدون بالسّلاح كذلك من الإنجليز عند الحاجة ويخضعون لتدريب مُحترف، نحن نُجابه جيشًا متكاملاً!!! أكبر خطأ في نظري قامتْ به الجامعة العربيّة والقوّات العربيّة أنّهم لم يُقدّروا تقديرًا حقيقيًّا حجم القُوّات اليهوديّة. لم نحسب ميزان القوى بأيّة حال. وللأسف لن نتعلّم من هذا الخطأ، وسنكرّره لاحِقًا، فهل كان القادة العرب يسعَون إلى القَضاء على جيوشهم، وإفناء مُقاتليهم؟!

هل كان دخول الجيوش العربيّة بهذه الصّورة هو الكارثة؟ ربّما. لكنّ الكارثة الكُبرى أنّنا لم نُزوّد الشّعب الفلسطينيّ بالسّلاح، ربّما لو سلّحناهم ودخلنا معهم الحرب لكانت الظّروف أحسن، لكنْ مع الأسف لم يكنْ هناك قرارٌ سياسيّ بهذا الشّأن.

كانتْ قراراتنا مُختطفَة أو مُرتهَنة.

هل كانت الأمور مختلفةً لو أنّ الجيش لم يدخل الحرب؟ لقد حكم على نفسه بالهزيمة منذُ البداية، ولو أنّ الحكومات سلّحت الشّعب الفلسطينيّ، وخاصّة في القرى الّتي في الخطوط الأماميّة أو على خطوط المواجهة لكان الأمر بالضّرورة أفضل، لقد اقترحتُ عليهم ذلك، ولكنّهم هَزِئوا بي وباقتراحي. وقد نجوتُ من نعتي بالخيانة بمعجزة، ولكنّهم لم ينسَوْها لي بعد عشرين سنة!!

عندما دخل الجيش العراقي إلى فلسطين دخله عَبْرَ الأردنّ، وكان قد أُعطي هدفًا من قِبَل القيادة لاحتلال موقع (كوكب الهوى)، وكوكب الهوى هذا يُحاذي جبالَ الجولان، وهو موقع إستراتيجيّ، وهو صعب السّيطرة عليه، واستطاع الجيش العراقي احتِلاله ببسالة، ولكنّ الأوامر جاءتهم بعد ذلك بالانسِحاب. هل كُنّا نعرفُ من أين تأتي الأوامر بالانسِحاب؟! لم يكنْ أوّل أمرٍ بانسِحابٍ بعد انتصار، مُعظَم انتصاراتنا كانتْ تُكلّل بالانسِحاب، وليتني حتّى هذه اللّحظة أستطيع أن أعرفَ لماذا؟!

لقد أخفقْنا في حماية شعبنا الفلسطينيّ، وشاهدْنا أمام أعيننا مأساة اللاّجئين والهاربين من جحيم الحرب ولم نستطعْ أنْ نفعل لهم شيئًا. نساء ثكلى، أطفال أيتام بأسمالٍ بالية، وعجائز لم يكونوا يقدرون على الوقوف، وجميعهم كانوا ينزفون إمّا دمًا وإمّا قَهْرًا، كان البريطانيّون بلا قلوب يساعدونهم على الفِرار، يُحمّلونهم في شاحِناتٍ كبيرة، وكانوا يعبرون بهم الحدود. وكُنّا نقف مكتوفي الأيدي، وبعضُنا لم يجدْ دمعًا في عينيه ليبكي.

الهزيمة؛ هي خُذلان إخوتنا، كانوا وحدهم، وتركناهم وحدهم، الهزيمة خيانة الصّوت الدّاخليّ الّذي كان يقول لنا إنّ هؤلاء محتلّون ومُغتصِبون، وإنّ قتالهم واجبٌ لا يُعفَى منه أحدٌ، وكُنّا نُخمده بالاطمِئنان إلى صوت الغربان الّتي كانت تنعق: «انسحبوا». أو «ليس هناك أوامر». الهزيمة هي العمى الّذي كُنّا نسير فيه إلى تلك الدّيار، كان العمى في كلّ شيءٍ، في الطّريق، وفي البوصلة، وفي البندقيّة، وفي الضمير، وفي القيادة، وفي القادة.

أينَ المُبصِرون إذًا؟ كانوا وحدهم، ونحن ماذا فعلْنا لهم؟ خذلناهم على أسوأ ما يكون الخذلان.

كان بعضُنا يعرفُ ذلك، وبعضُنا يجهله، ولكنّنا جميعًا مَنْ كان يعرفُ ومَنْ كان جاهِلاً كُنّا جزءًا من هذا المُخطّط.

كان الجيش المصري مُحاطًا ومُطوّقًا بالفالوجة من قبل اليهود، ولم نقدر أنْ نفعل له شيئًا، طلبوا قليلاً من الذّخيرة، كُنّا نسمع استغاثاتهم المُتكرّرة، ولكنّنا لم نستطع أنْ نوصل لهم طلقة واحدة. كُنّا ممنوعين من ذلك؛ كان (غلوب) يرفض، كان (لاش) يرفض، كان (آشتون) يرفض، كانت القرود ترفض... لم يكنْ أحدٌ يُجيبنا إلى ما نقول، كُنّا نبلع المرارة بصمتٍ، وننزوي لنبكي خيبَتنا، لقد تركْناهم يُذبَحون. هل جرّبتُم شعور أنْ ترى رفيقًا لك في الحرب يُنحَر أمام عينكَ وأنتَ لا تملك أنْ تفعل له شيئًا؟! جزءٌ منك، من جسدك، يُقتَطَع بدمٍ باردٍ وأنتَ لا تُحرّك ساكِنًا، لم يكنْ مسموحًا لنا حتّى أنْ نصرخ!!

نقلوا جيش الإنقاذ من فلسطين، المُخلِصون ماتوا بحسرتهم، الصّادقون استُشهِدوا قبل أنْ يروا هذه الكارثة. أعادوا الجيش إلى

سوريّة، لم يعدْ له حاجةٌ بعدَ اليوم، إنّه أدّى مهمّته الّتي جاء من أجلها، وخرج يجرّ أذيال الخيبة، وفي آذار من عام 1949م حُلّ، وسُرّح من الخدمة كلّ مَنْ كان فيه، وعادَ البقّالون إلى بقّالاتهم، وأصحاب العَرَبات إلى عَرَباتهم، وكأنّ المشاركة في جيش إنقاذ فلسطين كان وهمًا أو حُلمًا، أو مرحلةً آنَ لها أنْ تُنسى!!

كان للنّساء دورٌ عظيمٌ في الحرب، لكنّ ذلك لم يفعل بنا مثلما فعل بالجيوش الّتي كانتْ تُحمّسها نساءٌ فيه، تدقّ طبول الحرب، وتغنّي للنّصر. وتقول بملء فيها: «نحنُ بناتُ طارِقْ». وكُنّ رجالاً أكثرَ منّا في بعضِ المواقف، كُنّ يتلثّمْنَ، يحْمِلْن السّلاح، ويُداوين الجرحى، ويَقُدْنَ الطّلائع، هل يُمكن أنْ نشعر بالعار لأنّهنّ فعَلْنَ ما لم نستطعْ نحنُ فِعله؟! ناريمان خورشيد، ومَهيبة خورشيد، ويُسرا طوقان، وعدلة فطاير، وفاطمة أبوالهدى، ونجلاء الأسمر، كُنّ مقاوِماتٍ من طرازٍ فريد، كُنّ يشترين السّلاح، ويتدرّبْنَ عليه، وأسَّسْن جمعيّة زهرة الأقحوان الّتي نظّمت عددًا كبيرًا من النّساء، وكُنّ يلبسْن لِباس جنودنا، ويتمنطقْنَ بالرّصاص، وتتدلّى البنادق من فوق أكتافهنّ، وقُمن بعمليّات استشهاديّة وبطوليّة لم يكنْ أحدٌ منّا ليقدر على أنْ يقوم بمثلها، وكتبْنَ رسالةً إلى أمين الحُسيني يقلْنَ فيها: «لقد وجدتْ جمعيّتنا لِزامًا عليها الانضِمام لحرب الجِهاد المُقدّسة، للمشاركة مع إخوتنا المُناضلين بالدّفاع عن أرضنا المُقدّسة من أجل أرجاعها، والدّفاع عن كرامة نسائنا العربيّات في العصور السّابقة، اللّواتي تركْنَ صفحاتٍ من العِزّة والكبرياء في الفتوح العربيّة، فهذا حَقّنا القانونيّ الواضح كوضوح الشّمس». كُنّ يجمَعْنَ المال ويقمْنَ بأعمال استخباراتيّة لجمع المعلومات،

ويوزّعنْ السّلاح، ويُخطِّطْن، ويتدبّرْن أمور الذّخيرة، وأمور المال، وكُنّ يتبرّعْنَ بمصاغاتهنّ، وذَهَبِ أعراسهنّ، ينشدْنَ بذلك عُرسًا من نوعٍ آخَر، ولقدْ سطّرْنَ بطولاتٍ تقتربُ من المُعجِزات، وكُنّ يتسابقْن إلى الشّهادة كأنّهن يتسابقنَ إلى الخلود، وإلى نصرٍ يرَيْنه واضِحًا، قريبًا، يحلمْنَ به لأبنائهنّ من بعدهنّ.

***

(24)
بَدَويّ في لندن

كان (بن غوريون) رجل سياسةٍ وثقافة، يُحبّ (سبينوزا)، دعا إليه بعد الحرب مُباشرةً أديبًا شابًّا مُتحمّسًا هو (عاموس عوز)، قال له في وزارة الدّفاع في مكتبه الّذي لم يكنْ أكثر من كوخٍ بسيطٍ خلف مبنى الوزارة في وَسَطِهِ طاولةٌ وأمامها كرسيّان، وستارةٌ مُهترئة تُغطّي الشّبّاك الصّغير: «ماذا تعرفُ عن سبينوزا يا عاموس؟ عليكَ أنْ تقرأ قبل أنْ تحكم. لا تُعِرْ عقلكَ لِسِواك. نحن بهؤلاء الفلاسفة والمُفكّرين وأصحاب الرّأي وصلْنا إلى ما وصلْنا إليه اليوم، بعقول هؤلاء أعادنا الله إلى الأرض الّتي طُرِدْنا منه، لا تظنّنَّ أنّه السّلاح أو المال، ماذا تنفع أموالُنا الطّائلة في المعركة إذا لم يكنْ لدينا عقولٌ تُقاتل عن عقيدة، وماذا ينفع السّلاح إذا كان الجُنديّ لا يعرف تاريخ آبائه وأجداده لكي يعرف عدوّه من صديقه، ويُدرك إلى أيّ صَدْرٍ سيُوجّه رصاصَته؟! ما أريدُ أنْ تفهمه يا عاموس أنّ دولة إسرائيل ستستمرّ بهذه العقول، الّتي سنيسطر بها على العالَم، وما المال والسّلاح إلاّ أدوات».

سقطتْ يافا، وحيفا، وعكا، وطبريا، وصفد، والنّاصرة، وبيسان، والرّملة، واللّدّ، وعسقلان، وبِئر السّبع، والنّقب، وعشرات القُرى ذُبِحَ أهلُها ذبحًا كما تُذبَح الشّياه، ومِئات هُدّمتْ بيوتهم، وجُرّفتْ أراضيهم واجتُثّتْ أشجارها، وآلاف دُفِنوا أحياءً تحت الرُّكام، وغيّر اليهود أسماء

المدن والقُرى بعد ترحيل أهلها منها بالكامل، وسمّوها بأسماء عِبريّة، وأقاموا فوقَها بيوتهم، ومع أنّ صوتَ الضّحايا كان يخرج من تحت الرّكام في كلّ ليلةٍ، واضِحًا شاهِدًا، ولكنّ أحدًا لم يكنْ يسمعه، ومع أنّ دماءهم كانتْ تسيل أنهارًا من بين الأنقاض، وتحت أعمدة الفلل الجديدة، وفي الشوارع الإسفلتيّة الحديثة، ولكنّ أحدًا لم يكنْ يرى شيئًا، لقد ذبحوا التّاريخ والإنسان، وذهبَ أنينُ حيفا وسُؤالُها سُدًى:

حَيْفَا تَئِنُّ أما سـمعتَ أنينَ حيفا

وشممْتَ عن بُعدٍ شذى اللّيمون صَيْفَا

هي لا تُريدُكَ أنْ تعيشَ العُمرَ ضَيْفا

سَـألتْكَ عن يومِ الخَلاصِ؛ متى وكَيْفَا

أعادَ (غلوب) انتشارنا في مناطق ضيّقة في القُدس وخارجها، وبنى اليهود استِحكاماتهم على حيّهم، وعلى المناطق الّتي سُلّمتْ لهم، وهكذا تحوّلنا إلى جنود نأكل ونشرب وننتظر ما لا يُنتَظر، وكان بعضُنا لا يدريّ ما يفعل، ولا يتحرّك إلاّ بأمرٍ يأتيه من قِيادته الّتي ارتاحتْ إلى ما حدث حتّى تلك الأيّام. أمّا الأبطال الّذين لم يقدروا أنْ يتعايشوا مع ذلك، فهم إمّا أنْ يكونوا قد استُشهدوا في عمليّات قاموا بها على مسؤوليّتهم الشّخصيّة، وكانتْ عمليّات أشبه بالانتِحار في ظلّ ميزان القُوى، لكنّهم لم يستطيعوا أنْ يعيشوا أكثر مِمّا عاشُوا، ولم يكنْ بإمكانهم أنْ يتعايشوا مع الغُصّة الّتي حزّتْ ضمائرهم بالنّتيجة الّتي أُلنا إليها. كثيرون من هؤلاء الأبطال الّذين لم يرحلْ بهم الموت قُدّموا للمحاكمة بتهمة الخروج عن الأوامر، ومنهم من فَرّ خارج فلسطين والأردنّ،

واستقرّ في مصر أو في ليبيا أو الجزائر أو غيرها، على أمل أنْ تكون هناك كرّة أخرى تُعيد إليهم الاعتِبار من جديد.

فرض اليهودُ شروطهم على الجيوش العربيّة، لم تكنْ شروطًا مكتوبة، ولا مُوقّعة، لكنّها كانتْ مُطبّقة على أرض الواقع، مُنِع الجيش من أنْ يفكّر بالقِيام بأيّ عمليّة أو أنْ يرفع بندقيّةً في محاولةٍ لاستعادة المدن الّتي احتلّها اليهود، تحت ذريعة (هُدْنة رودس)، وتحوّل بعضُنا إلى حَرَسٍ للمستعمرات اليهوديّة، إذْ كانتْ مواقعنا العسكريّة تربض على مقربةٍ منها دون أنْ يكون لنا الحَقّ في استعمال رصاصةٍ واحدةٍ ضِدّها. كان الكيان الصّهيونيّ ما يزال هَشًّا، ولكنّ القيادات العربيّة ساعدتْه على أنْ يتجذّر، وعمّقتِ الهُوّة القائمة بيننا وبين تحريره. استغلّ الصهاينة الهدنة لتثبيت أركان دولتهم، والتّسلّح والتّحصين، ولم نفعل نحنُ شيئًا، باستثناء أنّنا طبّقْنا بنود الهُدنة بحذافيرها، وكُنّا مُستعدّين أنْ نُطلق النّار على أيّ جنديّ مِنّا يوجّه رصاصه في عمليّة فدائيّة ضدّ اليهود مُخالِفًا بذلك الأوامر العسكريّة!! ولكنْ ماذا لو استمرّت الجيوش العربيّة في القِتال؟ أفلمْ يكنْ بإمكانهم أنْ يقلبوا البوصلة، أو على الأقلّ يحوّلوا اتّجاهها؟ لماذا وجدوا أنفسهم مُضطرّين إلى الهُدنة؟ هل كانت الهُدنة نجاةً؟ ولمن؟ ومع كلّ ذلك لم تُوقِفْ تلك الهدنة الحرب!!

خلال الهُدنة الثّانية في عام 1949م تمّ تجميع لوائنا الثّالث في منطقة وادي موسى، وكُنّا نعسكر قريبًا من مقام النّبيّ موسى على مقربة من البحر الميت، وزارَنا (غلوب) في إحدى اللّيالي، وكان قد شاب، ولا أدري إنْ كان شيبُه لكثرة تآمراته، أم أنّ الحرب تُهرِم كلّ مَنْ يجد نفسَه في أتونها! كانتْ شفتاه رَطْبَتَين، وفمه يتكوّر على هيئة بالونٍ صغير، وكُنّا

نجلس حول النّار، وطلبَ عباءةً بدويّة ليتلفّع بها، وحمّسْنا له القهوة العربية على النّار، وظلّ يشرب دون أنْ يقول كلمةً واحدة.

وكنتُ أريدُ أنْ أساله عن الحرب؟ ولكنّني في الوقتِ نفسه لم أكنْ أدري عن أيّ شيءٍ في الحرب سأسأله؟ ربّما كنتُ سأترك الحربَ جانِبًا لأسأله سؤالاً لم يدعْني أنام لسنواتٍ: مَنْ كُنتَ تخدمُ يا (غلوب)؟

ربّما لم يتشكّل هذا السّؤال لديّ وأنا في الرّابعة عشرة من عمري، فقد كنتُ صغيرًا جِدًّا على سؤالٍ كبيرٍ كهذا، ولقد كنتُ أراه يومَها بطلاً، وفارِسًا قادِمًا من الأحلام البعيدة! ربّما فقط بعد أنِ استُشهد خالي صار السّؤال يُلحّ عليّ بشكلٍ يوميّ، يمنعني من أنْ أفكّر بشيءٍ آخَر. ربّما أعرف الإجابة أو لا أعرفها، لكنّني لا أشكّ في أنّه كان له في الدقيقة الواحدة ألفُ وجه، وكان يُمكنه أنْ يتنقّل في هذه الدّقيقة بينها جميعًا دون أنْ يلحظَ أحدٌ ذلك!!

وفي لحظة من لحظات الصّمت الّتي بدا فيها أنّنا قد هرمْنا نحن أيضًا، قال بصوتٍ خفيض وهو يرمي ببصره إلينا، ويعبثُ بعصاه في أطراف النّار: «نحن نُفكّر بإرسال أولادنا إلى بريطانيا ليتعلّموا اللّغة الإنجليزية، فكلّ الكتب في هذه الأيّام كما تعلمون تُكتَب باللّغة الإنجليزيّة، والكُتُب المُترجَمة تُفقِدها كثيرًا من معناها، وأريد لكم أنْ تقرؤوها بلغتها الأصليّة، وستُدرِكون الفرق بين ما هو بلغته الأصليّة وبين ما هو مُترجَم، وآنَ لكم أنْ تتقدّموا خُطوةً بهذا الاتّجاه».

بعد أسبوع استلمْنا برقيّة فيها قرارٌ رسميّ بإيفادنا إلى كلّيات بريطانيا العسكريّة، وكان معي أربعة من أولاد عمومتي. في أوائل عام1950م توجّهْنا إلى دمشق، كنّا نلبس ملابسنا العسكريّة، بعضُنا

كان قد علّق بعضَ النّياشين على صدره، وبعض الأوسمة اللاّمعة بعد الحرب، كان للحرب رغم أضرارها الجسيمة فوائدها أيضًا.

من دمشق ركبْنا الطّائرة، حطّتْ بنا في روما، لم نكدْ نخرج من الطّائرة إلى ردهات المطار، حتّى أحاطَنا رجال الأمن الإيطاليّ، كانت التّهمة لباسنا البريطانيّ، فبريطانيا الّتي ربحت الحرب العالميّة الثّانية كانتْ ما تزال عدوّة لإيطاليا، أُرغمنا على خلع بِزّاتنا العسكريّة، ورميها هي ونياشينها في الحقائب، ثُمّ ارتدَينا ملابسنا المدنيّة، وتوجّهنا من روما لى لندن. وكانتْ مدينة الضّباب يومئذٍ تمدّ ضبابها الكثيف على كثيرٍ من بلدان العالَم. وبدتْ غيرَ عابئةٍ بهذه المجموعة الجديدة من الغُرباء الجُدُد، فلكمْ حطّ على أرضِها من الغُرباء، ورحلوا بها وبسياساتها إلى بُلدانهم!

إنّها لندن، وإنّه عهدٌ جديد، كان الفرق بين الصّحراء والضّباب، بين الرّشاديّة ولندن صاعِقًا. إنّ التّحوّل الحضاريّ هذا أشعرنا بانكِسارٍ داخليّ، وإنْ كان فتحَ لنا بابًا جديدًا على العالَم الّذي نجهله. وزّعونا على مناطق مختلفة في بريطانيا لنتعلّم اللّغة الإنجليزيّة، وتقدّمْنا للامتِحان النّهائيّ بعد ستّة أشهر، وكانتْ نتائجنا مُتقدّمة، وهكذا صِرنا نتقن اللّغة.

الإنجليز مُنضبطون، ولديهم تقديسٌ لشيئين؛ الوقت والنّظافة. جاء دورنا لتوزيعنا على الكّليّات، كانتْ هناك كُلّيتان مُرشّحتان لذلك إحداهما كلّيّة ساند هيرست الشّهيرة، وقد كنتُ راغِبًا في دخول كلّيّة ساند هيرست، وحاولتُ ذلك بكلّ قوّتي، ولكنّ القوانين لم تسمح لي لأنّها تقبل المدنيّين أو التّلاميذ العسكريّين الصّغار، وكنتُ ضابِطًا.

وفي الكّلّيّة تعرّفتُ على قادةٍ عسكريّين كثيرين، وكنتُ أسألهم عن

(غلوب) فلم يعرفه أحدٌ، وأصابني العَجَب، فقلتُ أتأكّد من زملائي الّذين يدرسون في ساند هيرست، وسألوا هم بدورهم قادَتهم إنْ كان (غلوب) الّذي يقود الجيش العربيّ هناك في الشّرق الأوسط يعرفه أحدٌ، فكانت الإجابة مماثلة؛ لا أحدَ يعرفه هنا!! هل كان نَكِرةً في بلاده مَلِكًا في بلادنا؟!

ماذا كان يفعل (غلوب) بنا؟ لماذا كُنّا نُعطيه كلّ هذه الهالة والتّقدير، بل والتّقديس في بعضِ الأحيان؟

كيفَ استطاع أنْ يُسيطر على عقولِ الجنود، بل وعلى قلوبهم إلى الحدّ الّذي كان بعضُهم مُستعدًّا إلى أنْ يفديه بنفسه؟

أيّ وسيلةٍ استخدَمَها مع هؤلاء العساكر حتّى دانوا له بكلّ ذلك؟

هل هي التّرقيات الّتي كان يمنحها بسخاء وحسبَ هواه، وإذا تجاوزه أحدٌ فإنّه كان يقفُ في وجهه ولو كان بحجم الملك؟

هل هو معرفته بطبائعنا وعاداتنا؟ هل هو إتقان لُغتنا؟ هل هو انضِباطه الشّديد وذكاؤه الأشدّ؟

هل هو ما اكتسبه من الصّحراء الّتي عاشَ بين رمالها وفوق كُثبانها أكثر من ثلاثة عقود؟

أمْ كلّ تلك الأسلحة المُدجّجة الّتي لم تكنْ تأتمر بأمرِ أحدٍ سِواه؟ أم أنّها عُقدة الأجنبيّ أو الآخر عندنا؟ أم هو جهلنا وسذاجتُنا؟

أم هو طبيعتنا الّتي تقتضي أنْ نُكرِمَ حتّى مَنْ جاءنا غريبًا ووحيدًا، نكرمه بلا حِساب وبلا تفكير؟

أم أنّها أشياء أخرى غير ما قلتُ. أمْ أنّها كلّ ما قلتُه مُجتمِعًا؟ لم يكنْ

أحدٌ يدري!!

كانا عامَين، ولكنّهما كانا حافِلَين بكلّ شيءٍ، تعلّمْتُ الكثير، وفتحتُ قلبي وعينَيّ على عوالمَ جديدة، وعدتُ آمِلاً أنّ هناك في وطني فسحةً لكي أكون.

***

(25)

لا تَخَفْ... نجوتَ

ظلّ جدّي يحمل البندقيّة على كتفه طوال الحرب؛ الحرب اللّغز، وظلّ يحتفظُ فوق عَمودِ خَرْبُوشِه بالوثيقة الّتي لعنَ فيها بلفور، ووَعْده، وتاريخ الإنجليز كلّهم. لم تمنعه الثّمانون الّتي تحطّ على كاهلَيه من أنْ يُقاتِل، وعندما عُدتُ من بريطانيا بعد سنتين من سفري، رأيتُه قد هَرِمَ كثيرًا، لم أدركْ أنّ سنتَين تحوّلانه إلى رجلٍ آخَر، كانتْ لحيته القصيرة قد شابتْ بالكامل، وشَعرُ جفنَيه قد تهدّل حتّى كاد أنْ يُغطّي على عينَيه، وجلدُ يدَيه قد تقبّض، ووجهه قد تجعّد وظهرتْ فيه بعضُ الأخاديد، وعيناه صارتا مُنطفِئتَين، جدّي الّذي كان منارتي الهادية، يخبو هكذا على نحوٍ سريع، ماذا تفعل الأحداث بالنّاس؟ كيف يكون لهذه السّنوات هذه القُدرة على أنْ تُقوّس الظّهر، وتثني الرُّكب، وتُوهن العَظم؟! هل استشهاد ابنه نائل قد فعل به هذا، لقد رأيتُه وهو يحضنه، يومَ واراه الثّرى، ويبكي، ويلثم موضع الرّصاصة في عنقه ويقول: «لن أتركَكَ ترحل وحدك، لماذا استعجلتَ بالرّحيل قبلي، ألم نكنْ قد تعاهَدْنا منذ خرجتَ من الرّشاديّة أنْ نرحل عن هذه الدّنيا معًا، فلماذا أخلفْتَ الوعد، ماذا رأيتَ هناك حتّى عجّلتَ بالرّحيل؟!».

وراح جسده يرتجّ، حمله عمّي هارون برفق، وتراجَعا معًا إلى الوراء قليلاً، ونزل الرّفاق، رفاق السّلاح والنّضال، فأنزلوه في قبره

المُسافِر في الغُموض إلى اليوم، ولا أدري إنْ كان يسمع الأذان من هناك خمس مرّات كُلّ يومٍ كما كان يعتقد، ويُصلّي مع المصلّين كما كان يتمنّى!!

عاد جدّي إلى الرّشاديّة مُحمَّلاً بإرثٍ ثقيل، وبِهَمٍّ أثقل. كنتُ أزوره أحيانًا في مضاربنا القديمة، يقول لي: «هلاّ شددْنا على الخيل؟!». أقول له: «وقد ماتت الشّقراء؟».

فيقول بأسَى ورِضَى: «لَئِنْ ماتت نحن لم نمت». وينهض، وتخونه قُواه، فأقول له: «لو أنّك ترتاح يا جدّي». فيهتف: «أنا لا أرتاح إلاّ على ظهورها». ويركب خيله، وأختار لي خيلاً، ويرمي لي بندقيّته كما لو كان فتًى في العشرين، ونشدّ على الكِرام، ويُنشد بيت المتنبّي:

وما تنفعُ الخيلُ الكِرامُ ولا القَنا

إذا لم يكنْ فوقَ الكِرامِ كِرامُ

وتصهل الخيل، ويهتف من جديد: «أتعرفُ ما اسمُها؟» ويُشير إلى الخيل التّي أركبُها. فأهزّ رأسي بالنّفي، فيخرج صوتُه من بين الحَمْحَمات: «الصّافية». ويضحك، ويسأل كطفلٍ أعجبتْه لعبة الأسئلة: «أتعرفُ لماذا سمّيتُه بالصّافية؟». وأهزّ رأسي من جديد، فيضحك من جديد، وهو يصرخ: «لأنّه لا يُصيبها الغُبار لسرعتها، كلّما أثارتِ النّقع خلفها، عَدَتْ فلم يَنَلْها منه شيءٌ».

***

كان يمشي متلفّتًا حوله، ينظر من طرفِ عينَيه بريبةٍ، ويضع يده اليُمنى على جيب قميصه كأنّه مُصابٌ بالقلب، دخل من باب العَمود، في الجمع الكبير لم تكنْ هناك عينٌ لتراه، مَنْ يرى قطرةَ ماءٍ تسيل في

النّهر؟ كانت التّواشيح الدّينيّة تصدح من داخل المسجد استِعدادًا لخطبة الجمعة. الجَمّ غفير، والحرّ شديد، والخَلْق كثير، والخَطْو سريع، والخَطْب رهيب. تجاوز الصّفوف الأخيرة في المسجد، لا زال يضع يُمناه على قلبه وينظر من زاوية عينِه، أزالها في لحظةٍ خاطفة، وتحسّس جنبه الأيمن بحركةٍ سريعةٍ حتّى لا يلحظه أحدٌ. من الصّعب أنْ تُحافِظ على هدوئك إذا كان كلّ ما في أعماقك يلتهب. نظرَ أحدُهم في عينَيه مُباشرة، التقتِ النّظرات، أزاحها عنه بسرعةٍ، النّظر في العيون يفضح القلوب، عليه أنْ ينظر إلى الأرض، إلى السّجّاد الممدود في المسجد، ستقوده قدماه بلا شكٍّ إلى غايته، قد يكون هذا أفضل، هكذا فكّر، لكنّه سمعَ أحدهم في تلك اللّحظة يُنادي: «هيه أنتَ؟ توقّف!».

توقّف قلبُه، نظر إلى مصدر الصّوت، ظنّ أنّه هو المقصود، ولكنّ صاحب الصّوت كان يبتعد إلى جهةٍ أخرى. واصل السّير، تذكّر أعوامَه السّابقة في دُكّان الخِياطة، كان يعيشُ حياةً هادِئة، كان يَخيطُ الثّياب لأهل القُدس، وكان يرتق ما انفتق، ويكسبُ عيشَه بعيدًا عن السّياسة والحرب وأهلها، عاشَ بسيطًا، وكان يريدُ أنْ يظلّ بسيطًا، لولا أنّه أحسّ أنّ مدينته قد تغيّرت، وأنّ وجهها قد تغيّر، كيفَ تُغيّر المُدُن وجوهها؟ إذا كَثُر فيها الغُرباء، وجاءها مَنْ لم يكونوا من أهلها يومًا، وكان يُسّميهم الغِربان، إنّهم يأكلون من حقولنا، ولا يتركون لنا من القمح شيئًا، وإنّهم يُعشّشون فوق أشجارنا ويصكّون أسماعَنا بالنّعيق. كان يكسب في اليوم جُنيهًا واحِدًا، كان هذا الجُنيه كافِيًا لإعالته، يشتري الطّعام لأهله، ولربّما استطاع أنْ يأكل لحمًا يوم الجمعة، في مثل هذه اليوم، كان يُمكن أنْ يعود من هذه الصّلاة، أو صلاةٍ مثلها، ويجد في

انتظاره المسخّن على الغداء، لكنّ مثل هذا لن يكون اليوم، لأنّه لن يعود.

تابَعَ سيرَه، وفكّر من جديد، «إنّه لم يعشْ لِيَرى». إنّ واحِدًا وعشرين عامًا كافِية، تبدو طويلة على مَنْ يريد أنْ يضع حَدًّا للحياة، لهذه المهزلة، ظلّ يمشي باتّجاه البوّابة الرّئيسيّة للمسجد الأقصى، نظراته السّريعة إلى ما حوله كانتْ كفيلةً بأنْ تكشفه لو لاحَظَه أحدُ الحُرّاس، وكان يعرفُ ذلك، لكنّه لم يكنْ قادِرًا على أنْ يمنع نفسه. مرّ بجانب إحدى السّواري الشّاهقة، سمعَ أحدهم يهتفُ بصوت رنّان: «يا مُصطَفَى...». تجمّدَ مكانه، إنّه يُناديه، هذا اسمه، توقّف قلبُه للحظات، قبل أنْ يسمع ذلك الّذي كان يُسند ظهره إلى السّارية: «يا مُصطَفَى... يا مُصطَفَى... أغِثْ مَنْ ببابكَ الْتَجا...»، وراحَ صوتُ الوشّاح الشّجيّ يعلو. أطلقَ زفرةً طويلة، وظلّ يمشي. إنّه لم يأتِ إلى هنا كثيرًا، ولم يتعلّم في هذه الزّوايا يومًا، تركَ المدرسة منذ الصّفّ الثّالث الابتِدائي، واعتاش من عمله صبيًّا عند صاحب دُكّان الخِياطة وهو ابن ثلاثة عشر عامًا، ولم يقرأ كتابًا، لكنّه كان يسمع أحاديث الحمقى من السّياسيّين الّذين يجلسون في دُكّانه يُثرثِرون ريثما ينتهي من عمله في قميصٍ أو بنطالٍ. هَمْهَمَ وهو يقطع خُطُواته الأخيرة إلى هدفه: «لقد رتقتُ مؤخّراتكم جميعًا، وآنَ لي أنْ أخوزِقَها». شدّ على حرف القاف في الكلمة الأخيرة، لكنّ الكلمة خرجتْ مخنوقةً من بينِ أسنانه، كان لا يُريد لأحدٍ أنْ يسمعه أو يلحظه، جلسَ عند الباب الرّئيسيّ، وركنَ ظهره إلى الحائط، وراح يرفع يدَيه، ويدعو بعض الأدعية، بينما كان الخطيب يصعد درج المنبر. لم يكنْ يرى الخطيب من مكانه، لكنّه سمعه

يهذي، هكذا ظنّ، كان يتكلم كثيرًا عن الملك ذي السّلالة الشّريفة الّتي حمت الأقصى، إنّه يتكلّم عنه إذًا، هذا الّذي جاء من أجله إلى هنا، مدّ عنقه إلى الأعلى قليلاً، ليرى من يجلس في الصّفّ الأوّل، فرأى تلك العمامة البيضاء، إنّه هنا، إنّه يجلسُ في ذلك الصّفّ، عِمامته البيضاء الشّهيرة تلفّ طاسةَ رأسِه، إنّ صيدَه يجلسُ بخشوعٍ هناك، ما أقصر المسافة وما أبعدَ الرّمي. وصوّب نظره مرّة أخرى إلى الصّفّ الأوّل، تساءَل مَنْ هذا الطّفل الّذي يجلسُ عن يمينه؟ لا بُدّ أنّه حفيده الحُسين، لقد اعتاد أنْ يصطحبه معه إلى هنا. كان كلّ شيءٍ يسير بشكلٍ اعتياديّ. دفنَ رأسَه في يدَيه، وراح يستذكر الآيات الّتي حفظها في الابتِدائيّة، ليتخفّف مِن وساوسه، لم تُسعفه الذّاكرة، هناك كلمات تهربُ تُفتّش عنها، تخذلك، إنّ الكلمات تهربُ دائِمًا، أرادَ أنْ يلعن، لكنّه تذكّر أنّه في مسجد. دفنَ رأسه من جديد، وراح يهُزّه بين كَفَّيه في خشوع صوفيّ عتيق.

كان المسجد يعجّ بالمُصلّين، لا يكادُ يكون فيه موطِئ قدم، كثيرون قَدِموا في هذا اليوم، العشرين من تموز من عام 1951م، ليسمعوا كيفَ ولماذا فقدْنا كلّ هذا؟ هل إذا ضاعَ جزءٌ من البلادِ ضاعَ جزءٌ من الأمل؟ كأنّما كان الحِفاظ على البلاد هو الحِفاظ على الأمل، كأنّ البِلاد تُساوي الأمل، الأمل كلّه! لقد قَدِموا من كلّ قريةٍ ومدينةٍ في فلسطين، من تلك القُرى الّتي ذُبِحَ أهلُها، وهُجّروا، وبُعثِروا في المنافي، جاؤوا ليسمعوا شيئًا يجلو الصّدأ عمّا تبقّى من الأمل.

وهذا الخيّاط المجهول الّذي يكاد يختبِئ في داخله، لا أحدَ يعرفه، حتّى شقيقُه يُنكره، لماذا جاء؟ جاء ليقتل اليأس، يقتلَ هذه العثرة الّتي

تقف في طريق الأمل، هذه العِمامة الّتي تلتفّ على ذلك الرأس!

طاخ... طيخ... طاااااخ، ودوّى صوتُ الطّلقات الثّلاث، كان مُصطفى عشّو قد أفرغها في صدر الملك ورأسه، وانطلقت الرّابعة لتُصيب الحُسين الصّغير جهةَ القلب حتّى تكون قاتلة، ولكنّها أصابت الميداليّة الّتي أصرّ جدّه في صباح هذا اليوم أنْ يلبسها قبل أنْ يرافقه إلى الصّلاة هنا. فانزلقت مُحدثةً رنينًا سيظلّ الصّغير يتذكّره لسنواتٍ طويلة، إنّه الرّنين الّذي بعثه إلى الموت في لحظة وأعاده إلى الحياة في اللّحظة التّالية! وسقط الملك، تفجّرت الدماء من تحت عينه اليمنى، فغطّت وجهه وصدره، وتدحرجتْ عِمامته البيضاء من فوق هامته، وانغمستْ أطرافُها في الدّم. كان الدّم يسيل سريعًا، وفي لحظاتٍ راحتْ تتشكّل حوله بِركةٌ من الدّماء. هاج النّاس، وفاروا، وعلا الصّياح، وصرخ أحدهم: «قُتِل الملك... قُتِل الملك...».

وصار النّاس يتماوجون، رَكضٌ في كلّ اتّجاه، رعبٌ، وهلعٌ، وذُعر، وأناسٌ تسقط جرّاء الفوضى والتّدافُع، وصياح لا ينقطع، واتّهاماتٌ مُبكّرة بالخيانة، والعمالة، والمؤامرة، وسُمِعَ صوتُ طلقاتٍ تنطلقُ هنا وهناك، وأطلقَ جنودٌ الرّصاص من البنادق على كلّ مَنْ يفرّ فَزِعًا ظنًّا بأنّه قد يكون القاتل، حدث ذلك كلّه داخل المُصلّى القِبليّ، تساقط عشرات المُصلّين مُضرّجين بدمائهم في أقدس بقعة في المسجد، قُتِل مُصطفى، أفرغ الحُرّاس عشر رصاصاتٍ في بطنه، وسقط هو على الأرض والمُسدّس لا يزال في يمينه، أمّا يُسراه فلا زالتْ تشدّ على جيب قميصه كأنّه لا يُريد لذلك الجيب أنْ يُصيبه أذًى!! كان القاتل والمقتول يتمدّدان معًا في السّاحة نفسها في البقعة إيّاها في اليوم ذاته، بينهما مسافةٌ

لا تكاد تلحظ، مترٌ واحدٌ ربّما، لم يكنْ بين نصيبَيهما في الهواء الّذي أخذاه إلاّ زمنٌ يسير هي دقائق معدودة، كان الملك والمملوك، والسّيّد والعبد يتقاسَمان النّهاية عينَها، لم يرأف الموت بأحدهما فتركه دون الآخَر، ولا قسا على أحدهما وحَنا على صاحبه، كانت لوحة الموت ترتسم على وجهيهما الجامدَين، وإنْ كان الموت قد رسَمَها في كلّ وجهٍ بطريقةٍ مختلفة، وما الفرق ما دامت النّتيجة واحدة!

وحمل الجنود الملك القتيل، وهُرِعوا به نحو سيّارة الإسعاف، إلى مستشفى (الهوسبيس)، في البلدة القديمة في القدس، ولكنّه كان قد فارق الحياة قبل أنْ يصل إلى هناك. حُمِل جثمانه بعدها في طائرة أقلعتْ من مطار قلندية، ودُفِن في قصر رغدان بعمّان.

كان (عبد الله التّل) في الحادي عشر من حزيران من عام 1948م مع كتيبته السّادسة قد كاد يُجهِز على ما تبقّى من الصّهيانة ومواقعهم في القُدس، عندما أمره الملك عبد الله عبر الهاتف بأنْ يخرج من القُدس، وأنْ يُوقِفَ هجومه، كان ذلك أمرًا مُفجِعًا بالنّسبة له، فأنْ تكون من النّصر قابَ قوسَين أو أدنى، ثُمّ يُسرَق منك هذا النّصر، ولا تستطيع لهذه السّرقة دفعًا، سيكون في ذلك حتفُك. كان عبد الله التّل يرى كلّ شيءٍ، كان حاكم القدس العسكريّ، كان يعرفُ ما يجري، يُحاول أنْ لا يكون جزءًا من اللّعبة، ولكنّ اللعبة كانتْ أكبرَ منه، لم يعدْ لديه ما يفعله بعد الهزيمة، الهزيمة كسرتْه على كلّ الأصعدة، كان يقول: «لم يهزمْنا أحدٌ، نحن هزمْنا أنفسنا، لقد أطلقْنا الرّصاص علينا، على وجوهنا وصدورنا، وسقطْنا كالكلاب تحت أرجلنا». كانت الفجيعة تكبر داخله، والحُزن يتحوّل إلى دُخانٍ أسود كثيفٍ يخنقه، لم يحتملْ فغادر إلى

مصر، في منفًى طوعيّ، عدّه الملك يومئذٍ خائنًا لميثاق الشّرف العسكريّ، وهكذا اتّسعتْ بينهما الهُوّة.

كان ذِكْرُه في الأردنّ قد أُخمِلَ تمامًا لكنّ اغتيال الملك أعاده إلى الواجهة، ووضَعه مباشرةً في قفص الاتّهام. اعتُقل في الحادثة كلّ مَنْ كانت له صِلة من قريبٍ أومن بعيدٍ بالقاتل مصطفى عشّو، استمرّت المحاكمة العسكريّة ما يقرب من شهرٍ، وحُصِرتْ في خمسة أشخاص في النّهاية، أصدر رئيس المحكمة (عبد القادر الجندي) أحكامه بالإعدام لعبد الله التل باعتباره مدبّر المؤامرة، وعلى صديقه موسى أحمد الأيوبي باعتباره متواطئًا في الجريمة. وكانا وقت صدور الحُكم في القاهرة فلم يُنفّذ فيهما الحُكم. وأمّا الدكتور موسى الحسيني، وقد اتُّهم بأنه صلة الوصل بين المُحرِّضين في مصر، والمُنفِّذين في القدس، فقد تمّ إعدامه شنقًا، مع عبد القادر فرحات، والشقيقين عابد عُكّة وزكريا عُكّة.

كتبَ موسى الحُسيني إلى زوجته النّمساويّة الّتي كانت تأمل ألاّ يصدر حُكم الإعدام بحقّ زوجها، وأنّ أحدًا ما سوفَ يتدخّل في اللّحظة المُناسبة لإنقاذ زوجها، كتبَ إليها رسالةً قبل ساعةٍ واحدةٍ من تنفيذ حُكم الإعدام، قال فيها: «لا تثقي بعدَ اليوم بأحدٍ... ولا تُصدّقي كلامَ أحد».

حزنتْ غولدامائير على اغتيال الملك، لقد نصحتْهُ من قبلُ: «إنّك تُعرّض نفسكَ للجماهير». فغضب، وعقّبتْ: «متى يفهم القادة العرب أنّ السّرّيّة جزءٌ من الأمن؟». وقال لها بعد الحرب: «إنّكِ كنتِ سببًا لهذه الحرب، لأنّكِ كنتِ مُتعالية». لم يفهم الملك إلى اليوم أنّه كان يبحثُ عن مجده الشّخصيّ، وكنتُ أنا ورفاقي في الوكالة اليهوديّة نبحثُ عن مجد

إسرائيل. ومع كلّ ذلك ندمتُ على أنني خيّبتُ آماله في تلك اللّيلة الّتي التقينا فيها في عمّان.

وخطب (تشرشل) في الثّالث والعشرين من تموز عام 1951م أمام مجلس العموم قائلا: «لقد كنتُ أنا شخصيًا مسؤولاً عن تعيينه أميرًا على شرق الأردن عام 1922، لقد كان رجلاً شديد الإخلاص، ووطنيًّا عربيًّا مُتحمّسًا كأوفى ما يكون الحماس، غادرَ مكّة لطرد الفرنسيّين من الشّام بقوة السّلاح، وحين نزلتُ بالمنطقة مُستفِيدًا من نصائح الكولونيل (لورنس) أقنعناه بعدم اتّخاذ تلك الخطوة المُثيرة للقلاقل، لقد عَرَّضَ نفسه لكل خطرٍ في سبيل الحفاظ على علاقةٍ طيّبةٍ مع كلّ امرئ عَمِلَ معه، لقد فقدَ العربُ نصيرًا عظيمًا، وفقدَ اليهودُ صديقًا كان بِوُسْعه تسويةُ المصاعب، وفقدْنا نحنُ رفيقًا وحليفًا مُخلِصًا».

ظلّ اغتيال الملك عبد الله لغزًا كالحرب الّتي خرج منها مُنهزمًا، أشاروا إلى جهاتٍ كثيرةٍ، لكنّهم لم يستطيعوا أنْ يقولوا: إنّ هؤلاء فقط هم الّذين قَتَلُوه، كان على جزءٍ من المشهد أنْ يظلّ غائبًا أو غائِمًا، وجزءٍ من الحبل الّذي حِيكت به الأحداث أنْ يظلّ منقطَعا، ولم يكنْ من حبلٍ يُوثَق به إلا حبل المِشنقة!

عندما فتّشوا ثياب القاتل، وجدوا في جيب قميصه الّذي كان يضع يده فوقها، ورقةً لم يمسّها الدّم ولا الرّصاص، مكتوبًا فيها هذه العبارات: «مَلِكٌ مَملوكٌ لله، كلّ ذي عِزّ يُذلّ، كلّ ذي قُوّة يضعفُ عند الله، وكلّ ظالمٍ لا يخلص من الله، حامل ادّعائي هذا ينجو من الجنّ والإنس والعفاريت، وخيرُكم تحت أقدامكم فلا غالب له... حامل كتابي هذا يحميه قتلٌ ولا يخاف دَرَكًا، ولا يخشى شيئًا... إنّكَ أنتَ

الأعلى... إنّني معكم أسمعُ وأرى، لا تخف إنّك نجوتَ من القوم الظّالمين... اللهمّ استرْني مع أوليائك عن أعدائك الكافرين... ما عاداني فخُذه... ولا تُحمّلْني ما لا أطيق... إنّك أنتَ الحقّ الحقيق...».
كانت يده الشّادّة على الحجاب قد حمتْه من أنْ تثقبه أو تحرقه الطّلقات العشر الّتي أُفرغتْ فيه!!

هل كان مجنونًا؟ هل كان مُنخطِفًا؟ هذا الّذي كان لا يكسبُ في اليوم أكثر من جُنيه، بِمَ كان يُفكّر؟ هل كان يظنّ نفسه نبيًّا؟ رسولاً يُوحَى إليه؟ عبقريًّا لم يُعطَ حَقّه؟ كلّ ذلك ممكنٌ وغير ممكن، ولكنّ الحقيقة الخالصة الّتي تبين عن نفسها، تتلخّص في عبارةٍ واحدة: «إنّ خيّاطًا مجهولاً قتل مَلِكًا!!».

***

(26)

لا بُدّ من حوّاء وإنْ طالَ العُمُر!

عُدتُ من بريطانيا، مُحمّلاً بالأمل، وتوّاقًا إلى أنْ يكون لي شأن، لم أهدأ طَوال حياتي، كان لديّ ما يُقلقني، ويُحفّزني، ويثور بي، كان لديّ ما يجعلني «على قَلِقٍ كأنّ الرّيح تحتي»، خُطُواتي إلى الغاية كانتْ سِباقًا مع الرّيح!

لا أدري لماذا أحبّنا الإنجليز دون سِوانا فاحتلّوا بِلادَنا، لماذا اقتسموا كعكعتَنا الشّهيّة، وتركوا للطّليان والفرنسيّين ما بَعُدَ من البلاد؟ لماذا أصّر هؤلاء على أنْ تكون الأردنّ وفلسطين من نصيبهما؟ هل هناك بُعد دينيّ في الموضوع؟ هل جاؤوا كما جاء أسلافُهم قبل ثمانية قرون إلى منطقتنا هذه نفسِها من أجل أنْ يُنقِذوا قبرَ المسيح من الكَفَرة الّذين يعيثون به فسادًا كما قال باباهم القديم؟

بعثَ إليّ أبي من وراء البِحار رسالةً يقول لي فيها: «إنّ ضابِطًا وسيمًا مثلكَ يستحقّ عروسًا تُعينُه على الطّريق الطّويلة، وقد اخترتُ لك فتاةً من بنات العُمومة، وأنا متأكّدٌ من أنّها ستُعجِبك، نحن بانتِظاركَ على أحرّ من الجمر لكي نزفّها إليك». أعدتُ له الرّسالة ذاتها وقد كتبتُ على ظَهْرِها: «إنْ أعجبَتْكَ فاخْطِبْها لِنفسِك؛ في رأسي مَوّالٌ آخر».

عدتُ أحمل عن الإنجليز النّظام واحترام الوقت ووسواس النّظافة، كان يُمكن أنْ نقول إنّ هذه الثّلاثة هي من ديننا قبل أنْ تكون

من أخلاقهم، ولكنّ المسافة بيننا وبين ديننا كانت أبعدَ بكثيرٍ من تلك المسافة الّتي قطعتُها بين البلدَين، لأتعلّم من المُحتلّ كيفَ أدير شؤوني.

عدتُ إلى كتيبتي في كفار عصيون، كانت الأمور قد هدأتْ على ما يبدو، كانت الكتيبة قد تغيّرت، والرّفاق قد تغيّروا، وكلّ شيءٍ قد تغيّر، كثيرون من أصدقائي غادروا الكتيبة إمّا إلى دورات في بلاد الله الواسعة شرقًا وغربًا، وإمّا إلى وحدات عسكريّة أخرى، ووجدتُ نفسي وحيدًا، والوحدة شرّ لصيق، والأنس بامرأةٍ في هذا الخضمّ المَهول من التّقلّبات قد يُخفّف شيئًا من البلوى الطّامّة، وشعرتُ أنّني مثل آدم، أبحثُ عن أنيسٍ في هذه الرّتابة، فقد ألقينا السّلاح، ولا بُدّ من مرحلةٍ جديدة. ولا بُدّ من حوّاء وإنْ طال العُمُر!

زرتُ السّريّة الثّانية المُعسكِرة في (مار إلياس) قرب بيت لحم، ولي فيها أصدقاء قُدامى، كانوا قد دعَوني لأتناول طعام الغداء عندهم، كان ذلك يوم جمعة، وعندما حَضَرَتِ الصّلاة تجهّزْنا للذّهاب إلى المسجد القريب من السّريّة، وكان أحد الزّملاء قد فتح المِذياع الّذي ينقل صلاة الجمعة من المسجد الأقصى، وفجأةً سمِعْنا صوتَ إطلاقِ نارٍ، ثُمّ تتابعت الأصوات عبر سمّاعة المِذياع، وعرفْنا أنّ الملك عبد الله قد اغتيل. ألغيتْ إجازات الضُّبّاط والعسكر، وسُلّمتْ لي قيادة السّريّة الّتي تشمل قاطع (مار إلياس) و(بيت لحم) و(بيت صفافا)، وفي بيت صفافا هذه، القرية الصّغيرة الّتي تبعدُ مسافة ستّة كيلومترات إلى الجنوب الشّرقيّ من القدس كان ينتظرني قَدَرٌ جميل. قال لي مختارُها الّذي بنيتُ معه صداقةً متينة إنّ اسم قريتهم مأخوذ من كلمة (صفيفا) السريانية وتعني بيت العطشان. وقلتُ للمختار: «إنّني عطشان يا

سيّدي». فقال: «نسقيك من ماء العَين يا ابني». فقلتُ: «لا أريدُ شيئًا كثيرًا، إنّني أريد ابنتكَ يُسرى زوجةً لي». ودُهِش، وأصابتْه سَكتة، وعلتْه بَهتة، ولم يدرِ ما يقول، فأكملتُ: «إنّكم لا تُحرّمون الماء على من جاءكم مُستسقيًا، ولقد تركتُ نهر (التّايمز) بكل مياهه في بريطانيا ورائي، ولا أريدُ أنْ أشربَ إلاّ من مائكم». كنتُ ألبسُ لباسي العسكريّ، البِزّة الأنيقة، والطّاقية الّتي تُشبه القارب المقلوب، والمُسدّس الّذي يستقرّ على جانبي داخل بيته الجِلديّ. كانتْ ثيابي نظيفة، وكنتُ أحملُ على صدري بعضَ الأوسمة اللاّمعة، كان الاقتِران بضابطٍ مثلي قادمٍ من بريطانيا وعمره لا يتجاوز الواحدة والعشرين، ولديه راتبه، ومنصبه، هو حُلُمَ كلّ فتاة، ولكنّ المختار كما يقول أيّ أبٍ مصدومٍ قال: «ليسَ لديّ بناتٌ للزّواج». وضيّق عينَيه، وهو يعقدُ يَديه خلفَ ظَهره، ويرفع ذقنه عاليًا، ويزمّ شفتَيه. ليس هناك إشارةٌ أبلغ من هذه في الرّفض. لكنّني كنتُ أريدُ للحرب الّتي تشتعل في داخلي أنْ تنتهي، ليس بالنّتيجة الّتي انتهتْ بها حرب 1948م، بل بالنّتيجة الّتي أريدُها.

كانتْ أسهلُ الطّرق إلى قلبِ الفتاة أمّها، وأصعبها أباها، ولكنّ أمّها الّتي كانت زوجة المختار، لم يكنْ إلى الحديث معها من سبيل في تلك الفترة، فاتّجهتُ إلى طريقٍ آخَر، إلى شقيقها إبراهيم. توطّدتْ بيننا العلاقات، اطّلع منّي على ما يريد، وكنتُ أمامه وأمام عائلته كتابًا مفتوحًا، وبهذا فتح لي الباب إلى والدته، وسرعان ما اقتنعتْ بي، ولكنّ الأب الّذي دائمًا ما يُمارس دوره التّعقيديّ حتّى ولو لم يكنْ مقتنِعًا به، قال لي وهو يعبثُ بعصاه في مضافته بأحد الجواعد، دون أنْ ينظر في

وجهي: «إنّ ابن عمّها أولى بها، وأنتَ تعرفُ ذلك». فهززتُ رأسي بأنّني أعرف، وقلتُ له: «أنا سأكون ابن عمّها يا عمّي». فاستثقل جوابي، ولم يُعِرْني أيّ اهتمام، وأكمل: «إنّ زواجَها من بدويٍّ في دولةٍ أخرى مُستحيل». وأضاف والدُها بهذا مستحيلاً رابعًا إلى المُستحيلات الثّلاثة. ولكنْ مَنْ قال إنّني أعترفُ بالمستحيلات، حتّى لو كانتْ عشرةً، وهتفتُ في نفسي وقد أخذتْني حماسةُ الشّباب: «ستُزوّجني ابنتَك يعني ستُزوّجني ابنتك». وشددتُ على أسناني من الغيظ. ولفظَ آخِرَ طلقةٍ في فمه: «ثُمّ إنّها لا تزال صغيرة، أربعةَ عشر عامًا لا تعرفُ ما هي أمور البيت، ولا الطّبخ، ولا القِيام بشؤون الزّوج». «أنا أريدُها، وهذا يكفي».

مكثتُ صديقًا لأخيها فترةً طويلة، كان المستحيل يستحيل إلى ممكنٍ مع كلّ شهرٍ، قاتلتُ من أجل رفيقة عمري عامَين كامِلَين لأحظَى بها، لم يعدْ يملكُ عليّ يومي وليلي سِواها، إنّها من بيتٍ كريم، وأنا أريدُ لهذه الجُسور أنْ تُبنَى بين البلدَين، أريدُ لهذه العلائق أنْ تتوثّق، ونظرتُ في المرآة إلى نفسي ذات يومٍ في خضمّ محاولاتي العديدة للظّفر بابنة المُختار: «إنّ بدويًّا شهمًا من جنوب الأردنّ لخليقٌ بعروسٍ حَضَريّة من جنوب القدس». ولانَ رأسُ المختار في النّهاية، ساعدتْني زوجته، لكنْ بهدوء وثقةٍ بعد أن اطمأنّتْ إليّ، كان واضِحًا أنّ المرأة قادرةٌ بحكمتها أنْ تُليّن الجبال الرّاسِية والقلوب القاسية كما يقولون. وأيقنتُ أنّ مفاتيح الأبواب المغلقة تحتفظ بها النّساء الحكيمات، وهكذا أزفَ اليوم المُنتظَر. قال أبوها للشّيخ الّذي يُتمّ عَقْد الزّواج: «لديّ شرط». فقلتُ له: «شروطُكَ كلّها مُلبّاة». «أريدُ أنْ تكتبَ في العَقْد ألاّ تخرجَ من الأردنّ

إلاّ إلى فلسطين، تحديدًا لا تخرج من مدينة الزّرقاء، ومهما سافرَ مشهور فليس له أنْ يأخذها معه، نحن لا نحتملُ بُعدها». وهتفتُ في سِرّي: «يبدو شرطًا بسيطًا، وإنْ كانَ غريبًا، ولكنْ... هل يحبّ الأبُ ابنتَه إلى هذا الحَدّ؟ هل يُبالغ الآباءُ في ذلك؟ هل يتحوّل هذا الحُبّ إلى سِجن، أليس الحُبّ حُرّيّة، فلماذا يُصرّ الآباء تحت ذريعته بأنْ يحوّلوه إلى قيودٍ تُكبّل القلوب؟ ولكنْ... الآباء عجيبون، ربّما لو صرتُ أبًا وصارتْ عندي ابنةٌ غاليةٌ عَلَيّ مثل يُسرى فسأضع شرطًا أغرب من ذلك، حتّى أظلّ أرى ابنتي!!».

وعلتِ الزّغاريدُ من الجانَبين، كان عرسًا بدويًّا حضريًّا، وسَهِر الرّجال في السّاحة يدبكون ويغنّون، ويُهيجنون، وشكّل أهل القدس مع أهل الرّشاديّة مزيجًا رائعا، وراحت النّساء في بيت المختار يرقصْن، وصدحتْ ذاتُ دلّ:

هِيْ ويا وِافْتَحُوا بابِ الدّارْ

هِيْ ويا خَلُّوا المُهَنّي يْهَنّـــي

هِيْ ويا وأنا طلبتْ مِن اللهْ

هِي وما خَيَّبَ اللهْ ظَنّـــي

وصار للحياة طعمٌ آخَر، كانت هذه الفتاة ذات الأعوام السّتّة عشر أعظمُ هديّة وهبها الله لي، دخلتْ إلى قلبي واستقرّتْ فيه، كانتْ هادِئة، ذات حِكمة، ومن رأيِها في أصعب الأمور عرفتُ أنّنا نحن الرّجال نهوي إلى قاعٍ بلا قرار، لو لم نجدْ مثل هذا النّوع من رفيقات الدّرب، وشعرتُ بحلاوة الحياة معها، ولوّنتْ لي اللّوحة القاتمة فيها،

وجعلتْ للأمل معنًى حقيقيًّا، وللرّضا والسّكينة حضورًا فعليًّا. وأنِسْتُ بها حتّى عادَ كلّ شيءٍ من دُونِها مُوحِشًا.

عُيّنتُ بعد زواجي بفترةٍ قصيرةٍ مساعِدًا لقائد كتيبة المُدرّعات الثّانية الكولونيل الإنجليزيّ (جيمس لانت)، وكان الإنجليز ما زالوا يحكمون مفاصل الجيش العربيّ، لكنّهم كانوا في طريقهم إلى الرّحيل، بحيثُ إنّ كلّ مساعدٍ عربيّ كان يحلّ تلقائيًّا محل القائد الإنجليزيّ بعد إعفائه، وبهذا صرتُ على مقربةٍ من قيادة كتيبتي الّتي رحلتْ من فلسطين بشكلٍ نهائيّ واستقرّتْ في الزّرقاء في الأردنّ عام 1953م.

تدرّجْتُ في المناصب العسكريّة، حتّى صرتُ قائدًا للّواء المدرّع (40)، ثُمّ صرت قائدًا للجبهة الشّرقية. كنتُ أسعى إلى غايتي، كانت الطّريق تبدو ممتدّة أمامي، وأنا أركبُ الشّقراء وأحلّق في الفضاء عِوضًا عن الرّكض في المدى.

جاء (جيمس لانت) مُمتطِيًا حِصانًا من نادي البولو ذات مرّة إلى الكتيبة، ليتفقّد الطّابور الصّباحيّ، وكنتُ أنا بانتِظاره باعتباري مُساعِده، قال لي من على صَهوة جوادي: «امشِ معي». كان يريدُني أنْ أمشي على أقدامي إلى جانبه وهو على حِصانه، غلى الدّمُ في رأسي، إنّ هذا العِلج يريدُ إهانتي حتّى وإنْ لم يقصد، هذا العَجَميّ لا يفهم الكرامة العربيّة، ولا معنى أنْ يقول هذا لبدويٍّ مثلي، الكرامةُ فوقَ العسكريّة، فرفضتُ على الفَور، ورفعتُ كتفَيّ مُستنكِرًا، وقلت: «سيّد جيمس إنّكَ في الأردنّ ولستَ في الهند، وأخشى أنّ فِعلكَ هذا ينطوي على قدْرٍ من الإهانة، وأنّ عليكَ أنْ تعتذر عنه». فهزّ رأسه هو الآخر، وامتعضَ، ونزل عن جواده المُطهّم، وسِرْنا راجِلَين.

لم ينسَها الرّجل المتعالي لي، ألّف مُذكّراته مدفوعة الأجر فيما بعدُ، كلّ الّذين يتركون مواقعهم في العسكريّة يفعلون ذلك، لماذا يا تُرى؟ هل هو الحنين إلى الماضي؟ الماضي الّذي تمنّوا لو ظلّ رفيقًا لهم أو أنّهم كانوا يستطيعون ذلك. شكّك الكولونيل في كِتابه هذا بقدراتي المِهنيّة، وعدّني غيرَ منضبطٍ، ولكنّ تاريخي الّذي كان يصعد بخطّ مستقيمٍ إلى السّماء كان يقول غير ذلك.

كانتْ نجاحاتي في السّلك العسكريّ تتوالى، من الطّبيعيّ أنْ يصنع هذا النّجاح حولك طائفتَين من النّاس: الحُسّاد، والمُشكّكين. مضيتُ، الحُسّاد يموتون بحسرتهم، والمُشكّكون نجاحاتي القادِمة تُلجِمهم.

الميداليّة الّتي حمتْ قلبَ الحُسين قبلَ سنتَين صَيّرَتْه مَلِكًا، كان لا يزال في السّابعة عشرة، لكنّ ذلك كان كافِيًا لكي يجلس على العرش. وفي مصر صَعِدَ جمال عبد النّاصر، استطاع أنْ يُزيح مع الضّبّاط الأحرار الملك (فاورق) عن العرش.

وهكذا، في الأردنّ كانت شمسُ ملكٍ تصعد، وفي مصر كانت شمس ملكٍ تهبط. وهل الحياة إلاّ صعودٌ وهبوط؟!

* * *

(27)

الرّجل اللّغز

«كلّ شيءٍ يسير وَفق ما هو مُخطّط له. لا شيءَ يحدثُ مُصادفة. المُصادَفة لا وجود لها إلاّ عندَ السُّذّج الّذين تسيّرهم الحياة، أمّا الّذين يُسيّرونها ويُشكّلون مفرداتها فلا مُصادفة لديهم أبدًا. الصّدفة انتظارُ الأبله، وعِلّةُ العاجز». كان غلوب يتحدّث مع شخصٍ آخَر، ربّما كان في الخارج. سأله الصّوت: «هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟». «لا تخفْ، لقد صنعتُ كلّ شيءٍ حسب الخُطّة، إنّها ثمانيةٌ وعشرون عامًا، لقد كنتُ وفيًّا لتاج بريطانيا، لم أغفل حتّى عن التّفاصيل الدّقيقة، كان ذلك مُهِمًّا، حتّى نظراتُ عينَيّ، وحركاتُ شفتَيّ، فعلتُها ضمنَ ما هو مُحدّد. التّدريبات الصّباحيّة، الاجتِماع مع القادة، الدّخول في الحرب، المعارك الجانبيّة، القرارات، تفويض الصّلاحيّات، والنّظر في الوجوه، واللّباس، والطّعام، والشّراب، لم أتناول كأس ويسكي واحدة أمام أيّ عربيّ، دافعتُ عن شرفِ المرأة العربيّة وكرامتها حينَ كانت تُهان من العربيّ، لولا لون وجهي وعينَيّ، لكنتُ عربيًّا صِرْفًا، لكنّ دمائي لن تكون إلاّ لبريطانيا العُظمى. لا تخفْ يا سيّدي، ثمانية وعشرون عامًا في الأردنّ، فعلتُ في كلّ دقيقةٍ منها ما هو مُسنَدٌ إليّ بأمانة، أنا أعرفُ كيفَ يُكتَب التّاريخ، وأنا كنتُ كاتبَه الأوّل هنا، دَعْك من الرّتب الأخرى، دَعْكَ من النّياشين، دعك من العروش والكراسي، أنا كنتُ أمنح النّياشين،

وأنا الّذي كنتُ أثبّتُ الكراسيّ، وأنا الّذي كنتُ أدفع رواتب الضُّبّاط وشيوخ العشائر من ميزانيّة الدّولة، كنتُ رجل الظّلّ، صاحب الظّلّ الطّويل، لم ينجُ من الشّبكة أحدٌ، لا تخفْ، لقد كانوا يفعلون ما أطلبه وهم سُعَداء، اليوم هل تكون مهمّتي قد انتهتْ؟ هل يمكن أنْ أرتاح ما تبقّى من عمري؟ أريدُ أنْ أرى أولادي وأحفادي، وأعيش تحت ظلال الزّيزفون، وأقرأ شكسبير براحتي، وأسمع موزارت في هدوء، وأترنّم بأشعار ميلتون كما أحبّ، ولربّما أكتبُ إذا كان الوقتُ مناسِبًا. هل تأذن لي سيّدي؟». جاءه الصّوتُ الآخَر: «نعم، سنقول ذلك للملك». وطنّ صوت طويل. طووووط، كان ذلك نغمة التّشفير.

اتّصل بي ضابطٌ كبيرٌ مُقرّب من الملك: «هل أنتَ معنا؟». «معكم، إذا كان الأمر مع الوطن». «هو كذلك». «ماذا هنالك؟». «غلوب؟». «هل الأمر سرّيّ؟». «للغاية».

أرسلتُ سريّة تابعةٍ لي إلى منزل غلوب، أعطيتُها الأوامر: «حاصروا المنزل، لا يدخل إليه أحدٌ ولا يخرج منه أحدٌ». حُوصِر المنزل، كان عددٌ كبيرٌ من المُسلّحين قد طوّقوه، أزاح (غلوب) السّتارة، ونظر إلى الخارج، هتف وهو يبتسم: «الأمر لا يحتاج إلى كلّ هذا». رجع إلى المطبخ، غلى الماء، وصنع لنفسه كوبًا من الشّاي الإنجليزيّ، وجلس في حديقة البيت يترنّم. سرح بخياله قليلاً، رأى نفسَه في البدايات، تذكّر الرّسالة الّتي بعثَها له أبوه من جبهة الحرب في فرنسا عام 1914م: «ولدي الكبير العزيز آمُل أنْ أراكَ نبيلاً بريطانيًّا بسيطًا وأمينًا. إنّكَ لن تستطيع أنْ تكون شيئًا أفضل من ذلك مهما كنت». ولقد كان كما تمنّى أبوه. تذكّر قصيدة (جورج هربرت) الّتي كانتْ مس (لنتون) ترفع يدها

الهزيلة وأصابعها على حدة وقد انحنتْ في صورة مِخلب، وهو يردّد من ورائها:

«علّمْني يا إلهي ويا ربّي
بكلّ الأشياء الّتي تريدُ أنْ نراها
وأنّ كلّ ما أفعلُهُ
لأجلكَ يا إلهي
لكَ يا إلهي يكونُ العَمَلُ مُبارَكًا وجميلاً».

تذكّر ذلك الجواد الرّاكض (نوبي)، كان في سنّ الثّامنة، السّنّ الّتي كان يعتقدُ أبوه أنّه صار عليه أنْ يُصبح فارِسًا، كان يجري به بسرعةٍ كبيرةٍ في ربوع (فارمبرو)، بين الأشجار العالية. تذكّر القِطارات البُخاريّة الّتي تعبر بين جبال سويسرا الفاتنة وغابات ألمانيا السّاحرة وسهول فرنسا الممتدّة، فهاجَه الحَنين... كلّ هذه الذّكريات البعيدة، سيعود إليها اليوم، إلى كلّ ذلك الجَمال مرّةً واحدة.

أدّى الحرس لي التّحيّة، طرقتُ الباب، وانتظرتُ في الخارج، سمعتُ صوتَه من الدّاخل: «مشهور؟». أجبتُه: «نعم». ردّ: «ادخلْ». هتفتُ: «لا وقتَ لدينا». ردّ بحنوّ أبٍ عَطوف يُحدّث ابنه الحبيب: «ألا يوجد وقتٌ لشرب الشّاي الإنجليزيّ معي ولو لمرّة أخيرة؟». دفعتُ الباب، وولجتُ إلى البيت، عبرتُ الغُرف، كان البيتُ نظيفًا ومُرتّبًا، ويحكي قصّة الرّجل في كلّ زاويةٍ منه، وصلتُ إليه، كان يُعطيني ظهره جالِسًا إلى كرسيّ خشبيّ هَزّاز، وهو يرتشف الشّاي، كانتْ هناك على المنضدة كأسٌ أخرى، سكب الشّاي من الإبريق الخزفيّ، وقال: «هي

لك. تفضّل». وتناولتُها، وظللتُ واقِفًا، قال لي: «هاتِ لك مِقعدًا من الدّاخل. لن أؤخّرك. اطمئنّ». هتفتُ في سِرّي: «هل كان الرّجل يعرفُ كلّ شيءٍ، حتّى ساعة قدومي إليه، حتّى هذه الكأس الّتي أعدّها؟!». قاطعَ وساوسي قولُه: «هل أُحضره لكَ أنا؟». سارعتُ إلى إحضار الكرسيّ، وجلستُ قُبالته، كان يلبس بِزّة مدنيّة أنيقة، وحِذاءً لامِعًا، وقد رَجّلَ شعره الذّهبيّ الّذي شاب أكثره، ووجهه بدا أكثر احمرارًا من السّابق، وشارباه الغليظان قد صارا رماديَّين، والشّق الّذي في حنكه يتهدّل جِلدُه المُرتخي فوق ياقة القميص، وشفتاه رطبتان من رَشْفِ الشّاي، كان يبدو مستمتِعًا جِدًّا، ولم يبدُ عليه القلق، ولا الحذر، ولا الخوف، وكان يتكلّم معي كصديقٍ قديمٍ، التقاه بعد أنْ غابَ عنه فترةً طويلة. قال: «هل السّيّارة سوداء؟». ورددتُ: «نعم، هل تعرفُ كلّ شيء؟!». فأجاب: «كلّ شيءٍ». أردتُ أنْ أتلو عليه الإرادة الملكيّة، ولكنّه أشار بيده ألاّ أفعل: «أنا على دراية بها»، فأكملتُ: «أيّها الجنرال لم تعدْ جنرالاً». وضحك، ولأوّل مرّة أراه يضحك بهذه الصّورة، لقد أمال رأسَه ونظر إليّ من تحت عينيَه، وهو يتابع ضحكته. وشعرتُ بشيْءٍ من الارتِياب والانقِباض، وسألني مرّة أخرى: «هل سترافقني أنتَ إلى المطار؟».

فأجبتُ وقد اضطربتُ: «نعم». فرفع رأسَه، وقال: «خيرُ رفيق، إنّها سنواتٌ طويلةٌ منذ ذلك اليوم».

وانطلقتْ بِنا السّيّارة إلى المطار، جلسنا معًا في المقعد الخلفيّ، نظرتُ إليه، كان صامِتًا متأمّلاً، لم أستطعْ أنْ أُصدّق أنّ الرّجل الّذي كنتُ أتمنّى أن أكونَ مثله في يومٍ من الأيّام نقوم الآنَ بطرده من الأردنّ،

وتوقّفتُ قليلاً عند كلمة (طرده)، هل هذه حقًّا الكلمة المُناسبة لما يحدث؟ ربّما، وربّما لا. لا، لا أكادُ أصدّق أنّ الرّجل الّذي حملني بسيّارته السّوداء من الرّشاديّة إلى العسكريّة، ورفّعني في السّلّم العسكريّ إلى الرّتبة الّتي خوّلتْني أنْ أقوم أنا بنفسي بتوصيله إلى طائرة عودته إلى بلاده بالسّيّارة نفسِها. هل القدر يلعبُ معنا لُعبته؟ مَنْ خطّط للأمرَين؟ إنّها ثلاثة عشر عامًا، منذ تلك اللّحظة، لم أكن الرّجل الأوّل في حياة غلوب، لكنّه بالتّأكيد كان الرّجل الأوّل في حياتي في مرحلةٍ ما منها، وها أنذا أنهيها، أنهي الرّجل إيّاه، لقد كنتُ صغيرًا في الرّابعة عشرة عندما كانتْ عيناه تلمعان، وشَعره يلمع، ورصاص مُسدّسه يلمع، وصوتُه يلمع، والنّياشين الّتي على صدره تلمع، وكلّ شيءٍ فيه يلمع، وكان بطلي في ذلك اليوم، كان نموذجًا تمنّيتُ أنْ أحتذيه، أنْ أصل ولو إلى جزءٍ مِمّا وصل إليه، واليوم في هذه اللّحظات، أقوده إلى المطار، ليغادر الأردنّ دون رَجعة.

ولكنْ مَنْ كان هذا الرّجل؟ مَنْ كان قبله لورنس؟ مَنْ كان قبله عبد الله فيلبي؟ والآخَرون...؟ لم يكونوا رِجالاً، لقد كانوا ألغازًا، إنّهم كالحرب، ألغازٌ تُضاف إلى ألغازٍ أخرى حَفلَ بها التّاريخ، وستظلّ ألغازًا مهما دارتْ حولهم التّكهّنات، وادّعى كلّ أحدٍ أنّه يعرف بالضّبط لماذا جاؤوا، وكيفَ رحلوا؟

قلتُ له: «لقد كنتَ صديقًا». نظر إليّ وابتسم، وربّتَ على كتفي كما لو كنتُ طِفلاً، وقال: «لقد كُنّا أصدقاء أنفسنا». «لن أنسى ما قدّمْتَه من أجلي». «أتمنّى ذلك». «ماذا ستفعل في بريطانيا؟». «سأركب الخيل، والدّراجات الهوائيّة، وأقرأ، وأملأ عينيّ من جَمال بلادي بعيدًا عن

دُخان القنابل وأصوات المدافع، وأقوم بالرّحلات، وراتبي التّقاعدي من الحكومة الأردنيّة سيظلّ جارِيًا». تظاهرتُ بأنّني أعرف هذه النّقطة الأخيرة، وقلت وأنا أخفي غيظي: «هنيئًا». «إذا فكّرتَ بزيارة بريطانيا فستجدني بانتِظارك». «بريطانيا؟» ونظر إليّ مُستغرِبًا من استغرابي، فأكملتُ: «لقد احتلّتْ بلادَنا». ضحك، وقال: «لقد خلّصْناكم من الاحتِلال». وأردف: «استنجدتم بنا من أجل دولتكم، ثُمّ ها أنتم تلعنونا، لكنّكم لستم أوّل من استنجَدَ ولعن، ما يبقى هو الأثر، أمّا اللّعنات فتذوب في الفضاء. وما صنعتْه بريطانيا العُظمى في الشّام والعراق سيظلّ أثره قرونًا». «هل كنتَ تؤدّي مهمّة؟». «أنا وأنتَ نؤدّي مهمّة يا مشهور، نحن بدون ذلك كائنات من ورق». ومال إليّ بأذنه، وقال: «أريدُ أنْ أخبرك بِسِرّ؟». فتحفّزتْ جوارحي، «لقد اخترتُ كلّ شيءٍ، من أوّل لحظةٍ عشتُ فيها في العراق إلى هذه اللّحظة، حتّى مرافقتك لي». وسّعتُ عينَيّ، أتمّ: «أنا أحببتُك مثل ابني. لأجل ذلك سأنصحك نصيحة، الرّيح لا تكسر إلاّ العود اليابس؛ دَعْ هذه قاعدتك في المُفاوضات. والذّئب لا يأكل من الغنم إلاّ القاصية؛ دع هذه قاعدتك في الحرب، ومهما حدث لا تفقد حضوركَ الذّهنيّ، ومن أجل أنْ تنتصر فرّقْ تَسُدْ». وسألتُه: «هل كنتَ تُفكّر بردّة فِعلٍ عندَ عَزلك؟». وأجابني بسؤال: «ماذا تعني؟». «أنْ تستميل البدو ومَنْ يُحبّك في الجيش من أجل أنْ تقوم بحركةِ تَمَرُّد». ونظر إليّ مع ابتِسامة باهتة، وقال كمن يعاتبني: «جئتُ إلى هنا ضابطًا بريطانيًّا شريفًا، وأعود إلى بلادي ضابطًا بريطانيًّا شريفًا، نحن نعمل من أجل مَجْد بلادِنا، وأنتم تعملون من أجل أمجادكم الشّخصيّة، وأنا لا أمجاد شخصيّة لي، ولا

يهمّني مَنْ يحبّني مِمّن لا يُحبّني، ذلك مِمّا يهمّ النّساء، يهمّني أنْ أكون قد قمتُ بها وُكِلَ إليّ بأمانة». وأدركتُ على الفور الفارق في تفكيره وتفكيرنا، وسألتُه وأنا أودّعه على سُلّم الطّائرة السّؤال الأخير: «إذا كتبْتَ مُذكّراتك، فماذا ستقول عنّي؟». فأجاب وهو يشدّ على يدي بحرارة: «ضابطٌ أردنيٌّ شريف».

***

(28)

هَلِ الذَّاهِبُونَ إلى اللهِ يَعُودُونَ؟

نحن ناجِحون، ولذلك نُحارَب! وهل يُفسِد الذّوقَ إلاّ الثّمرة؟ سنمضي. مثلما مضى كثيرون قبلَنا، الّذين يذكرهم التّاريخ محظوظون، والّذين يلعنهم كذلك، ربّما حجرٌ واحِدٌ سيفعل بالبحيرة كلّ هذه الثّورة، هذا الاندِياح، هذه الحركة الّتي تستمرّ حتّى تتنفّس على الضّفّة البعيدة، وهذا الهدير، هذه العاصِفة، وهذه الأمواج الّتي لا يُوقِفها شيءٌ، هل سمعتَ بقلبكَ ماذا يقول البحر؟ إنّه يقول: «أنا صدى ما يُلقَى فِيّ».

قالت سوريّة: «سنسحق كلّ مَنْ يقترب من الحدود». قالت الأردنّ: الجنوب السّوري يتبع لنا، سنطهّره بالمدافع». قالتِ العراق: «أنا مشغولةٌ بالأكراد على حدودي الشّماليّة لن أستطيع المجيء لتحرير وطنٍ بعيدٍ». قالت السّعوديّة: «إنّكم لا تستحقّون نِفطَنا». قالت مصر: «نحن ضِدّ الإمامة المتخلّفة في اليمن، علينا أنْ نُحرّرهم من هذا الجهل» بعثتْ برصاصها الّذي قتلَ كلّ شيءٍ. قالت لبنان: «بالرّغم من انشِغالي بالحرب الأهليّة وبالنّزاع بين الطّوائف، لكنّني يُمكن أنْ أُشارِكَ في الذّبح». كانت الحشود العسكريّة العربيّة تتمركز على الحدود، الحدود الّتي تُشبه حدّ السّكّين، لكنّها تذبح دون أنْ تُرى، الحمقى يستمرّون في المهزلة، المهزلة الّتي قالَها جدّي لي ذات يومٍ، لقد اختلطتْ عليّ الأيّام يا

جدّي، وكَثُرَت المهازل. أمّا (سايكس) و(بيكو) فقد جَلَسا ذاتَ زمانٍ في خيمةٍ بدويّة يحتسون القهوة العربيّة، وراحوا يتفرّجون علينا ونحن نتصارع كالدِّيَكة، وهم غارِقون في الضّحك.

قال الّذين يملكون العدد لا العقل: «تعالَوا نتّحدْ». اتّحادٌ هنا، وهناك. لكنْ هل سمعْتُم باتّحادٍ يزيدُ الهوّة، ويجعل الفرقة تزداد، كان الزّعماء يشتمون بعضَهم كالأولاد، ويبولون في سراويلهم كالأطفال، ويوجّهون حرابَهم إلى صدور الشّعوب. لم يكنْ يجمعُنا شيءٌ، كانت دول الاستِعمار قد زرعتْ اثنين وعشرين خنجرًا في خواصرنا، ورضينا أنْ تبقى الخناجر، وفرح بعضُنا بمنظر أخيه وهو ينزفُ دمًا، وما كان ينظر إلى خاصرته الّتي كانتْ هي الأخرى تنزف!

وكانتْ إسرائيل تبني في كلّ اتّجاه، في السّلاح، والبشر، والمُدُن، والتّكنولوجيا، والحياة، والشِّعر، والأدب، والرّياضة، وكُنّا نهدمُ في كلّ اتّجاه.

وكان النّاس في هذه الفوضى، حيثُ لا بوصلَة، يأملون، وهل لليائس إلاّ أنْ يتعلّق بقشّة الأمل في عصف الرّياح؟! كان المُهجَّرون في المنافي يعيشون في الخِيام، يأكلون التّراب، ويشربون الطّين، ويقبضون بأصابعهم المرتجفة على مفاتيح بيوتهم، وينتظرون أن يعودوا إليها، كانوا يومئذٍ أكثر شعوب الأرضِ رومانسيّة، ليس لشيءٍ إلاّ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الأنظمة ستُمرّغ أنفَ إسرائيل في التّراب، وكانَ أنفُ إسرائيل يكبر!

وُلِدَ ابني (رمزي) وأنا في الزّرقاء، في المعسكرات، ووُلِد لي بقيّة أبنائي هناك، أهداني الملك حسين مُسدّسًا من نوع (سميث ويسون)،

شكرتُه، كنتُ أعرف: «السّيف للقتال، وللعاصي الحجر». وأهداني العراق مُسدّس طارق بن زياد. ما نفع المُسدّسات يا جدّي إنْ ظلّتْ في الجِراب؟! وُلِدتُ مُقاتِلاً، وتلك عقيدتي.

كان أبنائي يكبرون، وكانتْ زوجتي (يُسرى) تتولّى رعايتهم في غيابي، لم يكنْ لي من فضلٍ يُقاسُ إلى فضلها في تنشِئتهم، الأمّ الّتي تُعِدّ أولادَها على يوم القِراع، والنّضال، وأنّ الحياة ليستْ طعامًا، هي أمّ مُناضِلة. كانتْ تقوم بهذا الدّور على أكمل وجه. كنتُ أصطحبُ بعضَهم أحيانًا، أقول لهم: «تلك فلسطين الّتي سُرِقتْ مِنّا، وهذه مدافعنا، لا عِشْنا إنْ لم نُعِدْها».

تحمّلتْ زوجتي غيابي، وكذلك فعلتْ أمّي. كانت أمّي قد انتقلتْ من الرّشاديّة إلى الحسا عند شقيقي زيد، ولم تكفّ عن عادتها في البُكاء، وإنْ كانتْ قد أنِسَتْ بوجود أبي قريبًا منها، كانتْ تقول: «فقدتُه مثلما فقدتُكَ يومًا». فيضحك: «ولكنّني عُدتُ». فتتجاهل عبارته، لتسأل: «هل هو بخير؟». فيردّ: «إنّه سيُصبح جنرالاً، هذا الولد المعوط سيُصبح جنرالاً يا حِصّة» فتبكي من جديد، ومن بين دموعها تُناكِفه: «لولا أبي ما تزوّجْتُك»، فيُناكِفها: «سأرحل إلى حيثُ مشهور إذًا». فتصرخ: «دَعْ مشهور في معركته». كانتْ حياتي في العسكريّة مجموعة من المعارك، والمُشاحَنات، لم أسلمْ من زملائي الّذين نَفِسوا عليّ هذا التّقدّم في مشواري، وهل يهدي الله إلاّ مَنِ اجتهد!

قلتُ لِغازي ونحن نُفتّش مجموعةً من الجنود: «ما الّذي يمنع هؤلاء من أنْ يقاتلوا في فلسطين ويكون لهم النّصر؟». كانتْ بنادقهم على أكتافهم رماحًا مُشرعة، كانت الحماسة تفور من وُجوههم، وكانوا

يصرخون بالنّشيد الوطنيّ كأنّهم ليوثٌ هائجة، ولو وجدوا أمامهم الصّخور لأكلوها. ردّ: «لو كانتْ هناك إرادة». «صدقتَ، ولكنْ لماذا لا نصنعِ هذه الإرادة؟». كانتْ معركتي معركة إرادة إذًا، معركة مع هذا العَفَن الطّويل، وهذه المُشاحنات البَغيضة.

استطعتُ أنْ أقفز قفزاتٍ كبيرةً في الترقّي لرتبة عقيد ثم لرتبة عميد، ولواء الأربعين تَمّ تشكيله من كتيبة المدرعات التي كنت أقودها، وقد أعطيتُ جهدًا كبيرًا لتدريب هذا اللواء تدريبًا صحيحًا على أنواع القتال كافّة، حتى أصبح هذا اللواء من خيرة ألوية الجيش.

كانت (يُسرى) قمري في الصّحراء، في ظلماتها الموغلة، في رمالها الممتدّة، وفي لياليها المُوحِشة، كانت قمرًا مُنيرًا. رافقتْني السّنين كلّها بقلبٍ أشدّ ثباتًا من قلبِي، ورأيتها أعظمَ ما وهبني الله، وقفتْ إلى جانبي كأنّها تريدُ أنْ تقول أنا جِدارُك الحامي، وأنا كنتُ أقول: أنتِ ملاكي الحارس، أعطتْ للصّبر معنًى حقيقيًّا، وجعلتْني أرى الرّضى في كلّ شيءٍ. كانتْ إذا عَبَسَتِ الخطوبُ ضَحِكَتْ، وإذا تَزَلْزَلَتِ الأمورُ ثَبَتَتْ، وإذا تراجعتُ تقدّمَتْ، وإذا أقدمتُ عظّمَت.

كان البيتُ من دونها أطلالاً مُهدّمة، إذا حلّتْ فيه حلّتِ البركة، وإذا ضَحِكتْ ضِحَكَتْ معها الجدران، والشّبابيك، والأشجار، وسورُ البيت. وإذا مشتْ اخضرّتِ الأرضُ من تحتِ قدمَيها، وإذا أقبلتْ فاحتْ رائحة الورد والياسمين. هذه المُطهّرة الّتي أعطتْ لحياتنا أنا والأولاد معنًى لا يُمكن أنْ تُختَصر في كلمات، لقد كانتْ فوق الكلام والوصف.

زرعتْ في حديقة البيت شجرةَ التّين الّتي أحضرتْها من قريتها

العتيقة، كانتْ تحنّ إلى الماضي يومَ كانتْ طفلةً تتسلّق هذه الشّجرة في القرية، وتأكل هي ورفيقاتها. شجرةٌ أخرى عبرتْ معها الحدود، كانتْ تعدّها رمزًا للفلسطينيّ الّذي صبر على الضّيم والظّلم والأذى، شجرة الصّبّار، زرعتْها هي الأخرى في حديقة بيتنا الصّغيرة في المعسكرات في الزّرقاء، وكانتْ تسقيها، وعندما كبرتْ شجرة التّين ورحلْنا إلى عمّان، بكتْ عليها، كانتْ تتمنّى أنْ تحملها معها، لكنّ الشّجرة كانتْ قد ضربتْ جذورها في الأرضِ عميقًا. ودّعتْها كما تودّع حبيبةً، وبكتْ على ساقِها، وأخذتْ منها بعضَ الأغصان والأوراق ذِكرى. كانتْ تقول لي: «لديكَ أحبابُك من الجنود في الجيش، ولديّ أحبابي من الأشجار في الحديقة». تبتسم، وتُكمِل: «أيّهما أوفى لصاحبه يا ترى؟». ثُمّ تُطلِق ضحكةً خفيفة.

على أطراف الحديقة، كانتْ قد زرعتْ شتلاتٍ من الورد الجوريّ، والنّرجس، والزّنبق، كان السّور كلّه وردًا، كانتْ معسكراتنا للحرب، وكان هذا الورد يُخرجنا من تعب الحرب إلى راحته، كان بياض تلك الورود يزرع في القلوب راحةً وسَكِينة. أمّا على مدخل البيت فقد نمتْ شجرةٌ كبيرةٌ من الياسمين، أوّل ما يلقاك عند وصولك إلى البيت عبقُها الّذي يفوح في الأجواء. لقد جعلتْ (يسرى) حياتي حديقةً من الورود فوّاحة الشّذا، وكانتْ هي سيّدة كلّ هذه الورود، وما كان ليزهر على الجدار ولا في القلب وردٌ لولاها، ولولا روحها الطّيّبة.

مَرِض جدّي، إنّه عمرٌ طويلٌ هذا الّذي عاشَه، شاهدَ بأمّ عينِه أفول الدّولة العُثمانيّة، وقدومَ المحتلّ على إثره، لم يكنْ بين رحيل السّلطان عبد الحميد ووعد بلفور من زمنٍ، إلاّ زمن القبول بالعدوّ مُحرِّرًا. قضى

سنواته الأخيرة وهو يتحسّر على فلسطين، على حيفا ويافا وعكّا، على الجليل، على المجد الّذي ضاع، ولكنْ يا جدّي لماذا تتحسّر عليه، ألمْ نُضِعْه نحن؟ لا يتحسّر على ما فرّط في مُلْكِ إلاّ ضعيفٌ خَوّار، هل كُنّا بهذا الضّعف يا جدّي؟!

أتيتُه في الرّشاديّة، مضاربنا صارتْ كما قال زهير: «أثافيّ سُفعًا». لم يعدْ لها ذلك الألق، يومَ كانتْ تستقبل الثّوّار القادمين من أحراش يعبد، والمُناضلين الّذين يحملون صَفَّين من الرّصاص، اشتاق جدّي إلى أنْ يراهم من جديد، كان يتساءل: «لماذا لا يأتون إلينا؟ هل انتهى الثُّوّار من فلسطين؟ إنْ كان الأمر كذلك يا مشهور، فاترك الجيش كما فعل خالك نائل، وجهّز طليعة من الثّوّار لتُقاتِل في فلسطين؟ لا يُمكنني أنْ أعترف ولو بيني وبين نفسي أنّ بلادنا ضاعت! ثُمّ يقوم إلى السّارية الّتي فيها وثيقة رفضه لوعد بلفور، ويُخرجها من جِرابِها، ويقرؤها، ويمدّها إليّ لأقرأها عليه بصوتٍ مرتفع، ثُمّ يهزّ رأسه، وأرى دمعته تسيل على خدّه. أسأله: «هل تُهديني هذه الوثيقة؟». فينتفض وهو جالسٌ في مكانه: «كلا ما دمتُ حَيًّا، فإنْ مِتّ فحافظ على العهد الّذي قطعْناه على أنفسنا ذات يوم». ويسأل من جديد: «أنشدّ على الخيل؟». فأقول له: «إنّها تسعون عامًا يا جدّي!». فيقول بتحدٍّ: «أنا أكثرُ شبابًا منك». ثُمّ يتكِئ، وينظر في المهمه الممتدّ أمامنا، ويهمس بصوتٍ حزين: «لقد سارا الدّرب معًا، إلى نهايته، عاد هارون، ولكنّ (نائل) لم يعدْ، هل الموتُ يصطفي رِفاقه؟». أُواسيه: «لقد ذهب إلى الله، وهل الذّاهبون إلى الله يعودون؟ إنّهم يرون من الكرامة ما يُزهّدهم في الدُّنيا». «أنا أريده أنْ يعود ليقول لي ما وجد، فإنْ وجد الله فوافرحتاه، وإنْ وجدَ غير ذلك فلأبكينّ عليه

وعلى نفسي». «إنّها جنّاتٌ يا جدّي، إنّه مشغولٌ عنّا بعالَمه».

كان خالي طيفًا، مرّ في حياتنا خيالاً لا يُستعادُ إلاّ بصورةٍ ضبابيّة، تزوّج في هدوء، لم يمكث مع زوجته إلاّ قليلاً، تركَ كلّ ما له هنا، وذهبَ إلى هناك، عاشَ غريبًا، لكنّه كان يرى أنّ البندقيّة رَحِمٌ هي الأخرى جمعتْه بخيرة الرّفاق، لكنّه حتّى بين رِفاقه كان صَموتًا، إذا تحدّث تحدّثَ همسًا، وإذا نظر أطال النّظر، وعيناه تترقرقُ فيهما دمعةٌ يتيمة تنحبس في الجفن دون أنْ تنزل. لم يكن استشهادُه حدثًا عاديًّا في عائلتنا، ومع أنّ جسده نُقِلَ إلى عمّان فدُفِن فيها، لكنّ روحه ظلّتْ في القدس. كان جدّي يُحبّه كثيرًا، أقربَ أولاده إليه من زوجاته الكثيرات، تقاسمتُ أنا معه قلبَه، ولكنّ الشّهادة رفعتْه إلى أعلى القلب. وفي القلوب منازل ودرجات كما في الجنّة تمامًا.

قال جدّي وهو يئنّ في مرضه: «يا مشهور». «لبّيكَ يا جدّي». «أريدُ أنْ أرى نائل». ضيّقتُ عينَيّ؛ هل كان يهذي؟ سألْتُه: «نائل؟». أجابَ: «أريدُ أنْ أرى موضع استشهاده اللّيلة، أريدُ أنْ أرى المكان الّذي قاتلَ فيه، ومنه صعدتْ روحه إلى رحمانِها». قلتُ : «يا جدّي، القدس ليست قريبة، ليست الحسا ولا القُطرانة، حتّى نذهبَ ونعود». ولكنّه أصرّ وهو يشدّ على أسنانه، ويُغمض عينَيه: «أنا أريدُ أنْ أراه يا مشهور». حينَها تأكّدتُ أنّ جدّي يهذي. غطّيْتُه جيّدًا، وقرأتُ عليه بعضَ الأشعار حتّى نام. في الصّباح كان جدّي قد رحل إلى حيثُ نائل، إلى الله.

***

(29)

صَداقةُ الفُقراءِ تُرقّق القَلب

«إنّهم يُحاربونني يا يُسرى؟». «وهل تُرمَى إلاّ الشّجرة المُثمرة؟». «إنّني أخافُ أنْ يلفّقوا لي التُّهَم حتّى يتخلّصوا منّي؟». «سيتّهمونك، طالَ الأمدُ أمْ قَصُر، نحنُ نُتقن فَنّ قَتْل الآخَر، ولكن انظر إلى قلبِك، هل أنتَ راضٍ عمّا تفعل، فإنْ كان ذلك كذلك، فما يضيرُكَ ما يفعلون؟!». «الطّعنة الّتي تأتيني في الصّدر أعرفُ من أينَ تأتي، أمّا تلك الّتي تأتيني من الخلف فهي الّتي أخافُ منها». «كُنْ أنتَ في كلّ الأحوال، فإنّ المِحَن لا تُغيّر الرّجال». «لقد تغيرْنا كثيرًا يا يُسرى». «انظر إلى الّذين يسكنون في الخِيام فذلك أدعى أنْ يرقّ قلبُك وتقوم بحقّ الله فيهم، إنّهم ميزانٌ لإنسانيّتنا». «إنّنا أصلُ مأساتهم». «ولكنّنا يُمكن أنْ نُخفّف عنهم، إنّ صداقة الفُقراء تُرقّق القلب يا مشهور».

وفي الجيشِ صِغارٌ كما فيه كِبار، وفيه مُتسلّقون كما فيه مُخلِصون، وفيه ذوو قلوبٍ حاسِدة كما فيه ذوو قلوبٍ نقيّة، ولعلّ المواقف تقدّم هذا وتؤخّر ذاك، ولعلّ المِحَن تَمتحِن فتستصفي، ولكنّ القائد إذا كان لا يسوسُ أهله ويرعاهم حقّ الرّعاية انفلتوا من بينه ومن تحتِ أصابعه، في تلك الفترة الحَرِجة كانتْ في الجيش شخصيّاتٌ كان همّها أنْ تصل بأيّ ثمنٍ، ولو كان هذا الثّمن إلغاء الآخر، أو كَسْره، أو استِخدامه مطيّة، أو إخراجه من اللّعبة، لقد صار من المُضحِك المُبكي أنْ ترى

الأقزام الّذين لم يدخلوا معركةً قطّ، ولم يُطلِقوا رصاصةً واحدة حتّى ولو كانتْ في الهواء، ولم يكنْ دورهم في السّابق أكثر من سائقين أو مُرافقين، قد تربعوا بالتّزلّف والنّفاق والتّملّق على المواقع القياديّة الأولى، وراحوا يَكِيلون الاتّهام لهذا ويَكِيدون لذاك، وقد ساهمَ ذلك في تفريغ الجيش من مُقاتليه الحقيقيّين، ليأتي على آثارهم أطفال الحرب غير الشّرعيّين!

كان جدّي يأتي بالقمح من إنتاج الأرض التي مَلَكَها وحَرَثها وزَرَعَها، وكان يُعينُ جدّتي على طَحْنه كي تصنع منه خبزًا للفَخِذ من العشيرة بواسطة فرن البيت البدائيّ الذي كان حَقًّا مَشاعًا لمن يريد أنْ يخبز فيه... جاء أبي بعد جدّي وكان يشتري الطحين من مطحنة البلدة ويُعطيه إلى والدتي كي تصنع منه العجين، ثُمّ تُرسِل العجين معي إلى فرن الحارة كي يصنع الخبّاز منه خبزًا لأبي وأمي وإخوتي، أمّا الطّحين فقد كان مصنوعًا من القمح المُنْتَج من أراضي البلدة التي عشنا فيها... أتيتُ بعد أبي ولم أُكلّفْ نفسي عناء شراء الطحين كي أصنع منه خبزًا لأطفالي، فقد اخترتُ أن أشتري الخبز جاهزًا من فرن المدينة، يُسرى رضيتْ بذلك على مَضض، ولكنّ الدّنيا تتغيّر، وكان الطحين خليطًا من قمح أمريكي مليء ببقايا الفئران، وقمح استراليٍّ مليء ببقايا العقارب والثعابين، وهكذا كُنّا نجد فيه كلّ شيءٍ، وكُنّا إذا هرَسْنا تحتَ أضراسِنا بقايا تلك الكائِنات، نُردّد: «ليسَ بالخُبز وحده يحيا الإنسان»، وعلينا أنْ نتحمّل... جاء ابني من بعدي فلم يرضَ إلا بالخبز المُستورَد من فرنسا، معجونٍ بالحليب الهولنديّ، ومُغلّف بأوعية ورقيّةٍ جميلة مصنوعة في السويد، أمّا الشركة المالكة لمصنع الورق فقد كانت ألمانية

برأسمال روسيّ...!! نحن مُستَعمرون حتّى النّخاع يا يُسرى، وكانتْ تتنهّد مثلي، وتقول: «ولكن...». وظلّتْ تلك الـ (لكنْ) تدور على ألسنتنا وألسنة الآخرين حتّى لم يعدْ لنا مِنّا شيءٌ!!

كانتْ إسرائيل في أوائل السّتينيّات تبني سِلاحَها النّوويّ، وكُنّا نبني خيبتَنا، ويكيدُ بعضُنا لبعض، ومثلما حدث في الجبال الشّمالية في الأندلس، إذْ عَمِل الألفونس على بناء جيشهم وسِلاحهم وقُوّتهم، في حين أنّ ملوك الطّوائف كانوا قد انقسموا إلى دويلاتٍ صغيرةٍ ظلّوا يتنازَعون فيما بينهم، حتّى سقطت الأندلس بلدًا بلدًا. ومع أنّ أهل الأندلس استنجدوا بمن توسّموا عنده القُوّة من أهل المشرق آنئذٍ، إلاّ أنّنا على ضَعْفنا، وتشرذمنا، وانقِسامنا لم نستنجد بأحدٍ، فقد كُنّا نرى أنّنا أقوياء، وأنّنا كِبارٌ، والكبير لا يَهُون، بل الخطوبُ هي الّتي تهون أمامه، ولكنْ لمْ نكن في الحقيقة إلاّ طبولاً جوفاء، وهل أغنى عن الطّبل الأجوف صوتُه الهادر؟!

كان العمل العسكريّ في بلادنا قد توقّف تمامًا، نحن انسحبْنا إلى داخل معسكراتنا، وتركْنا إسرائيل في بلادنا آمنة، ولأنّني كنتُ أرى أنّنا لا نفعل شيئًا ذا جدوى، فقد رحتُ أبحثُ عن بلدٍ أجدُ فيه نفسي مُقاتِلاً. كانت الجزائر في تلك الأيّام تخوضُ حرب التّحرير الطّويلة مع المُستعمِر الفرنسيّ، البلد الّذي في كلّ شبرٍ منها شهيد، يُقاتل ليحصل على حريّته، والعَربُ هنا يُسلّمون لإسرائيل، ويُؤمّنونها في حدودها الّتي اغتصبتْها. كان العجز والقهر قد بلغا منّي مبلغهما، وأنا عسكريٌّ في النهاية، وعليّ أنْ أكون مُنضبِطًا، ولكنّ هذه العسكريّة تُقيّد حرّيّتي، وتقف عائقًا أمام ما جئتُ من أجله؛ القِتال دفاعًا عن وطني، ولم يكنْ

وطني الأردنّ وحده، كانت فلسطين وطني، والعراق وطني، وسوريّة، ولبنان، ومصر، وكذلك الجزائر، كلّها لي وطنٌ وأشعر أنّ هناك أمانةً ثقيلة في عنقي تُجاه هذا الوطن الممتدّ، ولا يُمكن أنْ أتخلّص من هذا الشّعور إلاّ بالقِتال.

قلتُ ليُسرى: «لقد انتسبْتُ إلى هذه المؤسّسة العسكريّة لكي أقاتل لا لكي أنام». «لقد كنتَ وما زلتَ مُقاتِلاً». «لكنّنا في هذه الأيّام لا نفعل لما اغتُصِب منّا شيئًا، إنّنا نأكل وننام، وتدور بنا الأيّام كأنّنا في مأمنٍ من أنْ يُهاجِمنا اليهودُ مرّة ثانية ويبتلعوا ما تبقّى من فلسطين، أو يبتعلوا الأردنّ نفسه». «لماذا لا تُخبر قياداتك؟». «لقد أخبرتُهم، وهم يعرفون حتّى قبل أنْ أخبرهم». «وماذا فعلوا؟». «لا شيء». «وماذا نويت؟». «أنْ أُقاتل». «أين؟ وكيف؟». «في الجزائر». «الجزائر؟». «إنّهم بحاجة إلى الثّوّار من كلّ بلادنا العربيّة، أفنى المستعمر الفرنسيّ مليونًا ونصف المليون شهيد حتّى الآن، وحَقٌّ على كلّ حُرّ أنْ يقف إلى جانبهم. سأقدّم استِقالتي من الجيش، سأخلع عنّي رُتبي كلّها، وأذهب إليهم جنديًا عاديًّا، شرف الجِهاد فوق بريق الرُّتب». ونظرتُ في وجه يُسرى فإذا هي صامتة، تنظر في وجهي كأنّها تراني لأوّل مرّة، وأحسستُ أنّها قد ترفض ذلك أو تقف ضِدّ الفكرة، فسألتُها: «ما رأيك؟». فأجابتْني وقد نظرتْ بعيدًا: «هل أنتَ مُقتنع؟». فهتفتُ بلهفة: «تمام الاقتِناع». «إذًا افعلْ ما يُمليه عليكَ واجبكَ وقناعتك». وسألتُها: «هل تذهبينَ معي؟». فردّت دون تلكُّؤ: «أذهب معك إلى الموت».

في اليوم التّالي قدّمتُ استقالتي إلى قائد الجيش، نظر فيها طويلاً،

وقبلَ أنْ يرفع عينَه عنها، قال لي: «ضابطٌ متميّز من ضُبّاطنا يريدُ أنْ يهرب». فأجبتُ محتدًّا: «أريدُ أنْ أقاتل، أنا لا أريدُ أنْ أظلّ جالِسًا وراء المكاتب، وأطوفُ على المَنامات، ويأتيني الأكل إلى غرفتي». ضحك، وقال: «قاتِلْ هنا من مكانك إذًا». «لكنّنا لا نفعل هنا شيئًا». «يا بُنيّ إنّني أقدّرك حماستك، هل تريدُ الحرب، انتظرْ، لا تستعْجلْها، لا أحدَ يتعجّل الحرب، الحرب مثل القدر، إذا أقبلتْ لم يستطعْ أحدٌ لها دَفْعًا، يا بُنيّ، ألا تراها؟!». وسألتُه وأنا أتلفّتُ حولي: «ما هي؟ ما الّتي أراها؟». فقال: «الحرب، إنّها تُطلّ برأسها من خلف النّهر كالأفعى. اصبرْ يا بُنيّ وتريّثْ. وإذا كانتْ غايتُكَ الحرب، فاطمئنّ، إنها قادمة بلا ريب، وحينَها وطنُكَ أولى بك من سِواه». ومزّق طلبَ الاسِتقالة ورماه في سلّة النّفايات!

كان الصّهاينة مستمرّون في تهجيرنا من قرانا ومُدننا في فلسطين بشكلٍ منظّم حتّى بعد انتهاء الحرب، وكانتْ خُطّتهم تقتضي سَحْق أيّ تجمّع عربيّ في قِطاعٍ يزيد انتشاره عن (15) كم، لم يُعلّمْهم الإنجليز مأثرتهم: «فَرّقْ تَسُدْ»، بل هم مَنْ علّموا العالَمَ كلّه ذلك، قامت عصابات (البالماخ) بترحيلنا حسب أوامر قادتهم، رحبئام زئيفي، وإسحق رابين وموشيه دايان ونتنياهو، بقوّة السّلاح وبالإرهاب وبالدّعم العسكريّ والسّياسي، لقد هجّرت (البالماخ) عشرات الآلاف مِنّا خلال معارك بيسان وصفد والجليل الأعلى، وكانوا يسمّون عمليّاتهم (يجئال ألون) أي المكنسة، كان هدفها تكنيس القرى العربيّة من شماليّ بحيرة طبريّة إلى جنوب النّقب وبئر السّبع مرورًا بما بينهما من القرى. لقد كانوا يقذفون بنا في المخيّمات كأنّنا نفايات أو غبار عَلِق بها

يُسمّونها أرض الميعاد! كان عملهم في التّطهير العرقيّ دائِبًا إلى اليوم، ولم نُفكّر نحن حتّى في إيقاف ذلك، كلّ ما فكّرْنا فيه كيف نمدّ لهم الوردة، ونجلس معهم للتّفاوض!

ذبَحَنا اليهود في كلّ قريةٍ في فلسطين، في دير ياسين، وفي الطّنطورة، وفي أبو شوشة، وفي الدّوايمة، وفي عيلبون، وفي عيلوط، وفي دير أيّوب، وفي شرفات، وفي بيت لحم، وفي بيت جالا، وفي قفّين، وفي رنتيس وفلامة، وقبية، ونحالين، وغزة، وقلقيلية، وكفر قاسم، و... وفي غيرها، ومُعظَم الّذين نفّذوا هذه المجازر صاروا وزراء دِفاع من بعدها، أو رؤساء لحكومة إسرائيل، كان ذلك مُكافأةً لهم على خِدماتهم الجليلة، اقتلْ أكثر تصعدْ أعلى، ويُقدّسْك الشّعب، وتُقدّمْك المناصب. كُنْ شُجاعًا وأنتَ تُصوّب مدفعك، وتشحذ سِكّينك؛ فالحرب لا تعترف بالجُبناء!

لم يتجرّأ أحدٌ من الزّعماء العرب من القريبين جغرافيًّا من فلسطين أنْ يرفعوا الرّاية البيضاء، وأنْ يُعلِنوا أنّهم مع السّلام، وأنّه آن لهذه الحروب أنْ تتوقّف، ليس لأنّهم أتقياء، ولكنّ ذلك سيسبّب لهم فضيحةً كبيرةً، وإنْ كانوا في أعماقهم يودّون أنْ يفعلوا ذلك، إنّهم لا يريدون أنْ ينشغلوا بقضيّةٍ اسمها فلسطين، أو التّحرير، أو المُقاومة، فيما هم أكثر ما يُمكن أنْ ينشغلوا به هو تثبيت دعائم الكراسيّ الّتي يجلسون عليها، وتحويل بلادهم إلى مزارع خاصّة لهم، يحلبون منها حتّى يُصابوا بالتّخمة. لكنّ زعيمًا عربيًّا عبقريًّا عنّ بباله أنْ يُعلّق الجرس، وأنْ يكون البادِئ بإظهار مكنونات إخوته من الزُّعماء، ولأنّه في الأطراف البعيدة، فلن يُصيبه من نُباح الكلاب إلاّ الصّوت، فعمد إلى المُجاهرة بمدّ اليد

إلى اليهود، كان ذلك هو الرّئيس التّونسي بورقيبة.

ألقى بورقيبة في الواحد والعشرين من نيسان عام 1965م خطابًا في تونس دعا فيه إلى تسوية النزاع العربيّ الإسرائيليّ على أساس قرار التّقسيم على النحو الآتي: تعيد إسرائيل إلى العرب ثلث المساحة التي احتلّتْها منذ إنشائها لتقوم عليها دولة فلسطينية عربية، ثُمّ يعود اللاجئون الفلسطينيون إلى دولتهم الجديدة. وتتم مصالحة وتُبرَم اتّفاقيّات سلام بين الدول العربية وإسرائيل تُنهي حالة الحرب (الباردة) بينهما. على أن تبدأ المفاوضات بين الفلسطينيين وإسرائيل، ثُمّ اجتماع بين إسرائيل والحكومات العربية في روما أو في أية عاصمة أخرى». وإذًا فاجتماع العرب مع الصّهاينة المُلطّخة أيديهم بدمائنا لا غُبار عليه، ويُمكن أنْ يرعى الطّرفَين في هذه المقابلة التّاريخيّة دولةٌ ثالثة. وانفتحتْ شهيّة الزّعماء للاقتراح الجريء، ولكنْ أنّى لهم أنْ يُعلِنوا ذلك أمام شعوبهم الّتي كانتْ ما تزال تحتمي بعباءاتهم، وتُمسك بذيول أثوابهم تأمل في أنْ يُحرّروا لهم أرضهم، ويُعيدوا لهم ما اغتُصِب منهم، وإذًا فلا بأس من استِنكارٍ هنا أو شجبٍ هناك لما قاله بورقيبة ولو مرحليًّا، حتّى تظلّ الشّعوب على انخِداعها وعَماها، وهذا ما فعلتْه مصر؛ عَدّتْ بورقيبة خائنًا وخارِجًا عن الإجماع العربيّ!! آه يا بورقيبة، هل تجوز عليك الرّحمات، لقد طالبْتَ لنا بما تنازلَ عنه أشقّاؤك من بعدك بالجُمْلة، فلماذا رموك بالخِيانة، وهم تاجروا بتلك الخيانة من بعدك؟!

قال (يغئال آلون) نائب رئيس الوزراء: «إنّني أرى في تصريحات بورقيبة خيطًا من نورٍ، هذا الرّجل أثار دهشتي، أقوالُه تبعث على التّفاؤل والأمل، خاصّةً وأنّها أوّل مرّة نسمع فيها زعيمًا مرموقًا ينادي

بشعارات سلميّة بصورة علنيّة، وعلى رؤوس الأشهاد، هذا الرجل حكيمٌ، يستشرف المُستقبَل؛ لأنه أدرك يقينًا بأن الحرب لن تحلّ المشاكل أبدًا، إنما تزيدها تعقيدًا».

كم جاء بعده من بورقيبة، لكنّه كان مُشوّهًا، لقد اتّهموه بالخيانة وما كُنّا ندري أن الخيانات ستتوالى من بعد، وستصبح هي القاعدة، وأنّ من يخونها سيكون هو الخائن!

مَنْ يقف معنا في هذا الهَباء، بلا أرضٍ، بلا سماء، وبلا ماء، وفي المنافي الّتي تلفظنا إلى مناف جديدة، كان هذا وجه مأساتنا الّتي لا تنتهي!

***

(30)

هَبْ معركتَكَ قلبَكَ

أطلّتِ الحربُ برأسها! الجميع يعرفون ذلك، ولكنّهم لا يعرفون كيفَ؟ ولماذا؟ ولا متى؟ لكنّهم يؤمنون بأنّها قادِمة؛ يُمكنك أنْ تُدرك أنّ سمك القِرش إذا فَغَر فاه فإنّه لا يضحك، وكان على الّذين يعرفون أنْ يستعدّوا لِما يعرفون، ولكنْ هل فعلوا؟ وتذكّرتُ المتنبّي:

إذا رأيتَ نيوبَ اللّيثِ بارزةً

فَلا تَظُنّنَّ أنّ اللّيثَ يَبتسِمُ

كانت الشُّعوب قد نامتْ ليلاً طويلاً، وتركت الأمر إلى زعاماتها، وركنت إلى القول المَعسُول لا الجُهد المَبذول، وكُنّا نقول أكثر بكثيرٍ مِمّا نعمل، كُنّا في عصر تقديس الزّعامات بل وربّما تأليهها، ولا أدري إنْ كُنّا قد انتهينا من ذلك أم لا؟ كان هؤلاء الزّعماء يقولون فنظنّ أنّ أقوالهم وحيٌ من الله، ويخطبون فينا الخطابات الهادرة فنهيجُ من بعدهم حتّى نصير حُطامًا!

كُنّا نؤسّس لزمنٍ آخَر من الانهِيارات المتتابعة، كُنّا عرّابين في ذلك، ما إن تقع كارثة، حتّى نبكي على الأطلال، ولكنّ أطول بكائيّة عربيّة لم تستمرّ أكثر من أسبوع، ثُمّ بعد ذلك ننسى، وننغمس في النّوم من جديد.

قُمتُ بزيارةٍ إلى الخطوط الأماميّة على حدودنا مع الصّهاينة، من أجل أنْ أُقدّم تقريرًا عن الجهوزيّة العسكريّة لحربٍ مُحتَمَلة، كنتُ أرى شيئًا غريبًا في عيون النّاس، كانوا يحدّقون في الفراغ، وينظرون إلى أشباح الماضي تتراقص أمامهم فيسقطون في غيبوبة. لم يكنْ أحدٌ ليعرفَ ما سيحدث، أو حتّى يُفكّر به، كانتْ هناك حالة هَذَيان عقليّ جمعيّ مُرعبة. وكُنّا ننتظر معجزةً لن تحدث!

هل كُنّا مُستعدّين للحرب؟ الجبهة الطويلة في حدودنا مع المحتل الّتي تزيد عن 200 كم تكشف ذلك؟ ببساطة، الجواب: لا. الجبهة تقول ذلك، اذهب إليها واصِغْ إليها أذنَيك، إنّها تتحدّث بلسانٍ مُبين: «نحن لسنا مستعدّين للحرب كما يجب؟». فمَن الأبله الّذي قرّر حربًا لسنا أكفياء لها، ولسنا قادرين على خَوضِها، هل هذا القرار شجاعة أمْ تهوّر؟ أمْ أنّنا كُنّا نَحِنّ إلى مأساةٍ جديدة؟

نحن قيادات مُوزّعة، لدينا ثلاثة جيوش، بثلاثة رؤوس، وهذه أولى نقاط الضّعف، وأوّل البوّابات إلى الهزيمة، لم ينتصر (هنيبعل) على الرّومان إلاّ لأنّ الرومان كان يتولّى جيشهم قائِدان، ولقد حاربا بعضَهما أكثرَ مِمّا حاربهما (هنيبعل). قلتُ لِغازي: «الأمور واضِحة، نحن نصنع الهزيمة». ردّ: «هل نملك من أمرنا شيئًا؟». غضبتُ: «كلّ الأمر». تجهّم: «أنتَ لا تملك أنْ تقودَ جيشكَ يا مشهور، عِوضًا عن أنْ تقود الجبهة كلّها، دعْنا نكنْ واقعيّين». انفلقتُ، انكسرتُ كفخّارة إلى ألف شظيّة من هذا القول، كدتُ أبكي، هتفتُ: «يُمكننا أنْ نصنع النّصر إذا وحّدْنا القيادة، لماذا يقود ثلاثة جنرالات الحرب؟ جنرال واحد سيِّئ هو أفضل من جنرالَين سيّئَين كما قال نابليون». ردّ ويهزّ كتفَيه، وعلى

شفتَيه ابتسامة ساخرة: «أنتَ تحلم». ومضيتُ، كانت الهزيمة عالقةً بأثوابنا جميعًا، مثل قرادةٍ عالقةٍ بذيل دابّة.

قال لي المَلِك: «ما ترى؟». فأجبتُه: «ما ترى». فردّ: «قدّمْ تقريرك». كان يتحدّث إليّ كقائدٍ عسكريّ، كنتُ يومَها مسؤولاً عن المنطقة الشّماليّة من الجبهة، الجزء الّذي كانتْ نار الحرب فيه أقلّ اضطِرامًا. أدّيتُ التّحيّة، وعدتُ مرّة أخرى إلى الجبهة، لكنْ هذه المرّة برفقة قادة عسكريّين من الجيش المصري والجيش السّوريّ، زُرنا معظم النِّقاط الحدوديّة، ونِقاط التّماسّ، وكان عَلَيّ أنْ أقدّم تقريري إلى الملك بصورةٍ دقيقة. هل يُمكن أنْ ترى الوجوه قد تبدّلتْ؟ هل على العسكر أنْ يلبسوا لِباس الرّهبان في الحرب أمْ لِباس الأُسود؟ هل عليهم أنْ يناموا في الأسرّة أم في الخنادق؟ وهل عليهم أنْ يطبخوا في مطابخ مُجهّزة، أم عليهم أنْ يطبخوا في البرّيّة ويأكلوا من خَشاشِها؟ كُنّا نأكل وننام، ونصحو بانتظار نهاية الأسبوع للحصول على الإجازة، ونهاية الشّهر للحصول على الرّاتب!!

قدّمتُ مُلخّصًا للتّقرير العسكريّ: أولويّاتنا في الحرب تنحصر في الدّفاع عن الوطن، والاستِعداد لتوجيه ضَرَبات للعدوّ في العُمق، والقِيام للتّعرّض له عندما يعتدي على المناطق الحدوديّة، والحِفاظ على الأمن الدّاخليّ.

كانت الأسلحة الّتي تصل إلى إسرائيل قادمةً من الغرب وخاصّة من أمريكا متطوّرة وحديثة، ولم يكنْ يصلْ إلينا ربع الكمّيات الّتي تصل إليهم ولا النّوعيّات. وكانتْ لدى إسرائيل آنئذٍ صناعاتٌ حربيّة خاصّة متطوّرة، أخذتْ في تنامٍ ملحوظ بعد حرب 1948م، ولم يكنْ

لدينا مصنعٌ واحد يُنتج ولو مُسدّسًا بِدائيًا! أضِفْ أنّنا في الأردنّ لم يكنْ عندنا لا نفط ولا ذهب ولا غاز ولا حتّى سخام، في حين أنّ المساعدات الّتي كانتْ تأتي إلى إسرائيل وخاصّة من يهود أميركا، تُمدّهم بالمال لشراء السّلاح والعتاد المُتطوّر، وكان جيشُنا إذا جاع أكل البسكويت الّذي يأتيه من مصر كمساعدات غذائيّة. وكان العسكريّ يومئذٍ مع فقره، وجوعه، أفضلَ حالاً من كثيرين، لربّما عَزّ عليهم التّراب أنْ يأكلوه! كيفَ يُقاتلُ جيشٌ جائع؟ كيفَ يرفع البندقيّة ساعدٌ هزيل؟ وكيفَ يُصوّب إلى الهدف مَنْ لا يعرف الهدف، ولا يعرف التّصويب أساسًا؟!

كان قِوام جيشِنا يومئذٍ يعتمد على العسكريّين المُتسبين إليه، ولم يكنْ يخرج عن ذلك، أمّا جيش العدوّ فكانتْ فيه كلّ الأطياف؛ كنتَ ترى في أفراد الجيش الإسرائيليّ أستاذ الجامعة والطّبيب وسائق الجرّافة، كان الّذي يجمع النّفايات في الشّارع مُقاتِلاً، وكان الّذي يزرع البندورة في النّقب مُقاتِلاً، ليسوا مُقاتلين بِدائيّين، ولا أصحاب فزعات، بل مُقاتلين مُحترفين مُدرَّبين على أفضل الأسلحة. وكان سائق التّكسي يتحدّث مع الّذين يصعدون إلى سيّارته عن أنواع المُتفجّرات والقنابل، وعن الحالة فيما إذا نشبت الحرب، وكيفَ يُمكن أنْ تظلّ دولة إسرائيل قائمةً على قَدَمَيها، وفي الوقت نفسه، كان يُحدّثهم كذلك عن (شموئيل عجنون)، وعن (نيلي زاكس) اليهوديَّين اللّذَين حازا على جائزة نوبل في الآداب، ويُفضّل عجنون على زاكس، لأنّه قاتلَ بأدبه من هنا، من القُدس، من أرضِ الآباء والأجداد، لا من هناك حيثُ تعيش زاكس في السّويد، وكان سائق التّكسي يهتف غاضِبًا منها: «مَنْ أرادَ أنْ يكتب

(آلام إسرائيل)، فعليه أنْ يعيشَ هنا». وكان (موشيه دايان) لا يفتأ يُمجّد تلك الفِئة من الشّباب الإسرائيليّ الّذين زحفوا بين الأشواك والصخور وفي أياديهم بنادقهم، ويحثّ كلّ فِتيان إسرائيل وفتياتِها على أنْ يكونوا كذلك، ويهتف بحماسة: «لن تقوم إسرائيل بغير هذا، ويرفع بندقيّته الخاصّة في وجه نُوّاب البرلمان».

لقد استطاعت الحكومة الإسرائيليّة تحويل مجتمع مدنيّ وزراعيّ وتجاريّ إلى مُجتمعٍ مُقاتِل، ونقلتْه من حالة السِّلم إلى حالة الحرب في وقتٍ سريع، ودون ضجيج.

واقترحتُ في التّقرير الّذي قدّمْتُه: «تشكيل قوّة خاصّة متحرّكة تتألّف من لواء مُشاة محمولٍ في سيّارات مُسندَة بسيّارات مُدرَّعة ومورتر 3 إنش على طريقة لواء حرس الحدود لدى العدوّ، على أنْ تقوم هذه القُوّة بدوريّات مُتواصلة على واجهة خطّ الهُدنة؛ للسّيطرة على الفَجَوات الواقعة بين القُرى، ونجدتهم في الوقت المُناسب». وأرفقتُ مع التّقرير خمس نِقاطٍ للتّنفيذ: «تسليح السُّكّان الّذين يقطنون الشّريط الحدوديّ، وإخضاعهم لتدريبٍ عسكريّ مُكثّف. احتِلال جيشنا مواقع دفاعيّة مُهمّة، وإرسال سريّة على الأقلّ في مراكز متوسّطة بين القُرى لنجدتهم في حالة اعتداء العدوّ عليهم. إعداد المراكز الدّفاعيّة جميعها في مختلف المواقع حتّى تتقدّم لاحتِلال مواقع تقهقر العدوّ في حالة الانسِحاب. توفير قابليّة الحركة السّهلة لكلّ قوّاتنا، بحيثُ يسهل حشدُها أو تحريكها في مواجهة أيّ اختِراق يُحدِثه العدوّ. وأخيرًا توجيه ضرباتٍ انتِقاميّة على أهداف مُحدّدة سابِقًا لإرباك العدوّ، وإحداث خسائر مُؤلِمة له».

الحقيقة: لم نُسلّح أحدًا من سُكّان النّقاط الحدوديّة، والحرب الاستِباقيّة الّتي تباغت العدوّ لم نشنّها لحظةً واحدة. كان يلزمنا شيءٌ ما، هل أحدٌ مِنّا نحن القادة العسكريّين كان يدري ما هو؟ شيءٌ في العقيدة القِتاليّة، وفي القيادة المُوحّدة، وفي التّدريب، وفي أشياء أخرى... كان يلزمنا الكثير!

كانتْ يُسرى ترى ذلك الهَمّ في الوجه، وتقول: «المهمّ ألاّ يكون في القلب. لأنّه سيؤدّي إلى الهزيمة». أقول لها بأسى: «لا أدري يا يُسرى إنْ كُنّا مُقبلين عليها». تهتف وهي تحاول أنْ تمسح تلك الغَمامة: «اليأسُ كُفر». فأقول: «نحن نهوي». فتُردِف: «على القائد أنْ يقف حتى وإنْ كان كلّ شيءٍ فيه ينهار». أقف. أتداعَى، ثُمّ... أتماسَك. تشدّ على يدي: «هَبْ معركتَكَ قلبَك». أسأل: «ماذا أقول له؟». تسألني: «مَنْ؟». فأردّ: «الملك». فتقول: «انشغلْ بما ستقوله للوطن لو أنّكم هُزِمتم لا سمح الله».

كان عددُنا يومئذٍ أضعاف عدد الجيش الإسرائيلي، وكانتْ إذاعاتنا تتغنّى بأنّنا نملك أكثر من مليون مقاتلٍ مستعدّ لسحق إسرائيل، ولأكْل اليهود وسَبْي بناتهم. وكانتْ غولداماثير تبتسم في داخلها من الظّاهرة الصّوتيّة لدينا، وتقول: «لو أنّهم عملوا بلا جعجعة لكان أفضل»!! وردّدْنا نحن عليهم: «سنرميكم في البحر».

ودخل حُزيران من عام 1967م، كان حزينًا، وكان النّاس في الشّوارع بلا وجوه، والشّوارع بلا نهاية.

***

(31)

ولا يهمّك يا ريّس

طاخ... طيخ... وِززززز... بُمممم... ودوّتْ انفِجارات في كلّ مكان... هل هي ألعاب ناريّة؟ هل كان اليهود يتسلّون؟ إنّه صباح الخامس من حزيران من عام 1967م، عام الحزن العربيّ.

طاروا من قبلُ على ارتفاع مُنخفض، هتف أحدهم من الفرحة: «إنّه النّيل». ردّ عليه الطّيّار الآخر: «الّذي أُلقي فيه موسى؟». هتف ثالث: «والّذي التقطه آل فِرعون». «أمِنْ هنا بدأ الخروج؟». «كلاّ من هنا تبدأ الدّولة». قال العبارة الأخيرة قائد السّرب الأوّل.

انتشر النّاسُ في شوارع القاهرة، لا شيءَ يبدو غيرَ عاديّ، السّيّارات في الشّوارع تواصل سيرَها، النّاس ذاهِبون إلى أعمالهم، باعة الجرائد يصيحون، وأبواق الحافِلات تُكمل المشهد، لا شيءَ غير عاديّ، باستثناء أصوات الطّائرات، نظر المصريّون إلى الطّائرات الّتي تعبر سماء القاهرة، فَرِحوا، إنّها طائرات جيشهم الّذي سيقضي على العدوّ، فقفزَ أحدهم في الهواء، ولوّح بكلتا يدَيه، وصاح: «ينصر دينك يا رَيِّس». تعالَى هِياجٌ في الشّوارع: «طائراتنا تنطلق لقصفِ العدوّ»، راحَ النّاسُ يلوّحون بأيديهم يُحيّون النّسور الشُّجعان، لوّح الطّيّارون الإسرائيليّون بدورهم للمصريّين، وابتسموا. انفجرتْ ضحكة أحدهم: «إنّهم يرحّبون بنا». بادَله آخَر: «ولِمَ لا؟». قال الثّالث: «إنّنا أحسنُ مَنْ يُخلّصهم من

زعاماتهم المُتخلّفة». قال العبارة الأخيرة قائد السّرب الثّاني. ومضت المُقاتِلات في طريقها إلى المطارات. كان لدى كلّ طائرةٍ إسرائيليّة إحداثيّات المطارات بالمِلّيميتر، وكانَ كلّ سربٍ يعرفُ ما يفعل بالضّبط.

إنّها السّابعة وخمسٌ وأربعون دقيقةً صباحًا. صباح الخير أيّها العرب النّائِمون. صباح الخير أيّتها الحرب. صباح الخير أيّها الموت. صباح الخير أيّها الشّعب المسكين؛ كان لديكَ صوتٌ وقلب، ولن يكون لكَ بعدَ اليوم غير الخوف والجوع والقَهر.

وِززززز... عَبَرتِ الطّائرات باتّجاه أهدافها في سيناء والدلتا والقاهرة ووادي النيل، كان موشيه دايان يتسلّى في اللّعبة الرّائعة، وإنْ بدا أنّ عينه العوراء قد صارتْ تُبصِر بشكلٍ أكبر بعد ذلك اليوم الّذي اضطُرّ فيه أنْ يُصافِح عبد الله التّل في معركة القُدس. ليسَ مُضطرًّا أنْ يُصافِحَ أحدًا بعد اليوم، سيرفع رأسه إلى السّماء، وعلى وجنته البارزة ألفُ قُبلة، وعليه أنْ يُقدّم ضحايا أعدائه قرابين لاستمرار دولته الوحش، كان (دايان) في ذلك الصّباح إلهَ الحرب، انتصر على الجيوش العربيّة كلّها، ومرّغ أنوفَنا في التّراب، وقضى على ما تبقّى لدينا من كرامة وهو بعينٍ واحدةٍ، فلو كان ذا عينَين فماذا كان يُمكن أنْ يفعل؟

كلّ طلعةٍ جوّيّة كانتْ تتشكّل من سِربَين، السّرب الأوّل لا يستهدف الطّائرات المصريّة الجاثمة في مدرّجاتها، بل يستهدف المُدرّجات نفسَها، حتّى إذا أفلتَتْ طائرةٌ ما من التّدمير، فإنّه لن يكون بإمكانها أنْ تُقلِع. وِززززز، حرثَ السّربُ الأوّل المدرّجات حراثةً، أحدثَ فيها خنادقَ طوليّة، وحُفرًا عميقة، ونيرانًا شديدة. كان الرّئيس وقائد الجيش، ومجلس الثّورة يسمعون صوتَ الطّائرات، إنّها لا تُحلّق

على ارتِفاعٍ عالٍ لكي لا يلتقطها الرّادار، صوتُها مسموعٌ تمامًا هنا في مجلس القِيادة، لكنّ أحدًا من هذه القيادة الحكيمة لم يكنْ ليصدّق أنّها طائرات إسرائيليّة، كانوا جميعًا يظنّون أنّها طائراتهم، قد تلقّت الأوامر ببدء الحرب، ولكنّ السّؤال: «إنْ كانتْ طائراتهم كما خطر ببالهم فكيفَ تبدأ هذه الطّائرات الحرب، وهي لم تتلقّ أمرًا واحِدًا منكم أنتم أيّها المجلس العسكريّ، هل خرجتْ مثلاً بأمرٍ من الجنّ؟». السّرب الثّاني من المُقاتِلات الإسرائيليّة كانتْ مهمّته بعد حراثة أرضِ المطار من السّرب الأوّل هو تدمير الطّائرات نفسِها. كانت الطّائرات أهدافًا سَهلة، كانتْ أسهل على الطّيّارين الإسرائيليّين من تناول كأسٍ ماءٍ باردٍ يُقدّم إليهم من يدٍ ناعمة. كان لديهم إحداثيّات كلّ طائرة. تهاوت الطّائرات، تحطّمت، احترقتْ، ولم يكنْ في قُمرة القِيادة لأيّ واحدةٍ منها طيّارٌ مصريٌّ واحدٌ. تقبّض الحديد، كما لو كانتْ ورقة تجعلكتْ، ذابَ بعضُها كأنّه هياكل من البلاستيك تعرّض لحرارة النّار، وبدا بعضُها كما لو كان وحشًا قد اندلقتْ أحشاؤه إلى الخارج. وغاصتْ مقدّمات طيّارات أخرى في الأرض وارتفعَتْ ذيولها كما لو كانت بهلوانًا يمارس لعبةً مُضحكة. وبدتْ طيّارات أخرى مثل حشراتٍ نُزِعتْ أجنحتها، وأخرى بدتْ كأنّها ساجدة سجدة الموت لا ترفع رأسَها أبدًا. وطائرات قد انفصلتْ قمرة قيادتها بالفراشة ذات الأذرع الأربع عن جسم الطّائرة، فبدتْ عجوزًا قد انفصلتْ رقبته عن سائر جسده. وعلتْ سُحُب الدّخان جرّاء الاحتِراق، وتحوّلتْ المطارات إلى أراضٍ محروقة، لا يُسمع فيها إلاّ صوتُ اللّهب الّذي لا يزال يأكل ما تبقّى ويُحوّل كلّ شيءٍ إلى رُكام! وما زال مجلس القيادة في الدّور الرّابع

يظنّ أنّ صوت (وِززززز) الّذي كانوا يسمعونه هو من طائراتٌ مصريّة!!

هُرِعت الإذاعات العربيّة، بطلة الحرب في عام 1967م، إلى صوتِها العالي: «أسقطْنا (100) طائرة من طائرات العدوّ الصّهيونيّ. نسورنا لا يسمحون لأحدٍ بأنْ يُشاركهم الجوّ، نحن ملوكُه، وسادَتَه، والّذين يُصرّفون رِياحه». قالتْ غولداماثير: «لم يُسقِط العرب طائرةً واحدة من طائراتنا في حرب 1967م. طائراتهم الّتي لم تهمر هَمْرةً واحدة، ولم تتحرّك عجَلاتها سنتيمترًا واحِدًا هي الّتي سُحِقتْ وهي جاثمة، بدتْ من الجوّ كأنّها هياكل صَدِئة، كانت تضطرم، لم أرَ في حياتي جمالاً للنّار إلاّ في ذلك الصّباح الحُزيرانيّ الرّائع. سُوّيت بالأرض، وصارتْ رمادًا». قالت الإذاعة: «تجوّعْ يا سمك، أتتك لحوم الصهاينة طريّة، أيّها القِرش آن لك أن تفغرَ فاك لأجل الوليمة الكبيرة». قالتْ جولداماثير: «حتّى لو قتلْنا العربَ وألقيناهم في البحر، فإنّ السّمك لن يأكلهم؛ لأنّ لحومَهم غير قابلة للهضم».

طلب الرّئيس قائد الجيش: «قدّمْ تقريرَك». لم يقلْ كلمةً واحدةً، كان يتظاهر بالانشِغال بالرّدّ على الاتّصالات الّتي تأتيه من مواقع الحرب المتقدّمة، كرّر عليه السّؤال: «ما حالة قُوّاتنا الجوّيّة؟». ردّ: «إنّنا نقاتل بأقصى طاقة». «كم طائرةً أسقطْنا لإسرائيل». «ألم تسمع الإذاعاتِ للتّوّ؟! إنّها تنقل الخبر أوّلاً بأوّل». يعرف الرّئيس أنّ إذاعاته تكذب أكثر من مسيلمة، قال له: «أريدُ التّقارير الميدانيّة». تناولها من على المكتب، تفحّصَ فيها، فتجهّم وجهه، رماها مرّة أخرى على الطّاولة، وقد أحسّ بأنّه انكسرَ في جزءٍ ما من أعماقه، حاول أنْ يُفتّش

عنه، فتذكّر خِطاباته النّاريّة أمام الحشود، تذكّر هِياج الشّعوب العربيّة الّتي كان صوتُها يُدوّي أوّل ما يطلّ عليهم بوجهه الأسمر من خلف الشّاشة أو من خلف الشّرفة، استعادَ هتافاتهم الّتي لمْ تنقطع: «من المُحيطِ الهادِرِ... إلى الخليجِ الثّائرِ... لبّيْكَ عبدَ النّاصِرِ...». والأغنيات الّتي كانت تقول له: «اضربْ... لأجلِ صُنّاع الحياة... لأجلِ الصّغار، لأجل الكِبار، ولأجل النّهار... اضربْ... اضربْ». «ولا يهمّكْ يا ريّسْ... م الأمرِيكان يا رَيِّسْ...» إنّها هتافاتٌ صادِقة، وأغانٍ حقيقيّة، يستطيع أنْ يعرفَ ذلك، أنْ يشعر به، ولكنّه يُدرك اليوم أنّ النّصر لا يُمكن أنْ تصنعه الهتافات، ولا يُمكن أنْ تُحقّقه الإذاعات. شعرَ بتعبٍ، وخزةٍ في الصّدر، إنّها ليستْ وخزة الألم، ولا الضّمير، إنّها أقربُ ما تكون إلى وخزة الصّدق، لحظةِ الحقيقة، ولحظة المواجهة مع النّفس. قال لمجلس القيادة: «أنا ذاهبٌ لأرتاح»، ودخل إلى غرفةِ النّوم في مجلس القيادة، وألقى بنفسه على السّرير، وراح ينظر إلى السّقف بعينَين جاحِظتَين!

قالتْ صُحُفنا: «الجيش العربيّ يزحف إلى تلّ أبيب». وكُنّا نزحف بالفِعل لكنْ بإذاعاتنا وجرائدنا. في صبيحة اليوم الثّاني، قالتْ جريدة الأهرام: «خسائر العدوّ في الطّيران خلال الاشتِباكات مع قوّاتنا الجوّيّة يصل أمسِ إلى ما يُقارب مجموعُهُ (300) طائرة». لقد تفوّقْنا على أنفُسِنا، إنّها ليستْ (100) طائرة كما قالتْ صحيفةٌ أخرى، بل (300)، كانت الصّحف تتنافَس في الأرقام، هل هي حرب؟!!

وصدحت أغاني المعركة من جديد: «بالدّم حنوخذ ثارْنا... بالدّم حَنْعُودْ لِدْيارْنا...». وما زلنا ننتظر ذلك الثّأر، وتلك العودة.

كنتُ قائدًا للجبهة الشّرقيّة، وكانتْ قُوّاتي متمركزةً فوق مرتفعات (السّلط – زي)، ولم تكنْ لدينا أوامر محدّدة، كنتُ أجهل كثيرًا مِمّا يجري، واتّصلتُ بيُسرى: «كيفَ حال الأولاد؟». كان صوتي راجِفًا. سألتْني: «هل هناك شيء؟». «أسأل عن حال الأولاد!». «كلاّ. أنتَ تتذرّع بالسّؤال عنهم. كيفَ هي الأمور على الجبهة؟». رجفتْ يدي المُمسكة بالهاتف أكثر، لم أدرِ ما أقول، كنتُ أتخيّل هَزّة رأسِها على الطّرف الآخَر، ظللتُ صامِتًا، قالتْ بعد لحظاتٍ طويلةٍ من ذلك الصّمت الأبكم: «أعرف. سوف يبيعون ما تبقّى من فلسطين». كدتُ أبكي. تماسكتُ: «هل باسمة بخير؟ رمزي؟ بسّام؟ محمّد؟ فاطمة؟ إبراهيم... هل الصّغار بخيرٍ يا يُسرى». قاطَعتْني: «لا تخرجوا من الحرب منكسرين ولو هُزِمتم. أمّا الأولاد، لا تقلقْ بشأنهم. اقلقْ بشأنِ هذا الوطن الّذي يُذبَح...». ثُمّ أغلقت الهاتف.

دمّرت الطّائرات الإسرائيليّة في السّاعات الثّلاث الأولى من صباح يوم الخامس من حزيران حوالي (209) طائرة مصريّة من أصل (340) طائرة، منها: (30) طائرة تي يو-16، و(27) طائرة اليوشن قاذفة، و(12) طائرة سوخوي- في، و(90) طائرة مقاتلة ونقل وهليكوبتر. أكثر من 80٪ من الطّيران المصري قُضِي عليه وهو في أماكنه!

في الأردنّ، فعل الطّيران الإسرائيليّ بنا ما فَعَلَه في مصر، فدمّر (32) طائرة في مطارَي (ماركا) و(المفرق). ثم قصفت المطارات السورية ومنها الدمير ودمشق، ودمرت 32 طائرة مقاتلة من نوع ميغ، و2 اليوشن و 28 قاذفة. كما هاجمت القاعدة الجوية H3 في العراق.

وبالمُجمل فإنّ سلاح الجوّ الإسرائيلي في النهاية كان قد دمّر (416) طائرة مُقاتِلة، ولم يخسرْ أكثر من (26) طائرة!! ولا أدري بِماذا كُنّا سنُقاتِل الجيش الإسرائيليّ، الّذي راحتْ دِعايته (الجيش الّذي لا يُقهَر) تنتشر بسرعة، هل سنُقاتِله بالحجارة مثلاً، أم بالدّعوات في الصّلوات، أم بالشّجب والاستِنكارات؟!

***

(32)

هل لِلحَربِ أسماءٌ أخرى؟

بدلاً من الوطن لدينا إذاعات، وبدلاً من الحرّيّة لدينا زعامات، وبدلاً من الحقيقة لدينا خُرافات. إنّني أقبل بخسارة شيءٍ من وطني، ولكنّني لا أقبل بخسارة تاريخي، بخسارة نفسي، كانتْ تلك أمنية، وجزءًا من المقارنات اليائسة، ولكنّنا في الواقع خسرْنا كلّ شيء!

كيفَ استطعنا أنْ ننظر إلى الرّبيع من النّافذة الجامدة، والنّار تلتهب تحتَنا؟ كيفَ كُنّا أمّةً واحدة وتحوّلنا إلى ألف أمّة وأمّة؟ عَمّ كان النّاس يبحثون؟ عن نصرٍ موهومٍ؟ عن المجد؟ عن التّاريخ الضّائع؟ عن القائد الرّمز؟ عن البطل المُلهِم؟ عن النّموذج الأسطورة؟ وإلى أينَ كُنّا نسير؟ هل كُنّا نعرف أنّها الهاوية؟ مَن الأعمى؟ ضَلّ مَنْ قصدَ الطّريق أم ضلّت الطّريق؟

ربّما لم نكنْ نعرفُ شيئًا مِمّا يجري. ربّما كُنّا مُغيّبين. ربّما كانتْ هناك أمورٌ أكبر من أنْ نفسّرها؟ كيفَ ولماذا حدثتْ؟ لكنْ ماذا نفعل؟ هل ينتهي بنا الأمر إلى المصحّات العقليّة؟ ربّما بعد خمسين عامًا أو أكثر أو أقلّ سيقول النّاس عنّا أنّنا خُنّا كلّ شيءٍ، وأنّنا كُنّا نستحقّ أنْ تسحقَنا إسرائيل، ولربّما كانوا يشعرون بالشّفقة على مَنْ تبقّى مِنّا.

عمّ كُنّا نبحث؟ عن الحرّيّة؟ عن الثّورة؟ لقد تصدّر حرّيتَنا العبيد، وثورتَنا قُطّاعُ الطّرق. مرحبًا بالثّائر الّذي لم ينتصر في معركةٍ واحدة.

مرحبًا بالثّائر الّذي جعل الشعوب العربيّة كلّها تقف على رِجْلٍ واحدة، كان الشّعب قد فقدَ رِجْلَه الأخرى في الحرب.

بودّي أنْ أتذكّر كلّ شيءٍ؛ لكنّ الذّكرى قاتِلة. بودّي أنْ أقول كلّ شيءٍ، لكنّ القول قاتلٌ هو الآخَر. كم من القتَلَة الّذين علينا أنْ ندفعَ لهم لكي نعيشَ بسلام!! كنتُ أعرفُ أنّ بلادَنا تموتُ أمام أعيننا، كُنّا جميعًا نشاهدها وهي تُحتَضر، كانت المشكلة أنّ كثيرين مِنّا كانوا قد حفروا لها القبور من قبلُ، وأعدّوا لها الأكفان؟ هل كانتْ بلادُنا أعداءَنا؟!

لقد كُنّا سُذّجًا. صدّقْنا أنّنا سنأكلهم، نسحقهم، نستأصل شأفتَهم، نُبيدهم عن بكرةِ أبيهم، سوفَ نركب الباصات إلى تل أبيب ونتجوّل في شوارعها، ونجرّ الفاتِنات اليهوديّات الحُلوات من شعورهنّ ونأخذهنّ سبايا. وتجادَلْنا في جمال هذه الأجساد اللّيّنة المَرشوشة بالورد في اللّيلة المُؤنسة في السّرير الوثير!! وكان صِياح بعض الجنود القادمين من القرى والصّحارى والمُخيّمات والّذين لم يُطلِقوا فشكةً واحدةً في حياتهم يعلو وهم يناقشون الأمر؟ واحدة أم عشر؟ في الشّارع أم في بيتٍ مُهدّم؟ أينَ يُمكن أنْ تجد مثل هذا العدد من الجواري في تل أبيب أم في حيفا؟ لقد تنازَعْنا على غنائم في معركةٍ لم يكنْ فيها خاسرٌ سِوانا؟!

منذُ ظُهر اليوم الأوّل في الخامس من حزيران، كانت المعركة قد انتهتْ فِعليًّا؛ لم يعدْ لدينا طائرات، كلّ ما لدينا جنودٌ يموتون تحت القصف. هل كُنّا سنزحف بدون طائرات إلى عدوّنا بالزّنابق مثلاً، لا أدري ماذا كُنّا سنفعل؟

صباح يوم الثّاني من الحرب، السّادس من حزيران سقطت

(العَرِيش) وانفتح المحور الشماليّ أمام القوات الإسرائيليّة المُدرّعة، وفي المساء تمكن الإسرائيليّون من الاستيلاء على مدينتَي (غزّة) و(خان يونس)، وأصدر عبد الحكيم عامر قائد الجيش المصريّ في الساعة الخامسة من بعد الظهر، أمرًا بالانسحاب العامّ لجميع قوّات سيناء إلى غرب قناة السويس. قامت القوات الإسرائيليّة بعد الظهر بهجوم على الضّفّة الغربيّة وعَزَلت القدس عن الضّفّة ووصلت إلى جنين. ها هي مدننا تسقط واحدةً تِلو الأخرى... ثُمّ سقطت نابلس على الجبهة الأردنيّة وأخذت القُوّات الإسرائيليّة تتحرّك في اتّجاه نهر الأردنّ مع قتالٍ حول القدس الشرقيّة. النّهر مُقدّس عندهم كالقدس؛ من هنا عبر يُوشَع...

في اليوم الثّالث أي يوم السّابع من حزيران استسلمت الأردنّ وتمّ وقف إطلاق النار على الجبهة الأردنيّة. احتُلّت القدس الشرقية حيث وصلت القوّات الإسرائيليّة في العاشرة صباحًا إلى حائط البُراق، هوى أوّل جنديّ وصل الحائط، فقبّله، وكادَ يضمّه بين ذراعَيه، ويُقبّل الشّوك الّذي يخرج من بين حجارته. وتوالى من بعده الجنود يصرخون من الفرحة، ويهتفون بالتّرانيم الدّينيّة، بينما كانت قد سيطرت تمامًا على المدينة مساءً. وصلت القُوّات الإسرائيليّة إلى قناة السّويس انهارت القوّات المصريّة انهِيارًا تامًّا... هذا ما يليقُ بنا!

في اليوم الرّابع؛ الثّامن من حزيران كُنّا لا نزال نتلقّى الصّفعات والضّربات، وكان لدى العدوّ خُطّة كاملة في كلّ يوم؛ أينَ يضرب؟ وماذا يُهدّد؟ وأين يُمركِز قوّاته؟ وماذا يحتلّ؟ ولم نكُنْ نعرفُ غير الانسِحاب والتّراجع والتّسليم... انهارت في هذا اليوم الدّفاعات

المصريّة المُتبقّية شرق القناة وبدأ الانسِحاب من سيناء.

في اليوم الخامس؛ التّاسع من حزيران قامت القوّات الإسرائيلية في هدوء باحتلال سيناء كلها حتى شرم الشيخ، كانت الصّحراء كلّها لهم، اقتفَوا آثار موسى وهارون، ولم تواجِه قُوّاتها في هذا اليوم أيّ دفاعٍ من أيّ نوعٍ، وصدر قرار مجلس الأمن من أجل وقف إطلاق النار، بينما أعلن الرّيّس تنحّيه عن السلطة... وبينما هو يُلقي خِطاب التّنحّي ودموعه تترقرق في عينَيه، مُستجديًا الشّعب المسكين الّذي لم يُحقّقْ أمانيه له بالنّصر أنْ يعفو عنه، أو أنْ يقبلَ استِقالتَه، وعلى الجبهة الأخرى كان الهجوم الإسرائيليّ يخترق الدّفاعات السّوريّة شمال هضبة الجولان.

في اليوم السّادس، العاشر من حزيران؛ اليوم الأخير من المعركة، مع أنّها انتهتْ في السّاعات السّتّ الأوّلى فِعليًّا خرجتْ مُظاهرات شعبيّة محمومة جابتْ شوارع القاهرة وملأت الميادين ترفض قبول تنحّي الرّيّس وطالبت بعودته فوافق الرّيّس مباشرة وعاد إلى الحكم؛ كأنّنا كُنّا في نزهة واعتذرنا عن زيادة المِلح في الطّبخة!! بينما كان الرّيّس يعود إلى الكرسيّ كانت القُوّات الإسرائيليّة تصل إلى القنيطرة، وتُعلِن سقوط الجولان!

ماذا خسرنا؟ لم نخسر الضّفّة وغزّة وسيناء والجولان بالدّرجة الأولى، بل خسرْنا أنفسنا، وكرامتنا، وبدَونا طبولاً جوفاء تُصفّق لكلّ ناعق، وتدعو لكلّ دَعِيّ. لقد كانتْ هزيمةً نفسيّة بامتِياز. سقطَ منّا ما يقرب من (20) ألف شهيدٍ في هذه الأيّام، وقُتِل من اليهود أقلّ من ألف قتيل، أمّا طائراتنا ودبّاباتنا وسِلاحنا، فقد فقدْنا أكثر من ثلاثة

أرباعه، ولم يفقد العدوّ إلاّ النّزر اليسير؛ هل زَجُّوا بنا في محرقة؟ هل كان اليهود يُعيدون الهولوكوست على أراضينا؟!

لو دخل كلّ قائدٍ منّا أو زعيمٍ إلى قلبِ جنودنا الّذين استُشهِدوا أو أُسِروا وأذِلّوا لكان ربّما ظفر بالحقيقة أو بالإجابة الصّادقة؛ كانت الجثث تنتشر في الخنادق، أصيبوا بقذائف رشّاشة ولفظوا أنفاسَهم الأخيرة هنا. بعضُهم لم يكنْ يدري في رَقدته الأخيرة وهو لا يزال يُمسك على مِقبض رشّاشه من تحت ساتر خندقه إلى أيّ هدفٍ كان سيُصوّب الفوّهة، ومات دون أنْ يجد لذلك معنى!

بعضُ جنودنا رفضوا أوامر الانسِحاب من سيناء، وظلّوا يُقاتِلون حتّى آخر رمق بما لديهم من أسلحةٍ بسيطة، إذْ كانت دبّاباتنا ومدافعنا قد انسحبتْ بناءً على أوامر قادة الجيش، هؤلاء وحدهم كان لهم المجد، وحدهم كان يُمكن أنْ ترى ابتِسامة الرّضا ترتسم على شِفاههم قبل أنْ يُستشهَدوا، وحدهم يُمكن أنْ نقول إنّهم نَجَوا من العار، ماتوا من أجل ألاّ تُجرَح أحلامهم، وألا يقفوا أمام أنفسهم في المرآة فينكرونها... أمّا نحن، فلنا أنْ نشعر بتلك الطّعنات الغادرة تنشب في خواصرنا كلّما خَلَونا إلى أنفسنا.

ادخلْ إلى قلوب بعض الجنود الّذين أُسِروا، ذلك الصّنف الّذي لم يكنْ يدري أين تقع فلسطين، ولا إلى أينَ أخذوه، ولا ما الجبهة الّتي يُقاتِل عليها، ولا من أجل مَن، هؤلاء كان يُمكن أنْ تُشاهِدهم في صحراء سيناء، بالمِئات، يقودهم جنديٌّ إسرائيليّ واحدٌ، وقد أَمَرهم أنْ يخلعوا أحذيتهم، وملابسهم، ويعقدوا أيديهم خلفَ رؤوسهم، ويسيروا حُفاةً شبه عُراة، ثُمّ كان يُطلِق النّار كلّما شعر بالملل على

أحدهم، فتنقص القافلة شهيدًا، ويدبّ الذّعر في قلوب الآخرين، وكانت الرّصاصة أقرب إليهم من حبل الوريد، مع أنّ بعضَهم كان يتمنّى أنْ تأتي سريعًا ليستريح من هذا الذّلّ والهوان. أو أولئك الّذين حملتْهم في شاحنات، وقد حَشَروا في كلّ شاحنة أكثر مئة أسيرٍ تلتصق أجسادهم العارية، وهم مُجبرَون على رفع أيديهم الفارغة إلى أعلى. ثُمّ أطلقوا عليهم النّار في فراغ من الصّحراء ودفنوهم في مقابر جماعيّة، أو تركوا جثثهم يتخطّفها الطّير أو هوامّ الرّمال اللاّهبة. أو ذلك الصّنف الّذي أُمِر أنْ ينبطح على بطنه، ويرفع يدَيه إلى أعلى، ثُمّ لا يدري متى تأتيه الرّصاصة فتخترق رأسه، وتجعل دماغه يسيل على الأرض، لتدوّي من خلفه قهقهةٌ فاجرة، ولكنّه لحُسن الحظّ لن يسمعها.

كانت الجثث هنا وهناك، تحت جنازير الدّبّابات، وعلى الأسلاك الشّائكة، وكانتْ هناك بقايا المدافع المُدمّرة، والسّواتر التّرابيّة، والخُوَذ المقلوبة الّتي تناثرتْ على الرّمل بعد أنْ طارتْ رؤوس أصحابها، والأشلاء الدّامية، والصّرخات الأخيرة، والحُلم اليتيم برشفةِ ماءٍ واحدةٍ في تلك الصّحراء اللاّهبة قبل الموت! حُلُمٌ خُنِق هو الآخَر قبل أنْ يتحقّق.

وكان الّذين في الميدان يرون الموت ماثِلاً أمامهم، لا في خيالهم، فدبّ فيهم الذّعر، فقد أرسل أحد قادة لواء المُشاة على الجبهة الأردنيّة برقيّة إلى القِيادة يُخبرهم فيها أنّ لواءَه أُبيد بالكامل، وأنّ جثث جنوده تفحّمتْ، وراح يُولول، ثُمّ لم ينتظرْ ردّ القِيادة، فخلع رتبته العسكريّة، وثِيابه، والشّعار، ودفنَها في باطن الأرض حتّى لا ترى الطّائرات الإسرائيليّة رُتبتَه فتقصِفه، ورَكِبَ بغلاً، وقطعَ نهر الأردّن، وهربَ

تارِكًا جنوده لا يدرون ما يفعلون، كانت الحجارة الّتي يلتقيها في الطّريق تلعنه، وكان الشّرف العسكريّ هو الآخر يلعنه!

أمّا المُقدّم (صالح الشّويعر) الّذي كان يُقاتل في نابلس، وكان قائد كتيبة الدّبّابات الثّانية، فقد كان نموذجًا للالتِحام المُباشر مع قُوّات العدوّ، وكان متقدّمًا على محور سيلة الظّهر في نابلس، لكنّ انسِحاب قوّات المُشاة من هناك تركَه وحيدًا في الميدان، ومَنْ كان وحيدًا لا يؤنِسه إلاّ إيمانه، وإلاّ بندقيّته، وقد صدرتْ إليه الأوامر كما صدرتْ لغيره بالانسِحاب، ولكنّه فضّل أنْ يُقاتل على أنْ ينسحب، واستطاعت القُوّات الإسرائيليّة من الاستِيلاء على مُفترق الطّرق بين وادي الباذان ونابلس، وسيطرت على المحور الرّئيسيّ للمدينة، وهكذا وجدَ نفسَه مُحاصَرًا من كلّ الجهات، وعرف أنّ حياته ليستْ أثمنَ من كرامته، ولا من وطنه، فقاتل، كما تُقاتل الوردة في الحريق، وأتاه الموتُ على شكلِ قذيفةٍ، ففجّرتْ جسده، واستُشهِدَ هو ورِفاقُه، وبقيتْ دبّابته ونُصْبه في مدينة نابلس شاهدَين على استبساله في وجه طوفان الموت والنّار.

وحَمَل مئاتُ الآلاف من المُهجّرين الجُدُد ما يُمكن حمله على ظهورهم، من متاعهم أو متاع بيوتهم، وحملت الحوامل والمُرضِعات جيلاً سيلد في الهزيمة أو يكبر فيها، ولن يكون بإمكاننا أنْ نُحدّثه عنها، ولا أنْ نبرّرها له، مَنْ يُحدّث أحفاده عن العار؟ وكانوا يبحثون عن منفًى جديد، فما عادت المنافي القديمة تتّسع لهم.

من موقعنا الملك حسين وأنا، كُنّا نُشاهد الجنود الفارّين، كانوا عائدين من المعركة بأسهال الهزيمة والذّلّ، منكّسي الرّؤوس، ينزفون من عروبتهم وإبائهم قبل أنْ ينزفوا من أجسادهم، يسيرون راجِلين،

يقطعون المسافات صعودًا خلف النّهر، وقد تهالكَ كلّ شيءٍ فيهم، بعضُهم كان يركب حِمارًا أو بغلاً، وبعضُهم مِمّا كان محظوظًا، وجد حافلةً صاعدةً من الغور فأقلّته، وكان منظرهم يُدمي القلب، وقد رأيتُ الأسف على وجه الملك الّذي نَظَر إليّ وقال: «إنّه يومٌ حزينٌ للعرب». وتنهّدتُ، لم يكنْ لديّ ما أقوله، ففي المصائب تنخنق الكلمات. قال الملك: «قدّمْ لهم يا مشهور الدّعم اللاّزم، ابعثُوا بالجرحى إلى المُستشفيات، وأرسِلوا برقيّات التّعازي إلى ذوي القتلى؛ إنّهم أبناؤنا وإخوتنا، وعلينا أنْ نُساعدهم بأقصى ما نستطيع!».

قال دايان: «لقد كانتْ أهدافنا عام 1948م تنحصر في إيجاد وطنيّ قوميّ يهوديّ، وبعد حرب 1967م أصبح علينا وَضع خريطة لأرض إسرائيل الكُبرَى. لن يُوقفنا أحدٌ، غدًا نتوسّع شرقًا؛ فالضّفّة الأخرى لنا مثل هذه الّتي عادتْ إلينا، روح أجدادِنا في النّيل تستنهضُنا، ودمهم في خيبر يستصرخنا!». ثُمّ رفعَ وجنتَيه باتّجاه الشّمس فلمعتْ، وزمّ شفتَيه فبدا كأنّه ينتظر قبلةً ما، وضَحِك. فبانتْ أسنانه، ومَنْ يعرفه سيعرف أيضًا أنّ عينَه العوراء قد ضحكتْ هي الأخرى!

وهكذا انتهت الحرب، هل للحرب أسماءٌ أُخرى؟ لعبة هزليّة مثلاً، مسرحيّة ذات إخراج سيِّئ! ربّما.

***

(33)

لا تنتظرْ آتيًا ولا تندمْ على ذاهِب

سقطتُ داخل بِئرٍ عميقة، أعمق من تلك الّتي سقطتُ فيها أيّامَ كُنتُ طفلاً في الرّشاديّة، الهروب من العار مُعجزة لم أستطعْ تحقيقها. تسكّعتُ في الشّوارع. رأيتُ دمنا يسيل في كلّ مكان. رأيتُ الهزيمة، كانتْ تُقهقه كلّما برزت لي، كانتْ مرعبة، كنتُ أحاول تحاشيها ولكنّني لم أنجح، كانتْ تطلع لي في كأسِ الماء، وفي لقمة الخُبز، وفي صوتِ أبنائي، وفي طاقيّتي العسكريّة، وفي نظرات زوجتي. كيفَ يُمكن الهروب من كلّ هذا؟!

كنتُ أتشظّى، أنكسر إلى ألفِ قطعة، كلّ قطعةٍ تنكسر إلى ألفِ مثلها، وجهي لم يعدْ لي، كلّ شيءٍ غريبٌ عنّي، كلّ ما جِئتُ من أجله يبدو مُظلِمًا، يغيب في نفقٍ طويل، أرى على جانِبَيه وجه (غلوب)، وقد ازدادَ هرمًا، وشارباه الغليظان شابا بالكامل وهما يتهدّلان على شفتَيه، وجِلد حَنكه قد ترهّل، وهبط أكثر. كان يبدو أحيانًا مُنكبًّا على أوراقٍ بينَ يدَيه، يقلّبها، ينظر فيها، ويمزّق بعضَها، ويُصحّح بقلمٍ أسود بعضَها الآخَر.

كانتْ أحاسيسي تلعنني، كانتْ تغرق في مياه آسنة، فلا أدري كُنهها. لم أكنْ أستطيع النّوم، أتقلّب في اللّيل، يصيبني الذّعر وأنا نائمٌ في قِيادتي، كيفَ يمكن أنْ تحدس بشعورك في مكانٍ أرّخ للهزيمة، وبين

جنودٍ صَنَعوها، ولصقتْ بأكتافهم أكثر من الرّتب الّتي يحملونها؟!

أشعرُ بأنّني أموت، جزءٌ منّي يموت، لكنّني لا أستطيع أنْ أحددّه، هل هو القلب، أم الرّوح، أم الضّمير، أم الشّعور؟ أم أنّه كانتْ تموتُ فِيّ أجزاءٌ من كلّ شيء؟ رغم ذلك كان لا يزالُ جزءٌ منّي حَيًّا في مكانٍ ما، أريدُ أنْ أرى هذا الجزء، أنْ ألتقيه... الطّريق إليه طويلة، بعيدة، غائمة، لا أعرف كيفَ أسير فيها، أخافُ أنْ تذهب محاولاتي كلّها هباءً، أظلّ أسير دون أنْ أجدَ ما أريد.

كنتُ أعيشُ في دوّامة، لا تسمح لي بالتّنفّس، ولا بالتقاط تلك الأنفاس لأفهم ما جرى، كانت الدّوامة تدوّخني، تُذهلني عن نفسي، أمسك برجلَيّ الدّائرتَين، وبيدَيّ المرتخيتَين، وبعينَيّ الزّائغتَين، أبذل جهدًا أسطوريًّا في البحث عن فجوةٍ في تلك الدّوّامة من أجل النّجاة، هل يمكن أنْ أجدها؟!!

أبكي بصمتٍ، ربّما مثلما تبكي الأشجار. أنوح في داخلي، ربّما مثلما تنوح الجبال البعيدة. وأزفر زَفَراتٍ ربّما كزفرات الصّحراء في اللّيل. يتطاول اللّيل، يبدو عميقًا جِدًّا إلى الحدّ الّذي لا نهاية له، أسمعُ صوتَ أبنائي في داخلي، صوتُهم يُشبه النّهار، هل يُوقظون النّهار؟ أنا أتمزّق من داخلي لكي يأتي. مَنْ يملك صوتًا حانِيًا وحقيقيًّا وغيرَ مُلوّثٍ لكي يُنادي على النّهار من أجل أنْ يطلع؟ النّهار يُحبّ الأصوات الصّافية، كلّ أصواتنا نحن الّذين شاركْنا في الحرب كانتْ مُلوّثة!!

قالت يُسرى: «هذا يكفي». بكيتُ أكثر. قلتُ: «أنتِ تحاولين تخفيف المرارة في روحي. إنّ كلّ كلمات الماء لا تستطيع أنْ تفعل ذلك». نظرتْ في عينَيّ، كنتُ أُبعد نَظَراتي عنها: «لا أستطيع النّظر في وجهك

مُباشرةً يا يُسرى، لقد خذلتُكِ كما خذلتُ الوطن الذّبيح؛ كان عليّ أنْ أعودَ إليكِ محمولاً على الأكتاف مُضرّجًا بالدّماء». تأخذني من يدي كطفل، نخرج إلى ساحة البيت، تقول لي وهي تُشير إلى إحدى النّخلات الباسقات: «هذه النّخلة لا تموت، عليكَ أنْ تتعلّم». «الأمر في داخلي يا يُسرى. جنونٌ ما حدث». تقطع ابنتنا الكُبرى (باسِمة) خلوتَنا، تسبقها رائحة القهوة، تزيدُ المرارةُ في أعماقي، تتكثّف، تتخثّر، تُصبح صعبةَ الابتِلاع، أسمع صوت انشقاقاتٍ عميقة لا يوقفها شيء في روحي. أهربُ. أتركُ النّخلة، وأمضي، جهةَ الجنوب!

ذهبتُ إلى الرّشاديّة، دخلتُ على أمّي: «حِصّة... لقد هُزِمْنا». تُشيح بوجهها عنّي. أحاول أنْ أجدَ عندَها ما يُخفّف عنّي، أكرّر الخطيئة أمامَها: «لقد هُزِمْنا يا أمّي!». أقول ذلك لأحثّها على أنْ تواسيني، تُدير وجهها هذه المرّة نحوي، تنظر في عَينَيّ مباشرة، أشعر بنفاذ نظراتها الحارقة إلى قلبي، تهتف وهي تشدّ على الكلمات: «لقد هربْتُم كالفِئران يا مشهور. لقد هربتم. جُبناء. كان عليكم أنْ تربطوا أرجلكم بالجنازير، فخيرٌ لكم أنْ تسحقكم الدّبّابات على أنْ تعودوا لنا بالعار». تخترقني كلماتُها، تزيدُ مرارتي، تزيد من انكِساراتي الّتي لا تنتهي. أخرج من عندها، وألف طعنةٍ تنشبُ في حلقي.

أعودُ إلى مضارب جدّي، أجوبُ في البيوت القديمة، أستعيدُ في ذاكرتي الخيام الّتي لم تعدْ موجودة، أستعيد الأيّام الخوالي. أستعيد القمح، والهيل، والقهوة، وأصواتَ الرّاحلين، أستعيدُ صورةَ جدّي، إنّها خمس سنواتٍ يا جدّي على رحيلك، لكنّني أراك، الّذين يسكنون القلب لا يخرجون منه بالموت، أنظر إلى قلبي، إنّه هنا، أدقّق النّظر،

صورة جدّي كانتْ نقطة الضّوء.

ذهبتُ إلى المقبرة، كانت المقبرة القديمة قد درَسَتْ، شواهدها قد انمحتْ وسُوّيت بالأرض، من التّراب جِئنا وإلى التّراب نعود، هؤلاء البشر الّذين كانوا يملؤون الحياة حياةً وضجيجًا، لم يعدْ لهم من أثر، غاصوا في الثّرى، ثُمّ لم يعدْ لهم في الثّرى إلاّ العِظام، ثُمّ لم تعدْ عِظامهم إلاّ ثرًى، وهكذا تسير الدّورة، ما الّذي يتبقّى من الإنسان إذا عادَ إلى التّراب؛ موطنه الأصلي؟! بحثتُ في القبور، ها هو قبرُ جدّي، كلاّ، هذا قبر ابنُ عمّه، ذلك، كلاّ، ذاك... اختلطتْ عليّ القبور، صرتُ أمشي وأنا أنظر إلى ما تبقّى من العلامات لكي أهتدي، وبدأ اللّيل يهبطُ فأزداد ضلالاً، تخيّلتُ في لحظةٍ خارجَ الزّمان أنّ كلّ القبور هي قبر جدّي، ثُمّ شعرتُ في اللّحظة التّالية أنّ قبرَ جدّي ليس هنا، وأنّه بعدَ أنْ دُفِنَ هنا، صعدتْ روحه، وذهبَ إلى ابنه في القدس، وزاره هناك فوجدَ عنده من النّعيم ما وجد، فسأل ابنَه أنْ ينام في القبر إلى جِواره، فقال له: أستأذنُ الله، فأذن الله له، فنام إلى جواره تحت سور القدس، وظَلاّ معًا. نفضتُ رأسي، الأحلام تُغوي، الأحلام تقتل، رحتُ أبحثُ من جديد، لكنّ القبور اختفتْ، وصارت الأرضُ جرداء، أيقنتُ أنّني أهذي، ولكنّ اليقين بالهَذَيان هو هَذَيان آخَر، صرتُ أرى ما لا يُرى، وأسمع ما لا تلتقطه الأذن، كلّ خليّة في جسمي كانتْ أُذُنًا، هناك عوالم كثيرة مخفيّة عن البشر، عوالم لا تُدركها حواسّهم المحدودة، لو خرجتْ هذه الحواس عن نِطاقها، لخرج العالَم البشريّ عن حدوده إلى عوالم أرحب وأكثر إدهاشًا. واصلتُ السّير في الأرض الجرداء الّتي بدتْ لي كذلك، العثور على قبر جدّي يبدو أمنيةً شاردة. شعرتُ بالضّياع التّام،

فجمدتُ مكاني حائرًا، كنتُ أعرفُ أنّ أيّ خطوةٍ بأيّ اتّجاه تعني مزيدًا من الضّياع. وفي لحظةٍ فارقة خارج تعريف الزّمان والمكان أظلمتِ الدُّنيا، لم أعدْ أرى من الصّحراء الواسعة شيئًا، كأنّ العوالم قد تبدّلت، لم أعدْ أسمعُ شيئًا، صمتٌ رهيبٌ طويل، العوالم كلّها صمتتْ، توقّفت الحركة، سكونٌ، لا حسّ، لا همس، لا نَفَس، صمت... يستمرّ الصّمت... سكينة... هدوء تامّ...

غَمَرَتْني ســـــكينةُ الكونِ حتّى

كِدتُ أُصغي إلى حديث السُّكونِ

ببطء، من أعماق قلبي، تتحرّك صورة جدّي، تظلّ تخرج من بقعة الضّوء الوحيدة هناك، وتصعد إلى أعلى، إلى أعلى، حيثُ مقام الرّوح، وأنا أتابعها بنظري في السّكون العميق، حتّى إذا ما وصلت إلى ذروة الرّوح، راحتْ مثل حمامةٍ بيضاء، تهبطُ ببطء، ببطءٍ إلى مقام النّفس، ثُمّ... تتمثّل هالةً من نورٍ أمامي. هتفتُ مستغربًا: «جدّي». أجاب: «أنا هنا... اتبعني». «إلى أين؟». «ستعرف. لا تُكثِر من السّؤال». وتبعتُه. كنتُ أشعرُ أنّ أقدامي ترتفع فوق الأرض، وأنّني أسبح في الفراغ، مَضَينا، إلى أنْ وصلْنا إلى كهف. سألتُه: «أكَهفٌ في الصّحراء؟». فردّ: «ستعرف. لا تُكثر من السّؤال». دخلْنا إلى الكهف، كان واسِعًا، ويبدو ممتدًّا بلا نهاية، وعميقًا جدًّا إلى الحدّ الّذي تعجز العين عن إبصار نهايته، خطونا خطوتَين، وتوقّف، قال لي: «البشر سيعبرون من هنا». سألتُه وأنا أبلع ريقي: «كلّهم». أجابني: «ستعرف. لا تُكثِر من السّؤال». صمتَ قليلاً، ثُمّ أردف: «لا يُمكنكَ أنْ تخطو أكثر، أمّا أنا فأستطيع، لم يأتِ يومُكَ بعد». أخذني من يدي، وانتحَينا جانِبًا من الكهف، وجلسنا

على حجرَين، هتف وهو ينظر إليّ: « العَطَشُ سيقتُلك». صدمَتْني عبارتُه، شعرتُ أنّ الرّيح هي الّتي تتحدّث، عدتُ بذاكرتي إلى الوراء، إلى أيّام الطّفولة الأولى، لقد قالت الرّيح لي هذه العبارة، خِفتُ، شعرتُ بأنّ عليّ أنْ أنجو مِمّا أنا فيه، أحسّ جدّي بذلك، نظرَ إليّ وابتسم: «هل أرعبتْكَ العِبارة؟ هل أدهشتْكَ دورةُ الزّمان؟ لا تخفْ يا بُنيّ، لن ينصحكَ أحدٌ خيرٌ مِنّي، ولن يُخرجكَ مِمّا أنتَ فيه من الضّياع سِواي. الزّمن يدور، الأدوار تتبدّل، الحَيَوات تتقلّب، نحنُ نعود في أشكالٍ أخرى، الدُّنيا ومضة لا يشعر الّذين على الطّرف الآخَر بها لأنّ زمنها القصير لا يُتيح لهم أنْ يرَوا وميضَها، لا تُصدّق كلّ ما ترى، ما ترى ليس حقيقيًا إلاّ بمقدار ما في القلب، القلب إذا كان سليمًا نجا، هنا الهلاك وهنا الفوز» وأشار إلى قلبه، ثُمّ تابع: «العطشُ سيقتلك، العطش إلى الكرامة، إلى النّور، إلى الحقيقة... سيقتلك كلّ هذا... لا حقيقة إلاّ ما ترى وإنْ كنتَ لا ترى، لا حقيقةَ إلاّ ما تجد وإنْ كنتَ لا تجد، لا حقيقةَ إلاّ على الضّفّة الأخرى، ولا أحدَ عاد من هناك إلى هنا، إلى الضّفّة الأولى ليخبرهم بما رأى، فاعملْ ليومٍ لا تعودُ فيه ولا منه». وارتعشتُ، كان كلّ شيءٍ فِيّ يرتعش، وكنتُ أهمسُ في أعماقي: «هل هذا جدّي؟ هل أنا أسمعُ ما أسمعُ حقًّا؟!». وكانت عينا جدّي صافِيتَين، مطمئِنّتَين، وكان يُغمِضهما أحيانًا، وكأنّه يرى في إغماضتهما عالَمه المستور، ثُمّ يفتحهما، ويتابع معي حديثه مِمّا رأى: «العار لا تمسحه إلاّ التّوبة. التّوبة في النّصر. والموت في النّدم». أسأله مُستزيدًا: «كيفَ نتوب يا جدّي عن هزيمتنا؟». «باقتِلاعها، لا تنتظر آتيًا، ولا تندمْ على ذاهب. الأبطال يتعارفون في الميدان ويتصافحون بالبنادق. اقرأ عقلَ خصمِك

قبل أنْ تُصوّب نحوه. خطّطْ إلى أقصى حدّ، وتوكّلْ بعدَها إلى أبعد مدى. واضربْ عدوّكَ دون رحمة. واعرف أنّ التّفكير بالتّراجع بعد الإقدام خيانة.

وأنّ الخيانة الصّغيرة مثل الخيانة الكبيرة فإنّ الاسم وحده عارٌ لا يُغسَل. لا يُقوَّمُ العُودُ الأعوج إلاّ بالكسر. لا تُهاجِم لتختبر، بل هاجمْ لتقتل. للمعاهدات بين طرفَين زمنٌ، نحن لسنا في زمنها، هذا زمن إحراق كلّ السّفن من خلفك. قاتلْ لتنتصر، فإذا مِتّ فقد أعذرتَ؛ ما يضير الشّاةَ سلخُها بعدَ ذبحها.

كلّما كانت الضّربة خاطفة أرعبت حتّى أولئك الأقوياء». ثُمّ صمت، ولم أجدْ شيئًا لأقوله له، هل كانتْ هذه كلّها إشاراتٍ لِما سيأتي؟ كانتْ هناك أصواتٌ كثيرة غريبة تأتي من أعماق الكهف، في لحظات الصّمت، ميّزتُ من بينها صوت عبد الرحيم وخالي نائل وبعض أولئك الّذين صدّرتُ كتبهم إلى العراق أيّام كنتُ في مخفر المفرق، وأصواتُ أخرى تداخلتْ، لكنّني لم أرَ أيًا منهم، كانوا يتحاورون فيما بينهم كأنّما يجلسون في ظِلالٍ على الأرائك، لا أدري كيفَ تخيّلتُ صُورهم، ورحتُ أستعيدُ الماضي معهم. قطعَ صوتُ جدّي عليّ تخيّلاتي: «لم يعدْ هناك من شيءٍ لأقوله لكَ أكثرَ من هذا. والآنَ عليكَ أنْ تعود.

لم يحنْ بعدُ وقتُ مجيئك إلينا، والعيش معنا». ثُمّ قام، وقادَني خارج الكهف. ظللنا نسير إلى أنْ ظهرت الصّحراء، ثُمّ سقطتْ يدُه من يدي، واهتزّ كتفي، وسقطتُ أنا، ها أنذا أسقطُ من جديد، ذات البِئر، في ذات المكان. في السّقوط سمعتُ صوت الرّيح: «العَطَش سيقتلك».

كانت يدَ أمّي حِصّة تمسح بالماء البارد على جبهتي، لم تعدْ غاضِبة

كما رأيتُها من قبل، كانتْ مُبتسمة، وتنظر إليّ بودّ: «لقد وجدْناك في المكان نفسه الّذي وجدناك فيه عندما كنتَ طِفلاً. لماذا تُصرّ في كلّ مرّة على أنْ تذهب إلى هناك؟».

أجبتُها: «لا أدري، قادَتْني قدَماي وحدهما، لم أدركْ في المرّة الأولى الغاية، ولكنّني الآن أعرف ما يجب عليّ فِعلُه».

***

(34)

أنا أشمّ الحُروب

عُدتُ إلى فرقتي، كنتُ قائد الفرقة الأولى، هتفتُ وأنا في الطّريق إليها: «ولّى عهد النّوم». جمعتُ جنودي. صرختُ بصوتٍ لم يكنْ لي من قبلُ: «تهيّأ... استرِحْ... استعدْ...». وراح خَفْقُ الأقدام على الأرض يصطفق. لم يتوقّع أحدٌ زيارتي، أحبّ هذه المُباغتة، أنا أعمل بهذه الطّريقة، ما لا تتوقّعه ستتعامل معه بتلقائيّتك، وستكون أمامه مكشوفًا لأنّه لن يكون هناكَ سِواك؛ صادِقًا وعارِيًا أمام نفسكَ والآخَرين. هتفتُ بصوتٍ عالٍ: «مَنْ منكم شاركَ في الحرب؟ أجيبوا برفع اليد اليُمنى». رفع معظم الجنود أياديهم. قلتُ: «الّذين لم يشاركوا في الحرب إلى اليمين دُر... آمر السّرايا...». تهيّأ الآمِر: «إلى أعمالهم».

ظلّ في السّاحة المُحاربون في الحرب الأخيرة، مشيتُ أتفقّد الطّابور، توقّفتُ عند الجنديّ الخامس: «أنتَ أيّها الجنديّ... تهيّأ...». شدّ صدره، وأحكم يدَيه على جانبِيه. «لماذا هُزِمْنا؟». أربَكَه السّؤال، لم يدرِ بِمَ يُجيب، ظلّ صامِتًا، ناصتْ عيناه، وخفضَ رأسَه قليلاً، وأخيرًا نطق: «لا أدري يا سيّدي». تركتُه، إلى آخر: «أنتَ، لماذا هربْنا من المعركة؟». لم يُجِبْ. صرختُ بالسّؤال في وجهه مرّة ثانية، فردّ كمن يعترف بذنب: «لا أدري يا سيّدي». مضيتُ، تجاوزتُ طابورَين، أتيتُ إلى الطّابور الثّالث، انتقيتُ جنديًّا بطريقةٍ عشوائيّة، نظرتُ في عينَيه،

ارتعشَ قليلاً، سألتُه بصوتٍ أقربَ إلى الصّراخ: «لماذا انسحبْنا من الضّفّة دون قِتال، لماذا خرجْنا من القُدس دون مُقاومة حقيقيّة؟». لكنّه ظلّ يرتعشُ دون أنْ يفوه بكلمة، سألتُ رابِعًا، وخامِسًا، و... عاشِرًا: «لماذا رمى بعضُنا سلاحَه، وخلعَ ملابسه، وركبَ البِغال، وولّى هاربًا...؟». كانتْ صرخاتي تتردّد بين الجنود فتُصيبهم بالرِّعدة. كنتُ لا أزال أتابع مسيري بينهم، وأنفاسي تتلاحق من الغضب، عندما هتف جنديّ في حُمّى أسئلتي المُتابعة بصوتٍ هادئٍ لكنّه واثق: «أنا لديّ إجابة». كنتُ قد تجاوزته في مروري السّريع، رجعتُ إلى الوراء خُطوتَين، نظرتُ في وجهه: «ما اسمُكَ أيّها الجنديّ؟». تهيّأ، وهو يقول: «خضر شكري يعقوب». «أنتَ ضابطٌ متميّزٌ على ما يبدو؟». خفض رأسه، أشرتُ له بطرف عيني أن يقول، هتف وهو يرفع رأسه وتبين تُفّاحة آدم في رقبته: «الخوف». نظرتُ في عينَيه مُستطلِعًا، طالبًا المزيد من التّوضيح: «الخوفُ يا سيّدي هو الّذي هَزَمنا، كلّ ما يُقال عن التّسليح والاستِعداد يبقى أمرًا ثانويًّا أمام الخوف، نحن دخلْنا إلى الحرب لنُكرّس بالرّعب الّذي يعيشُ في أعماقنا فكرةَ الجيش الإسرائيليّ الّذي لا يُقهَر». صمتَ. صفّقتُ بيدَي، هويتُ عليه، احتضَنْتُه، شددتُ ذراعَيّ عليه، أبعدْتُه عنّي بحركةٍ نَزِقة ثُمّ نظرتُ في وجهه: «هذا ما كنتُ أبحثُ عنه. الخوف. لقد قادنا الخوف إلى الهزيمة. نجحوا في أنْ يجعلونا خائفين».

في ذلك المساء اجتمعتُ بقادة الألوية، كانوا أربعة، قلتُ لِغازي: «إنّها معركتنا الأخيرة. لن نتوب على الهزيمة إلاّ بالنّصر». كان غازي صديقَ الطّفولة ورفيق الدّرب في السّلاح، أسمر، شديد النّحول، عيناه

عسليّتان، عميقتان دائريّتان، وحاجباه يكادان يُغطّيان طرفَي العينَين من الأعلى. نظر إليّ باستِغراب، وقال: «جنودنا مهزومون، لقد خرجْنا من هزيمةٍ نكراء». رددتُ: «أعرفُ، وأعرفُ أكثر أنّ الخوف أكثرَ ما هزَمَهم، ناديتُكَ أنتَ والرّفاق من أجل أنْ نرفع المعنويّات، ونُغيّر خططنا، ونشرف بأنفسنا على التّدريبات». فنظر إليّ مستغربًا من جديد: «وهل هناك حربٌ وشيكةٌ أخرى مع إسرائيل، إنّنا لم نعبر مرحلة التقاط الأنفاس». «إنّها وشيكة بالفعل، أنا أشمّ الحُروب، حاسّة شمّ الحروب تعمل عندي بطريقةٍ فَعّالة، إنْ لم يبدؤوها هم، فسنبدؤها نحن، أنتَ تعرف في الحرب أنّ خير وسيلة للدّفاع هي الهجوم. هؤلاء الجنود بحاجةٍ إلى شيءٍ يُعيدُ إليهم ثقتَهم بأنفسهم». فهتف مستنكرًا: «تعيدُ إليهم ثقتهم بأنفسهم بأنْ تُدخِلهم في الحرب!!». فاستدركتُ: «بعد أنْ يكونوا قد استعدّوا لها. سآمركم وآمر قادة الأفواج والكتائب والفصائل والسّرايا أنْ يكونوا على رؤوس جنودهم في التّدريبات، وأنا سأكون أمامكم جميعًا».

قلتُ لأحد قادة السّرايا وهو يقف مع جنوده: «أترى هذا الشّريط الحدودي؟». نظر إلى الأفق، وكُنّا نقف على تلّة في غَور الكرك. استغربَ سؤالي، أردتُ أنْ أزيل استِغرابه، فأردفتُ: «اترك البحر، انظر إلى الشمال منه، كم طول هذا الشّريط؟». نظر هذه المرّة متفحّصًا: «ما بين عشرين وثلاثين كيلومترًا يا سيّدي». «أريدُكم أنْ تنثروا فيه الألغام كما ينثر فلاّحو هذه الأرض الحِمَّص». وتركتُه في ذهوله، وقلت له وأنا أعطيه ظهري: «كم لغمًا تحتاج؟ خمسمئة لغم، ألف لغم، عشرة آلاف لُغم... ستكون عندك بحلول ظهيرة الغد، وأنا أريدكم أنْ تنتهوا من

العمل خلال ثلاثة أيّام». كدتُ أرى اتّساع حدقتَي عينَيه، وهو يفغر فاه: «خلال ثلاثة أيّام؟!!». هتفتُ وأنا أرفع يدي عاليًا من خلف ظهري: «إلى العمل، ليسَ لدينا النّهار بِطُوله».

«هل تستطيعون إقامة الجسور على النّهر؟ النّهر عُقدتُنا وعُقدتهم». «يُمكن» قال ضابطٌ مهندسٌ في لواء المُشاة. «كم جسرًا يلزمنا؟». «حسب عدد نِقاط المراقبة والمواجهة». «ألمْ تحسبْها حتّى الآن؟!» صرختُ فيه، فاجأتْه صرختي، تلعثم، لكنّه استدرك وهو يبلع ريقَه: «ربّما ثمانية جسور». أدرتُ له ظهري وأنا أنظر إلى النّهر، وأقول: «هل تستطيع أنْ تصنع لي كأسًا من الشّاي؟». أربكه السّؤال. التفتّ إليه، ابتسمتُ في وجهه، زال ارتباكه سريعًا مثل ضبابٍ يزول عن زجاج السّيّارة، وارتختْ عضلات وجهه، ورسم ابتِسامة باهتة: «أستطيع». «هَيّا. ماذا تنتظر؟ أريدُ أنْ أشربَ الشّاي وأنا أُمتّع ناظِرَيّ بمشهد انسِياب الماء». صمتٌّ. سألتُه من جديد: «هل هذا النّهر هو الّذي عمّد فيه يوحنّا المعمدان المسيح عليه السّلام؟». عاد وجهه إلى تقطيبته. أصابه الخَرَس. انفجرتُ بالضّحك، وأردفتُ: «وفيه ألقى زكريّا والأنبياء أقلامهم من أجل أنْ يكفُلوا مريم... هل تعرف هذا؟» هَزّ رأسه بالنّفي، سألتُه، وأنا أضع يدي على كتفه: «تعرف فقط كيفَ تصنع الشّاي، يا لحيلة العاجز!! هل تقرأ وأنتَ في المنامات؟». «لا يا سيّدي». تركتُه يجمع الحطب، وقرّرتُ في ذلك المساء على كلّ جنديّ في فرقتي أنْ يقرأ كتابًا كلّ أسبوع أو أسبوعَين، حتّى أولئك الأمّيّون عيّنتُ لهم مَنْ يقرأ على مسامعهم!

بعدَ شهر، طلبتُ من آمري كلّ الكتائب والألوية أنْ يبعثوا بالجنود

الّذين يقعون تحتَ إمرتهم. «عليهم أنْ يأتوا بكامل أسلحتهم، لدينا مُناورة». على الخطّ الحدودي في الغور تجمّعْنا جنوب البحر الميّت، قريبًا من (العَدَسيّة)، نزل العساكر، كان الآمرون يتقدّمونهم، في خُطواتٍ عسكريّة، انتشروا حسب الأماكن المُخطّطة لهم، كانوا يزيدون عن خمسمئة جُنديّ، ينتظمون في عشرينَ صَفًّا. تعمّدتُ أنْ أمشي بينهم دون أنْ أقول شيئًا أتفحّص في وجوههم، كانوا يُبدون لي الجاهزيّة ما استطاعوا، كنتُ أعرفُ أنّهم ليسوا كذلك، لقد كنتُ أقرأ خلفَ تلك الأقنعة الجلديّة السّميكة الّتي يضعونها على وجوههم شيئًا آخر، الخوف، واليأس، والانهيار. كلّما مررتُ بجنديّ رفعَ رأسَه، وشدّ صدره، «أنا لا أريدهم أنْ يقفوا أصنامًا أمامي، أنا أريدهم مُقاتلين». درتُ خلف الصّفوف، اخترتُ جنديًا بطريقة عشوائيّة: «أنتَ لماذا تريدُ أنْ تقاتل؟»، هَزّه السّؤال، لم يكنْ يعرف إنْ كان يريدُ أنْ يقاتل بالأساس عِوَضًا عن أنْ يعرفَ لماذا. تلعثم، لم ينبسْ ببنتِ شفة، صرختُ فيه: «ماذا؟ هل أكلتِ القِطّة لسانَك؟». تركتُه. ركضتُ في الصّفّ الثّاني، أنتَ: «لماذا تريدُ أنْ تقاتل؟». «أنا أقاتل لأنّ القائد يأمرني بذلك». نزعتُ عنه قميصَه، أمسكتُ بطرفَيه، وقمتُ بشقّه بضربٍ واحدةٍ، وصرختُ: «ماذا لو لم يطلب؟ أليسَ عليكَ أنْ تعرف متى تُقاتل دون أوامر؟!». وكسابقه أصابَه الخَرَس. انتقلتُ إلى مُقدّمة الصّفوف، صار الجنود كلّهم في مُواجهتي، ارتقيتُ نشزًا لكي يروني جميعًا. صرختُ: «أيّها الجنود: هل أنتم مُرتزَقة؟». سادَ الصّمت. شعرَ بعضُهم بالإهانة. تململ قادة الكتائب في أماكنهم. أطلقتُ السّؤال من جديد: «لماذا تُقاتِلون؟ مَنْ يعرف الإجابة يرفع يده اليُمنى». ارتفعتْ أيادٍ قليلة.

سمحتُ للأوّل بالكلام. وقف في هيئة استِعداد، وقال: «لكي أُستَشهَد». صرختُ: «كرّر إجابتك لم أسمعْ» ورحتُ أضع يدي اليُمنى على أذني. صرخ بدوره: «للشّهادة». تجاهلتُه كأنّه لم يقلْ شيئًا. سمحتُ للثّاني بالكلام: «لأنّ المُحاربين الّذين يموتون في سبيل أوطانهم لا ينساهم النّاس». «وأنت؟» صرختُ في اليد الثّالثة، هتف: «لقد وجدتُ نفسي صُدفةً في الجيش». حرّكتْ إجابته مشاعري، فضحكتُ، ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، ثُمّ ما لبثتْ ضحكتي أنِ انتشرت في الجنود كأنّها عدوى أو موجة من موجات المدّ البحريّ الصّاخب. سمحتُ لليد الرّابعة بالكلام، صرخَ مثل طفلٍ يُلقي قطعةً محفوظة: «من أجل شُوال الطّحين والسّكّر في آخر الشّهر. أولادي يجوعون دائمًا، يريدون أنْ يأكلوا». صفّقتُ له ببطء، التفتَ حولَه ليرى أثر ذلك على زملائه، ولكنّهم كانوا خائفين من أنْ يأتوا بأيّة ردّة فِعل. «وأنتَ؟»، قلتُ لليد الخامسة. هتف: «من أجل الوطن، من أجل الحرّيّة». أظهرتُ قلّة الاكتِراث من إجابته، وقلتُ كأنّني أزدردُ لقمةً يابسة في فمي: «إذا فعلتَ فلن يبقَى بعدكَ إلاّ الوَهَن». تململ القادةُ من جديد. طلبتُ من (غازي) أنْ يُحضِر لي السّمّاعة. جاؤوني بها مُهروِلين، هتفتُ، كان صوتي حازِمًا: «انظروا إلى خطوط العدوّ، إنّها تبدو من هنا، واضحةً تمامًا، هل تريدون أنْ تحاربوا هؤلاء الأوغاد؟». كان سؤالاً لا يحتاج إلى أجابة. أكملتُ: «أيّها المُحارِبون الشّجعان، سنحاربُ جميعًا، سنذهب إلى الحرب مرفوعي الرّؤوس، ليس من أجل أوطاننا ولا أمجادنا ابتِداءً، بل من أجل أنفسِنا، من أجل الحياة الّتي نحبّ، من أجل أن نحيا كما نريد، من أجل أنْ نعود أحياءً لا موتى، ولا شُهداء، ولا فوق الأعناق، من

أجل الرّبيع أيّها الرّفاق، من أجل الحُبّ، من أجل زوجاتنا، من أجل أنْ نستنشق الهواء النّقيّ، فوقَ هذه الرّبوعِ، لا أحدَ يعشقُ الموتَ كما يعشقُ الحياة، لكنْ لا أحدَ مِنّا يُحبّ أنْ يتركَ مكانه، أنْ يهرب، أنْ يخون، ماذا سيقول لأولاده حينَ ينظرون في عينَيه: هربتُ لأنّهم كانوا أكثر مِنّا ولم أستطعْ أن أموت. ماذا سيقولون عنه؟ خائن، سيقول عنه النّاس: خائن، سيقول عنه هذا التّراب: خائن، نحن لن نخون أيّها الرّفاق، ولن نموت، سنذهب لنقاتلهم ونعود، سنقاتل من أجل العودة، من أجل ألاّ يسرق أحدٌ مِنّا حَقّنا في الهواء وفي التّراب. لكنّني أُقسم بشرفي العسكريّ وأنا أحبّ الحياة مثلكم أنّني لن أتركَ مكاني، وسأقاتل حتّى آخر نَفَسٍ...» ثُمّ صمتّ، فرأيتُ الوجوه المُشرئبّة نحوي، قد عراها السّكون والدّهشة. والتقطتُ أنا بدوري أنفاسي، لأقول: «والآن... هل تُفضّلون الشّاي بالنّعنع أو الميرميّة؟». واصطدم سؤالي بالوجوه المأخوذة والأعناق المصلوبة، وكأنّني ألقيتُه في بِئرٍ لا قرار له، ظلّ السّؤال يهوي دون أنْ يُسمَع له صوتُ ارتِطامٍ أبدًا، أعدتُ: «المريميّة هنا، هَيّا، لماذا تقفون مثل البُلَهاء؟ البُلَهاء لا يعرفون كيف يستمتعون بالحياة... هيّا أيّها الكُسالى... أشعلوا النّار تحت طناجر الماء، علينا أنْ ننعم بكأسٍ شايٍ لذيذة... أيّها الجنود: استرحْ».

وانفرطَ عِقدُ الجنود، وراحوا مثل النّمل يسيرون بهمّة في كلّ اتّجاه، يجمعون الحطب، ويركنون الحجارة، ويسكبون الماء في الطّناجر الصّغيرة، ويفتّشون عن الميرميّة في الأرض، ويفتّشون جِراباتهم بحثًا عنها. كنتُ أشاهدهم وأنا أمتلئ غِبطةً، كانتْ عيناي تضحكان، العيون تضحك، ضحكة العيون لا صوتَ لها لكنّها أبلغ من ضحكة الشّفاه.

في البعيد، كانتْ تتراءى لنا متاريس الصّهاينة، وأبراج مراقباتهم وفوقَها علم احتِلالهم، وكانوا يظّنوننا مجموعةً من المجانين، تبحثُ عن حشائش في الأرض، وتوقد النّار تحت الطّناجر.

جمعتُ القادة بعدَ حفلة الشّاي، قلتُ لهم بصوتٍ خميل: «خذوهم للتّدريب على إصابة الأهداف المُتحرّكة، الجنديّ الّذي لا يُصيب أربعةً من خمسة، احجزوه في كتيبته شهرًا».

جاءني التّقرير بعد نهاية الاحتِجاز: «لقد تعرّض الجنود لتدريب يوميّ مُكثّف خلال احتِجازهم في الفرقة، واستطاعوا في النّهاية أنْ يُصيبوا الأهداف كلّها. هل يُمكن أنْ يأخذوا إجازة لثلاثة أيّام؟». وقّعتُ في نهاية التّقرير: «نعم، ويتكفّل الجيش بأثمان رحلاتهم في هذه الأيّام الثّلاثة مع أهلهم».

***

(35)
رَدّةُ الفِعل الآنيّة لا تصنعُ انتِصارًا

في غَور الأردن، في الجزء الشّرقيّ من نهر الأردنّ، وبالقرب من جسر (اللنبي) تقع (الكرامة)؛ البلدة الصّغيرة الّتي ستصبح اسمًا على مُسمّى في قابل الأيّام، كانتْ مُهمَلة فارتفعتْ على فوهة البندقيّة إلى الذّرا. وكانتْ منسيّة فسجّلتْها البطولة في كتاب التّاريخ. مئات الدُّونمات من الأرض المُنخفضة ذات البساتين الضَّخمة والمُمتدّة، خضراء في حرٍّ لاهب، وحياةٌ في وسط موت. وبسبب كثرة الآبار الارتوازيّة فيها كانتْ تُسمّى منطقة الآبار، وحملت اسمًا آخر هو غور الكبد. تاريخُ هذه المنطقة مُغْرِقٌ في القِدم؛ فقد مرّ على الكرامة العديد من الممالك مثل: المؤابيّة، والآراميّة، ومملكة الأنباط، والرومانيّة، واليونانيّة، والبيزنطيّة، ودَخَلَها الفتح الإسلامي، ومن هنا على مسافات قريبةٍ أو بعيدةٍ يُمكنكَ أنْ تقرأ التّاريخ بوجهه المُحمّدي المُشرِق، وبِنَسَماته العِذاب، حيثُ مقامات الصحابة؛ أبي عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وضرار بن الأزور، ومعاذ بن جبل، وآخرين.

كان القصفُ مسموعًا. عشرات العمليّات الّتي قام بها الفدائيّون في عمق المستعمرات الصّهيونيّة وعلى الطّرق. كانوا يعبرون النّهر مثل طيوفٍ لا تُرى، ولا يُحسّ بهم، ولا أثرَ يدلّ عليهم إلاّ وهج النّار بعد أنْ يكون الرّصاص قد لعلع والقنابل قد انفجرتْ. مناوشات لا تنتهي على

طول الشّريط الحدودي. التقتْ بيننا الأهداف، أهمّها الثّأر لهزيمة عام 1967م على طريقتنا الخاصّة، أمّا الثّقة بالحكومات العربيّة الّتي كانت لا تزال تتصارعُ فيما بينها، وتتبادل قذائف الشّتائم الشّائنة فقد انمحتْ تمامًا، ومع أنّني أمثّل جانب الحكومة، إلاّ أنّ لي قلبَ مُقاتل، وروح ثائر، وقلوب المُقاتلين وأرواح الثّائرين لا تعترف بالرّسميّات، ولا بالبروتوكولات لأنّها قيودٌ ثقيلة.

كان الفِدائيّون قد تمركزوا في مزارع الغور على الحدود مع المحتلّ، وقد استقبلتْهم عشيرة العدوان الّتي كانتْ تمتلك تلك المزارع، وأكرموا الثّائرين الّذين حملوا أرواحهم على أكفّهم من أجل تخليص بلادهم من مُغتصبيها. كان العدوان من قبلُ في موجة الهجرة الأولى والنّزوح الأوّل قد استقبلوا مَن خرجَ من أهل فلسطين في مزارعهم، وأوطؤوا لهم المكان، وقد عملوا في تلك المزارع، واستقرّوا هناك، ولم يعدْ أحدٌ ليفرّق بين أهل المكان ومَنْ لجأ إليه. وعندما بدأت العمليّات من هنا، كان (أبو عامر) شيخ عشيرة العدوان قد رحّب بهم وشكّل قاعدةً لانطِلاقهم، وكان شهمًا كريمًا، شُجاعًا، ومَرِحًا في الوقت نفسِه، وكان الفدائيّون إذا جلسوا إليه أزال من صدروهم كلّ شعورٍ بالتّعب أو الهمّ أو اليأس، وحَثّهم في كفاحهم قائِلاً لهم: «لم يبقَ من يُدافع عن شرف العرب سِواكم. العدوّ لم يعدْ يخاف من الجيوش العربية بقدر ما يخاف منكم، أنتم الّذين تُقاتِلون بطريقة حرب العصابات»، وكان الفدائيّون يَثِقون به، ويستشيرونه في بعض خُططهم أحيانًا، ولم يبخلْ عليهم لا بسلاحٍ ولا بمالٍ ولا برأي.

كان اليهود في هذا الشّريط الحدوديّ في الغور قد ازدادوا تغلغُلاً،

وبحجّة مقاومة (المُخرّبين) كانوا يجتازون الحدود، ويقطعون النّهر، ويفجّرون بعضَ المزارع، أو يُطلقون عدّة صواريخ، وأحيانًا يُقِيمون حفلات غِناء، ثُمّ يعودون. وكانوا يبدون مستهترين أشدّ الاستِهتار بِنا!

لم تنقطعْ جولاتي التي كنتُ أقوم بها للمُراقبة والمُتابعة على طول الشّريط الحدوديّ، كانتْ شبه يوميّة، ولم يخلُ أسبوعٌ من اثنتَين منها على الأقلّ، وكان يرافقني في كلّ مرّةٍ عددٌ مُتنوّع من القادة، وكُنّا نسير في بعض المواقع الحدوديّة، وكُنّا نرى نِقاط مراقبة العدوّ، وأماكن تمركُزهم، لم يكونوا بعيدين من هنا، وذات مرّة رأيتُ جُنديًا يهوديًّا فَرَدَ العَلَم اليهوديّ أمامنا، ورقصَ به، وسمعناه يصيح بكلماتٍ بالعبريّة ويُشير إلى نجمة داود ويضحك، وهمَمْتُ أنْ أتناول الرّشّاش مِن على كتف أحد جنودي وأرميه على الفَور، ولأنّني أعرفُ أنّ ردّة الفِعل الآنيّة لا تصنع انتصارًا في أيّ معركة فقد ملكتُ أعصابي، وهدّأتُ جُنديًّا آخر كان قد تحفّز هو الآخَر لإطلاق النّار عليه، وهمستُ في أذنه: «سنحرقه مع عَلَمه قريبًا. يحتاج ذلك إلى قلبٍ مُتيقّظ وحِنكة. ليس الآن».

غيرَ أنّه وصلتْ إليّ ذاتَ مرّةٍ رسالةٌ عسكريّة قادمة من خطوط المُواجهة الأماميّة، كانت الرّسالة تقول: إنّ رقيبًا مُتحمِّسًا لم يستطعْ أنْ يُسيطر على أعصابه، ففتح نيرانَ بندقيّته على أحد مواقع اليهود دون أنْ يُوجّه له أمرٌ بذلك. فاستَدْعيتُه على الفور، كان يرتجف، عيناه تحلّق فيهما طُيور القلق، كان خائِفًا مِنْ أنْ أُعاقبه، سألتُه: «هل أنتَ مَنْ أطلق النّار؟». فأجابَ بصوتٍ راعش: «نعم». «على اليهود؟». وازدادَ وجيبُ قلبِه: «نعم». «كم رصاصةً أطلقتَ؟». وتردّد قبل أنْ يقول: «لقد

فرّغتُ باغة الرّشّاش بالكامل». وضحكتُ، وأرجعتُ ظَهري إلى الوراء، ومسحتْ ضحكتي على قلقه فراحتْ نبضاته تقرّ، وهتفتُ: «إنّكَ تستحقّ التّكريم». وظنّ أنّه يحلم، لكنّني أردفتُ: «وسأقوم بترفيعكَ إلى رقيب أوّل». وحينَ خرجَ من مكتبي، كان يحتاجُ إلى زمنٍ لكي يُصدّق أنّ الرّصاصات الّتي ظَنّ أنّها كانتْ ستكون عقابًا له هي الّتي كافأتْه فرفعَتْه في السّلم العسكريّ درجة!

«أيها الآمِرون». تحفّز خمسةٌ كانوا يرافقونني في هذه الجولة. «سيّدي». هتفوا بصوتٍ واحد، بدا حماسيًّا وخَشِنًا. سألتُ: «هل المدافع الّتي في مواقعنا مُستعدّة للإطلاق لو أمرتُها الآن؟». ردّ أربعةٌ بـ (نعم)، وسكتَ الخامس. نظرتُ في عينَيه: «هل لديك معلومةٌ أخرى؟». ظلّ ساكِتًا وإنْ حرّك شفتَيه كأنّه يهمّ بالقول، وسألتُه ثانِيةً: «هل تعرف أمْ أنّك لا تعرف؟». وصمتَ من جديد. وهززتُه هذه المرّة من كتفه بشدّة: «كم مدفعًا لدينا في الموقع الأوّل المواجه لنقطة العدوّ؟».

وردّ هذه المرّة بسرعة: «عشرة سيّدي». وسألتُ: «هل هي جاهزة؟». وردّ: «لستُ متأكّدًا، التجربة برهان».

وكتمتُ غيظي، وهتفتُ في نفسي: «لقد كان أشدّ صِدقًا من زملائه، وعليّ بعدَ اليوم أنْ أتعلّم كيفَ أتكلّم بهدوء شديدٍ، وأصل إلى ما أريد». ابتسمتُ ابتِسامةً جاهدتُ أنْ تبدو ابتِسامة رضا، وطلبتُ من القادة وأنا أدير إليهم وجهي: «هيّا لنجرّب المدافع». ووقفنا خلف كلّ مدفع، وأطلقْنا الطّلقة الأولى، الثّانية... وقلتُ: هذا أزيلوه، ائتونا بغيره... هذا إلى سلاح الصّيانة، وأريدُه جاهِزًا خلال يومَين، وهذا إلى المزبلة،... وهكذا... أتينا بستّة مدافع جديدة. وكدتُ أضربُ رأسي

بالحائط حينما علمتُ أنْ أكثر من نصف مدافعنا لم تكنْ تعمل بالشّكل الصّحيح!!

بعدَ شهر، زرتُ موقعًا آخر، كان الموقع يتّخذ شكل مُثلّث، على رؤوسه يتمركز الجيش الإسرائيلي والجيش العربي والفدائيّون، قلتُ لجنودي: «بنادقنا مع الفدائيّين واحدة، فعدوّنا مُشترَك». وأمرتُهم: «من هنا، باتّجاه المحتلّ، الغاصب، يُمكنكم أنْ تستخدموا السّلاح بدون إذنٍ منّي، أيّ اجتيازٍ ولو لإسرائيليّ واحدٍ يُخوّلكم أنْ تفتحوا النّار عليه». نظر بعضُهم في وجوه بعض، وأردفتُ: «اضربوا أعداءَكم دون رَحمة، وكونوا جِدار إخوتكم الفدائيّين، إذا طلبوا العون فلا تتردّدوا». وارتقعتْ هاماتُهم، واستقامتْ جُذُوعهم. ونظرتُ في وجهِ أحدهم، وطلبتُ منه الرّشاش الّذي كان يستقرّ فوقَ ظَهره مثل رُمحٍ مُشرَع: «أنتَ». فتهيّأ. «ناولْني الرّشاش»، ومدّه إليّ بحركةٍ خاطِفة، تفحّصْتُه: «هل هذا الرّشّاش أبكم؟». لم يفهمْ أحدٌ ما أعني فظلّوا صامتين، تابعتُ: «عليّ أنْ أتأكّد من أنّه يستطيعُ أنْ يفتح فمه ويتحدّث»، وزادتْ حيرتُهم، فيما رحتُ أتأكّد من أنّ الباغة مليئة بالرّصاصات الثّلاثين، صوّبتُ نحو أحد مواقع اليهود، وضغطتُ على الزّناد، دوّى صوتُ الرّصاصات مُحدِثًا زغردةً طويلة في الفراغ الّذي يفصل بينَنا، قالت الرّصاصات لجنودي أشياء كثيرة دونَ لِسان، وملأتْ قلوبَهم بالبهجة، لقد فهموا الآن. أطلقتُ ضحكةً مَرِحة عقبَ ذلك، وقُلتُ وأنا أعيد الرّشاش إلى الجنديّ وأنظر في وجوه الآخرين مُمازِحًا: «أنتم لم تروا ولم تسمعوا شيئًا، صحيح؟!». وتعالت الضّحكات من كلّ جانب.

نمتُ تلك اللّيلة هناك، في السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل،

أيقظتُ قادة الكتائب الّذين كانوا معي، وأمرتُهم أنْ يوقظوا قادة السّرايا الّذين معهم، وهؤلاء بدورهم يقومون بجمع جنودهم، وهتفتُ: «لدينا مسيرٌ ليليّ. بلّغ الجميع».

في خلال ربع ساعة كان يقف في السّاحة حوالي مئة عسكريّ وقفة الاستِعداد. «هيّا في خَطّ متواصل، يلزمُ الواحدُ منكم أنْ يرى زميله الّذي أمامه، بين كلّ واحدٍ وآخر عشرة أمتار، إذا لم تُشاهِدوهم بأعينكم، فانظروا إليهم بآذانِكم، أريدُ أنْ تُشغّلوا حاسّة السّمع جيّدًا. مَنْ يتُه عن القافلة، فعليه أنْ يعرف كيفَ يعود، لن أتسامح مع أيّ جندي لا يحافظ على الانتِظام، ولا يعرف كيفَ يظلّ في حِماية السّرب». ومشيتُ أمامهم، باتّجاه البحر الميّت. سمعتُ صوتًا من خلفي: «كم المسافة الّتي سنسيرها؟». نظرتُ إليه، كانتْ عيناه تلمَعان في الظّلام، عرفتُه من عينَيه، كان لهما البريق نفسُه في ذلك اليوم قبل أكثر من أربعة شهور، سألتُه: «خضر؟». هزّ رأسه بالإيجاب، سألتُه مرّة ثانية: «كم تتوقّع؟». أجاب: «عشرة كيلو مترات؟». أجبتُه: «بل عشرين ذهابًا، ومثلها إيابًا». وأشرتُ بيدي: «هيّا». وسمعتُ صوتَه خافِتًا من خلفي: «إنّه من الصّعب أنْ يُطيعوك في هذا». وأدرتُ وجهي إليه: «وأنت؟». وردّ: «أنا أطيعكَ في أبعدَ من هذا». وهززتُ رأسي: «الطّاعة يا خضر. الطّاعة». وردّ: «السّبيل الأوّل إلى النصّر». وأردفتُ: «ما لم تكنْ في إسكاتِ صوت الرّصاص إذا حَمِيَ الوطيس». وانطلقوا خلفي مثل خيطٍ من النّمل.

كان ذلك في شهر كانون الثّاني من عام 1968م، كان البرد قارسًا في اللّيل، وكانتْ قلوب بعض الجنود ترتعش، وكانوا يلبسون معاطفهم

الطّويلة، ويعتمرون خُوذهم الخضراء الدّاكنة، وبعضهم يلفّ الشّماغ على وجهه، أمرتُ (خضر) أنْ ينزع الشّماغ عن وجوههم أولئك الّذين يرتدونه، ويكتفوا بالقُبّعات العسكريّة، «ذلك أفضل؛ نحن لسنا ذاهبين في نُزهة، لا ضيرَ في أنْ يذوقوا طَعم البرد»، قلتُ ذلك له، وهو يهمّ بتنفيذ أمري.

كانوا يحملون حقائبهم على ظهورهم، كانتْ سوداء، لم يكنْ أحدٌ يرى في اللّيل سوى كتلةٍ من السّواد تنتفخ على الظّهر مثل قَدَرٍ غامض، كُنّا نُخبِّئ فيها كلّ شيءٍ، الموت والحياة، كانتْ هناك بعض القنابل، وبعض الصّواعق، وبعض الشّاش، وبعض الأدوية المُسكّنة في كلّ حقيبة، لم تكنْ خفيفة، ولكنّ ظهر كلّ جنديّ كان عليه أنْ يحمل أثقلَ منها إذا دعا الأمر إلى ذلك. كان من ضمن الأدوية إبرتان تُستَخدمان في حالة الألم الّذي لا يُحتَمل، وكنتُ أنا الّذي أقرّر مستوى هذا الألم، فيما لو حدثَ جُرحٌ قطعيّ أو نزيفٌ لا يتوقّف لسببٍ أو لآخر، وكان على الجنديّ أنْ يُحافِظ على هاتين الإبرتَين، ومع أنّه يعرفُ استِخدامَها عند الضّرورة، إلاّ أنّه كان يخضع لتحقيق إذا عاد حَيًّا حول أسباب ذلك الاستِخدام، وكنتُ أقرّر ما إذا كانتْ بالفعل هناك ضرورةٌ في السّبب الّذي ذَكَره أم لا. كانت أكياس القنابل تتدلّى على الجانبَين، وهناك بعض السّكاكين القاتلة في جِرابات جلديّة على وسط كلّ جنديّ، وعلى السّاق من الخارج فوق البسطار كان يُمكن أنْ يحمل كلّ جنديّ مجرفةً صغيرة. وفوق أكتافهم كانتْ سِنجات البنادق الّتي يُمكن أنْ تغوص في جلدِ ثورٍ سميك إذا ما أغمدتْ بقوّة تلتمع أحيانًا على بعض الأضواء الخافتة. طلبتُ منهم: «من المُستحسَن أنْ تشدّوا حِزام البنادق، وتُثبّتوا

المجرفة الصّغيرة على السّاق جيّدًا، ولا أريدُ لحزام الحقيبة أنْ يكون أطول مِمّا ينبغي حتّى لا تتراخى فتُعيق تقدّمنا، ربّما نضطرّ للرّكض في بعض المراحل». ومضينا.

وبعدَ مسير ساعتَين قطعْنا فيهما ما يقرب من عشرة كيلو مترات، كان العَرَق يتصبّب داخل المعاطف من صدور بعض الجنود ومن تحت خُوذهم رغم برودة الجوّ، تنقّلتُ هرولةً بين الجنود، كنتُ أتحسّس جباههم، وأمسحُ عرقَهم: «هل أنتَ مريض؟». شدّ الجنديّ صدره، ورفع رأسه، واهتزّتْ من خلف كَتِفه بندقيّتُه: «لا، يا سيّدي». «هل لديكَ ماء؟». «نعم يا سيّدي». «أين هي قِربتك؟». وأشار إليها، وهو ما زال مشدودًا مثل جذع شجرةٍ قويّة. «أريدُ أنْ أشربَ منها». ناولني إيّاها، شربتُ، كان ماءً عذبًا. سألتُ: «من أينَ هذا الماء؟». «من النّهر سيّدي». وأعدتُ له القربة، ومضينا.

«إنّ المسافة ليستْ سهلة»، قال لي (غازي)، فرددتُ: «ولكنّها ليستْ صعبة في المقابل. كيفَ لو كان عليهم أنْ يسيروا خمسين كيلو مترًا، ويخوضوا فيها نهرًا ويهبطوا واديًا ويصعدوا جبلاً ويواجهوا عدوًّا». ردّ محاولاً ألاّ يسمعه أحدٌ سواي: «إنّهم غير مُعتادين على المسير الطّويل». «أعرف، لهذا خرجنْا، عليهم أنْ يعتادوا على ذلك منذ اللّيلة، ليكنْ هذا الأمر صعبًا عليهم الآن، وسهلاً عليهم غدًا، المعركة لا ترحم، ومَنْ أعدّ لها نَجا» ومضينا.

تعبَ الرّكب، صار بعضُهم يعرج، واستغلّ آخَرون غفلةً من العيون، فرمى جسده المُنهَك على الأرض، وأسند جذعه إلى شجرة، ناديتُ قادة السّرايا، كان تبليغ القائد بالمُناولة، نناول الصّوت من جنديّ

إلى آخر، جاءني قائد السّريّة الأولى، سألتُه، وأنا أشدّ على أسناني: «هل جنودك أطفال؟ لا أريدُ أنْ أرى أو أسمع أنّ أحدهم استراح، أو مسّ قفاه الأرض. هيّا انصرف». ومضى. ودعوتُ بالمناولة القادة الأربعة الآخرين، وأبلغتُهم الأمر. كان العطَش سيّد الموقف مع أنّ اللّيل كان بارِدًا، ولكنّ الجنود تعبوا من المرور بين الصّخور، وتحت الأشجار الواطِئة، وفوق الأسلاك الشّائكة. بعدَ أربع ساعاتٍ، كُنّا قد وصلْنا إلى موقعنا الثّاني. كان الإنهاك قد نال من الجميع. كان اللّيل يمضي بهدوء إلى الجهة الأخرى من العالَم، وكان الفجر يتقدّم إلينا ببطء.

أنزل الجنود حقائبهم، وبنادقهم، وحِزام قنابلهم وأرفاشَهم، كانتْ ساحةً ترابيّة مُحاطة بالأشجار العالية، وكانتْ قد مُوّهتْ من أجل ألاّ تُرى لسلاح الطّيران من الجوّ. وقفتُ في وسط العساكر: «علينا أنْ نعود». كانتْ جملة من ثلاث كلمات، ولكنّها فعلتْ فِعلاً صعبًا في الجنود الّذين كانوا قد جلسوا القرفصاء؛ رأيتُ الأيادي تتهدّل على الأرض، والجذوع تميل، وسمعتُ همهمات الغضب واليأس تنطلق من الأفواه، وألقى بعضُهم رأسه بين رِجلَيه، وكادَ يبكي. ولكنّني بعدَ لحظةِ صمتٍ، وكمن يريد أنْ يوزّع جائزةً، أو يُعيدَ الفرحة إلى قلبِ حزين، هتفتُ: «بعدَ أنْ نستريح قليلاً بالطّبع، ونشربَ الشّاي». وسَرَتْ همهماتٌ أعلى من السّابق ولكنّها همهمات الرّضا والتّرحيب.

كان سوادُ الأفق يتبدّى، والسّماء تَحُول بالتّدريج إلى اللّون الكحليّ الغامق، ثُمّ الكحليّ، ثُمّ الأزرق الغامق الّذي ترافقه حُمرةٌ وصُفرة، وتختلط الألوان في تلك السّماء البعيدة، ومن بين تلك الألوان على تلك الصّفحة من السّماء البعيدة في الأفق كانتْ قطعٌ صغيرةٌ من الغيوم تبدو

متماهيةً مع شَعَف الجِبال، وبدأ النّهار يفد ضيفًا على هذا الجزء من العالَم، وبدأنا نسمع أصوات الطّبيعة الخافتة يعلو شيئًا فشيئًا.

تركْنا السّماء الفيروزيّة خلفنا، وقفلْنا عائدين، كان نور الشّمس قد ملأ الأرجاء، ونسمات كانون بردُها لاسع لكنّه لذيذ، وكانت تلك النّسمات الباردة تُخفّف عنّا التّعب، وتُزيل شيئًا من الرّهق الّذي أصابَنا، كان لِسان الطّبيعة ثرثارًا، رفرفة الأجنحة، زقزقة العصافير، كركرة الماء، ووشوشة النّهر...، حينَ وصلْنا موقعنا الأوّل، كان الزّملاء الآخرون قد أعدّوا لنا طعام الفَطور. قلتُ لِغازي: «عليهم أنْ يأكلوا جيّدًا، لكنْ ليس كثيرًا، أنا لا أربّي أَكَلَة، أنا أُعدّ مُقاتلين».

طلبتُ من القادة الاجتِماع. ضممتُ إليهم الملازم خِضر، لم يكنْ قائدًا، ولكنّني أنا الّذي أوزّعهم وأصنعهم، وهو يستحقّ أنْ يكون قائد وحدة الاتِّصالات، لقد أظهر انضباطًا وتنظيمًا عالِيَين في مسير أمس، استطاع أنْ يُجمّع جنودًا انفرطَوا، وتبعثروا في أقلّ من ربع ساعة، قلتُ في نفسي: «القائد لا تصنعه رُتبته، إنّما مِهنيّته». فَرَدْتُ أمامهم في مكتب القيادة على الطّاولة خريطة مواقعنا الحدوديّة، مواقع العدوّ، كان الأمر في ذلك الشّهر قد ترتّب على النّحو الآتي: «الخطّ الأزرق الّذي يتلوّى أيّها السّادة هو النّهر، نهرنا المُقدّس، هل أحدٌ منكم يعرف أنْ عمر بن الخَطّاب خاضَه حافِيًا»، وانحنيتُ إلى مقياس رسم الخريطة لأرى طول الجبهة عليه، وهمستُ لنفسي: «يحتاج إلى لواءَين لحمايته»، وتابعتُ: «هذا الخطّ الأسود المُحاذي للنّهر هو خطّ الدّبّابات، وبطّاريّات المدفعيّة، وهذه البُقع الخضراء هي المزارع». ورفعتُ رأسي عن الخريطة، ونظرتُ إليهم: «قد أتفهّم أنْ يلجأ إليها يهوديّ فيختبئ فيها من نيراننا، ولكنّني

لا أتفهّم أنْ يختبئ فيها واحدٌ منّا، نحن لا نختبئ ولا نهرب، ثُمّ إنّ عشيرة العدوان ستتكفّل بقتل أيّ يهوديّ يختبئ في مزارعهم، أمّا إذا رأوا واحِدًا مِنّا فبماذا سينعتونه؛ طفل، جبان، خائن، ولدٌ يحتاجٍ أنْ تُرضعه أمّه...» وعُدتُ أحني رأسي إلى الخريطة، لأتابع: «هذه النِّقاط الدّائريّة السّوداء المُفرّغة من الوسط هي حقول الألغام، سلاح الهندسة يعرف تمامًا مواقعها، وستقاتل معنا، كما لو كانتْ من جنودنا، اليهود لا يعرفون أينَ زرعتْ، ولا كيف... وهنا، هذه البقع الزرقاء الكاملة الرّشّاشات المُضادّة للطّائرات، لا نملك كثيرًا منها كما ترون أيّها السّادة، إنّ عددها القليل يقول لنا: أعرفُ أنّكم مستعدّون للذّهاب بلا عودة».
وأطلقتُ ضحكةً عالية، في الوقت الّذي كان القادة يُتابعون فيه شرحي على الخريطة بجدّيّة مُفرِطة، «لماذا لا تضحكون أيّها السّادة، هل أنتم خائفون؟ هل تجمّد الدّم في عروقكم مثلاً؟ هل أنتم جائعون؟ أم مشتاقون إلى زوجاتكم وأولادكم مثلاً؟ هيّا... هل تريدون كأسًا من الشّاي، أم قهوةً عربيّة... هيّا، نحن لسنا حجارةً أيّها القادة، ولا كراتين مُعلّبة، ولا أرقامًا، نحن بشر، ومُحبّون للحياة، اليوم سنتناول مع الجُنود طعامًا جيّدًا، لا تقلقوا بالنّسبة لهذا الأمر، هيّا... وبدأ خضر الضّحكة، ثُمّ انفرط عِقد الضّحك، ربّما كانوا يُجاملونني... لكنّني قطعتُ الأمر في منتصف ضَحِكهم الطّفوليّ، وعُدتُ إلى الخريطة، وأنا أشير بأنتين فِضّيّ إلى المواقع الأخرى: «وهنا، الخطوط الطويلة الصّفراء هي خنادق الرّماة، وقواعد الرّشّاشات. وهنا، وهنا، وهناك،... هذه المُستطيلات الرّماديّة المنتشرة هي مواقعنا الهجوميّة، منها سنُقاتل، كلّ ذرّة ترب فيها تقول: «لِتقاتلوا بشرفٍ وَلْتعُودوا إلى أهلكم بشرفٍ». واعتدلتُ في

وقفتي، ووضعتُ الأنتين الفضّيّ تحت إبطي، ولففتُ الخارطة، وأعدتُها إلى مكانها، في خزانة الخرائط.

قبل أنْ أغادر المكان، قلتُ: «الدّوريّات اللّيليّة المُسيّرة على طول الخطوط يجب أنْ تقوم بالرّصد، وجمع المعلومات، وعلى قائد كلّ دوريّة أنْ يُقدّم لي تقريره كلّ أسبوع».

***

(36)

مِن هُنا مَرّتْ خيولُ الفاتِحين

في مقهى (أبوعجوة) داخل الكرامة، كان يلتقي الرّفاق، كان الرّفاق قد باعوا كلّ شيءٍ من أجلِها، وكان هو جادًّا، قليل الكلام، أغنى فِعلُه عن قوله، كان حليق الذّقن، شارِباه الخفيفان ينزلان بزاويةٍ حادّة فوقَ شفتَيه، عريضَ الوجه، حادّ النّظرات، لَهَاتُه متهدّلة، مُمتلئ الجسم قليلاً، وغالبًا ما كان يظهر باللّباس المدنيّ، ومؤمنٌ بقضيّته أشدّ الإيمان، عاشَ نصفَ حياته في المُغُر والكهوف وتحت أشجار الزّيتون، وكان يُعرّف البنادق بأسماء أصحابها، ويقول: «مَنْ يفقدْ بندقيّته يفقدْ ذاتَه».

كان شيخ عشائر العدوان أحدَ أصدقائه، وتحت أشجار الموز، كانت تتوزّع بعض الخيام الّتي تبرّع بها الشّيخ له ولمُقاتليه، وكان إذا مشى أسرع، ولم يلتفتْ في مشيته إلى الوراء ولو لمرّة واحدة، وكان كلّما فقد صديقًا في عمليّة فِدائيّة أو في مواجهة دفنَ بندقيّته معه، متذرّعًا بأنّها ماتت هي الأخرى، وأنّ رصاصَها أصبحَ بارِدًا مثل جثّة صاحِبها البارِدة، هل تحزن البنادق على أصحابها؟ كان أوّل عملٍ مُشتَرِكٍ بيننا، هي إحدى العمليّات البطوليّة، بعد لقاءات في مقهى (أبو عجوة) قال لي: «يُمكن للجيش أنْ يحمي ظهورنا، بقيّة الأمور نحن نتكفّل بها». أجبتُه: «يُمكنني أنْ أعطيك يا (أبو صبري) ثلاثةً من رجالي مُدرّبين على الأهداف المتحرّكة، ويُمكنني أنْ أزوّدك بعشر بنادق في كلّ عمليّة تقوم

بها، وإذا أردتَ أكثر من ذلك، فأنا جاهز». نظرَ إليّ بعينَين ممتنّتَين، وقَبِل الرّجال، وأردف: «أمّا البنادق، فلن تُقاتِل إلاّ إذا كان لها أسماء». كان من قبلُ قد اشتركَ في عشرات المواجهات والمعارك أشهرها معركة بيت فوريك. وسألتُه: «هل يُمكن أنْ تنضمّ إلى اجتِماع القيادة العامّة مع المَلِك، سأمهّد للأمر، وسأشرح له الموقف قبل الاجتِماع، يجمعنا هدفٌ واحدٌ». قَبِلَ ذلك مُستدرِكًا: «وُلِدنا مُناضلين، وسنموت مُناضلين. ولن نتدخّل في شؤون الأردنّ، وكلّ ما يهمّنا استعادة حقّنا المسلوب». ردّ عليّ وهو لا يزال يشدّ على يديّ بحنوّ.

اجتمعْنا معه، ولم يقل المَلِك كلامًا كثيرًا، رحّب بقواعد الفِدائيّة، ورحّب بالفدائيّين. وكانتْ تلك الإشارة كافية، لأنْ يتضخّم الوجود الفدائي في الغور، ويتّخذ من قرية الكرامة مركزًا لانطِلاق عمليّاته.

كانت الكرامة تقع على الطّريق الذّاهب شمالاً إلى السّلط، وجنوبًا إلى عمّان، وكان يضّم إلى المزارع مخازن تصدير الخُضار في الجهة الشّرقيّة من الطّريق، ومزارع الدّواجن في الجهة الغربيّة، وكان خزّان المياه الّذي يزوّد المنطقة في الجهة الشّرقيّة كذلك، وكذلك المقبرة، وكانت هناك مقبرة أخرى قديمة، اندثرتْ معالمها مع الزّمن، ولا أشكّ أنّها كانتْ تحوي قبور الصّحابة، ولربّما قبور مَنْ سبقوهم. ومولّد الكهرباء الّذي يوزّع الكهرباء على البيوت، وملعبًا رياضيًّا ترابيًّا واسِعًا، كان يُستخدَم في بعضِ الأحيان للتّدرّب على الرّماية. في غرب الطّريق كانت مع مزارِع الدّواجن هناكَ مخازن وكالة الغوث، ومراكز الشّرطة والعيادات الطّبّيّة ونادي الشّباب، وأربع مدارس؛ اثنتان للذّكور ومثلهما للإناث. ومقابل مركز الشّرطة على الشّارع كذلك يقف مسجد المحاسرة،

بمئذنته القديمة، وكان يلتقي فيه بعضُ المُقاومين. وكانت الأحياء تُسمّى باسم معالمها، فكان هناك حيّ الحاووز نسبةً إلى خَزّان المياه، وحي المسجد نسبة إلى هذا المسجد. كانتْ مئذنته ترتفع أكثر من عشرين مترًا، بما يُشبه القِلاع، ولها في الأعلى شرفةٌ دائريّة تُحيط بالمئذنة الأسطوانيّة، ويُصعَد لها من خلال درجٍ حلزونيّ داخليّ، وكان المؤذّن إذا نادَى للصّلاة ارتقى تلك الشّرفة وأذّن بصوتِه الجهوريّ دون سمّاعات فيسمعه أكثر أهل القرية، ومن هناك كان يُمكن أنْ ترى النّهر وفلسطين، كأنّ النهر شريان الأرض الّذي يهبها الحياة، وفي اللّيالي الصّافية كان يُمكن أنْ تسمع خرير النّهر العذب، وإذا لم تكنْ هناك عمليّات بطوليّة فيمكنك أنْ تسمع كذلك أذان الفجر ينطلق من مآذن المدن والقرى القريبة من النّهر.

وعلى الجانبَين كانت البيوت السّكنيّة تنتشر، كان أكثر سُكّانها من المُهجّرين الّذين هُجّروا في حربَي عام 1948م و 1967م، وكان السُّكّان مُعدَمين، لا يعيشون إلاّ بما توزّعه عليهم وكالة الغوث أو الأونروا أو المُساعدات، وراح بعضُهم يعمل في المزارع، أو المتاجر الصّغيرة القليلة جِدًا، والّتي لم تكنْ تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وبعضُهم رحل من هناك إلى مخيّمات أخرى في الأردنّ مثل البقعة والوحدات.

لكنّ الفدائيّين أحيَوْها، جعلوا من هذه المنطقة الفقيرة المُعدَمة بؤرةً لانطِلاق عمليّاتهم، ودبّتْ فيها الحركة فجأة، وصارتْ مثل خليّة نحل، لكأنّها جسدُ حبيبةٍ كانتْ مريضةً مُسجّاةً على السّرير فلّما مرّتْ عليها يدُ عاشقٍ انتفضتْ حيّة، وتحوّلت خلال أشهر إلى نقطة ارتِكاز تغزز

السّكّين في خاصرة العدوّ، وشكّلتْ قلقًا، وهاجِسًا بالنّسبة للصّهاينة، حتّى لم يعدْ بإمكانهم السّكوت عليها طويلاً. ومع فقرها الجغرافيّ إلاّ أنّها كانتْ غنيّة بالتّاريخ، فلربّما من هنا مرّتْ خيول الفاتحين، ومن هنا في القديم القديم انطلقتْ جحافل المُسلمين لكي تقضّ مضاجع الرّوم في بيت المقدس وفلسطين، ولِذا كان التّاريخ يبتسم كلّما رأى رصاصةً تنطلق إلى تتار العصر الجديد ورُومه، إنّه يعود إلى وجهه الحقيقيّ ولو بعدَ أكثر من ألفِ عامٍ.

اجتمع الملك حُسين معي ومع (أبو صبري) و(أبو المعتصم) وعددٍ من الفدائيّين في بيتي، تناولْنا غداءً متواضِعًا، وأقنعتُ الملك أنْ يسمع لهم، كانوا لفيفًا من الأطبّاء والمُهندسين والمُثقّفين، وعددٌ منهم تركَ وظيفته في بلاد الغربة وجاء إلى هنا لِيُقاتل. قال أبو صبري: «كلّ ما نطلبه إعطاؤنا حرّيّة العمل في الغَور». قلتُ: «وسنساعدكم كذلك». فهزّ رأسَه شاكِرًا، وأردفتُ: «أيّها الملك إنّ هؤلاء الشّباب يُعوّل عليهم من أجل مستقبلنا ومستقبل أبنائنا، وشعبنا الواحد شرقيّ النّهر وغربيّه». وقال الملك: «أنتم في مثل جيلي، نحن الجيل الّذي تحمّل مسؤوليّات ربّما كانتْ أكبر منه، ولكنّني واثقٌ من أنّكم على قَدْرها».

بعد ذلك اللّقاء تسلّمتُ بشكلٍ شخصيّ مسؤوليّة التّنسيق مع الفدائيّين، كان حلم التخلّص من آثار هزيمة حزيران يُراودني، كان الجرح قد اتّسع، ولا بُدّ من الكيّ لإيقاف النّزيف، نصرٌ واحدٌ كان يُمكن أنْ يُبرِئ الجُرح، وبالرّشّاش المُلعلِع وبالمدفعيّة الهادرة بدأنا أوّل عمليّاتنا المُشتركة. وكنتُ أسمحُ لجنود الجيش العربيّ بالمُشاركة في هجوم قوّات الفدائيّين، وكان لبعض منتسبي جيشنا أشقّاء هناك،

وأولادُ عمومة، ولم نعدْ نشعر بفرقٍ بيننا، وكان لذلك حلاوة لربّما ساعدتْنا على ابتلاع مرارة الهزيمة السّابقة وإنْ بشكلٍ تدريجيّ. وتعرّفتُ في تلك الفترة على (أبو عمّار) وعلى قادةٍ آخَرين، وكم جمعتْنا ليالٍ من التّخطيط المُشترك في خِيَمٍ بالية، بين أشجار المزارع، لا لغة نتحدّث بها إلاّ لغة الحرب والبنادق.

وتوافد المُقاومون من أصقاع الأرض. وتجمّعتْ في الغَور منظّمات كثيرة، ومُقاتِلون مُتحمّسون، جاؤوا للثّأر، والثّأر إذا استولى على القلب صنعَ المعجزات، فكيفَ إذا كان الثّار لضحايانا وشُهدائنا وأراملنا ومُدُننا الذّبيحة، ولأجل قضيّة عادلةٍ ومُقدّسة هي قضيّة فلسطين؟!

لم تعد القوّات الإسرائيليّة بعدَ هذا التّنسيق المُشترَك تُفرّق بين قواعد الفِدائيّة وبين قواعد الجيش، وصارتْ هجماتهم المدفعيّة والصّاروخيّة تضربنا جميعًا، وكان ذلك عامِلاً آخَر في التِفافنا حول أنفسنا، وفي توحيد بوصلتنا، وفي زيادة ضَرَباتنا المُوجِعة، وكُنّا نتقاسم الخسارة كما نتقاسم النّصر، لقد كان يجري في عروقنا دمٌ واحد!

في نهاية عام 1967م، تعرّضت الكرامة لهجوم بالطّيران الإسرائيليّ، حرثت الطّائرات المزارع الّتي كانتْ تعتقد أنّها تُؤوي المُخرّبين، كان الطّيّار اليهوديّ (ديفيد آفاون) يهوي براجماته من طائرته والطّائرات الّتي يقودها فتنصبّ علينا الحِمم كأنّها تفور من فوهة بركان ثائر، وكان حاملو الرّشّاشات على بطّاريّات مضادّات الطّيران قد تدرّبوا جيّدًا، أطلقْنا النّار، على البطن، أو في منطقة خزّان الوقود في الطّائرة، وأصابَتْ إحدى رشّاشاتنا بالفعل إحدى الطّائرات، وراحتْ تتأرجح مثل ورقةٍ في ريحٍ ثقيلة، كان منظرها مَهولاً، وهوتْ مثلما يهوي

نيزكٌ ضخمٌ من السّماء، كانتْ تحترق، ولم تكد تتمّ ارتِطامَها بالأرض، حتّى انفجرت مُحدِثةً كتلةً من النّار صعدتْ أعلى بكثيرٍ من المئذنة، وراح الفدائيّون يصيحون مُبتهجين، وتشجّع جنودنا، وهتفوا بالتّكبير، وراحوا يتوعّدون طائرات العدوّ باصطِيادها مثل الذّباب. وبعدَ تلك الحادثة كنتُ أرى في عيونهم بريقًا آخَر، إنّه بريق النّشوة، وبريق الانتِصار، وعرفتُ أنّ شبح الرّعب والخوف قد ولّى من تلك العيون إلى غير رجعة.

وهُرِعت مع بعضِ القادة بعد تلك الحادثة، وتأكّدتُ من فعاليّة مُضادّات الطّائرات، وحصلْنا على مزيدٍ من تلك المُضادّات، وأثبتْنا عدم فعاليّة الطّيران الإسرائيليّ حتّى لو هاجَمَ بكثافةٍ بعدَ ذلك. وقلتُ في لفيفٍ من المُقاومين والجيش على الحدود: «النّصر لا يأتي فجأة، عليكم أنْ تدركوا أنّ النّصر يتمّ قبل بدء المعركة، يجب علينا أنْ نطبخه بشكلٍ جيّد ومدروس، في المعركة لا يحصد أحدُنا سواءً كُنّا نحن أم هم إلاّ نتائج استِعداداتنا السّابقة».

«سلاح الهندسة، اجتِماع». وتجمّع لديّ عشرةٌ من الضّبّاط. طلبتُ أنْ يُضيفوا لهم آخَرين من الفدائيّين: «ما أنويه يجب أنْ يتمّ بتعاون الجميع». كُنّا عشرين، معظمهم مُهندِسون: «العدوّ لن يعبر من ضفّته إلى هنا إلاّ عبر النّهر، سوفَ يقومون ببناء الجسور، نحن كذلك، لن نستطيع أنْ نتوغّل في مواقعهم إلاّ ببناء جسورٍ على النّهر، هل من اقتراح؟». رفع أحدهم يده، أشرتُ له بالكلام، قال: «هل سمعتُم بجسورٍ تحتَ الماء؟ أو الجسور المتحرّكة، في روسيا تعلّمتُ ذلك. يُمكننا أنْ نبني جسورًا لا تراها الطّائرات، ولا أبراج المُراقبة». «قدّم رؤيتكَ

إذًا». «نستطيع أنْ نبني جسورًا يُمكن أنْ ننقلها من مكانٍ إلى آخر حسب الحاجة، من خشبٍ، جسور الحديد ثقيلة، وتَعُوقنا في المسير لو أردْنا نقلَها، ومن السّهل أنْ تهزمنا، جسور الخشب يُمكن أنْ تتحرّك في الماء، اتّجاه الماء وعُمقه مُهمّان، بعضُ الحبال في الطّين يُمكن أنْ توفر إمكانيّة الحركة والغوص في الأسفل. لو قُصِف الجسر فلن يقصفوا إلاّ الماء. ولو خسرناه فلن نخسر غير الخشب، هل يُمكنني أنْ أحصل على عشرةٍ من الجنود للبدء في العمل؟!». رددتُ دون أنْ أعرف ما يُفكّر به تمامًا، ودون أنْ أتردّد: «لكَ مئة، سيكونون تحت تصرّفك بحلول هذا المساء».

قال أبو صبري: «سنعتمد أسلوب المناوشات الدّائمة في حربنا مع جيوب العدوّ حتّى إذا وقعتْ حربٌ كُبرَى كان جيشُهم مُنهكًا كالثّوب الّذي تمزّقتْ أطرافُه فلم يعدْ قادرًا على سَتْر الجسد كامِلاً. المناوشات تكشف. المناوشات تُنهك. والمناوشات بالنّسبة إلى جنودنا ترفع حماسَتهم». أجبتُه: «هذا ينفع، إنّه مُفيدٌ لنا نحن القُوّة النّظاميّة، أنتم لستُم جيشًا، أنتم تُمارِسون حربَ عصابات، وهذا يُحتّم عليكم أنْ تنتقلوا من مكانٍ إلى آخَر، ولا تستقرّوا في مكانٍ مُحدّد، هذا ناجع، إنّه مُرعِب بالنّسبة للعدوّ، لن يستطيع تقدير أعدادكم، ولا معرفة من أينَ تأتيه الضّربة، إذا تسلّل بعضُ الفدائيّين إلى عمق أراضينا المحتلّة، والتفّوا من وراء خطوط العدوّ، ووجّهوا إليه ضربةً من الخلف، فإنّها أشبه بالانِقضاض بمطرقةٍ من الخلف على رأسِ رجلٍ ضخم الجثّة... فلْيكنْ يا أبا صبري، هذا يُناسبكم أكثر مِمّا يُناسبنا نحن؛ نحن جيشٌ نِظاميّ، في النّهاية نحن سُنقاتل بأسلوب الجيش النّظامي، وأنتم

ستُقاتِلون بأسلوب الفِرَق والعصابات، كلانا لازمٌ من أجل إلحاق الهزيمة بعدوّنا المُشترك».

كنتُ أؤمن بدور الكلمة، الكلمة تُقاتِلُ أيضًا. تذكّرتُ ما فعله صلاح الدّين بالجيش الّذي حاربَ لاستِعادة القُدس، قال أمام الجيش: «لا تظنّوا أنّني فتحتُ القدسَ بسيوفكم، بل فتحتُها بِخُطَبِ القاضي الفاضل». القاضي الفاضل لم يمتْ، نموذجه ما زال حَيًّا، وما يضيرني إنْ بعثتُه من جديد.

أعرفُ أنّ كثيرًا من الّذين يعتلون المنابر ويتصدّرون لكراسيّ الدَّرس ليسوا على شيءٍ، أعرفُ أنّهم حكّاؤون أكثر منهم علماء، وهمّازون أكثر منهم وُعّاظ، يخوضون في كلّ شيءٍ إلاّ العلم. أريدُ مَنْ يُحرّك القلوبَ والعقول، لا أريدُ مَنْ يستجيش العاطفة وحدَها، ثُمّ يتركُ أهلَها في وادٍ غير ذي زرعٍ عندما تبردُ تلك العاطفة.

طلبتُ اجتِماعًا بأئمّة الجيش، أولئك الّذين يتبعون قيادتي، إنّهم متعلّمون، تخرّجوا في الأزهر، وفي الشّام، وبعضُهم ربّما من المدارس الشّرعيّة في الأردنّ، لكنّهم ليسوا سَواءً كلّهم، كان اجتِماعي معهم لأختار منهم أهدافًا لأهدافي، وزّعتُ عليهم قصيدَتين الأولى للمتنبّي الّتي مطلعها:

سِرْبٌ مَحاسِنُه حُرِمْتُ ذواتِهـــا

داني الصّفاتِ بعيدُ مَوْصُوفاتِها

والثّانية لأحمد شوقي من همزيّته في مدح النّبيّ، وقد اقتصرتُها على عشرة أبيات تبدأ من قوله:

وإذا وردتَ الماء لم يُورَدْ ولـــو

أنّ القياصر والملُوكَ ظِـــماءُ

طلبتُ من كلّ واحدٍ أنْ يقرأ من القصيدة الأولى الّتي بين يدَيه بصوتٍ عالٍ، تذمّر أكثرهم، واستغربَ آخرون، وهمس البقيّة: «ليس له سُلطة علينا كي نقرأ أمامه، نحن لا نتبع له، بل نتبع لمُفتي الجيش». كنتُ أعرف ما يدور بينهم، قلتُ لهم بحزم: «أنتم عساكر، وأنا أعلى رتبةً في الموجودين هنا، ولا يوجد في الجيش أعلى منّي سِوى اثنَين، وعليكم أنْ تُطيعوا. واعتبروا هذا الّذي أطلبه منكم أمرًا عسكريًّا، أنا لم أجِئ بكم إلى هنا لأتسلّى، لدينا عمل، ولدينا واجباتٌ كثيرة».

تنحنحوا وبدؤوا بالقراءة، رسب في اختبار القراءة أكثر من نصفهم، صرختُ كمن لُدِغ في معدته: «كيفَ نستأمنكم على الدّين إذا لم تستطيعوا أنْ تقرؤوا خمسة أبيات للمتنبّي دون أنْ تنحروا اللّغة؟!».

أخذتُ المتبقّين، وصرفتُ الّذين رسبوا، وأوصيتُ بأنْ يدخلوا دورات قراءة، وضبط الحرف، وتعلّم العربيّة عند أهل اللّغة، ووزّعتُ مصاحف على قادة الجيش وعلى جنودهم، وأمرتُ بصرفِ ميزانيّة من الجيش لذلك. أمّا الّذين أشرقتْ وجوههم للعربيّة، وطربوا لها، ورقصتْ أرواحهم قبل قلوبهم لمعانيها، فأدركتُ أنّهم سيكونون المؤثّرين في خُطبهم، فوزّعتُهم على مساجد الجيش، على مساجد الفرقة الأولى والثّانية، وكانتْ لديهم مهمّة واحدة يجب أنْ يركّزوا عليها في خُطب الجمعة وفي دروسهم الوعظيّة وفي لقاءاتهم بالجنود: التّعبئة للمعركة، وبثّ الرّوح المعنويّة، واستحضار النّماذج البطوليّة.

قلتُ لهم: «أريدُهم أنْ يذهبوا إلى المعركة وهم يغنّون، أريدهم أنْ يطربوا لصوت الرّصاص، ويختالوا وهم يقطعون النّهر، املؤوا قلوبهم بالحقد على أعدائنا الّذين قتلونا وشرّدونا واغتصبوا ديارَنا، اجعلوهم يتمنّون ذلك اليوم الّذي يُتاح لهم فيه أنْ يُحارِبوا، وينتظرونه على أحرّ من الجمر، أمّا التّدريب العسكريّ فأنا به زعيم. أنا لَها!».

***

(37)

سنشربُ الشّاي معًا!!

«أنتِ ظلّي يا يُسرى. أتعبني السّير، أرى غِيلانًا في الطّريق، لكنّ وجودَكِ في حياتي أشعرني بأنّني ما زلتُ قادرًا على أنْ أمضي دون خوف، ودون ملل، هل يُمكن أنْ تحتملي كلّ هذا دون أنْ تقولي كلمةً واحدة؟ قولي يا يُسرى؟ أعرفُ أنّني حمّلتُكِ فوقَ ما يجب أنْ تحتمله أيّ زوجة، كان يُمكن أنْ تعيشي مثل أيّ امرأةٍ لرجلٍ ذي رتبةٍ عاليةٍ في الجيش، ويتقاضَى مرتّبًا يُخوّله عيشًا كريمًا هو وأسرته». «لن أقولَ شيئًا يا مشهور، أنا ظِلّك، رِيُّك في عطش الأيّام، ورأيُك في اسوِداد الدّروب، وهؤلاء هم أبناؤك، إنّنا نُقدّم لهم نموذجًا، من الصّعب أنْ نقول لهم تعبْنا، من الصّعب كذلك أنْ نبدو أمامهم كما لو كُنّا قد أنهكَنَا السّير الطّويل، علينا أنْ نكون أقوياء، أو أن نتظاهر بذلك على الأقلّ». «طاقاتُنا لها حَدّ يا يُسرى، ربّما ننهار بعدَه أو نسقط». «لا، يا مشهور، لا تقلْ ذلك، يُمكن أنْ نتعب، ويُمكن أنْ نستريح في منتصف الطّريق، ولكنّنا لا نسقط، لا نسقطُ أبدًا». «ولكنّنا بَشَر يا يُسرى، ولنا أحلامُنا». «وهل البشر كلّهم سواء؟ لقد قلتَ أحلامنا، وهل أحلامُ البشر تتساوى يا مشهور؟ إنّما تكبر النّفوس بِعِظَم الغايات الّتي ينشدونها». «هل يُزعجك أنْ أحدّثكِ حديث الحرب؟». «بالطّبع لا يُزعجني، لن تنتهي حروبنا يا مشهور؟ تربية أبنائنا وجهٌ من وجوه هذه الحرب».

«أعرفُ أنّني لا أراهم كثيرًا، ولكنّني أعرفُ أنّكِ جداري وجِدارهم في غيبتي». «إنّهم يتعلّمون منكَ أكثرَ مِمّا أُعلّمهم، أنتَ المعلّم الصّامت، لقد تركتَ لهم إرثًا ثقيلاً». «الإرث الثقيل في الحرب الّتي على الأبواب يا يُسرى، إنّني أكادُ أسمعُ نفيرَها من اليوم». «إذا كانت الحرب فإيّاك أنْ تُولّيَ لها ظهرَك، نحن نحتمل كلمة شهيد، ولكنّنا لا نحتمل كلمة فارّ. تعرفُ أنّ موقفًا واحِدًا يُمكن أنْ يرفعَ المرء إلى الذّرا، وموقفًا آخر يُمكن أنْ يهوي به إلى الحضيض؟». «أعرفُ يا يُسرى أعرف». «أنتَ الّذي تختار يا مشهور». «لا تخافي يا يُسرَى. لقد اخترتُ ما يجب عليّ اختيارُه». ونهضتْ من مكانها، خرجتْ إلى حديقة البيت، سقتْ شجرةَ الصّبّار، ورشّتْ بعضَ الماء على الورد، وخُيّل إليّ أنّها كلّمتْ بعضَ العصافير، ثُمّ عادتْ: «هل تشربُ الشّاي؟». «الأميرةُ ستُعِدّه لي؟». ضَحِكتْ، كأنّ حديث الحرب ولّى، كأنّ غمامة الخوف من القادم المجهول زالتْ، لقد كانتْ تضحكُ لي الدُّنيا إذا ضحكتْ، وتُزهِرُ إذا مشتْ، وتفوح بالياسمين إذا باحتْ. «بالطّبع يا يُسرَى». جلسْنا في وسط الحديقة على كُرسيَّيْن من خشب، وطاولةٍ عتيقة، كانت شمسُ الأصيلِ دافِئة، تتأرجح عن القُبّة في رحيلها السّرمديّ، جلسْنا صامِتَين بعضَ الوقت، كنتُ أرتشفُ بعضَ الرّشفات، وأتابعُ رحيل الشّمس، فكّرتُ في داخلي: كم تُشبِهنا هذه الشّمس. يومًا ما سنرحل مثلها، كلّ ما أرجوه إذا رحلتْ شمسي، أنْ تطلعَ من جديدٍ في صباحٍ جديد شمسُ أبنائي».

وصلتْ إلى القيادة معلوماتٌ تُفيد، بأنّه في غضون أقلّ من اثنتين وسبعين ساعةً سيشنّ اليهود حربًا على مواقعنا في الشّريط الحدوديّ،

نقلتُ المعلومة على الفور إلى (أبو صبري): «إنّهم يُخطّطون لهجوم، هدفُه بالدّرجة الأولى اقتِلاعكم، واحتِلال أراضٍ جديدة في الأردنّ». «والرّأي؟». «سنُقاتل بالطّبع!». «أعرفُ ذلك، أفي القِتال شَكّ، سنُقاتل إلى آخر قطرة دم، إنّما أسأل عن خُطّتنا، والأسلوب الّذي سنذير به المعركة». «هل جنودُكَ جاهزون؟». «أتمّ الجهوزيّة». «وكذلك جُنودي». «بقي شيء». «قل يا أبا صبري». «المُزارِعون». «ما لهم؟». «قُوّة مُتفجّرة يُمكن استثمارها». «إنّهم لا يُحسنون القِتال». ليسَ مطلوبًا منهم أنْ يُحسِنوا القِتال، كلّ ما عليهم أنْ يعرفوه هو استخدام البندقيّة، ذلك كافٍ، أنا أتوقّع أنّ الحربَ إذا قامتْ فستتحوّل إلى حربٍ من حارةٍ إلى أخرى، ومن مزرعةٍ إلى مزرعة، وجودهم في القِتال، ولو في هذه المرحلة المتأخّرة، سيجعل الكَفّة تميلُ لصالِحنا». «إذًا ما الّذي ينقص المزارع حتّى يُقاتل؟». «أنْ يؤمن بحقّه ويموت مدافعًا عنه، وأنْ نوفّر له البنادق». أعتقد أنّ النّقطة الأولى مغروزة فيه». «بقيت البنادق». «جاهزة يا صديقي. أنا أوفّر لكلّ مزارعٍ قادرٍ على القتال بندقيّة». عانقني أبو صبري: «لن يهزمونا». «بإذن الله».

نحنُ نقاتل؛ ولذلك نحن نستحقّ العيش. نحن نحلم بوطنٍ؛ ولذلك نحنُ نقاتل. كانتْ مجموعة الرّصد قد توافرتْ لها معلوماتٌ أنّ وزير الدّفاع موشيه دايان المُنتشي بالنّصر الكبير في حرب حزيران، سيحضر اجتِماعًا في مستعمرة (حولون) الواقعة جنوبيّ يافا، كان على الفدائيّين أنْ يعرفوا اليوم والسّاعة الّتي سيتمّ فيها هذا الاجتِماع، كانتْ هذه المعلومات مهمّة في مساعدتنا لكسر شوكة الرّمح المُشرَع، والبندقيّة الّتي تُلعلِع في كلّ اتّجاه. ليس من عِلاجٍ للغرور أحيانًا سِوى أنْ تُمرّغ

أنفَ صاحبه في التّراب. المواعِظ تزيدُ الغرور، والضّربة تقصمه. وكُنّا قد اكتفَينا حدّ الإشباع من المواعظ الباردة!

تقع مستعمرة (حولون) فوق تلّة تنحدر باتّجاه الشّاطِئ على الطّريق المؤدّي إلى عسقلان وغزّة، وإلى الجنوب منها قليلاً موقعٌ بيزنطيّ قديم، وإلى الشّرق من المُستعمَرة تقع الطّريق الذّاهبة إلى تل أبيب، وإلى شرق تلك الطّريق، تقع الطّريق الذّاهبة إلى القدس، وبين الطّريقَين جِسر، وبين المُستعمَرة والآثار البيزنطيّة يقع تل يونس، قدّر الفِدائيّون أنّ المعلومات الّتي بحوزتهم كافية لتنفيذ عمليّتهم.

قُسّمت المنطقة إلى ثلاثة أقسام، وكانت المعلومات تقول بأنّ وزير الدّفاع سيمرّ من خلال موكبٍ غالبًا ما يكون مؤلّفًا من ثلاث سيّارات في القسم الثّاني، وأنّه للتّمويه والحماية سيكون في السّيّارة الثّانية. تسلّل الفِدائيّون يوم 20 آذار من عام 1968م إلى الموقع، توزّعوا على ثلاث مجموعات، دفعة إسناد، ودفعة تضرب الضّربة الأولى، ودفعة تحمي الانسِحاب، كانت المجموعة الأولى تضمّ عنصرَين مُجهّزَين برشّاشَين كارلو ومناظير مهمّتهم تأمين الاستِطلاع المُتقدّم، وتمهيد الطّريق للدّخول إلى منطقة الهدف من تحت الجسر على الطّريق السّريع بين تلّ أبيب وعسقلان، مرورًا بالطّرق الفرعيّة بين الجهة الغربيّة للمُستعمَرة حتّى الطّريق المُؤدّي إلى جنوبيّ تل يونس. وكانت المجموعة الثّانية مكوّنة من عُنصرَين مُجهّزين بأربعة مُسدّسات، ورشّاش برن، وحقيبة مُتفجّرات، وستّة ألغام، وكانتْ مهمّتها زَرْع الألغام في الطّريق الّذي ستسخدمه سيّارات دايان الثّلاث، وتمديد سلك التّفجير بعيدًا عن الطّريق أسفل المُنحدَر، وربطِه بعلبة التّفجير انتِظارًا لساعة الصّفر. أمّا

المجموعة الثّالثة فكانتْ مُكوّنة من أربعة عناصر، مُجهّزين ببندقيّتَين من نوع سينوبال، ورَشّاشَين كارلو، واحدٌ منهم مهمّته تتلخّص في التّمركز في نقطة مُتقدّمة في أوّل الطّريق بحيثُ يكون مرئيًّا للمجموعة الثّانية، ومراقبة الطّريق ورَصْد الهدف، وإعطاء الإشارة ساعة الصّفر لعناصر التّفجير.

وتوزّع باقي أفراد المجموعة الثّلاثة في آخر الطّريق الّذي سيسلكه موكب دايان، بحيثُ يكون في الوسط حامل الرّشّاش، وإلى يمينه ويساره قنّاصان مُجهّزان بالقنابل اليدويّة، متهيّئان للاشتِباك والتّدمير والحماية في حالة عدم وقوع التّفجير عن بُعدٍ لسببٍ أو لآخَر، أو إذا وصلتْ أيّ من دوريّات الجيش الإسرائيليّ، ومهمّته كذلك تأمين انسِحاب بقيّة أفراد المجموعات إذا ما تمّت العمليّة بنجاح.

في السّاعة الواحدة ظهرًا من ذلك اليوم، العشرين من آذار عام 1968م أُعطيت الإشارة من المراقب أنّ الموكب قادم، وأنّه بالفعل يتكوّن من ثلاث سيّارات جيب عسكريّة، وعليه تهيّأ أصحاب علبة التّفجير لساعة الصّفر، مرّ الموكب بهدوء عبر الطّريق جنوبًا، والتفّ من تحت الجسر، حتى وصل إلى المنطقة الواقعة بين الآثار البيزنطيّة والمستعمرة على تلّ يونس، وهناك كانت ساعة الصّفر، ضغطَ أصحاب علبة التّفجير لكي تنفجر الألغام الّتي كُثّفت تحت السّيّارة الثّانية الّتي يقبع فيها دايان حسب المُتوقّع، احترقت السّيارة الثّانية، لقد أُصيبتْ إصابةً مُباشرة ومات كلّ مَنْ فيها، بينما انقلبتِ السّيّارة الأولى عندما انفجر اللّغم في مُؤخّرتها، أمّا السّيّارة الثّالثة فقد أُصيبتْ مُقدّمتها إصابة خفيفة، وترجّل منها الجنود مذعورين وحاولوا النّجاة بأرواحهم،

فانطلقتْ نحوهم رصاصات الرّشاشات، وأصابتْ بعضَهم، وأُلقيتْ عليهم بعض القنابل، فمات عددٌ منهم وجُرِح آخرون. وفي خلال أقلّ من سبع دقائق كان الهدوء يسود المنطقة، سكتَ صوتُ الرّشاشات، وخمد دويّ انفجارات الألغام والقنابل، وبدأ الفِدائيّون بالانسِحاب قبل أنْ تصل التّعزيزات العسكريّة الإسرائيليّة.

أتمّ الفِدائيّون انسِحابهم جميعًا دون أنْ يُصابَ أحدهم بخدش، قطعوا النّهر، أحسّوا ببرودة مائه الرّقراق، كانوا عَطشى، شربوا من النّهر، ووصلوا إلى الضّفّة الأخرى، كانتْ تنتظرهم سيّارتان، أقلّتهما إلى مواقعهما في قرية الكرامة، قال أحدهم: «هل مات دايان؟».

ردّ آخر: «إنْ كان في السّيّارة الثّانية فلا شكّ أنّه في جهنّم الآن، وإذا كان في السّيّارتَين الأُخرَيَين فلا بُدّ أنّه جريح».

قال ثالث، وهو يُنزِل عن فمه القِربة، ويُعطيها لزميله ليشرب: «ما أعذبَ ماءَ النّهر!». كركر الماء من القِربة وهو ينساب إلى حنجرته، لَفتَ صوتُ الكركرة أحدَهم، قال: «الماء يُغنّي!». ردّ ثانٍ: «الماء يضحك!».

بعدَ ساعات تبيّن أنّ دايان كان يركب السّيّارة الأولى، لم يمتْ، لكنّه أُصيبَ بجروحٍ بليغة؛ كُسِرتْ يده اليُمنى، صارَ له عُضوٌ آخَر من جسده يُشاركه العَوَر، وأصيب بانزِلاقٍ في عموده الفِقْريّ كذلك، وأسعفتْه القُوّات الإسرائيليّة إلى المُستشفَى. مِن فوقِ سريره في المستشفَى أقسمَ بربّ إبراهيم أنْ يسحقَ الفِئران الّتي تتحرّك على طول نهر الأردنّ. وتوعّد أنْ يُنهيهم قبل أنْ تغيبَ شمسُ غدٍ!!

خرجَ من المستشفَى ليلاً، لم يعدْ إلى بيته، بل إلى وزارة الدّفاع،

طلبَ أنْ يجمعوا له كلّ مَنْ في تل أبيب من الصّحفيّين، كانت عينُه العوراء ترى كلّ شيءٍ، ووجنته البارزة تتأهّب لقبلة من صحفيّة جميلة، بانتْ أسنانه البيضاء من تحت شفتَيه، هل كان يبتسم، أم يُكشّر عن أنيابه؟ قال للصّحفيّين: «جمعْتُكم من أجلِ دعوةٍ لنزهة، سنشربُ غدًا الشّاي معًا على مرتفعات السّلط، ونتغدّى في عمّان».

***

(38)
مَنْ يُبايعُ على المَوتِ؟

حُشودٌ ضَخمة في اللّيل، مَكشوفُون تمامًا، على مرأى العين، لا نحتاج إلى مناظير لرؤيتهم، لم أتوقّع أبدًا هذه الصّلافة، آلاف الجنود الصهاينة يتحرّكون تحت سِتار اللّيل، يدبّون دبيب النّمل، وينتشرون انتِشار الجراد، على طول الشّريط المُحاذي لنهر الأردنّ، لم أرَ في حياتي مثل هذه الأعداد، ولا في أيّ حربٍ سابِقة، يبدو أنّ عمليّة ظُهر اليوم قد قصمتْ ظَهرَ البعير!

الجنود بكامل عتادَهم، حقائبهم على ظهورهم، ولديهم أوامر واضحة فيما يبدو، كان العلَم اليهودي يرفرف أعلى بعض تلك الحقائب، إمعانًا في الاستِفزاز، أبلغتُ أبا صبري، ردّ على الموجة المُشفّرة: «إنّني أرى كلّ شيْء. والعمل؟». «مثلما دفعوا إلينا بأقصى ما يستطيعون سنواجه بأقسى ما نستطيع». «هل نبدأ المعركة؟». «انتظرْ إلى الفجر، يجب أنْ نُقوّم الأمر بطريقة أدقّ». «قد لا ينتظرون حتّى الفجر». «نحن لا نريدُ انتِحارًا، نحن نريدُ انتِصارًا». سادتْ لحظةُ صمت، لا أدري فيم كان يُفكّر، لكنّني سألتُه: «هل بنيتم كلّ الجسور الّتي اتفقْنا عليها؟». «تمامًا». «وغير مرئيّة؟». «نعم». «ومتحرّكة؟». «نعم». «ويسهل التّخلّص منها عند الحاجة؟». «هو كذلك».

طافَ بذهني كلّ أحبابي في تلك اللّحظة، لا بُدّ أنّها لحظة خارج

الزّمان، إنّها مجتزأة من لحظات العمر الّتي لا يُحسّ بها الإنسان إلاّ إذا استشعر الخطر الشّديد، وأيقن أنّه يمشي إلى الموت بقدمَيه، لا أشكّ أنّ هذه اللّحظة قد مرّ بها عبد القادر الحسيني، وخالي نائل، وهارون، وعبد الله التّلّ، وجولدامائير، ودايان، ... كلّ الّذين واجهوا الموت واجهوا هذه اللّحظة بالتّزامن معه تمامًا. راودتْني فِكرة أنْ أتّصل بيُسرى، أنْ أقول لها إنّني لن أعود، سأرتكبُ حماقةً بالتّأكيد لو فعلتُ ذلك، قلتُ: أتّصل بجدّي حمد، للحظة ظننتُه حَيًّا، وأنّني يجب أنْ آخذ رأيَه في ما يجري، أُصِبْتُ بانكِسارٍ روحيّ حين تذكّرتُ أنّه مات منذ أكثر من ستّ سنين، قلتُ أتّصل بأمّي: هل أبكي على صدرها مثلما كنتُ صغيرًا؟ وأبي، هل أضع كفّي الصّغيرة في كفّه لكي أشعرَ بالأمان؟ هتفتُ في سِريّ: «إنّها لحظات الطّفولة أيّها المجنون، لقد كبرت». نفضتُ رأسي، وعُدتُ أنظر إلى الحشود وهي تتوافد كأنّها الغربان، تهوي إلى الماء، وتربضُ على الأشجار، تنعقُ نعيقًا مُنكَرًا، وتلتفع بالسّواد!

لا مهربَ من الحرب إلاّ إليها. لقد لصقتْ بِنا، وصار علينا أن نعرفَ تمامًا كيفَ نخوضُها. وأهمّ من الحرب نفسِها معرفة كيفيّة إدارتِها. ولم تكنْ لدينا قُوّات لتواجه هذا الحشد الّذي يزيد حسب تقديري عن ثلاثين ألفًا. إنّنا أمام الرّعب الحقيقيّ لهذه الكتلة الضّخمة المتحرّكة نحوَنا، وفكّرتُ في أنّ أعدادَنا الّتي لا تزيد عن خمسة آلاف مُقاتِل، يُمكن أنْ تتّبع التّكتيك الّذي استخدمه عكرمة بن أبي جهل في معركة اليرموك، سَحْق الجسم الرّئيسيّ لقوّات الصّهاينة عن طريق مجموعة استشهاديّة؛ «مَنْ يُبايعُ على المَوتِ؟». إذا كانتْ لدينا ثلاث أو أربع مجموعات على هذا النّحو، وضربنا في قلبِ الحشود، فأنا أعتقد أنّنا

يُمكن أنْ نُحدث فجوة في جيشهم أو على الأقلّ بلبلة، يتبعها مناوشات على الأطراف، وحينها لا يُمكنهم أنْ يستعيدوا توازنهم. لن ننتظر الفرصة حتّى تأتي، سوفَ نبحثُ عنها، وإذا ما لاحتْ فسوفَ نضربُ بكلّ ما نستطيع. الأهمّ من ذلك كلّه كانت توفير نِقاط العبور باتّجاههم، فلقد كانت المعابر والجسور المعروفة لدينا ثلاثة، هي: جسر الأمير محمّد (داميا)، وجسر الملك حسين (اللّنبي)، وجسر الملك عبد الله (السّويمة). وكنتُ أريدُ أنْ أنفذ إليهم من خلال الجسور المتحرّكة المخفيّة الّتي صنعناها في الفترة الأخيرة ولا أحدَ يدري بها.

لا وقتَ للتّفكير أكثرَ من ذلك، جمعتُ قادة الألوية، كان ذلك منتصف ليلة الهجوم. بسطتُ لهم خريطةَ المعركة: «سيتقدّمون عبر هذه الجسور، لن نلغّم الجسور، لسببٍ بسيط، أنّه لدينا بمساعدة الفدائيّين جسورٌ بديلة، ونحن نريدُ هذه الجسور أنْ تبقى سليمة لكي يعبروا من خلالها إلينا، سنصيدهم فوقَ أراضِينا، أعني ألوية المشاة والدّبّابات، جسورنا غير المعروفة، قادة الألوية على عِلم بها، وسيتولّون قيادة كلّ جندي يتبع لهم عبرها، سنحاول القِيام بعمليّات التِفاف، ودخول إلى العمق، نحن نريدُ أنْ نقتل منهم أكبر عددٍ ممكن، ستبدو المعركة في البداية كأنّها دِفاع عن النّفس، يتوغّلون في أراضِينا، ونُقاومهم، كلاّ، هذا جزءٌ بسيطٌ من المشهد، وسيتحوّل بعدَ ساعاتٍ إلى غزوٍ لهم. و... سنسحقهم».

السّاعة الآن الواحدة بعد منتصف اللّيل. لم ننم. كيفَ ينامُ حُرّاس الوطن؟! لا زال القادةُ الرّئيسيّون حولي. «أيّها الضّابط غازي». «لبّيك». «هل رأيتَ اليهود من قبلُ؟». «بالتّأكيد». «هل هم

وحوش؟». «كلا يا سيّدي، بشرٌ». وتدخّل أبو صبري، وأردف: «وعاديّون». فسألتُ: «لماذا هُزِمْنا أمامهم إذًا؟». تدخّل خضر هذه المرّة: «الخوف يا سيّدي، لقد قلتُ لكَ ذلك مِنْ قبلُ. الخوف هو الّذي هَزَمَنا أمامهم». «إذًا عليكم أنْ تقتلوا الخوف قبل أنْ تقتلوا الصّهاينة. أرسل جنودَك يا غازي إلى الأمام أرسلْهم ليروا اليهودَ بأمّ أعينهم، إنّهم ليسوا وحوشًا، وليسوا مُقاتلين مُميّزين، إنّهم يخافون كما نخاف، ويفزعون كما نفزع، ويفرّون كما نفرّ... ولكن، منذ هذه اللّحظة يا أبا صبري لا أريدُ لأحدٍ أنْ يفرّ، لا أريدُ لأحدٍ أنْ يهربَ من المعركة». تقدّم نحوي أبو صبري، ضمّني كرفيقٍ قديم: «لن نفرّ، وسنموت تحت جنازير الدّبّابات إذا اقتضى الأمر». وكدتُ أبكي، لولا أنّني داريتُ دموعي برفْع صوتي: «وأنا أمرتُ جنودي الّذين في الخنادق ألاّ يخرجوا منها ولو دهستْهمُ الدّبّابات وماتوا تحت جنازيرها أحياء. لن أسمحَ لأحدٍ أنْ يقول إنّني هُزِمتُ في هذه المعركة». وقال أبو صبري: «أنا عَطِش!». فردّ خضر: «سنشربُ من دمهم». وضحكتُ حتّى كاد السّحاب المُمحل في الجوّ ينهلّ غيثًا، وهتفتُ: «لقد قالَها من قبلكم جدّكُم خالد بن الوليد لقائد جيش الرّوم، في اليرموك على مقربةٍ من هنا، لنا إرثٌ عظيمٌ أيّها السّادة، ولنا تاريخٌ أعظم». وقال غازي: «هل حانتْ ساعةُ الصّفر؟». فرددتُ: «إنّكَ تملكُ نسورًا يا غازي، لقد أصبحَ جيشُنا مشحوذًا بشكلٍ جيّد. يُمكننا الآن أنْ نقاتل ونحن مستعدّون».

صرفتُ القادة بعد أنْ شرحتُ لهم الخُطّة. وخلوتُ في غرفة القيادة إلى نفسي قليلاً، أستجلبُ بعضَ الهدوء من أجل العاصفة القادمة، وأرحتُ رأسي على مكتبي، وغفوتُ قليلاً، في تلك الغفوة العابرة

حلمتُ أنّني أودّع الأولاد، استقبلتني يُسرى في الحلم على الباب، كانت تبتسم، وفي عينيَها نظراتُ قُوّة وثقة، وهي تقول: «ستنتصر»، وانزاح كلّ الهمّ عن صدري، تُدركُ أحيانًا أنّ وقوف امرأةٍ إلى جانبك يُمكن أنْ يحوّلك إلى منتصرٍ في كلّ المعارك، إنّهنّ نَبعُ هذا العَطاء العميم، وهذا السّرّ الغامض؛ أحيانًا أتساءل عن قيمة وجودنا نحن الرّجال ومعناه دون وجود رفيقات دروبنا إلى جانبنا يقمْنَ بتحصيننا ضِدّ الهزيمة، وضدّ العبثيّة، وضِدّ اللاجدوى. سمعتُها تقول لي: «هل أنتَ بخير؟». «بخير يا يُسرى. بيننا وبين المعركة ساعات». «والمعركةُ أيضًا ساعات، فاصبِرْ». ورأيتُها تتقدّمني إلى غرف الأولاد، وراح الأولاد يخرجون من تلك الغُرفَ كما لو كانوا أقمارًا تخرج من الظّلمات لتنير فضائي الفسيح، ولّما رأوني أقبلوا إليّ يتمسّحون بي وبثيابي، وهم يهتفون: «بابا... بابا...». وطفرتْ دموعٌ من عَينَيّ، ثُمّ ما لبثتْ أنْ تقاطرتْ، ثُمّ ما لبثتْ أنِ انهمرتْ، ورأيتُني ذهبتُ إلى المغسلة فغسلتُ وجهي، وعدتُ إليهم أتصنّع الابتِسام: «أنا ذاهبٌ بعدَ قليل إلى المعركة يا أولاد، إنّها معركةٌ مصيريّة مع أعدائنا الصّهاينة، أريدُ منكم أنْ تساعدوا أمّكم في غيابي، أريدُكم أنْ تكونوا أبطالاً، نحن نقاتل لننتصر، أو لنُستَشهد، لكنّنا حتّى لو استُشهِدنا لا ننتهي، حياتُنا تستمر في أجيالنا، أنتم من بعدِي ستُكملون الطّريق، نحن لسنا لقمةً سائغة يأكلها أعداؤنا، نحن بالنّسبة لهم شوكٌ وحنظل...». وسكتُّ فرأيتُ الوجوم على وجوههم، ولم يقلْ منهم أحدٌ شيئًا، وكانتْ شِفاه ابنتي الكبرى قد زُمّت كأنّها تستعدّ للبُكاء، وسألتُهم: «لن تعذّبوا ماما... أليسَ كذلك؟». ورأيتُ وجوههم قد احمرّت، وعيونهم قد غرغرتْ، ثُمّ سألتُهم: «ماذا تريدون

أنْ أحضر لكم معي من المعركة...». وانفجروا جميعًا بالبُكاء، وراحت ابنتي الكُبرى تقول: «أبونا راح... أبونا راح...». وراحت ابنتي الأخرى تبكي وتنشج وتقول: «لا تتركْنا يا بابا». وقمتُ فحضنتُهم واحِدًا واحِدًا كأنّها المرّة الأخيرة الّتي سيُتاح لي أنْ أحضنهم فيها، وقبّلتُهم، وقلتُ: «أنا ذاهب يا حبايبي... أنتم أبطال... ماما بطلة... هيّا...». وودّعتُ يُسرى، كانتْ نظراتُها تقول كلّ شيءٍ: «إنّما النّصر صبرُ ساعة». «وسنخوضُها»، فتقول: «النّهايات لمن استعدّ في البدايات، إذا كنتم مع الله فلن يضيرَكم شيءٌ». وقلتُ لها: «أحسّ أحيانًا يا يُسرى أنّني أخوضُ حربًا مُقدّسة، لا جيشًا يُقاتل جيشًا». «إنّها كذلك يا مشهور، وإذا لم تكن الحرب مع اليهودِ حربًا مُقدّسة، فمع مَنْ تكون كذلك إذًا؟». «وماذا عليّ أنْ أفعل؟». «ألستَ قد أعددتَ جنودَك لهذه السّاعة؟». «بلى». «لم يبقَ إلاّ أنْ تدعوه إذًا، فما النّصر إلاّ من عنده؟». «لكنّ فينا المُقصّر، والمُسيء، والخائف، والمُتشكّك، والّذي سيحارب لا عن عقيدة ولكنّ الأوامر قد جعلتْه يُحارب...». «ستجد مثل هؤلاء في أيّ معركة، ولكنْ إذا كانوا قلّة، وكنتَ قد بنيتَ في عقول الأغلبيّة القتالَ عن عقيدة، فسيكون الله معك، إنّ الله لا يخذل عبدًا طرقَ بابَه».

ورأيتُ جدّي في غَفْوتي تلك، كان مُلثّمًا، لم تَبِنْ منه إلاّ عيناه، وكان يقفُ على النّهر، وأنا إلى يمنيه، وكانتْ بُندقيّته على كتفه، وكان يُشير إلى مواقع القتال، ويقول: «هناك فَرْق». فأسأله: «ما الفَرْق؟». فيردّ: «انظرْ. إنّهم يُقاتِلون عن أرضٍ ليستْ لهم، ونحن نُقاتِلُ عن أرضنا، ربّما لا يظهر هذا الفرق على الوجه، ولكنّه يظهر في القلب، وتُحسّ به البندقيّة الّتي تحملها، والمدفع الّذي تُصوّبه، فإذا عرفَ المدفع أو البندقيّة

صاحب الأرضِ تناغَم معه وتجاوب». ثُمّ سكت، ونظرَ إليّ، وقال: «قاتِلْ بقلبِك يا مشهور. لن يصمدوا أمامكم طويلاً. إذا هربوا فلا تقبلْ بهروبهم، لاحِقْهم خلفَ النّهر، واطعنْهم في ظهورهم، لن أرتاح حتّى أرى الأرض تبتلعهم». وهويتُ لأحضنه، فوجدتُه قد ذاب، واستيقظتُ على مكتبي يتفصّد العرق من جبيني، ونهضتُ فتوضّأتُ، وصلّيتُ الفجر، ودعوتُ الله، وأخذتُ استعداداتي الكاملة.

توجّهتُ إلى قيادة الفرقة الأولى، من هناك، إلى سويمة البحر الميّت، قلتُ لنفسي: «القائد الحقيقيّ يتقدّم الصّفوف، ويقاتل كأيّ جنديّ صلب، ولا يكون إلاّ في الخطوط الأماميّة». كانت السّاعة تشير إلى الخامسة إلاّ ربعًا، من خلال موجة التّشفير، طلبتُ اجتماعًا مع قادتي، وقادة الفدائيّين، هتفتُ في داخلي: «أريدُ أنْ أقول آخر كلماتي».

في قاعة الاجتماع، كانت خريطة الموقع الحدودي كلّها مَبسوطة أمامنا، على طول أكثر من (500) كم كانتْ حدودَنا مع العدوّ، أريدُ أنْ أستعيد معهم الخُطّة، ومراكز العبور.

سألتُ بصوتٍ حازم: «أينَ آمِرو المدفعيّة؟». تقدّم خمسةٌ منهم نحوي، نظرتُ في عيونهم مباشرة، وصمتُّ قليلاً حتّى أهيِّئهم لما سأقول: «المدافع كلّها ستعمل من بدء المعركة إلى آخر طلقة، وأُقسم بالله إذا لم يعمل مدفع ولو واحدٌ فسأعدِمُ صاحبه في ساحة المسجد الحُسيني بتهمة الخيانة وأمام النّاس كلّهم ليكون عبرة». وصرفتُهم بهزّةٍ من رأسي.

وسألتُ وأنا أُرجِعُ ظهري إلى الوراء: «أينَ قادة كتائب الدّبّابات؟». تقدّموا نحوي. كانوا مُهيّئين للأصعب. هتفتُ: «لا ترحموا

أحدًا، وإذا صدرتْ إليكمُ الأوامر بالتّقدّم، فاهدموا في طريقكم كلّ شيءٍ يقفُ أمامكم. وإذا لم تتلقّوا أيّة أوامر، فاعتبروا القتال حتى آخر نَفَسٍ أمرًا مُباشِرًا منّي. هل فهمْتم؟».

ثُمّ صرفتُهم بنظرةٍ من عيوني. ودعوتُ قادة المُشاة: «جنودكم الّذين في الخنادق، لو غادَرها واحدٌ قبل أنْ تنتهي المعركة، فسأصلبه هو وجنوده على جذوع النّخل في مزارع العدوان». ثُمّ التفتُّ حولي، فرأيتُ الوجوه وقد عَبَست مثل الخطب العابس، وتكدّرت مثل اللّيل الأكدر، واكفهرّت مثل الغمام الأسود، فرفعتُ يَدَيّ، وقُلت: «أينَ الشّاي أيّها السّادة؟ هل من المعقول أنْ تنتظروا حلقي حتّى يجفّ من أجل أنْ تأتوني بكأسٍ ساخنة؟».

وتحرّك بعضُ الجنود، وهتفتُ: «القادة يبقَون». ثُمّ جمعتهم في دائرة حول طاولةٍ مستديرة وقد وُضِعَ فوقَها المُصحف، وقلتُ: «هل أنتم جميعًا مُتوضّئون؟ مَنْ لم يكنْ متوضّئًا فلْيتوضّأ».

واجتمعوا حول المُصحَف من جديد، وطلبتُ منهم أنْ يضعوا أكفّهم اليُمنى جميعًا فوق المُصحَف، وتراكمت الأكفّ فوقَه حتّى شكّلتْ تلّة من الأيدي المُتلاحمة، وشعرْنا بالدّفءِ والحميميّة والقُدسيّة، ثُمّ قلتُ لهم ردّدوا ورائي: «أُقسِم بالله العظيم أنْ أقاتل في الميدان حتّى آخر قطرةٍ من دمي، وألاّ أفرّ من المعركة ولو كان في ذلك موتي، وأنّني لن أسمحَ لأيّ صهيونيّ أنْ يمرّ من موقعي إلاّ على جسدي». وتردّدَ صدى القَسَم في الأجواء، وارتَقى في السّماء حتّى بلغَ عَنانَها، واضطربتْ له النّجوم، وحينما سمعتُ تجاوبَها في الأعالي، قلت: «والله على ما نقول شهيد». وشَهِدَ الله، فمَنْ خانَ فأمرُه إليه.

ثُمّ أبرقتُ إلى كلّ الأئمّة الّذين اخترتُهم في المرّة السّابقة، وطلبتُ إليهم أنْ يحضروا إلى الخُطوط الأماميّة ومعهم أسلحتهم، يُقاتِلون مع الجنود ويحثّونهم بالكلمة الصّادقة، ويبثّون فيهم روح الصّمود.

ثمّ صرفتُ القادة إلى مواقعهم: «ستبقون في حالة قِتال إلى أنْ أعلنَ أنا...». وشدّدتُ على الكلمة الأخيرة: «وأنا وحدي ساعةَ النّهاية».

* * *

(39)

حَياتي ليستْ أثمنَ من مَبادِئي

عَبَرتْ أوّل دبّابة إسرائيليّة جسر الملك حُسين (اللّنبي) السّاعة الخامسة والنّصف فجرًا، كانتْ تسير بسرعةٍ جنونيّة كأنّها في حَلَبةِ سِباق؛ (60) كم في السّاعة، ليستْ هذه سرعة الدّبّابة حين تتقدّم، إنّهم يظنّون أنّهم قادِمون في نُزهة، يعتقدون أنّهم سيتوغّلون في أراضينا دون أيّ ردّ، كان صلفًا وغرورًا غير مَسبوقَين، أصدرتُ أوامري بقصفِها، كانت تلك البداية، ومن بعدها سيشتعل الجحيم. دهست الدّبّابة في طريقِها عددًا من الفِدائيّين، استُشهِدوا على الفَور، طُحِنتْ عِظامهم، وعُجِنت أجسامُهم تحت جنازيرها، وامتزج لحمُهم المفروم بتراب الأرض، لقد أيقنوا في النّزع الأخير أنّهم يصعدون، وأنّ أبواب السّماء تُفتَح لهم.

المُتخندِقون كانوا في صفّ المواجهة الأوّل مع هذه الدّبّابات المجنونة، كانوا يعرفون تمامًا أنّ الخروج من هناك يعني الموت، وأنّ البقاء يعني الموت كذلك، ولكنّ موتًا تواجهه وأنتَ مُقبِلٌ ليس ذلك الموت الّذي ينهشكَ وأنتَ مُدبِر، فاختاروا الإقبال على الإدبار، والموتَ الجميل على الموتِ البَشِع، ولا فرقَ بين الموتَين لا في زمانٍ ولا في مكان، ولكنّ الفرقَ فيما تريد وفيما تختار، وإنّ مَن اختاره مُقبِلاً ليُحيي زمانه ولحظَته وذِكره إلى أجلٍ لا ينتهي، وإنَّ مَن اختارَه مُدبِرًا ليُخمِلُ زمانه

ولحظتَه وذِكره إلى أجلٍ لا ينتهي، علاوةً على اللّعنات الّتي ستظلّ تُطارِده كأنّه غريمُها. كان ذلك قرار ذلك الجنديّ الّذي لم يعرفه أحدٌ من أهل الأرضِ، لربّما حتّى قائده المُباشِر، لكنّه كان يحمل روح الإقبال، ثبتَ في خندقه، وتمركزَ فيه، وانتظر لحظةَ الشّهادة وهو متحفّز لكي يُهيّئ لها جسدَه فتغوصُ فيه، أطلقَ كلّ ما يحمله من قنابل باتّجاه الجنون الّذي يسحقُ كلّ شيءٍ في طريقه، فأعطبَ دبّابتَين، وجعلَهما نَهْبًا للنّار، قبل أنْ تتمكّن منه الدّبّابة الثّالثة فتمرّ فوقَ لحمه، وتُسوّي جسده مع الصّخر عجيْنًا، وهو لا يزال يملأ كَفّيه من دمه النّازف الصّبيب، يمسحَ بهما وجهه كأنّه يتوضّأ لصلاة الشّهادة، وهو يهتف: «الله أكبر ولله الحمد، فزتُ وربِّ الكعبة». إنّه ذات الهُتاف العتيق، الّذي أطلقه الاستشهاديّون الأوائل زمن الصّحابة الكِرام، إنّها أخلاق الفُرسان الكِرام، وإنّ أخلاقَ الفُرسان لَتُعدِي!

نظرتُ إلى الأفق، كنتُ أحسّ بأنّ الموتَ قادمٌ من هناك، لم تكن السّماء قد امتلأت بالحديد بعدُ، لكنّني كما أشمّ الحروب، فإنّني أشمّ هبوبَ الطّائرات، نظرتُ إلى غازي الّذي كان يقف إلى جانبي، وقلتُ: «يبدو أنّ السّماء ستُمطِرُ لهبًا!».

حلّق الطّيران الإسرائيليّ بكثافة، كانتْ بقيّة من اللّيل ما زالتْ تُلملمُ أشلاءَها لترحل، صوتُها الهادر كان يملأ الأجواء، وزعيقها يُحطّم زُجاج النّوافذ في البيوت الآمنة. كانتْ تحرث الأرضَ حِراثة، ترمي حِمَمَها في كلّ مكان، تحوّلَ اللّيلُ فجأةً إلى نهار، والسّكون إلى أزيزٍ لا يرحم، كان الهواء يحترق، المزارع تحترق، البيوت تحترق، والبشر يحترقون، كانوا يحرقون كلّ شيءٍ.

كلّ قادة إسرائيل شاركوا في القِتال، كانتْ (جولداماثير) تفرك يدَيها فرحًا تنتظر البِشارة باحتِلال أراضٍ جديدة، وضمّها إلى مملكة إسرائيل؛ وكان (ليفي أشكول) يبتهل كي تتّسع مملكة داود. وكان موشيه دايان في المُقدّمة، و(يهود باراك)، و(نتنياهو)، إنّهم يتعلّمون الذّبح، يتعلّمون أنّ الرّبّ يُقرّبهم نَجِيًّا كلّما قتلوا مُسلِمًا أو عربيًّا، إنّ حياتهم لا تستمر إلاّ بخنقِنا، بالشّرب من دماء أطفالِنا، وبَقْر بطون نسائنا، (نتنياهو) هذا كان في أواسط العشرينات ضابِطًا وهبتْه الحرب صدارة الموقف، تركَ أرقى جامعات أمريكا (M.I.T) ولبّى نِداء الحرب، وسارع بالعودة إلى الوطن الحلم، وقادَ سِرْبًا من طائرات الطّوّافة، وقامَ بعمليّة إنزال في قرية الكرامة، كان مُوكّلاً بذبح الفِدائيّين، يريدُ أنْ يُنهي وجودهم في تلك القرية، هبطوا في سلالم الحِبال من الطّوافات بالمِئات، مُدجّجين بالحِقد، قفزوا من فوق أشجار النّخيل، وانتشروا في الشّوارع والبيوت والحارات والمزارع، يقتلون كلّ شيءٍ يتحرّك، أفاقت الكرامة على الهَول، تحوّلتْ فجأة إلى أرضٍ محروقة، كلّ شبرٍ فيها يرشحُ بالموت. كان الموتُ يمشي بين النّاس، ينظر في وجوههم ولا يُمهلهم كي ينظروا هم في وجهه، كان يحصدُ أرواح الأبرياء دونَ رحمة، وكان ينداح في الأرضِ انِدياح الطّوفان الّذي لا يُبقي على شيء.

وانطلقتْ صيحات: (الله أكبر... الله أكبر)، وكانت الصّيحات تفعل فِعل السّحر في جنودنا، كلّ جنديّ كان يَقدُمُ نحو الموت بقلبٍ ثابت، إنّها ساعة الثّأر، وما ضرّني لو مِتّ من أجل أنْ تحيا الأجيال بعدي، وما ضَرّني لو رحلتُ وبقيتِ الأرض، بقيتِ الكرامة، بقيَت الحرّيّة، إنّ ساعةً في الموت من أجل الحرّيّة لأجمل من دَهرٍ من العيش في

الذّلّ والهَوان؛ وإذًا فلنمتْ، ومَنْ ماتَ في سبيل الله عاش!

كان الجنود الإسرائيليّون قد بدؤوا يدخلون تحت غِطاء الطّيران والقصف إلى حدودنا، يجتازون النّهر وهم يُغنّون، ويرقصون، وكُنّا ننتظرهم، ننتظرهم بشوقِ أكثرَ من عشرينَ عامًا من الهزيمة، بشوقِ النّهايات الّتي يُمكن أنْ نكون صانِعيها إذا أردْنا، وكانت المسافة بين الهزيمة والنّصر هي خيطًا رفيعًا من الإرادة لو نحن شددْناه إلى جانبنا لصنعنا المُعجِزات؛ نحن قادِرون.

أكثر من ثلاثين طلعة جوّية نفّذها سلاح الطّيران الإسرائيليّ، في كلّ طلعة أكثر من خمسين طائرة، كلّ طائرة كانت تُلقي بأحمالها في كلّ اتّجاه، قصفوا المركز الصّحّيّ في الكرامة، فأصبحَ رُكامًا في لَحَظات، واستُشهد الطّاقم الطّبّيّ، كان أهل الغور يُسعفون الجرحى بطرقهم القديمة. وقصفوا المسجد، فنُقِضَ حجرًا حجرًا، هُدّم المِحراب، والأبواب، والمصاحف، والزّوايا، ولم تسلم إلاّ المئذنة، ظلّتْ واقفةً شامخةً، تشهد لله بالوحدانية، وتحفظُ طُيوفَ الّذين اعتلوا قِمّتها كي يُرتّلوا النّداء الخالد فتتراقصُ له أمواجُ النّهر. وقفت المئذنة وسط الموت شاهدةً على أنّهم لم يقتلوا إلاّ الحجارة، وأنّ الأذان لا يموت، وأنّ الشّهادة لا تُغتال، وأنّ اسم الله لا يُمكن أنْ يُمسّ بسوء. لمْ تسلمْ حتّى المدارس، لا يريدون جيلاً يقرأ، يريدون جيلاً من الجَهَلة والفارغين، ولم تسلمْ مواقع الإسعاف الميدانيّة الّتي رصدوها من طائراتهم، ولم يسلم كذلك الموقع الّذي أقودُ المعركة منه، فجّره صاروخٌ يعرفُ هدفه، أُصيبَ إصابةً مُباشرة فتهدّم بالكامل، استُشهِدَ عددٌ من جنودي، دُفِنَ بعضُهم تحت الرّكام، لم يمهلني القصف أن أدفنهم ولا أنْ أقرأ الفاتحة

على أرواحهم الطّاهرة، تفجّر الثّأر في أعماقي، وأقسمتُ أنّني لن أخرجَ من هنا إلاّ منتصرًا أو شهيدًا، وهتفتُ في سرّي وأنا أنتقل إلى موقعٍ آخَر: «هذا يومٌ مشهودٌ يا الله... اللهمّ انصر أهل الحقّ على أهل الباطل»، وتابعتُ القِتال. ظلّوا حتّى السّاعة الحادية عشرة يقصفون البشر والحجر والشّجر، ويُصوّبون على كلّ ما يتحرّك حتّى لو كانَ قِطًّا يعبر الشّارع أو نملةً تبحثُ عن رزقها المقدور.

لم تشبع الطّائرات، ولم يتوقّف نَهَمُها من ابتلاع نيرانها كُلَّ شيءٍ في جوفِها، لكنّ القِتال كان قد تحوّل بعدَ ساعاتٍ إلى مواجهة، رجلاً لرجل. من الخنادق وجّه جنودُنا رشّاشاتهم إلى الطّائرات، كانوا يتفنّنون في إسقاطِها، ينتظرون الطّائرات الّتي تُحلّق على ارتِفاعٍ منخفضٍ حتّى تُصبح فوقَهم تمامًا ثُمّ يضغطون على الزّناد، ينفجر خَزّان الوقود، وتحترق الطّائرة، ويهبط الطّيّار في أحضانهم أو يحترق مع طائرته، كانت الشّمس منذ ساعاتٍ قد استعجلتْ شُرُوقَها كي تشهدَ الموقف، كانتْ كلّما صارتْ في عينِ جنودنا خفّفتْ من وَهَجِها كي يروا أهدافهم بسهولة، ويصوّبون فيُصِيبون، كانتْ تحنو عليهم كأنّهم أولادُها، كانت تُميّز بين أهل الأرضِ والدُّخَلاء؛ هل كانت الشّمسُ تُقاتِلُ معنا؟

إنّها حربُ شوارعٍ منذ السّاعة العاشرة صباحًا، أبلى الفِدائيّون فيها بلاءً حَسَنًا، كانوا يحملون القنابل، وينبطحون تحتَ الدّبّابات، ويفجّرونها فتقضي عليهم وتقضي على الدّبّابات وعلى مَنْ فيها، كانوا يهتفون كلّما واجهوا دبّابةً جديدةً كلمة السّرّ السّحريّة: «لن تمرّوا إلاّ على جُثثِنا». الفسفوريّ؛ هكذا كانوا يُلقّبونه، لا يعرفه الكثيرون، لكنْ يكفيه أنّ الله يعرفه، كان بطلاً في مواجهة الدّبّابات، أشعل ببطولته الحماسة في

نُفوسِنا جميعًا، وصنَعَ ما لم يصنعْه أحدٌ، انتظر الدّبّابة الإسرائيليّة على مدخل الكرامة، ركضَ نحوها لا يحمل إلاّ حزامًا مُتفجّرًا مخفيًا تحت ثيابه، كانتْ ذخيرته قد نفدت، وظنّه قائد الدّبّابة مجنونًا، وتساءل: «مَنْ هذا الأعزل الّذي سيواجه بلحمه الرّقيق أطنانًا من الحديد؟». لم تكن الدّبّابة لتقدر أنْ توجّه مدفعها الضّخم تُجاهه، سابقَ الزّمن، ليستلقي تحتها، ثُمّ يزحف على بطنه حتّى يصير في منتصفها، ثُمّ يفجّر نفسَه، فتصعدُ روحُه وتهبطُ روح السّفَلَة! هل كُنّا نعرفُ (الفسفوريّ) هذا؟ من أيّ البِلاد جاء هذا المُقاتل العنيد؟ مَنْ هم أهلُه؟ مَنْ يكون أبوه؟ بل مَنْ تكونُ أُمّه؟ مَنْ ربّاه على هذه العقيدة القِتاليّة الاستِشهاديّة؟ ومَنْ تكون الملائكة الّتي تعهّدَتْه؟ بل قولوا لي: مَنْ يكون هؤلاء النّفر من المُقاتلين المجهولين الّذين أطعموا لحومهم في ذلك اليوم للدّبّابات؟ وقدّموا أجسادهم دون أنْ يتردّدوا لحظة، أو يتلكّؤوا برهة؟ إنّه الدّم الواضح، وإنّه لينتصر على سيفِ الباطل مهما كان السّيفُ قاطِعًا!

أصدرتُ أوامري: «استخدموا المُكبّرات في أيدي الأئمّة ليصدحوا بـ: الله أكبر». وأعلنتُ: «لا تراجع لا استِسلام». وسرى النّداء في النّفوس فأوقدَ العَزم من جديد، واشتركَ المُزارِعون في حرب الشّوارع، وأحسّوا أنّهم يُدافِعون عن أرضِهم كأنّها أرواحهم، وكانت بالنّسبة لهم مسألة حياةٍ أو موت، وكان بعضُ المزارعين الّذين لم تتوافر لهم فرصة الحصول على بندقيّة، يهجم بفأسه، وكانوا عامِلاً مُساعِدًا في أنْ تميل الكفّة لصالحِنا، كانوا يُفجّرون رؤوس الصّهاينة بفؤوسهم وطُوريّاتهم، وبعضُهم كان يكمن لهم فوقَ الأشجار، ويقفز فوقه بجسده الأعزل، ويشدخ رؤوسهم بالحجارة. لقد كانتْ ملحمة. كان

كلّ شيءٍ يُقاتل، حتّى الأشجار والسّواقي والحجارة لم تقبل هذا الوجود الغريب لهذه الوجوه الكالحة، فقاتلتْ معنا بطريقتها الخاصّة.

ونفدت الذّخيرة من بعضِ الجنود، فكانوا يكمنون في مواقعهم حتّى إذا مرّت دبّابة من عندهم، قفزوا فوقها، وفتحوا مركز قيادتها، ودخلوا إلى حجرتها، وانهالوا بأيديهم وأسنانهم على ظهور الصّهاينة، كانوا يريدون أنْ يأكلوهم، أنْ يشربوا من دمهم، أنْ يثأروا لضحاياهم، وبعضُهم كان يدّخر القنبلة الأخيرة من أجل أنْ يقفز بها إلى تلك الحجرة ويُفجّرها بنفسه وبالصّهاينة، فيعطب الدّبّابة ويقتل مَنْ فيها، وتصعد روحُه إلى السّماء، كان جنود الدّبّابة من الصّهاينة قد ربطهم قادتُهم بحبالٍ من حديدٍ إلى قمرة القيادة حتّى لا يفرّوا، ساعدَنا ذلك أكثر في القضاء عليهم. لا يُمكن لشاعرٍ مُجيد ولا لناثرٍ بليغٍ أنْ يصف مشهد الدّبّابة وهي تنفجر مُحدِثةً دويًّا هائلاً، ثُمّ تلك القِطع من اللّحوم البشريّة الّتي تتناثر من قُمرتها، ثُمّ تلك الدّماء الحمراء الّتي تختلط بالسّواد، ثُمّ ألسنة اللّهب المتدافعة، ثُمّ تحترق الدّبّابة وتبقى في احتراقها ساعاتٍ والأدخنة تتصاعد منها في السّماء. كانتْ ألسنة اللّهب والدّخان، أعمدةً متراقصة في الفضاء تبدو كأنّ الأرضَ أصابتْها براكين في كلّ جزءٍ منها، وآثار تلك البراكين تتماوج في صعودها الأسطوريّ. وكانتْ رائحة الأجساد المحترقة تزكم الأنوف، كانت فوّهات دَبّابات الصّهاينة تُشير إلى غرب النّهر، تلك المعطوبة والسّليمة، لقد بدؤوا يفرّون كالفِئران!

في السّاعة العاشرة والنّصف طلبَ اليهود وقف إطلاق النّار. ووصل الأمر إلى القيادة العُليا، فاتّصلوا بي: «نحن نرى ذلك». وسألتُه:

«ماذا تعنون؟». فردّ: «لقد قاتلتُم كأبطال، ويُمكن أنْ نوقف النّار من الجهتَين». رددتُ: «ولكنّ الكفّة تميلُ لصالحنا». «صالِحُنا المُشترك أنْ نتوقّف من أجل ألاّ يموت مزيدٌ من الأبرياء».

أنهيتُ الاتّصال بالقيادة، نظَرَ غازي في عينَيّ، كان يسمع المكالمة، خشي أنْ نتوقّف، كان يبدو قَلِقًا هو الآخَر، أعرفُ هذا النّوع من القلق الّذي في عينَيه، إنّه مثل أنْ تتعبَ طوال النّهار خلفَ طريدةٍ وعندما تصير على بُعدِ أمتارٍ من الإمساكِ بها، تُطلق سراحَها. كانتْ نشوةُ النّصر في عينَيه طاغية، وفي عينَيّ كذلك، وفي عيون كلّ جنودنا المُدهِشين، كان وقف إطلاق النّار في وسط هذه النّشوة هو الخِيانة العُظمى، ليس فقط لأنّه سيُضيع أجمل انتِصارٍ يُمكن أنْ نظفر به في تاريخ حروبنا الطّويل مع الصّهاينة، بل لأنّه سيكون بمثابة صَكٍّ تنازلٍ رخيصٍ عن دماء الشّهداء الّذين ارتَقَوا حتّى هذه السّاعة في ملحمة بطوليّة أسطوريّة!! ابتسمتُ، وهززتُ كتفَيّ: «لن آمر بوقف إطلاق النّار». ابتسمَ بدوره، عرفَ معنى أنْ تكون مقاتِلاً حقيقيّا، ناكفَ قليلاً: «ولكنّها رغبة القيادة العُليا». زممتُ شفتَيّ: «ليس الأمرُ أغلى من قَسَمي، لن أعودَ إلاّ منتصرًا. نحن الّذين نوجعهم، ولولا ذلك لَمَا طلبوا وقف النّار». سألني: «وماذا ستعمل؟». أجبتُه: «أنا القائد في الميدان، نحن في معركةٍ مفتوحةٍ مع العدوّ، وعليّ أنْ أقاتل حينما أرى أنّ القتال هو الصّواب، لن أتلقّى أوامر من أحدٍ، أنا الآمر هنا، وهذه معركتي». «إنّك بهذا تتحدّى». «نعم، أنا أتحدّى. وما المعركة إنْ لم تكنْ تحدّيًا!! أنا مُقاتِل عنيدٌ ولستُ ناطورًا أتلقّى الأوامر، أنا الّذي أُصدر الأوامر هنا، وأنا آمر الآن أنْ يستمر القتال، سنقاتل حتّى نقتل أكبر عددٍ منهم، ونُعيد

هذه الفِئران إلى جحورها، هل تتوقّع منّي غير ذلك؟». «كلا، ولكنّ القيادة قد تتّصل بكَ مرّة أخرى». «سَهلة». «كيف؟». «سأقطع الاتّصال بها، وسأتحمّل تَبِعات قراري هذا، ولن أقول لجنودي ليست هناك أوامر بالضّرب، أنا أقول هناك أوامر، إنّها أوامري، وأنا الّذي آمركم أنْ تضربوا بكلّ قوّة». ورأيتُ عينَي غازي تلمعان بالسّرور، وقلتُ له: «لن نُبقِيَ إلاّ على اتّصالنا بالخالق، وعلى تلك الّتي تضمنُ سيرَ المعركة على أحسن وجه، أنا أعرفُ جنودي، وأنا أعرفُ أنّني سأنتصر، أنا أؤمن بهذه الأمّة، وهذه الأمّة لن تُهزَم». نَثَرَ آخر ما في جُعبته: «أُحسّ أنّكَ ستدفعُ ثمنَ هذه الكلمة غاليًا». أجبتُه: «ولْيكنْ؛ حياتي ليستْ أثمنَ من مبادئي».

***

(40)
لن تَمُرّوا

لا شيءَ يُشبه الحرب غير الحرب، ولا يعرفُ ما الحرب إلاّ مَنْ كان في الحرب، ولا يصلى بالنّار إلاّ مَنْ كانتْ يده في النّار، ولا يُمكن حتّى لو كنتَ في الحرب، ويدك في النّار أنْ تصفَ شعوركَ بالكلمات ولو أوتيت بلاغةَ الأولياء. كانتْ أعماقي تفور، كلّ شيءٍ فِيّ يضطرب، عوالم من رؤًى وأحلام وخيالات تتلاطم في روحي، جنونٌ أنْ يكون المرءُ عاقِلاً في ظرفٍ كهذا. ليس بإمكاني أنْ أهدَأ، وكان عليّ مع كلّ ذلك أنْ أبدو هادِئًا أمام جنودي، أمام قادة الألوية الّذين أقود معهم المعركة، كنتُ كالبحر يُرى هادِئًا وفي أعماقه تثور البراكين، كيفَ يُمكن أنْ تسير الأمور من بعدُ؟ لقد انتصفَ النّهار، وما زِلنا نُقاتل بضراوةٍ كأنّها السّاعة الأولى، كأنّه الفجر الأوّل، والطّعن الأوّل، والعشق الأوّل، إنّهم ينفّذون ما قلتُه الليلة الفائتة: «لا أحدَ يملك حَقّ إنهاء هذه المعركة سِواي». أمّا أعدائي فعليهم أنْ يبولوا في سراويلهم قبل أنْ يحلموا بلحظةٍ كهذه، إلاّ إذا استسلموا، أو عادوا إلى جحورهم.

وأطلقنا النّداء، حينَ تعب الزّناد، وتعب الرّصاص، وتعب الشّجر، وأشفق الحجر، ولكنّنا لم نتعب، ولا يجوز لجنديّ يعرفُ حقّ الله في وطنه أنْ يتعب، على الأقلّ طوال هذا اليوم، اليوم الفرقان، اليوم المشهود، اليوم الّذي سيكون له ما بَعده. ومن تحت الرّكام وعلى

أصوات القصف، ومن بين أزيز الطّائرات رُحنا نهتف، ونُعلن: «لا صوتَ يعلو فوقَ صوت البندقيّة، لا صوتَ يعلو فوقَ صوت الكرامة، لا صوتَ يعلو فوقَ صوت المعركة. لا صوتَ يعلو فوقَ صوتِ الحقّ... ولن تمرّوا».

«إنّها حربُ عصابات». «فلْتكنْ». «العصابات المُرتزقة الّذين جاؤوا من خلفِ البِحار إلى أوطاننا، ونهبوها نهبًا لا يليق بهم إلاّ هذا النّوع من الحروب». وراحَ جنودُنا يسمعون الشّجر، ويسمعون النّهر، ويسمعون الهواء، ويسمعون التّراب، وهو يُناديهم: «هذا يهوديّ تحتي أو خلفي تعالَ فاقتُله». وطلعْنا لهم من بين سُحُبِ الدّخان، ومن تحت الرّكام، والقنابل المتفجّرة، والصّواريخ القاذفة، والطّائرات الصّارخة، طلعْنا من الموت كأنّنا العنقاء، فانخلعتْ قلوبهم، هل يرجع شُهداؤنا من الموت فيُحارِبون مرّةً ثانية؟! هل تقف جُثثنا المُتفحّمة على أقدامِها فتُقاتل من جديد؟ لقد دبّ الرّعبُ فيهم، ورأى بعضُهم جنودَنا يقفزون إلى مَنْ فرّ منهم، فيُثبّتونه في الأرض، ويأكلونه بأسنانهم، فصرخوا: «إنّ هؤلاء العرب آكِلوا لُحُوم البشر». ومَنْ مَكّنَ لأعدائِنا يا تُرى، ومَنْ سَلّمَ لهم، ورَضِيَ بخنجرهم أنْ يغوصَ في أكبادِنا؟! ألا إنّه يومُ الثّأر، ألا إنّه لا تسامح، ولا نسيان، ولا تراجع، ولا نكوص، ولا هَرَب، ولا استقرار حتّى نراهم أذلّة صاغرين، ويشفيَ الله صُدورَ قومٍ مؤمنين. لقد كُنّا نصنع التّاريخ، وكان التّاريخ يكتُبُ ما يرى، وها نحنُ نُقسِمُ أنّ التّاريخَ لن يرى مِنّا ولن يكتبَ عنّا إلاّ ما يُرضي الله.

كانت الدّبّابات تتّجه نحونا جنوبًا، والمروحيّات تقذف بالمظلّيين فوقَنا كأنّهم لعناتٌ تتنزّل علينا، وكانوا يهبطون بعيدًا عنّا، وكانت

الطّوافات تغيبُ خلفَ الجبال بعدَ أنْ تُنزِلَ مُقاتليها، ثُمّ تظهر ثانيةً، ولم نكنْ نعرفُ على وجه الدّقّة ما إذا كانت هذه طوّافات جديدة، أم أنّها الطّوافات السّابقة نفسُها تُحمّل جنودًا آخرين وتأتي بهم إلينا، لكنّ السّماء كانتْ مُغطّاة بالطّوافات، وكان الجنود يقفزون منها كُتَلاً من الشّرائط الثّقيلة تهوي بسرعة، حتّى إذا اقتربوا من الأرض وانفتحت المظلّة الّتي على ظهر كلّ واحدٍ صار هبوطه بطيئًا ومُتماوِجًا، وفي تلك الأثناء كان الأفق مُغطّى بأولئك المظلّيين، وكانوا بالآلاف، وكانتْ هيئتهم تُوحي بأنّ طُيُوفًا من الرّسل تهبطُ من السّماء، ولكنّهم كانوا شياطينها، وفي لحظةٍ فارقة أصبحْنا مُطوّقين بأكثر من خمسة عشر ألفَ جنديّ من هؤلاء يُحاصِرون بلدة الكرامة، وخطوط القتال على امتدادٍ يزيد عن خمسة كيلومترات، وكُنّا نقصفهم بالمدفعيّة أحيانًا، وبالرّشّاشات المُضادّة للطّائرات، وبقذائف الهاون، لكنّ عتادَنا قليلاً، وبدؤوا يتسلّلون باتّجاهنا، وأدركْنا أنَّ هذا الشّريط الممتدّ هذه المسافة مُطوّق بالكامل، ورأينا عددًا من بدو جنوب فلسطين قد وصلوا إلينا بعدَ ظُهرِ ذلك اليوم، وكانوا قد خرجوا منذ الفجر بعد أنْ عَلِموا بنشوب الحرب، وكانوا يركبون الجِمال، ويتسلّحون بالبنادق الإنجليزيّة القديمة الّتي استُخدمت في حرب عام 1948م، ومع أنّهم لم يكونوا بِأعدادهم القليلة لترجح بهم كفّة الحرب أمام عشرات الآلاف من الصّهاينة، إلاّ أنّهم بَعَثوا فينا روحًا جديدة، وأحيَوا ما ماتَ أو نام من عزيمتنا، والتقيتُ بهم، وأخبروني عن تقدّم أرتالٍ جديدةٍ من الدّبّابات باتّجاهنا، كانت أعدادُ الدّبّابات لا تنتهي، وكان شهداؤنا يُضحّون بأنفسهم تحت جنازيرها، وقد استحرّ فينا القتل، وبدأنا ننقص، لكنّ الله

يبعثُ مَنْ يُساندك على هيئة هؤلاء، وقال أحدهم، وهو يُلوّح بيدَيه فوق رأسه بطريقةٍ دائريّة، وكان يعني الطّوافات الإسرائيليّة: «إنّهم قادمون». ولم يمضِ ذلك اليوم حتّى كان هؤلاء البدو قد استُشهِدوا جميعًا!

وصارت الطّائرات تطير على ارتفاعٍ منخفض، وتذكّرتُ ما فعلوا بنا في الحرب الأخيرة، وأقسمتُ وأنا في قِمّة غيظي: «لن تمرّوا». وأمرتُ عبر اللاسلكي كلّ الرّاجمات بأنْ تُصوّب ذخيرتها نحو الطّائرات دون توقّفٍ أبدًا. وساندَتْنا بعض البنادق الّتي بأيدي جنودنا المنزرعين في الخنادق، كانوا إذا توقّفتْ صواريخ الطّائرات، صوّبوا إلى بطونها، واستمرّت الطّوافات تُنزل المظلّيين خلفَنا، والدّبابات أمامنا، والطّائرات فوقَنا، أحاطوا بنا من كلّ الجهات، ووقفْنا أمام الموت الفاغر فاه، وأدركْنا أنّهم لو صَبُّوا نيرانَهم علينا، فسننتهي في أقلّ من ساعتَين. وتذكّرتُ أنّهم طلبوا وقفَ إطلاق النّار، وداخَلَني شيءٌ من النّدم لأنّني كنتُ عنيدًا ورفضتُ، وشددتُ على أسناني، ونظرتُ إلى غازي، وخطر ببالي بيتُ بشّار:

ولا بُدَّ من شَكْوَى إِلى ذي مُروءَةٍ

يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّعُ

ولكنّني كظمتُ ما أُخفي، ورأى غازي ذلك في عينَيّ، فأرادَ أنْ يقول شيئًا لِيُشجّعني، ولكنّ الموقفَ كان أكبر من القول، ولم يتمكّن من أنْ يَفُوه بكلمة. وفجأةً دوّى عبر اللاسلكيّ في الخطّ المتّصل بي مُباشرةً صوتٌ أعرفه، صوتٌ لا يُمكن أنْ تُخطِئه أذني، إنّني أستطيع أنْ أميّز صوتًا عاديًّا سمعتُه من بين عشرات الآلاف من الأصوات فكيفَ إذا كان عميقًا وواثِقًا مثل هذا؟ واستغربتُ أنْ يكون هو، لا لشكّي في

الصّوتِ نفسِه، بل لشَكّي في الكلام الّذي يقوله، كان يهتفُ بصوتٍ راعفٍ لكنّه ثابت: «إلى واحد- واحد... الهدف موقعي، ارمِ... ارم موقعي...». ثُمّ استغرقَ الأمر منّي بضع ثوانٍ لأستوعبَ أنّه يريدُ منّا أنْ نقصفه، قبل أنْ يُوقِظني غازي: «لقد أحاطَ به عددٌ كبيرٌ من الصّهاينة، وإنّه يريدُ أنْ نقصفه لكي يتمكّن باستشهاده من قتلهم جميعًا». وصدحَ صوتُه للمرّة الثّانية، ليُزيلَ كلّ شَكّ، ولكي يُؤكّد أنّه مُقدِمٌ على ذلك دون تردّد، وأنّه لا ينفع هنا لا التّحليل ولا المراجعة ولا التّقويم: « إلى واحد- واحد... الهدف موقعي، ارمِ... أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله، وأشهدُ أنّ محمّدًا رسول الله... ارمِ... ارمِ... انتهى...».

ونظر إليّ غازي، ونظرتُ إليه، وكانتْ عيناه تقولان لي: «هل نفعلها؟». وصمتُّ، واستعدتُ صورتَه، ورأيتُ إلى جانبه جَدّي وخالي نائل، فأدركتُ أنّهما يدعوانه إليه، وأنّه عَلَيّ أنْ أُجيبَه إلى ما يريد، فأومأتُ برأسي موافِقًا، وانطلقتْ إليه قذيفتُنا، رصاصُنا، لا ليقتله ويُنهي حياته، بل لينقله إلى الأحياء الّذين لا يموتون، وليبدأ حَيَاتَه برصاصنا. نعم بَرّ بقَسَمه ألا يسمح لهؤلاء الصّهاينة بالمرور إلاّ على جثّته يومَ حضَرَ قسَمَنا من قبلُ، وتطايرتْ جُثث الصّهاينة، وتحوّلوا إلى أشلاء، وتحوّل الملازم خضر معهم إلى شتيت، كان ما استطعنا الحصول عليه منه، نصفَه الأعلى، مقسومًا من شقّه الأيمن، وقلتُ لهم: «ائتوا بأشلائه إليّ هنا، أريدُ أنْ أقبّله قبلة الوداع الأخيرة، أريدُ أنْ أهمسَ في أذنَيه بكلماتٍ لا أستطيع أنْ أقولَها لِسواه، أريدُ أنْ أقول له كيفَ وجدَ خالي نائل... كانَ أشلاءَ مُغطّاة بالدّم، رأسُه مُعفّر، ونصفُ وجهه قد طار. وفي موقعنا المُتقدّم، دفنّاه، طبعتُ على جبينه قبلةً حرّى، وبكيتُ،

سالتْ دمعتي حتّى اختلطتْ بالتّراب الّذي على جبهته أو ما تبقّى منها، ولّما أردْنا أنْ نواريه الثّرى أحسستُ أنّ الأرض قد أخذتْه بأحضانِها، وفتحتْ له قلبَها، وأنّ رائحةَ مسكٍ غريبةٍ من وسط نَقْع المعركة الخانق تفوح في الأجواء، وأنّه لّما نزلَ إلى القبر تبسّم، وكانتْ عينه المتبقيّة مُسبلةً، وأحسستُ أنّها تتحرّك؛ هل رأى شيئًا؟ وأنّ شفتَه فد افترّت لتُكمِل ما نقص؛ فهل ألقَى السّلامَ على أحد؟ وتذكّرتُ بيت أبي تمّام:

مَضَى طاهِرَ الأثوابِ لَمْ تبقَ رَوْضَةٌ

غَداةَ ثَوى إلاّ اشْتهَتْ أنّها قَبْرُ

أكُنّا مُحتاجين إلى صوتِه النّبويّ هذا من أجل أنْ نطير إلى المعركة كأنّنا نبدأ من جديد؟! أكُنّا محتاجين إلى شهادته من أجل أنْ نستصغر كلّ شيءٍ، ونُقدِمَ على الموت فيكون في فمنا ألذّ من العسل؟ هل كانتْ صرختُه هي الّتي أنقذتْنا من الانهِيار، ومن القَبول بالدّنيّة، وعضّ الأصابع. وانطلقْنا.

وكان بعضُ الفدائيّين في المُغُر، يتمركزون في فوهاتها يصيدون كلّ طائرٍ أو ماشٍ أو زاحفٍ من العدوّ، ولّما أطبقتْ علينا الطّيّارات، تساءلنا هل ننتظر هذه الطّائرات الّتي ترانا حتّى تفجّرنا داخل مُغُرنا، أم نخرج لنواجِهها فتسفّنا حبّ خمخم؟ وهل الشّهادة هنا تختلفُ عن الشّهادةِ هناك؟ لكنّنا كُنّا مُحتاجين إلى مُقاتلينا، كان يُمكن أنْ يكون عددُ الشّهداء بالخروج أكبر مِمّا لو بقينا حتّى يهدأ جنون الطّائرات قليلاً، وهذا ما حدثَ فِعلاً، انتظرْنا حتّى خفّ قصفُ الطّائرات، وخرجْنا بعد أنْ رتّبْنا أنفسنا إلى مجموعات استشهاديّة، وهمسْنا بيقين: «علينا اليوم أنْ ننتصر بأيّة وسيلة».

كانت الشّمس قد قاربت الزّوال، إنّها ترحل، هل يرحل معها هؤلاء الصّهاينة، إنّنا لن ننتظر حتّى يرحلوا، سنمزّقهم فوقَ أرضِنا، وسنغنم ما يتركونه وهم فارّون من سِلاحهم؟ إنّهم بالفعل قد بدؤوا بالانسِحاب! هل صدرتْ إليهم الأوامر من دايان بالانسِحاب؟ إنّني أعرفُ دايان أكثر منهم، إنّه عنيد، كلبُ حراسةٍ شَرِس؛ لن يأمر بالانسِحاب، صرختُ بصوتٍ عالٍ عبر اللاسلكي إلى جميع وحدات الاتّصال كمن يريدُ أنْ يحذّر من كارثة: «إنّها خُدعة. إنّهم لا ينسحبون. إنّه انسِحابٌ تكتيكيّ وسيعودون، لا تسمحوا لهم بالتّنفس، طاردوهم إلى أبعدِ نقطة. واقتلوا منهم ما استطعتم». وهنا قاتلتْ معنا الجسور المخفيّة الّتي أعددْناها، أطال الجنود أمدَ الحِبال الّتي تربطها بالأرض، فارتفعتِ الأخشاب حتّى طفتْ على سطح الماء، وثُبّتتْ آنيًا، ثُمّ رحنا نتسلّل عبرَها إلى عمق مواقعهم، ونرميهم في ظهورهم. كانوا ينسحبون بالمئات، بالآلاف، بدا منظرهم فئرانًا مذعورة، كان منظرًا لا يُمكن أنْ يُنسَى، سيظلّ في ذاكرتي طويلاً، من موقعي هنا المرتفع كنتُ أشاهدُهم وهم يهربون جماعاتٍ كأنّها زبدُ ماءٍ في لحظة مَدّ طويلة، كانوا يفرّون ويتركون خلفهم آليّاتهم العسكريّة؛ بنادقهم، عَرَباتهم، دبّاباتهم، وقنابل تناثرتْ على الأرض كأنّها حَبُّ فلفلٍ، وعتادًا لم نحلم به، وكانتْ من خلال أفواجهم الهاربة تتصاعدُ أعمدة الدّخان من الآليّات المُحترقة، لم يبدُ أنّه انسِحابٌ تكتيكيّ، كان انسحابًا حقيقيًّا كامِلاً، وكانت الشّمس قد غربت، وفي عَينها كانوا يُلقون بأنفسهم هاربين، ولم أسمح لجنودي بإلقاء السّلاح، وذكّرتُ القادة: «لن يُنهي هذه المعركة سِواي». وأمرتُهم بأنْ يُتابِعوا القتال، ويلاحِقوا فلول العدوّ في كلّ مكانٍ، وفي السّاعة

الثّامنة والنّصف مساءً كانَ آخر ما تبقّى من طيرانهم يقصفُ بلدة (عيرا) قصفًا بدا أنّه يائسٌ قبل الفِرار الأخير. وانجلى غُبار المعركة في التّاسعة، وكان بيننا وبين التّسليم في وسطِ هذه المعركة لحظاتٍ، لولا أنّنا صبرنا عليها، وصدَقَ مَنْ قال: «إنّما النّصر صَبْرُ ساعة». وبدأ جيشُنا والفدائيّون يعيشون حلاوة النّصر، وشربْنا الشّاي في مرتفعات السّلط الّتي كان دايان ينوي أنْ يشرب فوقَها الشّاي مع الصّحفيين، وكان له طعمٌ مختلفٌ هذه المرّة، إنّه بنكهة النّصر والفوز!

وطلبتُ أنْ يحمّسوا القهوة العربيّة، ودارت النّار وشَبّتْ، وفاحتْ رائحة البنّ والهال، وغنّى الأبطال أغنيات المجد، ورقصتْ من بعيد مياه النّهر، وضحكتْ قمم الجِبال، ورسمَت السّماء لونَها الأرجوانيّ البديع، وكان كلّ شيءٍ من حولنا يُحيّي أبطالَنا، كان الشّجر يقف لهم إجلالاً، والحجر يبدؤهم السّلام كلّما مرّوا من جانبه، والرّيح تعزفُ لحنًا شجيًّا، والنّسمات تُقبّل مِنّا الأرواح.

ذهبَ إلى الجحيم أكثر من (1200) قتيلاً وجريحًا بمن فيهم قادةٌ كِبار من الصّهاينة، وأكثر من (200) دبّابة وناقِلة ومجنزرة، وارتقى مِنّا إلى الخلود ما يقرب عن (180) شهيدًا بإذن الله، وفقدْنا (24) دبّابةً وناقلةً للجنود.

كان شُهداؤنا قد واجهوا الموتَ مُقبِلين غيرَ مُدبِرين، أصابعهم ما زالتْ وقد رحلتْ أرواحهم تضغطُ على الزّناد كأنّها تتأهّب لولا الموتُ لجولةٍ جديدةٍ من الطّعن، وصدورهم تحتضن بنادقهم كأنّهم لولا الموت يغارون عليها أنْ يتركوها في ساحة المعركة عاريةً وحيدة، غطّى الدّم وجوههم وصُدورهم، وعفّر التّراب رؤوسهم لكنّهم مع ذلك كانوا

يبتسمون، لم أرَ وجهًا واحِدًا منهم - وأنا أتفقّد الموقع بعد انتهاء المعركة - عابِسًا، كانوا جميعًا صِباح الوجوه، ابتِساماتهم تقول أشياء كثيرة، لا يعرفها إلاّ مَنْ عايَنَها، كانتْ تقول: ما أقصَر حياة الفانية، وما أعظَمَ حياةَ الباقية! كانت ابتِساماتهم تهزأ بهذه الدّنيا ومتاعها، كانت ابتِسامتهم تُرحّب بالنّعيم الّذي يلوح لهم من خلفِ ظهر الموت، لقد كانَ الموتُ قاسِيًا، نعم، ولكنّه كان عليهم أنْ يتخطّوا حاجزه ليصلوا إلى الضّفّة الأخرى حيثُ النّعيم المُقيم، حيثُ ينتظرهم مَنْ سبقَهم من الشّهداء، ينادونهم أنْ أقبِلوا ولا تتأخّروا، فإنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى!

لقد فقدتْ إسرائيل في هجومها الأخير على الأردنّ آليّاتٍ عسكريّةً تعادل ثلاثة أضعاف ما فقدتْه في حرب حزيران عام 1967م. وقال (بارليف) رئيس الأركان الإسرائيليّ: «اعتاد شعبنا على رؤية قوّاته العسكريّة وهي تخرج مُنتصرةً من كل معركة أما معركة الكرامة فقد كانت فريدة من نوعها بسبب كثرة عدد الإصابات بين قوّاتنا والظواهر الأخرى التي أسفرت عنها المعركة، مثل استيلاء القوّات الأردنيّة على عددٍ من دبّاباتنا وآليّاتنا، وهذا هو السّبب في حالة الدّهشة التي أصابتْ شعبَنا».

وقال المُقدَّم (هارون بيلد) قائد مجموعة القتال الإسرائيلية: «لقد شاهدتُ قصفًا شديدًا عدّة مرّاتٍ في حياتي لكنني لم أرَ شيئًا كهذا من قبل؛ لقد أُصيبت كلّ دبّاباتي في العمليّة ما عدا اثنتين فقط».

وقُلْنا نحن القادة، والجنود، والّذين كانوا يصنعون لنا الشّاي: «لقد نسفْنا أسطورة الجيش الّذي لا يُقهَر، وقهرْناه حتّى عادَ إلى مواقعه يتلمّس أقفِيته، لا يكاد يُصدّق ما جرى له».

ما الّذي فعلْناه في الكرامة، هل كُنّا نمتلك سلاحًا متطوّرًا؟ لا؛ كانت أسلحتنا متواضعة. هل كانتْ أعدادُنا أكثر من أعدادهم؟ لا؛ لقد كانوا خمسة أضعافِنا. هل كان لدينا سِلاح طيران؟ لا؛ لم تكنْ لدينا طائرة واحدة لتطير في سمائنا. ولو كان لديّ طَيَران أو غِطاءٌ جويٌّ، لعبرتُ بدبّاباتي إلى فلسطين حتّى أصل إلى القُدس. إذًا ما الّذي قلبَ المعادلة، وجعلنا ننتصر في تلك المعركة؟ ما الّذي آمنَ به الجُنديّ العربيّ الّذي خرجَ من هزيمتَين نكراوَين في 1948م، و 1967م فجعله يُقبِل على هذه المعركة كأنّها معركته الأخيرة يريدُ أنْ يخرج منها مُنتصِرًا؟ ربّما هناك ألفُ سببٍ لكلّ المُحلّلين الإستراتيجيّين يُمكن أنْ يُفسّروا به انتصارَنا في ذلك اليوم المشهود، ولكنْ لم يكنْ لديّ أعظَم من هذا السّبب؛ إنّه الإرادةُ الحُرّة؛ لو تحرّرتْ إرادتنا لما انتصرَ علينا عدُوُّنا!

وكان علينا أنْ نستثمر هذا النّصر، وأنْ نُعِدّ جِيلاً يؤمن بأمّته وبانتِصارها، وألاّ نركنَ إلى ما حققْناه هنا، فتفتر هِممُنا، وتكلّ عزائمنا، ولا نمضي إلى ما نريدُ، وكنتُ أخشى ألاّ يتكرّر ما صنعْناه في الكرامة، وأنْ يكون ذلك النّصر هو آخرَ نصرٍ يتحقّق على العدوّ الصّهيونيّ!!

***

(41)
الثّباتُ على النّصرأصْعَبُ مِنَ النّصر!!

تحوّل دايان بعدَ هزيمته في الكرامة إلى جامع آثار، أو بعبارة أدقّ: سارق آثار. ونكّس ليفي أشكول رئيس الوزراء رأسَه، وكانتْ تلك فرصةً سانِحة لكي تتبوأ غولداماثير كرسيّه في إدارة دفّة الدّولة؛ هل تعرفُ النّساء كيفَ يُدِرْنَ البيت الكبير؟!

أمّا عندنا في الأردنّ، فعلى عادتنا نحن العرب في تحطيم بعضِنا بعضًا، وفي حسدنا الّذي ينمو مثل الفِطريّات على جلودنا، وفي دسائسنا الّتي نكيدُها لبَعضنا، لم تجد الكرامة ذلك الصّدى، أو لم أجدْ أنا ذلك التّقدير، وبدأتْ دائرةٌ من التّشكيك، ولربّما التّخوين، تضيقُ حولي!! لماذا يُمكن أنْ يحدثَ هذا؟ لأنّنا نحن العرب في عصر الهزائم الماحقة الّتي مُنِينا بها قد أُريدَ لنا أنْ تظلّ رؤوسنا في الرّمال، وألاّ يكونَ لنا أبطالُنا، ولا نماذجنا الّتي يُمكن أنْ نُحدّث عنها أجيالَنا. كم من نموذجٍ في معركة الكرامة، بل في المعارك كلّها الّتي سبقتْها في فلسطين يُمكن أنْ يُقدَّم بطلاً يَحتذِي به نَشْؤُنا الصّغار، ونضعه أمامهم بكلّ هالته وعَظَمته، من أجل أنْ يكونَ دافِعًا لمزيدٍ من البطولة، ومزيدٍ من الأبطال، إلاّ أنّ الواقع أنّه لا أحدَ يعرفُ عن هؤلاء شيئًا. ولم يسمعْ بهم في حياته، ولنْ يسمع! هل جاء هذا عفو الخاطر؟! كلا. إنّه مقصود؛ نحن يا سادة نغتال أبطالَنا؛ نُخوِّنهم، نُلطّخ صفحاتهم البيضاء بالسّواد، أو نُهملهم،

أو نضرب عنهم الذِّكْرَ صَفْحًا. يا سادة؛ إنّ الوطنَ الّذي يُنسَى أبطالُه يموتُ مُبكّرًا، وهل ذاكرة الوطن إلاّ ذاكرةُ أبطالِه؟!

صانِعو التّاريخ هُم حُرّاسه، وحُرّاسه يكتبون صفحاته، ولو أنّ السُّلطةَ وُكِلَ إليها حِراسة التّاريخ لفعلتِ الأعاجيب؛ إنّها ستُشوّه كلّ مجدٍ حقيقيّ وبطولةٍ ناصِعة وأبطالٍ حقيقيّين، لتستبدل بِها أقزامًا مُزيّفين، تنفخ فيهم بُوقَها، ثُمّ تنفخ، ثُمّ تنفخ، ولكنّها مهما نفختْ فإنّما تنفخ في رماد. وإنّهم مهما كَبُر حجمهم فليسوا أكثر من طبولٍ جوفاء.

كان الإهمال المُتعمّد لما حَقّقه الجنود الأبطال في تلك المعركة واضِحًا. طلبوا منّي أنْ أصبح وزيرًا للدّاخليّة؛ ففهمتُ أنّهم يريدون إبعادي عن العسكريّة، العسكريّة الّتي نشاتُ معها، ونشأتْ معي. رفضتُ المنصب، وقلت: «أنا مُقاتل، ولستُ مُحافِظًا. وُلِدتُ فوقَ ظهور الخيل، ونشأتُ في حضن المعركة، ويُطربني صوتُ الرّصاص، وغُبار الحرب أطيبُ عندي من ريح المسك، ولا يُمكن أنْ أتحوّل إلى رجلٍ يجلس خلفَ مكتبٍ أنيق يلبس ربطة عنقٍ فارهة، جُلّ ما يقوم به هو توقيع أوراقٍ وحضور مؤتمرات». رفضتُ، فلم يكترثوا، فاعتزلتُ، كان عَلَيّ أنْ أبتعدَ عن دهاليز السّياسة العَفِنة. لكنْ كيفَ يُمكن أنْ يرتاح جوادٌ روحه مُعلّقة بالقِتال، وتذكّرتُ جدّي أبا الطّيب حين قال:

ومـــا في طِبّهِ أنّي جَوادٌ

أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجِمامِ

تَعوّدَ أنْ يُغبّرَ في السّرايا

وَيَدْخُلَ مِنْ قَتامٍ في قَتــامِ

وعدتُ إلى يُسرى، وإلى النّخلات الأربع. كان البيتُ استراحة المُحارِب، المحارب الّذي لا يستريح إلاّ في النَّقْع، النَّقْع الّذي أصبحَ بعيدًا، ويبدو أنّه لن يعودَ مرّة أخرى، فواحسرتاه!

ووُلِدَ لي بعد الكرامة قمرٌ جديدٌ يُضاف إلى الأقمار السّتّة الّتي ملأتْ قلبي رغم كلّ هذا الأسى بالعطر، وُلِدَ (عُمر)، وسمّيتُه يومَ هلّ علينا بذلك كي يكون مثلَ جدّه نموذجًا في العدل والحريّة والجهاد والقُوّة.

كنتُ حالِمًا، كائنًا من حلم، يحلم بالوحدة العربيّة من المحيط إلى الخليج، وبالأمّة الإسلاميّة تقودُ العالَمَ إلى حضارةٍ تُوازِن بين العلم والرّوح، ولا تُغلّبُ أحدَهما على الآخَر، ولذلكَ أتيتُ بنخلةٍ من العراق بلد النّخل الأوّل، وجلبتُ نخلةً من المغرب حيثُ عَبَر صقرُ قريش وغرسَ نخلته خلفَ البحار، وقال لها وهو ينظر إليها من شُرفة قصره في الأندلس:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرُّصافةِ نَخْــلَةٌ
تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلتُ شَبِيْهِي في التَّغرُّب والنَّوى
وطُولِ التَّنائي عَنْ بَنِيَّ وعَنْ أَهْــلِي
نَشَأْتِ بِأرضٍ أنتِ فيها غَرِيْبَــةٌ
فَمِثْلُكِ في الإقْصاءِ والمُنْتــأى مِثْلي

هل كنتُ أنا تلك النّخلة؟ هل كنتُ غريبًا في أرضٍ مُبارَكة؟ أمْ أنّ النّخل في بلاد العرب صار غريبًا لأنّهم هوّدوه وصَهْيَنوه وأرغموه على أنْ يتنكّر لتاريخه العتيق؟ كانت النّخلة الثّالثة قد جلبْتُها من أرضِ المعركة، من أطرافها، من (وادي عَرَبة)، حيثُ دوّى هنا رصاصُنا،

وصدحتْ حناجر مُقاتِلينا بـ: «(الله أكبر) وهم يُطارِدون فلول الصّهاينة الفارّين بعدَ طولِ طِعان. وكَانت النّخلة الرّابعة قد جلبْتُها من الحجاز، حيثُ انطلق النّداء النّبويّ الطّاهر في عهد الشّرك فأزال الأصنام، وأعاد لتلك الدّيار وجهها الحقيقيّ، وجه التّوحيد الّذي هبطَ به إبراهيم عليه الصّلاة السّلام إلى تلك الجَنَبات.

أربعُ نخلاتٍ إذًا؛ هي حلم الوَحدة، الوحدة الّتي تبدو قدرًا غامِضًا يصعبُ نَيْلُه. في زوايا حديقة البيت الأربع كانتْ تقفُ نخلاتي العزيزات، وكان شموخهنّ يُشعرني بشموخ ذلك المُقاتل الّذي أبى أنْ يُخلِيَ مكانه في القِتال ولو كان من دون ذلك روحُه، هل يعرفُ النّخل الانكِسار؟ ماذا لو عبثوا به؟ ماذا لو مرّغوا سَعفه في الطّين، ولطّخوا قلبه في الوَحل؟ أليسَ للنّخل روحٌ كروحنا؟ أليسَ له إحساسٌ كإحساسِنا؟ فلماذا رَضِينا بالهوان، وأبى هو إلاّ أنْ يظلّ عزيزًا؟

في اللّيل، في البرد الشّديد، في المطر الهاطل، كنت أقف بين هاته النّخلات؛ أحادِثُها وتُحادثني: يومًا ما سيكون لنا شأنُنا. يومًا ما سنستعيدُ دورَنا، ويومًا ما سيعترفُ بفضلنا الأباعد إنْ لم يعترف به الأداني!

أقرأ في عُزلتي، لقد كشفَ الكتاب لي العالَم، وجهه المُنافق أحيانًا، وأولئك الّذين يدّعون شرفًا هم منه بَراء، عُزلتي تعني أنّني أربأ بنفسي عن هذا السّباق المحموم إلى الكراسيّ عن طريق الدّسائس والمؤامرات؛ وهل الكراسيّ تصنع الأمجاد؟ كلا. إنّها تصنع المنافقين، تُقدّم أبطالاً دونكيشوتيّين، وأنبياء كَذَبة، وحُرّاسًا لا يحملون في أيديهم إلاّ سيوفًا من خشب!

أحضرتُ شجرةَ زيتونٍ روميّة من جرش، غرسْتُها في حديقتي، كان

جِذعُها غليظًا، به شقوقٌ كتلك الشّقوق الّتي اختبأ فيها النّبيّ زكريّا قبل أنْ يدلّ الشّيطانُ اليهودَ عليه لينشروه بالمِنشار هو وجِذعها؛ من قديم يُهلِكُ اليهودَ الحرث والنّسل، من قديمِ هم أعداء الشّجَر والحجر والبشر، من قديمٍ يتقنون الموت، ويعشقون الفَناء، ونحن نُتقنُ الحياة، ونعشقُ الخير. كانتَ الزّيتونة ذاتُها الّتي استظلّ بها عمر بن الخطّاب في رِحلته الخالدة إلى الأرض المُقدّسة، ذاتُها الّتي استراح تحتَها أبو عبيدة استراحة المُحارب في فتوح الشّام، ذات الزّيتونة الّتي غمّسَ بزيتِها شرحبيل بن حسنة لُقمته، وعمّد به حجارة روما وحضارتها الغارِبة، لقد قال لي جِذعها المُوغِل في التّاريخ الكثير، قال لي: «لقد حرّرَتْني من الظُّلم كلمة التّوحيد، وعُهدة عُمر، وسيفُ عليّ، وفَتْكةُ ابن الوليد، وروحُ ابن عوف، وعقلُ ابن العاص، ودَهاءُ معاوية، ورايات الفاتحين».

هل عَلَيّ أنْ أُحادث الشّجر بدلاً من البشر؟ هل عَلَيّ في عُزلتي أنْ أخلو مع هذه الأرواح الّتي تعرفُ معنى الصّدق والحقّ أكثر من البشر؟ ما عَلَيّ إنْ فعلتُ؟ وهل على الرّوح المُتعبة من تثريب إنْ خلتْ إلى مثل هؤلاء الصّادقين المُخلِصين، فناجتْهم، وحاولتْ أنْ تنهضَ من رمادِها وانكِسارها ورَهَقِها؟!

أمّا دالية العنب الّتي ترونَها في ذلك الطّرف الوارف فمن الخليل؛ الخليل الّتي ما زالَ عِنبها إلى اليوم يُسقَى بدماء الشّهداء بدلاً من الماء، وتُتلى عليه صَلَواتُ الأنبياء بدلاً من تمتمات الهُراء، ولذا لا يُمكن أنْ تجدَ عِنبًا يُشبهه ولو طُفتَ كلّ أرجاء العالَم، لأنّ العالَمَ - إلاّ مَنْ رَحِمَ الله - كاذبٌ ومُراوِغٌ ومتمرّسٌ في الخِداع، ويستتر خلفَ وجهه الكالح بألفِ قِناع!

لم يَغُرّني نصر الكرامة، وإنْ غَرَّ آخرين، لكنّني كنتُ أريدُ لهذه الرّوح المقاوِمة أنْ تنداح في روح الشّباب العربيّ الفتيّ. لم يغرّني النّصر؛ لأنّني أعرفُ أنّ الثّبات على النّصر أصعبُ من النّصر، وأنّ الإبقاء على روحه متجدّدةً يحتاج إلى نصرٍ آخر، فلو كلّ يدٍ شوهاء عبثتْ به فستُبهّته، وستحوّل الحرب إلى مسرحيّة، والنّضال إلى علكةٍ تُباع في الدّكاكين! كنتُ أعرفُ أنّ النّصر يعني ألاّ تنزل عن جبلِ أحد وتتخطّفكَ الغنائمُ كما تتخطّف الطّيرُ جثثَ الموتى؛ كنتُ أعرفُ أنّ النّصر يحتاجُ إلى استثماره في أشكالٍ جديدةٍ، في تربية الأجيال على العقيدة القِتاليّة الصّافية الّتي لا تعترفُ بالمحتلّ مهما تطاولت الأيّام ومهما تقدّم الزّمن، فالدّم لا يُمكن أنْ يُصبحَ ماءً، والتّضحية لا يُمكن أنْ يكون لها مُقابل، إنّها أعظم من كلّ مقابلٍ... ولكنْ ما الّذي حدَثَ من بعدُ؟ لقد امتدّتْ كلّ يدٍ كاذبة، وكلّ نيّة خبيثة، فأرادتْ أنْ تطمسَ تلك الرّوح، وأنْ تبيع تلك التّضحيات، في سبيل الجُلوس مع الغاصب على طاولةٍ واحدة، ومُفاوضته على حقّنا الّذي لا يملك أحدٌ مهما كان موقعه أنْ يُفاوضَ عليه! هل يُمكن أنْ تُفاوض الضّحيّةُ القاتل؟! هل يُمكن أنْ تتصالَح الوردةُ مع السّكّين؟ لكنّهم للأسف، فاوضوا، وانبطحوا، ووقّعوا، وصالَحوا، وفرشوا لقاتلينا الّذين لم تجفّ سيوفُهم من دمائنا الأرضَ وروداً ورياحين!!! يا يُسرى، ماذا ظلّ في الرّوح من دمٍ لننزفه في بُكائيّاتنا الّتي لا تنتهي، في مصائبنا الّتي نصنعها بأيدينا؟ وفي هذا الانهِيار الّذي لم يبقَ لنا فيه شيءٌ نرثيه؟!!

ها هُمْ يُوقِدون النّار في المسجد الأقصى، ها هو السّقف الشّرقيّ للجامع القبليّ يسقطُ بأكمله، ها هم يحرقون منبر صلاح الدّين،

ويُحاولون طمسَ كلّ ما يُذكّرنا بأنّنا كُنّا هنا، ومن هنا طردْنا الغُزاة الأوائل، وكنسْنا المَغول الجُدُد؛ فماذا فَعَلَ قادتُنا؟ لم يبعثوا حتّى بالماء لكي يُوقِفوا زحف نيران الحقد، ولم ينفخوا حتّى بأفواههم على لهيبه، لم يفعلوا شيئًا غير ما يُتقِنون من شَجْبٍ، غيرَ ما يُتقِنون من دعوةٍ للتّهدئة، والنّارُ تأكُلنا، والسّمّ يسري في عروقنا، والأفاعي تنهشُ أطفالَنا، والغربان تنعقُ فوق نخيلنا، والجراد يلتهم قمحَنا، والذّلّ يكسر ما تبقّى فينا من كرامة!! ماذا فعلوا إزاءَ كلّ ذلك؟ لا شيء.

لقد فرحتْ غولداامائير بهذا الحريق التّاريخيّ، وأوجستْ مع فرحها خِيفة؛ كانتْ تنتظر أنْ يتحرّك العرب، أنْ يقولوا شيئًا، أنْ تهتزّ لهم جارحة، أنْ يخفق لهم قلب، أنْ يطرفَ لهم جفن، أنْ تنبسَ لهم شَفَة؛ لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.

وبعدَ أنْ مرّ يومُ الحريق بَرَدَ قلبُها، واستقامَ جِذعُها، وأشرقَ وجهُها، وزالتْ كلّ تجاعيده، وقالت هذه الّتي تمنّتْ في كلّ صباحٍ أنْ تصحو ولا تجدَ طِفلاً فلسطينيًّا على قيد الحياة، كما تمنّى (رابين) أنْ يصحو وقد وجد البحر قد ابتلع غزّة كلّها، وأراحَهم منها، قالت: «لم أَنَمْ طَوالَ اللّيلِ كنتُ خائفةً من أن يدخل العربُ إسرائيلَ أفواجًا من كلّ مكانٍ، ولكنْ عندما أشرقتْ شمسُ اليوم التّالي علمتُ أنّه باستطاعتنا أنْ نفعلَ أيَّ شيءٍ نريده... إنّ العرب لم يكونوا نِيامًا، بل كانوا موتى». لم نكنْ موتى أيّتها الأفعى، كان بعضُ حُكّامنا كذلك، ويومًا ما سنقلبُ الطّاولة على كلّ مَنْ حولَنا، فإنّ تحتَ الرّماد جمرًا يوشكُ أنْ يلتهب!!

***

(42)

يومُ بُعاث

خرجتُ من عزلتي، وأعادني الواجبُ إلى الواجهة من جديد. كان الانتِصار في معركة الكرامة بوّابة فُتِحَتْ على مِصراعَيها، لتدخل من خلالها حُشُودٌ طاغية متطوّعةً في العمل الفِدائيّ، كانوا يقولون:«لقد حقّقْنا الانتِصار في الكرامة بإرادةٍ حرّة بعيدًا عن الكيانات السّياسيّة، ومن الممكن أنْ نحقّق التّحرير بالانضِواء تحت هذه الحركة». كانوا يأملون أنْ يتمّ تحرير فلسطين بعيدًا عن تدخلّ الأنظمة، الّتي ما تدخّلتْ في شيءٍ إلاّ أفسدَتْه!

تعاظَمَ عدد الفِدائيّين في الأردنّ، وتنامَتْ من غور الأردنّ، وامتدّتْ من شمال وادي عربة وغور الصّافي، ثُمّ انداحتْ بعدَ ذلك فشملت السّاحة الأردنيّة كلّها، واتّخذ (أبو عمّار) في عاصمة الأردنّ في جبل الحسين مركزًا له يُدير حركته، ويُشرف عليها بنفسه من هناك. لقد غرّ النّصرُ بعضَهم فيما يبدو، ودفعتْهم الحُرقة على بلدهم الّذي ضاع، ولكنّ هذا الغرور تنامَى حتّى صار سرطانًا قاتِلاً ربّما لا يُمكن الشّفاء منه إلاّ بالرّحيل، وهذه الحُرقة دفعتْهم إلى أنْ يوجّهوا أفعالَهم أو بعضَها خارج إطار الحِكمة والمنطق. ولِذا بدأتْ أفعى الفتنة تُطلّ برأسِها!

كنتُ من قبل معركة الكرامة، قد تولَّيتُ ملفّ التّنسيق مع الفِدائيّين وحركتهم، وهذا بالذّات سيفتَحُ عليّ أبواب جهنّم لاحِقًا.

عندما عُدتُ إلى عملي كنتُ قد أصبحتُ رئيسًا للأركان، وصار الجيش كلّه تحت إمرتي.

حظيتْ حركة الفِدائيّين بتعاطف النّاس مَعها، فإذا كان أكثر من نصف سُكّان الأردنّ قد قَدِموا من فلسطين، ويقدّمون أنفسهم متطوّعين في هذه الحركة، وإذا كان عددٌ لا يُستهان به من أهل الأردنّ قد انضمّوا إلى هذه الحركة، وبعضُهم كان جنديًا في الجيش، فستعلَم مدى القُوّة الّتي حظيتْ بها هذه الحركة، ومدى الأعداد الّتي تنتسب إليها، ومدى التّأييد الكبير لها. لكنّ الحشود الحاشدة الّتي سارتْ خلفَ هذه الحركة صارتْ تُشبه الطوفان، والطّوفان إنْ لم يجدْ سَدًّا يُنظّم تدفّقه طَغَى وأطغَى، وغرقَ وأغرق. إنّ قيادة الجماهير أصعبُ من نشوئها ونموّها، النّشوء والنّمو والتّمدّد قد يحدث في وقتٍ قصيرٍ جِدًّا، وإذا لم تجد هذه الجماهير من يقودُها القِيادة الحكيمة، فستخرج عن السّيطرة، وستُصبح تُطلِق النّار - كالمُسلّح المرعوب الّذي لا يدري من أينَ تأتيه الطّعنة - في كلّ اتّجاه!

بدأت الحوادث صغيرةً، ثُمّ كبرتْ، تمامًا مثل مُستَصغر الشّرر، وحاولتُ أنْ أخمِدَ مُستصغر الشّرر هذا حتّى لا يتحوّل إلى حريقٍ هائل، ولكنّه كان في كلّ مكانٍ، ولم يكنْ بمقدوري وحدي أنْ أقفز كالبهلوان من موقعٍ لموقعٍ لأقومَ بإطفائه، وما لم أجدْ عونًا من الآخرين فستحدث الطّوامّ. و... وقد حَدَثتْ!!

سعتْ حركةُ الفِدائيّين إلى تجنيد الشّعب وتنظيمه في صُفُوفها، وكانتْ تُقدّم نفسَها مرجعًا أعلى له وللمُقاتِلين، وصارتْ لها الكلمة، بل السّلطة الحقيقيّة على الأقلّ لأولئك الّذين ينتسبون لها، أدّى ذلك

التّوسّع إلى امتِدادٍ غير أخلاقيّ، فأقامتْ حواجز على الطّرقات، في مُدُن الأردنّ وقُراه، وفي عمّان بالذّات صارتْ تُوقِف النّاسَ والمارّة العاديّين برهبة السّلاح، وتُفتّش على الهُويّات، ولربّما ترتكب بعض الحماقات. كان منظر الفِدائيّين بلباسهم العسكريّ (الفوتيك)، وبالبنادق والرّشّاشات المحمولة على ظهورهم، وبشعورهم المنكوشة، ونظراتهم المُتجهّمة قد أشاعُوا جوًّا من الخوف في النّاس، أو لربّما جوًّا من عدم الارتِياح. كان بعضُهم يُوقِفون النّاس ويطلبون منهم المال في بعضِ الأحيان، وكأنّهم تحوّلوا إلى مرتزقة أو لصوص، ولربّما أطلقُوا النّار على مُقدّمة السّيّارة للتّسلية لا لشيءٍ آخَر، وبدا أنّ سلطتَهم تتحدّى سلطة الدّولة الأردنيّة أو حتّى تفوقَها. وبدا أنّ في الأردنّ دولتَين لا دولة واحدة، وسُلطتَين لا سلطة واحدة، وأصبح كل طرفٍ كالقطّ يتكوّر ويتضخّم في استِعداده للانقِضاض على الآخَر!

في بداية الأمر كانت الحوادث الّتي تقع فرديّة، وتنمّ عن جَهل صاحبها، أو حماقته، ثُمّ بدأتْ تصعدُ نحو مستوًى صعبٍ، ورويدًا رويدًا تحوّلتْ من أحداثٍ فرديّة إلى أحداثٍ عامّة، وممارَساتٍ يوميّة، وبدأت الأجواء تزداد احتِقانًا، وكأنّ مَنْ شَهِدَ معركة الكرامة لا يُصدّق أنّ هؤلاء الّذين يتقاتلون اليوم فيما بينهم، كانوا جسدًا واحِدًا، وصَفًّا واحِدًا يُقاتِلون عدوّهم بالأمس. وكأنّ الّذي رأى التِحام الشّعبَين، وتحقيقهما النّصر، غاظَه أنْ يظلاّ على هذا الوِفاق، وينعُما بهذه المودّة، فأثار بينهم نار الضّغينة، وأشعل أعوادَ الفِتنة، وكأنّ داحسَ والغبراء تعودُ من جديد، أو أنّ يومَ بُعاث يُبعَث بين الأوس والخزرج مرّة أخرى.

وصلَتْ إلى موقع قيادتي إخباريّة عن أنّ سيّارةً عسكريّة مُحمّلةً بالحشيش قادمةً من الحدود السّوريّة إلى عمّان، دائمًا ما أستقبل المعلومات من هذا النّوعِ في مثل هذه الظّروف بالتّشكيك، أعرفُ أنّ الحربَ غير المُعلَنة قائمةٌ بين الجيش وأطراف أخرى كثيرة، مَنْ يُريدُ أنْ يكيدَ لِمَنْ هذه المرّة؟ وعلى الطّريق بين الزّرقاء وعمّان بالقرب من مصنع البطّانيّات ضُبِطَت سيّارة الحشيش بالفِعل، تحمل طُنًّا كامِلاً منه، كان يقودُها وكيلٌ في الجيش. تحليل الحادثة هو الطّامّة، حَمَلَةُ السّلاح قالوا: «إنّنا بُرآء، الجيش هو المُتورّط». الجيش قالوا: «إنّه وكيلٌ مُرتَزَق لقد اشتَرَوه ليقوم بتهريب الحشيش لهم، تُرى كم دفعوا له؟». ونشبت النّار. طلبتُ أنْ يُطبّق على السّيّارة قانون مكافحة المُخدِّرات، فتشكّلتْ لجنةٌ من الجمارك والأمن العامّ والجيش، وتمّ إتلافُها حرقًا. جاء بعدَ ذلك التّحليل الثّالث: «مشهور لم يكشف الّذين كانوا وراء الحادثة؛ إنّه مُتواطِئ معهم». وبدأتْ حربٌ جديدةٌ ضِدّي من المُتنفّذين في الجيش، الجيش الّذي أقودُه!

كان عليّ أنْ أزور مواقع الجيش والفِدائيّة محاولاً رأب الصّدع بينهم، وتهدئة الأمور، والخروج بحلٍّ دون أنْ تُراقَ فيه قطرة دمٍ، لكنّ غربان الشّؤم لم تكنْ لترتاح إلاّ أنْ ترى دم الإخوة يسيل، في إحدى المرّات الّتي كنتُ أزور فيها موقعًا للفدائيّة في رأس العين، تمركزَ بعضُ القنّاصة على أسطحِ بعضِ البنايات، ومن نوافذ غير مكشوفة، بوجوهٍ مُلثّمة ولا يراهم أحدٌ، أطلَقُوا النّارَ عَلَيّ. أصابتْني إحدى الرّصاصات في ساقِي. لم تؤلمني الرّصاصة بقدْر ما آلمني أنْ يحدث أمرٌ كهذا، وبغضّ النّظر عَمَّنْ أطلقَ ذلك الرّصاص، سواءً أكان من الجيش ليتخلّص مِنّي

مَنْ كنتُ أشكّل لهم في الجيشِ رعبًا، أم كان من الفِدائيّة لكي يُثيروا فتنةً، أم من طرفٍ ثالثٍ مدفوعٍ له من أحد الطّرفَين الأوّلَين؟ فإنّني بكيتُ يومَها في داخلي على هذا الحضيض الّذي وصَلْنا إليه. لم يتبيّنْ كالعادة على وجه الدّقّة مَنْ فَعَل هذا، وإنْ كان كلّ طرفٍ يرمي بالخيانة على الطّرف الآخر، وكلٌّ عنده أسبابه. كانتْ موجة الاغتيالات السّياسيّة أو قل الموضة، تجتاح المنطقة يومئذٍ، هَزّاع المجالي رئيس الوزراء في الأردنّ ذهبَ ضحيّتها، آخرون كثيرون تعرّضوا لها هنا ونَجَوا، أو أصيبوا إصاباتٍ غير قاتِلة، لقد انضممتُ إلى هذه السّلسلة، وتعرّضتُ لأربع محاولات اغتِيال فيما بعد.

كانت الأجواء مشحونةً في الأردنّ، لا انفِراج في الأفق، وأنا أتنقّل من موقعٍ لآخر أهدِّئ النّفوس، وأذكّرهم بأنّ بنادقنا يجب أنْ توجّه إلى العدوّ الصّهيوني، لا أنْ يوجّهها بعضُنا إلى بَعض، وكان كلّ فريقٍ يقول عن الآخَر: هم بدؤوا بحرف البوصلة لا نحن، نحن نوجّه بناددقنا إلى عدوّنا، وهم يُوجّهونها نحونا! وبدا أنّ الجمع بين الفريقَين مثل الجمع بين الماء والنّار، أو مثل جمع الجبل بالجبل، وكان كلّ طرفٍ يملك ذاتًا مُتضخّمة، ويرى أنّه أحقّ من سِواه! تقاتل النّاس في الشّوارع، وانزرعت الجُثث في الطّرقات، واتّخذ القنّاصة من الطّرفَين مواقعهم على أسطح البنايات في وسط البلد، ودارتْ معارك، وسْقطَ ضحايا من هنا، وضحايا من هناك، وكان بعضُ الجَهَلة والحاقدين من الفِدائيّين يتباهَون باصطِياد أفراد القُوّات المُسلّحة، ويتبارَون فيما بينهم مَنْ يقتل منهم عددًا أكبر. وكان هذا الأمر مدفوعًا من قِبَل بعض قادة الفِدائيّين وبعضِ قادة الدّولة من السّياسيّين الّذين لا يملكون ضميرًا ولا عقلاً

ولا عروبةَ من أجل تعبئة الجيش ضِدّ الفِدائيّين، لكي تحدث المصائب. وبدا أنّنا متّجهون أو مدفوعون إلى حربٍ كبيرة، ومواجهة شاملة.

وتفاقمت الأمور، إلى أنْ قام الفِدائيّون باحتِلال مبنى البريد في وسط البلد بالعاصمة، وكان هذا إيذانًا بالحرب، ثُمّ احتلّوا فندق الأردنّ، ووقعَ جرحى في تلك العمليّة، ثُمّ قبضوا من داخله على خمسةٍ وسبعين صحفيًّا أجنبيًّا رهائن، وهدّدوا بقتْلهم، وذهبتُ إليهم، ودخلتُ من دون سلاح إلى الفندق، وتفاوضتُ مع الخاطِفين، وتحدّثتُ معهم بروح المسؤوليّة، ولانتْ رؤوسهم، واستجبْتُ لبعضِ مطالبهم، وفي المساء كان الصّحفيّون جميعهم يُغادرون الفندق سالِمين، ويعودُ بعضُهم إلى أهله ودِياره. ومع أنّ الحادثةَ أليمة، لكنّ هذه الثّقة الّتي بيني وبين الفِدائيّين كانتْ تُستغلّ من قِبَل الدّولة أحيانًا من أجل حلّ مشاكل كهذه من جهة، لكنّها تُستغلّ من جهةٍ أخرى على وصمي بأنّني خائنٌ مُتواطِئ، وكنتُ مثل مَنْ بلعَ سِكّينًا وقفتْ في وسطِ حلقه.

مَنْ يحمل مِذراة الشّرّ غير الشّيطان، وإذا ذَرّ الفِتَن، فعلى رؤوسِ مَنْ تقع؟ إنّما تقع على رؤوس البشر، وينقسم البشر حِيالَها إلى قِسْمَين؛ قِسْمٍ يبكي على حلول الفِتنة في دياره خشيةً ورهبة، وقسمٍ يرقصُ فرحًا ويتمايلُ طربًا، فهو لا يهدأ له بال حتّى يرى النّاس تتذابح تذابح السّباع، وتتعاوى تعاوي الذّئاب، وتتهارش تهارش الكِلاب. وفي مثل هذا المذبح رقصَ قائد الفرقة، إذْ قادَ عددًا من أفراد الجيش، ببنادقهم حتّى وصلوا إلى مواقع الفدائيّة في الهضبة المُطلّة في كفر أسد في الشّمال، فباغتَ النّائمين من هؤلاء الفِدائيّة تحت الشّجر، مطمئنّين إلى أنّهم في منأى عن الأذى، فأعمل الرّصاص فيهم دون رَحمة، ودون أنْ يُتيح لهم

فرصةً للدّفاع عن أنفسهم أو حتّى الهرب، فقتل منهم خمسةً وسِتّين فِدائيًّا. ووصل الخبرُ إليّ فجُنّ جنوني، فقمتُ بعزل قائد الفرقة الّذي أمر بتنفيذ هذه المذبحة الشّنيعة، وأرسلتُ رسالةً إلى الملك حُسين مرفقةً معها استقالتي من منصبي، وقلتُ فيها: «إنّ ما قام به قائد الفرقة هو فِعلٌ خسيس، وهو غدرٌ ونذالة، ولا يصدر عن جنديّ في الجيش يؤمن بدوره وأمانته فضلاً عن أنْ يصدر عن قائدٍ فيه». وطلبني الملك إلى القصر، وكانت سورة الغضب مِمّا حدث لا زالت تعتورني، وكان معه (وصفي التّلّ) يومئذٍ، وناقشني وصفي في الرّسالة بندًا بندًا، ثُمّ لمّا انتهى، قال لي الملك بلهجةٍ غير راضيةٍ عن رسالتي: «ما هذا يا مشهور؟ لو كنتُ أسمعُ الكلام لاتّخذتُ بحقّكَ إجراءً لا يُرضيك؛ فقد وردَ عنكَ كلامٌ بأنّكَ تلعبُ مع القُوّات العراقيّة ضِدّ النّظام، وتتآمر معها علينا». وفاجأني قول الملك، فاجأني أنْ يكون بهذا الوضوح، فرددتُ بثقة: «لو كان الأمر على ما تقول، أو ما نُقِلَ إليكَ فلن يصمدَ الأردنُّ ساعةً، ولو غمّضْتُ عيني لحظةً فإنّ النّظام سوفَ تدبّ فيه الفوضى، ولكنّني والله مُحِبٌّ لهذا البلد، وأمينٌ على أمانه وأمانته». وخرجتُ من القصر، ولكنّ الملك رفضَ استقالتي.

كان موقفي خطيرًا وصعبًا، يُشبه مَنْ يمشي على حبلٍ رفيع فوقَ وادٍ تملؤه الوحوش، وأنا أحمِلُ في يدَيّ ألفَ هَمّ، وكان عليّ ألاّ أتوقّف، وأنْ أظلّ سائرًا حتّى أعبر الوادي السّحيق، وأصل إلى الضّفّة الأخرى، وأنجو، وينجو مَنْ كان معي. لكنّ هذا الموقف، جعل تلك الوحوش ترميني عن قوسٍ واحدة، ووصل الأمر إلى أنْ تجسّسوا عليّ، وأحصَوا عليّ حركاتي، وكلماتي، وهمساتي. فقد أبلغني مدير مكتبي أنّه اكتشفَ

جهاز تسجيلٍ في أسفل طاولتي. وبعدَ أنْ عرفتُ الضّابطَ الّذي قام بزرعه هناك، استدعيتُه إلى مكتبي، وجلستُ على مقعدٍ بجواره، وبعدَ أنْ خلعتُ البِزّة الّتي تحمل رُتبتي العسكريّة، سألتُه: «ما هو عملك؟». استغربَ من السّؤال، ولكنّني نظرتُ في عينَيه بحِدّة كي يُجيبَ على قدر السّؤال، فأجاب: «مدير استخبارات». فرددتُ: «أنتَ إذًا مدير استخبارات فاشل، فجهاز التّنصّت الّذي ثبّتّه تحت طاولتي وُضِعَ بطريقةٍ غير صحيحة، عليكَ أنْ تتعلّم الطّريقة الصّحيحةَ إذًا». وارتبكَ مُدير الاستِخبارات، وأردفتُ: أنا أواجه يا مدير الاستِخبارات، أنا لا أختبِئ خلفَ الأقنعة، إذا كانَ لديكَ ما تريدُ معرفته عنّي أو مِنّي، فواجِهْني، لا أنْ تفعل فِعلاً دنيئًا كهذا». وازداد ارتبِاكه، وتلعثمَ أكثر من مرّة، وهو يقول: «والله جاءتْني أوامر عليا بهذا الخصوص، وأنا لم أقصِدْ أنْ أخونَ مسؤولاً عنّي». «لقد أثبتّ مرّة أخرى أنّكَ غيرُ رجلٍ وإمّعة، هل تنفّذ كلّ ما يُطلَب منك دون أنْ تناقِش؟ هل تُسلِّمُ بالأمر ولو كان ضِدّ قناعاتك؟ اخرجْ من هنا». وخرج متهدّل الكتفَين.

ليسَ لديّ ما أخشاه، وليس لديّ ما أخفيه، أنا أؤمن بكلّ كلمةٍ أقولها، ولكنْ؛ هل كان ثمن الانتِصار في معركة الكرامة باهِظًا إلى هذا الحدّ؟!

***

(43)
اتّسعَ الخَرقُ على الرّاتِق

لم أتخلَّ عن واجبي في تهدئة الأمور بين الطّرفَين، ولكنّني كلّما أطفاتُ نارًا بينهما، جاء أحدُهم من هنا، وأحدهم من هناك وسكبَ البنزين على النّار الخامدة لتشتعل من جديد، كانتْ هناك أطرافٌ مستفيدةٌ من هذا الاشتِعال تريدُ له ألاّ يخمد. كنتُ أركبُ سيّارتي العسكريّة مُتّجهًا إلى مركز قِيادتي، كانتْ عمّان كلّها تعيشُ فوقَ صفيحٍ من اللّهب، كلّ شبرٍ فيها يُنذر بالعاصِفة. تمكّن أحدُ الفلسطينيّين بالتّعاون مع اليهود؛ يحدثُ هذا، مِن زرعِ قنبلةٍ في قلبِ سيّارتي، وفي الطّريق اصطدمتْ سيّارتي بسيّارة أخرى، لا أدري إنْ كان حادثًا طبيعيًّا أم مُفتَعلاً، ولكنّ الحادث أسقط القنبلة المزروعة، وانفجرتْ بعدَ أنْ نزلتُ منها، أُصيبتْ رِجلي بكسْرٍ، لكنّني كنتُ قد نجوتُ من الموت، لم تمنعني الإصابة من أنْ أتابع عملي. كانتْ يدُ اليهود تمتدّ إلى قلوب بعضِ المتعاونين معهم وتعبثُ بها، كان يُمكن شِراءُ بعضِ الضّمائر، يحدثُ هذا، لأقلّ الأسباب أو أعظمها، الّذين يبيعون ضمائرهم موجودون في كلّ عصرٍ وفي كلّ مصر. كان المال السّخيّ يُدفَع من اليهود، وكان عليّ أنْ أدفع ثمنَ إذلالي لهم في الكرامة. خرجتُ من الحادثة أكثرَ إصرارًا على أنْ أكمل محاولاتي في نزع فتيل الأزمة. كلّ شيءٍ يجري بقدَر. ولم أكنْ أخشى الموت، فالموت حينَ يأتي لا يدفعه أحدٌ، ولن يَستبِقَه أحدٌ،

ولن يؤخّره أحدٌ، جُلّ ما كنتُ أطمح إليه حين يأتي أنْ أكونَ قد أدّيتُ واجبي تُجاه وطني. كيفَ يمكن أنْ يسير شخصٌ مثلي كان يعبر حقلاً مليئًا بالألغام، كانتْ كلّ جهةٍ في كلّ يوم تزرع فيه لُغمًا جديدًا، هل تطغى لُجَجُ الخِضَمّ على السّبّاح فيستسلم في النّهاية لموجٍ كالجبال؟ هل أرفع الرّاية؟ كلاّ. لو كنتُ سأرفعها لكنتُ رفعتُها من قبل أنْ أتّخذ قراري بعدم وقف إطلاق النّار، وألاّ ترتاح البنادق والمدافع وهي تُصلي العدوّ بنيرانها يومَ الكرامة.

في إحدى المساءات الحزينة، كنتُ ضمن اجتِماعٍ بين الحكومة الأردنيّة والمُقاومة الفلسطينيّة بحضور اللّجنة العربيّة من وُسطاء من ليبيا والسّودان والعراق وتونس والجزائر، لبحث مشكلة السّلاح بين الجيش والفِدائيّة، بين الدّولة والدّولة الأخرى، بين السّيادة والسّيادة المُتشوّفة، بينَ مَنْ يلعَن ومَنْ يُلعَن. وبلغَنا في الاجتِماع أنّ الدّبّابات والآليّات العسكريّة الّتي تحرس مبنى التلفزيون من سريّة المدرّعات الأردنيّة تتوجّه إلى جبل عمّان وجبل الحُسين للهجوم على القيادات الفِدائيّة فيها والقَضاء عليها، وكانتْ بالفعل قد تحرّكتْ عبر طريق القويسمة – رأس العين، وفززتُ من الاجتِماع قبل أنْ تنشبَ حربٌ لا هوادةَ فيها بين الطّرفين، وكنتُ أعرفُ تمامًا أنّه لا رابحَ في الحرب، وأنّ الحرب إذا كانتْ بين الأشقّاء فإنّ الأطراف كلّها ستخرج منها خاسرةً مهما حدث. وهُرِعتُ لأعترِضَ سبيل الدّبّابات، وأطلب من قائدها أنْ يتوقّف عن ارتِكاب حماقةٍ كبيرةٍ كهذه، وبالفعل تركتُ ضيوفَنا العرب في وساطتهم يتباحثون، وتوجّهتُ إلى الطّريق الّتي تسلكها تلك المُدرّعات، كان خوفي على الدّم يعادل خوفي على الوطن، إنّ نقطةَ دمٍ

واحدةٍ تسيل على هذا الوطن من أيّ طرفٍ من الطّرفَين فإنّها تعني نقطةَ دمٍ تسيل من الوطن نفسِه، وفي النّهاية نحن لا نقتل بهذا أنفُسنا، بل نقتل أوطاننا، فإنّما نحن أوطانُنا. وحينَ وصلتُ، ترجّلتُ من سيّارتي العسكريّة، وأبلغتُ قائد السّريّة أنّني قائد الجيش، وأنّ أيّ تحرّكٍ بعدَ الآن يعني تمرّدًا عسكريًّا، وأنّ صاحبه سوفَ يُحاكم محاكمة عسكريّة، ولن أرحمَ المتورّطين فيها، ووقفتِ الدّبّابات قبل مدخل الطّريق وقبل المحجر الموجودِ هناك وامتثلتْ لأوامري، كان سرب الدّبّابات على الطّريق يُوحِي بأنّنا عازِمون على حربٍ حقيقيّة، كان منظرًا مَهولاً، صَفّ طويلٍ منها لم أرَ مثله في حرب 1948م ولا في حرب 1967م، أنكون نستأسدُ على أنفسنا، أيصدقُ فينا قول القائل: «أَسَدٌ عَلَيّ وفي الحروبِ نَعامةٌ»؟ وكدتُ أبكي أنّنا بعدَ نصرنا في الكرامة عُدْنا ليقتل بعضُنا بعضًا. وفجأةً وأنا في ذهولي، قصفني موقعٌ للفِدائيّين من الجِبال المُحيطة، أحد الفِدائيّين وجّه نحوي قذيفة (أر بي جي)، وكادتْ تُمزّقني إلى أشلاء، ضربت القذيفة تنك البنزين في سيّارتي، وشبّت النّار في السّيارة على الفور، وقفزتُ منها أنا وكلّ مَنْ كان فيها، وأصيبَ مرافقي بجروحٍ كبيرة، وأُصِبْتُ أنا وشقيقي زيد الّذي كان معي، ولكنّني سرعانَ ما ابتعدتُ عن الموقع، بمساعدة بعضِ رجالي، ولمّا علم الفِدائيّون أنّني أنا الّذي كنتُ على متن السّيّارة، أسعفوني إلى مستشفًى قريب، وكان ذلك مفارقةً عجيبة، رموني بالقذيفة، ثُمّ أسعفوني. ولم يطل بي المقام في المستشفَى، وقفزتُ من على السّرير، ونظرتُ في المرآة، وكدتُ أبكي مرّة أخرى، كنتُ أرى رجلاً آخَر هناك، رجلٌ يذوب قلبُه حسرةً على ما يحدث، ويحاول أنْ يرأب الصّدع، ولكنّ الأمور تخرج عن

سيطرته، وشكوتُ إلى الله ضعفي، وقلّة حيلتي، ودعوتُ أنْ يعودَ الإخوة فيوجّهوا رصاصهم إلى عدوّهم المشترك، وأنْ يكفّوا عن كلّ ذلك. مسحتُ وجهي من الماء والدّمع والدّمِ معًا، وطلبتُ من أحد السّائقين أنْ يُعيدني إلى اجتِماع اللّجنة العربيّة، فما حدث لن يؤخّر مقدورًا ما لم أتابعْ عملي كأنّه ما حدث، وهكذا عدتُ إلى اللّجنة وأكملْنا الاجتِماع. وخرجْنا منه بفكرةٍ واحدة: «يتوجّب على سِلاح الفِدائيّين ألاّ يُصوَّب بأيّة حالٍ من الأحوال إلاّ نحو إسرائيل، وأنْ يُدرِكوا أنّهم على أرضٍ ذات سِيادة، وأنّ عليهم أنْ يتوقّفوا عن أيّة أعمال استِفزازيّة مهما كان حجمُها أو مُسوّغها، وعليهم ألاّ يحملوا السّلاح داخل المدن، وألاّ يوقفوا السّيّارات في الشّوارع، وأنْ ينسحبوا إلى قواعدهم القريبة من خطوط التّماس مع إسرائيل».

ولاحتْ تباشير تهدِئة، وكأنّ الفِدائيّين أدركوا أنّه ليسَ من مصلحتهم أنْ يتعرّضوا إلى الحرب من قبل الحكومة الأردنّية، وأنّ إضعافَ قوّتهم يعني إضعاف هدفهم الّذي وُجِدوا أو وُلِدوا من أجله، وهو تحرير فلسطين، ومواجهة غطرسة إسرائيل، لكنّ التّحرير كان حُلُمًا غائمًا، وأمنية هاربة، وطائرًا يُحلّق بعيدًا بعيدًا لا يمكن الإمساك به.

وعادت الأحداث إلى الواجهة يومَ تمكّن الفِدائيّون من اختِطاف ثلاث طائرات تابعة لخطوط طيران أجنبيّة، كان من بينها طائرة بريطانيّة، طلبَ الخاطِفون من قادة الطّائرات أنْ يهبِطوا في إحدى القواعد العسكريّة الأردنيّة، كان مطارًا عسكريًّا مهجورًا تقريبًا، استُخدِم في الحرب العالميّة من قِبل بريطانيا في وسط الصّحراء الأردنيّة، التقطَ رادار المطار إشاراتهم، وتحدّثوا معي، فطلبتُ من رادار المطار

السّماح لهم بالهبوط، كانت الطّائرات الثّلاث تُقلّ ما لا يقلّ عن ثلاثمئة راكبٍ، من بينهم مجموعة من حاخامات اليهود، وكانتْ صيدًا كبيرًا، وأشعلتْ حربًا سياسيّة في البداية. جثمتِ الطّائرات الثّلاث في المطار العسكريّ، وبعدَ يومَين لحقتْ بها طائرةٌ رابعة، واكتمل المشهد السّورياليّ، وطلبَ الملك منّي أنْ أتدخّل بشكلٍ رسميّ؛ قال: «لن يفهم عليهم سِواك، ونحن نثق بك».

توجّهتُ إلى المطار، كانتْ قيادة الكتيبة قد بعثتْ بالدّبّابات والمُدرّعات فأحاطتْ بالطّائرات وبحدود المطار، وكادتْ تبدأ القصف بأوامر مَنْ هم أقلّ منّي رتبةً عسكريّة بكثير، وصرختُ: «هذا جنون. أوقفوا كلّ شيءٍ. أنا قادم». وكانتْ لَحَظاتٌ من التّرقّب عصيبة، وشعرتُ أنّ أرواح كلّ هذه المئات مُعلّقة بي، وأنّ عليّ أنْ أخرج من الأزمة بدون خسائر. وعزمتُ على ذلك، وكانتْ علاقتي الطّيّبة مع الفِدائيّين قد خوّلتْني أنْ أتّصل بهم، وأنْ يسمحوا لي بالدّخول إلى الطّائرات. أربع طائرات عِملاقة، تجثُم في اللّيل في الصّحراء، حيثُ لا أحدَ في تلك المهامه الشّاسعة غيرُ عزيف الجنّ، وكان الظّلام دامِسًا، الظّلام على الأصعدة كلّها. وفي الدّاخل كان الموت يقف ملاصِقًا لكلّ خاطفٍ ولكلّ مخطوفٍ، وانحبستْ أنفاسُ الأردنّ كلّها ترقّبًا لِما سيحدُث. وفي داخل الطّائرات كان بإمكاني أنْ أرى أطنانًا من المُتفجّرات مزروعة في كلّ ناحيةٍ من قلبِ كلّ طائرة، وأيقنتُ أنّ بيني وبين الطّوفان حجرٌ صغير، ولو أنّ أحدًا من الطّرفَين أزاحه لانداح وأغرقَ كلّ شيءٍ في طريقه.

اجتمعتُ مع الخاطِفين، وطلبتُ من أحدهم وأنا أصطنع مرحًا

أعرفُ أنّ خِيفةً خثراء تجثمُ تحته: «اعملْ لنا كأسَ شاي، لا يُمكنني أنْ أتحدّث دون أنْ أشربَ كأسًا ساخنًا. البرد هنا قارسٌ وأنا أحتاج لشيءٍ يُدفِئ أعماقي الباردة». فردّ: «وهل تظنّ أنّنا في القصر حتّى نُلبّي لك طلبَك؟!». وأدركتُ فداحة الطّلب، كنتُ خالِيًا من المُرافقين والحَرَس، ومن أجهزة الاتّصال، فطلبتُ من أحدهم اللاسلكيّ، وأمرتُ حرسَ المطار بأنْ يأتونا على وجه السّرعة بالشّاي، وحددُت لهم موقعي، في الطّائرة الثّانية التّابعة للخطوط البريطانيّة، وصرخَ أحدهم: «لن يدخلوا هنا». فقلتُ: «لن يدخلوا. لكنّني أريدُ أنْ أشربَ الشّاي». فردّ: «يذهبُ أحدهم ويأتي به». فأجبتُ: «لكم ذلك». ثُمّ تفحّصتَ في وجوههم، كانوا شبابًا في العشرين، يُدخّنون بشراهة، وينظرون بعيونٍ قلقة، ويتحرّكون بخطواتٍ سريعة. قلتُ لما يبدو أنّه قائِدهم: «على جنودك أنْ يهدؤوا. قُلْ لهم إنّنا مُحتاجون إلى الهدوء لكي نتكلّم». فأمرهم بالهدوء. ورحتُ أنظر من جديدٍ في وجوههم، واستحثّني ذلك القائد، وهو يدعس عقب سيجارته بقدمه: «تكلّمْ». فأجبتُ وأنا أضحك: «حتّى يأتي الشّاي». وجاءَنا الشّاي بالفِعل، ولا أدري كيفَ تختلفُ طُعُوم الشّاي باختِلاف الأمكنة الّتي يُشرَب فيها، كان شاي الاختِطاف من ألذّها، لأنّه كان يُساعدني على الهدوء، وعلى التّركيز، وعلى أنْ أرتّب أفكاري. وسألتُه: «ماذا تريدون؟». فردّ وهو يُشعل سيجارةً أخرى، ويتراقص ضوء القدّاحة على وجهه الأسمر، وعينَيه الصّغيرتَين، وشفتَيه المزمومتَين: «لنا عشرون من مُقاتلينا مسجونون في سجون الاحتِلال، نريدُ أنْ نُخرجهم». هززتُ رأسي، وأردفتُ: «وماذا أيضًا؟». «أنْ تعترفوا بقتلكم لعناصرنا في كفر أسد». وهززتُ رأسي

مرّةً أخرى وأنا أبتسم، وأشجّعه على المزيد: «وماذا أيضًا؟». «أنْ تُعيدوا الأموال الّتي ضبطتموها من موقعنا في جبل الحسين؟». كانتْ كلّها مطالب عاديّة، ولم أجدْ فيها ما هو تعجيزيّ أو صعب. وشعرتُ أنّ حركتهم هذه كانتْ تريدُ أنْ تُعيد الأحداث إلى الواجهة، وأنْ تُحيي القضيّة، لكنّهم اختاروا هدفًا خاطِئًا، وكدتُ أقول له: «اتّفقْنا، لكَ كلّ ذلك». لولا أنّني تراجعتُ، وقلتُ له: «عليّ أولاً أنْ أطمئنّ على سلامة الرّكاب». وبدا وجهه غير مكترثٍ من خلال جمرة سيجارته الّتي كانتْ تستقرّ في زاوية فمه. وقمتُ معه ومع الآخرين، وتفقّدتُ ركّاب الطّائرات الأربع، وكانوا ينظرون إليّ كأنّني المسيح جئتُ لأنقذهم أو أفتديهم، وعَظُمَ ذلك في نفسي، وشعرتُ بشيءٍ من الأسى عليهم. وعُدنا إلى موقع اجتِماعنا، وقلتُ لقائد الخاطِفين: «سألبّي لك كلّ مطالبك، وعليكَ أنْ تُفرِجَ عن الرّكاب كلّهم مقابل ذلك». فضحك، وقال وكأنّه منتصر: «ليسوا كلّهم، هناك عشرةٌ من الحاخامات اليهود وثلاثةٌ من الأمريكان سيبقون أسرى لدينا، وسنبادل بهم أسرانا الّذين في قبضة الصّهاينة»، وضحك ضحكة استِهزاء قبل أنْ يقول: «أم تريدُ أنّ نُطلِقَ سراحهم أيضًا؟!». أجبتُه: «هم لك، الآنَ أفرج عن البقيّة، ولن يمرّ هذا اللّيل حتّى أكونُ قد لبّيتُ لك مطالبك».

وخرجتُ من الطّائرة، وعدتُ إلى قيادة الرّادار، وأبلغتُ جميع قادة المدرّعات: «لقد انتهى الأمر». لم يُصدّق أحدٌ أنّ هذا تمّ، كانوا يخشون أنْ يقوموا باغتِيالي، لم يدروا أنّ أبي وجدّي كانا حاضِرَين في اجتماعنا، لقد قالوا: «نفعل ذلك من أجلهما، لقد قاتِلا في سبيل فلسطين أكثر من أهل فلسطين نفسِها».

كان يُمكن لحادثةٍ انتهت على هذا النّحو أنْ تُخفّف التوتّر، وتنهي كثيرًا من الأزمات الصّغيرة أو المُفتَعَلة، ولكنّ طرفًا ما، يعرفه الله، ولربّما يعرفه الشّيطان، لأنّه هو والشّيطان سواء، كان يريدُ للحربِ أنْ تقوم.

ماتَ أبي بعد تلك الحادثة بسنةٍ، تركَ الدُّنيا لأهلها، رحلَ حزنًا على ما آلتْ إليه حالُنا، كان يريدُ أنْ يقول: «إنّني أجدُ في الموت راحة؛ لقد رأيتُ من الفجائع ما يكفي، وآنَ لي أنْ أرحل!». كان رجلاً بسيطًا، شَهمًا، ظلّ يُعامل أمّي كأنّها طِفلتَه المُدلّلة، ووحيدته الأثيرة، وكانَ لا يُبالي من الدُّنيا بشيءٍ، عاشَ صابِرًا، وماتَ وحيدًا، وكانَ يمسح دموع أمّي كلّما بكتْ. أمّي كانتْ تبكي دائمًا!

اتّسع الخرقُ على الرّاتق، كان ذلك في أيلول، أيلول الأسود، ربّما ليس هناكَ من شهرٍ في كلّ الأمم أكثرَ سوادًا من أيلول. استدعاني الملك إلى القصر، كان قرار الفتك بالفِدائيّين قد طُبِخَ تمامًا. حجزوني في القصر، نهضتُ لأغادر القصر إلى بيتي. أوقفوني: «لن تغادر هذه الغرفة عوضًا عن أنْ تُغادِرَ القصر، لم يعدْ لكَ من مهمّة تقومُ بها بعدَ الآن». كانوا لا يريدون منّي أن أتدخّل، كان تدخّلي يعني أنْ يتراجعوا عن قرار الذّبح، وأنا ما زلتُ أقاتل من أجل ألاّ تسيل الدّماء، كان الدّم حرامًا، وأنا أريدُ أنْ أخرجَ من هذه الحياة نظيفًا من أيّ قطرةٍ منه، هل كانوا يتصوّرون أنْ أقول لمدية السّكّين: «اذبحينا، مزّقي أوصالَنا، انحري أعناقَنا، وقطّعي أوداجَنا؟». وصرختُ: «هل أنا مُحتَجزٌ هنا؟». فردّ أحدهم: «يا مشهور؛ هل تريدُ أنْ يحكمنا المُرتزقة؟!». فقلتُ له: «كلانا يُمسك بالسّيف يا أخي، أمّا أنا فمن مِقبضه، وأما أنتَ فمِنْ نَصْلِه!».

وكان موقف وصفي التّلّ متشدّدًا كذلك. واندلعتْ بعدَها المُواجهات الكبيرة. قال وصفي: «يجب أنْ ننهي وجودهم المسلّح في المدن ونجتثّهم من الجذور». وسقطَ مِئات القتلى، كان الرّصاصُ عربيًّا، والدّم عربيّا، والوجع عربيّا، والهزيمة عربيّة، والعار عربيّا، وكنتُ أغرقُ في بحرٍ من الأسى واليأس والضّياع!!

استمرّت الحرب بين الجيش والفِدائيّة شهرَين، من مدينة إلى مدينة، وتقهقر الفِدائيّون إلى جرش، ودارتْ هناك مواجهات طاحنة، وكان الرّصاص يخجل من الرّصاص، كان الأخ يُصوّب نحو أخيه، والشّقيقُ يقتلُ شقيقه، لم تكنْ هناك في تاريخ الأردنّ مأساةٌ أفدح من تلك المأساة، ولا أظنّ أنّ التّاريخ حملَ مأساةً بحجمها أو ثِقلها. وهكذا انتهى وجود المقاومة في الأردنّ إلى الأبد، وسُحِقتْ إلى غير رجعة، ولم يكنْ فَرِحًا بما حصل أحدٌ أكثر من اليهود، فقد أرْحناهم مِنّا إلى أجلٍ غير مُسمّى!!

***

(44)

عَصَرُ الطّوائف

ماتت أمّي!! فجأةً رحلتْ بهدوء دون أنْ تقول لأحدٍ إنّها سترحل؟ ماذا يبقى من الإنسان حينَ تموتُ أمّه؟ لا شيء. مجرّد بقايا مُبعثرة على أرصفة الحنين والذّكرى. بكتْ علينا جميعًا قبلَ رحيلها، تمنّتْ أنْ يعودَ أبوها لتقبّل يدَه، وتطلبَ منه أنْ يُسامحِها على رفضها الزّواج أوّل الأمر من أبي. لكنْ كيفَ يمكن أنْ يعودَ الموتى لتطلبَ منهم أنْ يُسامحوك؟! أخذتُها في سَنَواتِها الأخيرة إلى الحجّ، كانتْ تقول: «إنّ صحراءَنا متشابهة يا بُنيّ، يبدو أنّ الرّسول كان يحبّ الصّحراء مثلَنا» وتبتسم وهي تقول ذلك. كانتْ قد هرمتْ، ولم تعدْ قادرةً على المشي، أحملك يا أمّي بضعَ لحظاتٍ فلقد حملْتِني العُمر كلّه، أقبّل قدمَيك يا حبيبتي، فلقد بقيتِ تقبّلين قدمَي هذا الطّفل حتّى صار رجلاً. قالت لي وهي تطوفُ بالكعبة: «يا بُنيّ أنا لا أكادُ أصدّق أنّني أطوفُ بالمكان الّذي طافَ به حبيبُنا؟ هل حقًّا كانَ يريح ظهره هناك». وتُشير إلى الرّكن اليمانيّ، وتتابع وهي منفعلة كطفلٍ يرى شيئًا غريبًا وغامضًا وساحرًا دفعةً واحدة: «هل حَقًّا قبّل ذلك الحجر يا مشهور؟ أريدُ أنْ أشمّ أنفاسَه هناك يا بُنيّ. تعال... تعال، خذني إليه». وتمضي وقد نشطتْ من هرمها كأنّها فتاةٌ جموحٌ في الرّابعة عشرة، لقد حلّ الشّوق والفرحة رُكَبَها. كانتْ أمّي حُلُمًا، حُلُمًا جميلاً غير مُستعاد، لا زلتُ أتذكّر حرّ دموعها يومَ

ودّعتْني قبلَ أكثرَ من خمسينَ عامًا وأنا ذاهبٌ إلى العسكريّة في صباح ذلك اليوم المشهود، كانت تبكي، كانتْ أمّي تبكي لأقلّ سبب، كانت شجرتنا الوارفة، وحُبّنا الحاني، وحينَ رحلتْ تبدّل كلّ شيء، لم تعد السّماء هي السّماء، ولا الصّحراء هي الصّحراء، ولا البيوت هي البيوت، كانتْ شمسُ الأصيلُ ترسل شعاعها هادِئًا رخيمًا على عتبة البيت الخشبيّة، وعلى الدّكّة العتيقة الّتي كانتْ تجلسُ عليها، وصمتَتْ طيور (الحسا) فلم تُغنّ في يومِ رحيلِها أبدًا!

«يا (يُسرى) في القلب ألفُ وجع، كيفَ يُمكن له أنْ يرتاح؟!». «لم يكنْ بإمكانكَ أنْ تفعلَ أكثرَ مِمّا فعلتَ. نحن منذورون لقدر الله». «لكنّ قدَر الله ما حلّ إلاّ عندما فسدتِ النّوايا». «إنّ ربّكَ فَعّالٌ لِما يُريد». كانت النّخلات الأربع في الحديقة حزينة، كانتْ شجرة الزّيتون العتيقة تبكي، كانت شجرة الصّبّار قد فقدتْ صبرَها، وانكفأتْ على نفسها تنوح، كانتْ عمّان كلّها بائسة. شوارعها كئيبة كأنَّ موتًا قد رمى غشاءَه عليها فهمدتْ، النّاس فقدت الرّغبة في أيّ شيءٍ، أولئك الّذين قاتلوا في الكرامة عن بسالة كانوا ينظرون إلى وجوههم في المرآة غيرَ مُصدّقين. لم يكنْ هناك من شيءٍ ليفعلوه، كان كلّ شيءٍ صامتًا، لكنّ المأساة كانت تتكلّم بألفِ لسان!

كانتْ جُثّة الوطن ترقدُ في الكفن، انتزعوا من قبلُ الأوسمة من صدرها، وأغمدوا الخنجر عميقًا في قلبِها. كان أبناؤها العاقّون حولَها يرقصون، ويتقاسمون ميراثَها، كانوا سُودَ الوجوه، يهزؤون بالموت الّذي حَلّ بها ويحلبون ضُروعَها، لكنّ ضروعَها يا سادة جفّتْ من أوّل رصاصةٍ وجّهها الأخُ إلى صدر أخيه!!

كانت الحرب غولاً، الإنسانُ ضحيّتها، هل تشبعُ الغول؟ كانتْ من حديد، والإنسان من لحم، ماذا يفعل اللّحم أمام الحديد؟ كانتْ هذه أسوأ حروبنا، أسوأ أفعالِنا، أسوأ أفكارِنا، لن تنشبَ الحربَ وحدَها، ليست انفِجارًا، ولا هُلامًا، ولا نيزكًا تُسيّره حركة جاذبة أو طاردة فترمي به على كوكبنا، نحنُ صنعناها، هذه السوأة الّتي لن تزول؛ نحن ارتكبْناها. هذه القذارة ستظلّ عالقةً بتاريخنا، وبأجيالنا. كيفَ يُمكن أنْ تنسى الأجيال أنّنا فعلْناها؟ ماذا ستقول حينَ نولّي نحن وجهنا نحو الرّدم الأخير، نحو الحفرة المحتومة؛ كيفَ نُفسّر لهم هذا؟ كيفَ نُقنعهم بأنّنا لم نكنْ وحوشًا، ولا كائنات مرعبة موهومة مجنونة؟ إنّنا نهوي يا يُسرى، نهوي إلى قاعٍ عميقٍ، عميقٍ جدًّا، ولن ينتشلنا أحدٌ!!

متى أستطيع أنْ أنظّف هذا الوعاء من الأقذار الّتي رموها فيه؟ قلبي لم يعدْ يحتمل يا يُسرى، لقد حاولتُ أنْ أبتعد، ولكنّ قلبي لم يُطاوِعْني، حاولتُ أنْ أنأى بنفسي عن كلّ هذا، ولكنّ هذه المضغة الصّغيرة يسار صدري أبتْ، أبتْ إلاّ أنْ تذبحني، إلاّ أنْ تُذكّرني دائمًا بتلك المأساة. سيأخذونني إلى المستشفى، قال الطّبيب: «إنّ عضلة القلب باتت ضعيفة». لم يكنْ يدري أنّهم فعلوا ذلك، عمليّة القلب المفتوح ستتمّ هذا المساء، أريدُكِ أنْ تكوني بجانبي، أريدُ أنْ أرى وجهك النّبويّ لأظلّ قادِرًا على الحياة، أنتِ الّتي لوّنت لي هذه الحياة القاتمة، لولا روحُكِ الطّيّبة الّتي ملأتْ عليّ وِجداني لكنتُ ميتًا بالمعنى الحقيقيّ منذُ زمن. القلب ليس له حياةٌ بعيدًا عنك، إنّني أعيشُ بِكِ، ولكِ. هل ينتهي هذا الجحيم يا يُسرى؟ أرجوكِ لا تتركيني وحيدًا!

كان بودّي أنْ أتنكّر لكلّ شيءٍ، أنْ أبصقَ في وجه كلّ هذا العفن، أنْ أدوسَ على جرحي وأمضي، ولكنّ الجراح كلّما دُسْتُ عليها نبتتْ براعمَ قانِيَة من تحت أقدامي مرّة أخرى، لن أستطيع الصّمود أكثر بدونك، كلّ شيءٍ فِيّ يرتعش، يرتجف، تُصيبني الرّجفة في قلبي، وعينَيّ، وروحي، وأطرافي، أنا مهزوز، مُنكسِر، مُتشظٍّ يا يُسرى، مَنْ يُعيدُ إلى شتيتي جميعَه سِواكِ يا يُسرى. هل نذهب إلى الجنوب، ونرتاح من كلّ شيءٍ، هل نجلسُ هناك إلى البحر ونُخبره بكلّ شيءٍ، فنتخفّف من أوجاعنا؟ أمْ هل نُغادر هذا الوطن إلى وطنٍ آخَر، ماذا لوكان العراق؟ ماذا لو كان ليبيا؟ ماذا لو كان أمريكا؟ هل أمريكا هي الوطن الّذي لا يُظلَم جارُه؟ هل هي البرء من أوجاعنا، والشّفاء من أسقامنا؟ وهل الوطنُ إلاّ ما يعيشُ فينا، لا ما نعيشُ فيه؟!

يا يُسرى إنّني أهذي، لا تُصدّقي كلّ ما أقول، إنّني أتداعَى، ولكنّني لستُ كذلك على الدّوام، أنا مشهور، مشهور الجازي، القائد الّذي عَلَّم العرب معنى الكرامة، القائد الّذي رفضَ أنْ يُعطي الدنيّة يومَ ارتضاها القادة الآخرون كُلّهم! أنا مشهور، هل ستتذكّر الأجيالُ هذا الاسم؟ هل سيعني لهم شيئًا؟ ذلك البدويّ البسيط الّذي خرج من صحراء الرّشاديّة في الجنوب متّشحًا بالحلم المُستحيل هل سيقرؤون عنه في كتبهم المدرسيّة، في كتب التّاريخ؟ هل سيقوم نابهةٌ في العربيّة فيكتبَ مقالةً عنه في كتاب الأدب في اللّغة العربيّة؟ أمْ أنّ كلّ ذلك سيُنسَى، وستطويه الأيّام، وسيصبح مجرّد ذكرى، ذكرى تبهتُ مع الزّمن رويدًا حتّى لا يعودَ لها وجود؟!

ما يهمّني ألاّ تستبدل الشّعوب بالمستعمر المُستبدّين، إنّ أوطاننا

تستحقّ خيرًا من هذا، تستحقّ أنْ يكون فيها عدالةٌ وحرّيّة ومُساواة، لا أنْ يُقاتِل جنودُها ليطردوا المحتلّ من بلادهم، أو يُدافِعوا عن حِياض أوطانهم ليكتشفوا في النّهاية أنّهم يُدافعون عن طغاةٍ لا عن أوطان، ويطردون وهمًا لا محتلاً، إنّ الطّغاة الّذين ركّعوا شُعوبهم رَكَعُوا تحت أقدامِ سادتهم يستجدون أنْ يُبقوا على كراسيهم.

إنّهم يُقسّمون الوطن الكبير إلى قِطَعٍ صغيرة؟ هل عاد عصر الطّوائف؟ هل الوطن كعكعة؟ مَنْ يتقاتل على الفُتات فيه سِوانا؟ لقد قسّموا المُقسَّمَ منه؟ هل قطّعوا أوصال الوطن إلى جِهات؟ ها نحن نتقاتل على شرقٍ وغربٍ وشَمالٍ وجنوب؟ ماذا يتبقّى من الوطن إنْ ولغتْ فيه أنيابُ الذّئاب؟ ماذا يتبقّى لنا من حلم إنْ طعنتْه آلافُ الحِراب؟!

خُذوا إرثي، تقاسَموه بينكم، لم أعدْ أريدُ منه شيئًا. لم أعدْ آسَى على شيءٍ، خذوا قلبي، آخر ما تبقّى فيه من نبضٍ، وزّعوه بينكم، تناهَبوه كما تريدون، إنّ قلبي لم يعدْ هو الآخر لي!!

إنّني أسمعُ صوتَ المدافع من جديد، كان يُمكن أنْ يكون هذا الصّوت أحلى من النّغم عندي لولا أنّ فوهاته كانتْ تقتلنا باسمِنا، هل تنكّرَتْ لنا أصواتُنا؟! كانوا يجمعون الضّحايا في الطّرقات ويسحقونهم بالمجنزرات، كان الويل يصرخ، والموت يصرخ، والحُزن يصرخ، والهول يصرخ، وكان الذّبح مُستمرًا ولا أحدَ يسمع!

ضحايانا أكثر من أحيائنا، حِرابنا أكبر من خُبزنا، وموتنا أبشع من حياتنا، كان لبنان يُذبَح، ومصر تُسلّم عنقها لليهود، والعراق يتهارش مع جيرانه، واليمن مُوغِلٌ في حروبه الأهليّة وانقِساماته، والسودان

مُثقلٌ بجفافه، والصّراع على الصّحراء يقتل الملايين، والصّحراء ذاتُها لا تعترف بهم!! أيّ مستنقعٍ قد غرقنا فيه؟!

إنّنا نذهبُ إلى الصّحراء بكلّ آليّاتنا العسكريّة، نُقاتل الهواء، ونتقاتل على الماء ولا ماء، ولا شيءَ سوى دمائنا الّتي لم تُشبعْ نَهَمنا إلى السّلطة الزّائفة؟ وعادَ العرب قبائل تأكل قبائل، وعناكبَ تقتل عناكب!!

وها هي مدريد، ليستْ حُلُمَ الغافقيّ القديم، ولا شوقَ الأندلسيّ الحميم، بل توقيعنا على موتنا، وفرقتنا، وتسليم رِقابنا إلى صهاينة القرن الجديد، لم تعدْ إسرائيل مُضطرّة إلى أنْ تقتلنا لتملكنا وتملك خيراتِنا، صرنا نسوقُ أنفسِنا خرافًا ذليلةً إلى مسلخها، ونهتفُ باسمِها!

كانتْ أشدّ طعنةٍ تلقّيتُها بعدَ طعنة أيلول الأسود، هي طعنة وادي عَربة، الوادي الّذي قاتلْنا فيه يومَ الكرامة بشرفٍ، ومرّغنا أنوف الصّهاينة في ترابه وحجارته، نعودُ إليه اليوم من أجل أنْ نثغو شياهًا هزيلة يستسمنها الجزّار ليذبحها. إنّ الأرضَ تلعننا يا يُسرى، والتّاريخ يلعننا، والأجيال ستلعننا، فواخَجْلتاه، وواحَسْرتاه!!

* * *

(45)

أما آنَ لهذا الفارس أنْ يترجّل؟!

لماذا عليّ أنْ أتذكّر كلّ هذا؟ ماذا يُفيدُ أنْ أقول لكم كلّ هذا؟ لقد انتهى كلّ شيءٍ. لم يعدْ هناك فرسانٌ ولا خيولٌ. لم يعدْ هناك سيوفٌ ولا صهيل. خيولُنا ذُبِحتْ، وسُيوفنا ثُلِمتْ، ورِقابنا وُضِعتْ تحت مُدية الجزّار. هل من أمل؟ هل يُمكن أنْ تَنبتَ الوردة من شقّ صخرة؟ هل يُمكن أنْ ينتصر الحبّ على الحرب؟ هل يُمكن أنْ ينهزم الخوفُ أمام هذا التّحديق الطّويل؟ كلّ شيءٍ صقيعٌ هنا، في القلب، في الرّوح، في العقل، في الوِجدان، في التّاريخ، في الأثَر، حتّى في هذه الصّحراء الّتي ولدَتْني، كلّ شيءٍ صقيع!

اختفتْ أشياء كثيرة؛ لم نعدْ نقول العدوّ الصّهيونيّ، ولا فلسطين المحتلّة، ولا تاريخنا، صاروا يقولون: الدّولة الشّقيقة، وإسرائيل، وتاريخهم... لكنْ توقّفوا قليلاً، لم يمتْ كلّ شيءٍ، لم يرحل كلّ الشّهود، لم يمتْ كلّ المحاربين؛ أنا هنا، ما زلتُ واقِفًا على حدّ السّيف أقول للتّاريخ كلمتي، وأنقل للأجيال هذه الرّوح النّضاليّة؛ إيّاكم أنْ تعترفوا بقاتلي أبنائكم، إيّاكم أنْ تجلسوا مع باقِرِ بُطونِ نِسائكم، إيّاكم أنْ تنخدعوا بربطة العنق الّتي يلبسها، وباقة الأزهار الّتي يضعها أمامكم، والابتسامة الّتي يُقابلكم بها، فإنّ وراء كلّ ذلك كوارثَ لا يعرفها إلاّ مَنْ عاينَ الحرب وعاناها، أنا أقول لكم؛ وراء ربطة العنق حبل مشنقةٍ

لأطفالكم، ووراء باقة الأزهار أفعى ستنهش لحوم ضحاياكم، ووراء تلك الابتسامة أنيابٌ ستنشبُ في لحوم صغاركم!

لقد تركْنا أمّتنا تُؤكل على موائد اللّئام يومَ تركْنا فلسطين تُقاتل وحدها، وسيقتطعون في كلّ حربٍ يوقدونها جزءًا جديدًا من أمّتنا، لا لقوّة فيهم وجَبَروت، بل لأنّنا لسنا أمّة واحدة، وسنترك كلّ جزءٍ يُقاتل وحده، ويُنهَب وحده، ويُذبَح وحده، ويستغيثُ وحده، ويسقط وحده... وستستمرّ هذه السّلسلة، تُؤكل الأوطان، وتُسحَق الشّعوب، ولن يبقى فيها إلاّ زعماء رخيصون يجلسون على كرسيٍّ من ذهب فوقَ تلّة من خراب.

لكنّها الحرب، والحرب لا تنتهي بين الحقّ والباطل، بين الظّلم والعدل، بين الظّلام والضّياء. لقد طلب اليهود منّي في عام 2001م، في عامي الأخير هذا أنْ أساعدهم في العثور على رُفات جُنديّ مفقودٍ منذ معركة الكرامة عام 1968م، إنّهم يريدون عِظامه، قالوا: «لقد قاتل بشجاعةٍ مثل كلّ جنديّ إسرائيليّ شريف». إنّهم يُقدّسون موتاهم، وقتلاهم، وقاتليهم، ونحن؟ نحاربُ فرساننا، ونُعادِي أبطالَنا، ونلعن شهداءَنا. الملاعين يعرفون اسمَه ورقمه العسكريّ ورقمَ دبّابته والسّاعة الّتي فُقِدَ فيها. رفضتُ، كيفَ طلبوا منّي ذلك؟ كيفَ تجرّؤوا أنْ يفعلوا ذلك؟ هل أخبرهم أحدُ الخَوَنة أنّني حرفتُ البوصلة، وتنكّبتُ الدّرب؟ لا والله؛ إنّني ما زلتُ على العهد. صرختُ في وجه الّذي طلبَ منّي ذلك: «إنّني جنديّ محُاربٌ، وفارسٌ عنيد، ولستُ حفّار قبور، ولا نبّاشَ جُثث، وها أنا أقول لكم وأنا في السّبعين من عمري إنّ الحرب معكم لم تنتهِ. إنْ لم أكملْها أنا وأقوم بطردكم من ديارنا، فسيُكملها

الجيل الّذي سيأتي بعدي. لن تستطيعوا أنْ تشتروا هذا الجيل، قد تشترون ملوكَنا وزعماءَنا، ولكنّكم لن تشتروا أطفالَنا؟ أتعرفون لماذا؟ لأنّ أطفالَنا خرجوا من رَحِمَ تُرابِنا، والابنُ لا يعقّ أمّه الّتي أنجبتْه، أمّا زعماؤنا فقد خرجوا من رَحِمكم، والابن لا يعقّ أمّه الّتي أنجبتْه كذلك».

لقد أرادوا للّذين قاتلوا بصِدق في الكرامة أنْ يموتوا، أنْ يُنسَوا من الأرض، ولكنّهم لن يقدروا على ذلك، فالتّاريخ ليسَ بِضاعةً يشتريها مَنْ يملك مالاً أكثر، إنّه روح، إنّه حَرَكة، إنّه يُكتَبُ بدماء التّضحيات. لن ينسى التّاريخ أولئك الّذين صنعوا الكرامة في الكرامة، وصرخوا والدّم يفور من أوداجهم: «لن يمرّوا».

وقلتُ: «يا يُسرى إنّني قد تعبتُ من كلّ هذا، أما آنَ للجوادِ أنْ يستريح؟». «بلى يا مشهور، وآنَ للفارِس أنْ يترجّل. أنا الّتي أطلبُ منكَ ذلك. لقد قاتلتَ كما لم يُقاتِلْ أحدٌ، وصمدتَ كما لم يصمدْ أحدٌ، وسيفُكَ لم يعدْ إلى غِمْده إلى اليوم، ولكنّ قِطار العمر يمضي يا مشهور، وعَجَلةُ الزّمن لا تتوقّف، نحن كبرنا، الأولاد كبروا، وتزوّجوا، لن نأخذَ أعمارَنا وأعمارَ غيرِنا، تعالَ لنتخفّف من أوجاعِنا، تعال لننظر في قلوبنا، نمسح على ما انجرح منها، تعالَ لنقول كلّ الكلمات الّتي كان يجب أنْ يقولها أحدُنا للآخر، ولكنّ الحربَ منعتْنا من ذلك، الحرب يا مشهور قتلتْ أشياء كثيرة في أعماقنا أو أجّلتْها. دُخانُها خنَقَ بلابل كثيرة كان يُمكن أنْ تغنّي بألفِ لحنٍ ولحن، تعالَ نستمع إلى هذا الغِناء ولو قليلاً... قليلاً يا مشهور». «لا أريدُ أنْ أهرمَ يا يُسرى، أريدُ أنْ أظلّ ذلك الفتى العربيّ الأبيّ الّذي قاتل بشجاعةٍ في الكرامة، أريدُ أنْ أبقى يا

يُسرى، لا أريدُ أنْ أموت». «كلُّنا سنموتُ يا مشهور». «أفكّر في أنْ أكتبَ كلّ هذا؟ أُفكّر في ما لا يموت». «ولِمَنْ ستكتُبه؟ مَنْ يملك أُذُنَين لِيُصغي، ومَنْ يملك قلبًا ليقرأ؟». «أكتبه للّذين سيأتون من بعدي، سيكون فيهم مَنْ يقرأ يا يُسرى». «اكتبْ إذًا يا مشهور، فإنّ الكتابةَ حياةُ كاتبها، وهي انبِعاثٌ من الموت كلّما قَدُمَ الزّمن». «لكنّني قضيتُ حياتي في الحرب، لم تكنْ حربًا واحدة، كانتْ حروبًا مُتشعّبة، والّذين يكتبون عن الحروب عليهم أنْ يكتبوا بالدّم لا بالحبر». «الدّم لا يكذب يا مشهور. اكتبْ». «أريدُ أنْ أذهبَ إلى الرّشاديّة، صوتٌ ما يناديني من هناك».

واقفٌ هنا منذ ستّين عامًا لأعود لنفسي... أطرق الأبواب الّتي غابَ سُكّانها، وأمشي في الدّروب الّتي رحل أهلُها، وأسأل الوجوه الّتي تبدّلتْ، وأنتظر الإجابات الّتي ماتت. وأُصغي لعلّني أسمع صهيل الشّقراء يقدم من فَجٍّ عميق، وما الخيل إلاّ صوتُها؟ فهل يعودُ إليّ ذلك الصّوت الحبيب الّذي غرق في بحر الماضي. واقفٌ أنتظرني... أي بؤس أشدّ من أن ينتظر المرء نفسه التي أنكرها بعد طول ضياع...؟! هنا كان جدّي، هنا كان أبي، هنا كانتْ أمّي.. لماذا لم تبقَوا زمنًا أطول، لماذا تركتُم العاشق اليتيم وحيدًا؟!

واقف هنا في مضاربنا التي لم تعرف الذل ولا الانكسار لأعود إليّ... أفتّش عَنّي فِيّ، عن الفتى الذي غادر هذه البيوت صغيرًا وحالمًا وعاد إليها شيخًا تنهشه الأحزان؛ ترى هل ظلّ ذلك الفتى على العهد؟ هل يعود إليه وجهه البدويّ، وعيناه الحالمتان، وخيالاته المُجنّحة، أم غاب في مُنعرجات الحياة المُظلِمة ولن يعود أبدًا؟!

كانتْ تلك ليلتَه الأخيرة، في الحلم رأى جدّه، كان يبتسم على عادته كلّما رآه، ويقول له: «العطش سيقتلك... تعال لديّ الماء...». ومن خلفِه رأى خاله (نائل) كانَ يبتسم هو الآخَر، ويضع ذراعه على كتف أبيه، وعيناه تضحكان، كانتْ نجوم الرّشاديّة في ذلك اللّيل البهيم مُضيئة، كلّما أغرقَ اللّيلُ في اسوِداده اشتدّ ضياؤها، لم تكنْ لتنهزم أمام اللّيل مهما طال واستطال.

في الصّباح، كان قد رحل، رحل بكلّ تاريخه العتيق، لقد ترجّل الفارس أخيرًا، لكنّ فرسَه الّتي بكتْه، ظلّتْ وفيّة له، ولإرثه ولتاريخه الّذي لن يُنسَى.

قال في وصيّته: «ضَعوا معي في القبر الرّصاصات الثّلاث؛ رصاصة عبد الرّحيم، ورصاصة نائل، ورصاصة عبد القادر الحُسيني... وضعوا معها الوثيقة الّتي رفضَ بها جدّي وعد بلفور... أريدُ أنْ ألقَى الله بذلك».

كانت الرّصاصات الثّلاث تحتفظُ بالأسماء المنقوشة عليها تمامًا كما هي، إلاّ أنّ حرف الميم المُغلَق في كلمة مشهور كان قد انفتحَ قليلاً!!

انتهت

أيمن العتوم

عمّان

2019/7/23

الفهرس

***

A Y M A N A L - O T O O M

t.me/t_pdf

يوم مشهود

واقفٌ هنا منذ ستّين عامًا لأعود لنفسي... أطرق الأبواب الّتي غابَ سُكّانها، وأمشي في الدّروب الّتي رحل أهلُها، وأسأل الوجوه الّتي تبدّلتْ، وأنتظر الإجابات الّتي ماتت، وأُصغي لعلّني أسمع صهيل الشّقراء يقدم من فَجٍّ عميق، وما الخيل إلاّ صوتُها؟ فهل يعودُ إليّ ذلك الصّوت الحبيب الّذي غرق في بحر الماضي. واقفٌ أنتظرني... أي بؤس أشدَّ من أن ينتظر المرء نفسه التي أنكرها بعد طول ضياع...؟! هنا كان جدّي، هنا كان أبي، هنا كانتْ أمّي.. لماذا لم تبقَوا زمنًا أطول، لماذا تركتُم العاشق اليتيم وحيدًا؟!





















usamadesign@gmail.com





9 789777 641449

القاهرة - أمام مسجد عليش - خلف جامع الأزهر
هاتف : 01008584820 (002) - 01111322668 (002)
البريد الإلكتروني: elmarefa@hotmail.com